صحيفة

٤ الفصل الاول فى موضوع علم البيان
٤ الفصل الثانى فى آلات علم البيان وأدواته
٢ الفصل الثالث فى الحكم على المعانى
٢٦ الفصل الرابع فى الترجيح بين المعانى
٣١ الفصل الخامس فى جوامع الكلم
٣٣ الفصل السادس فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن
٣٦ الفصل السابع فى الحقيقة والمجاز
٤٠ الفصل الثامن فى الفصاحة والبلاغة
٤٤ الفصل التاسع فى أركان الكتابة
٤٦ الفصل العاشر فى الطريق الى تعلم الكتابة
٨٦ (المقالة الاولى فى الصناعة اللفظية)
٨٦ القسم الاول فى اللفظة المفردة
١١٤ القسم الثانى فى الالفاظ المركبة
١١٤ النوع الاول المسجع
١٥٣ النوع الثانى فى التجنيس
١٦١ النوع الثالث فى الترصيع
١٦٣ النوع الرابع فى لزوم مالا يلزم
١٦٩ النوع الخامس فى الموازنة
١٧ النوع السادس فى اختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها
١٧٧ النوع السابع فى المعاظلة اللفظية
١٨٣ النوع الثامن فى المنافرة بين الالفاظ فى السبك
١٨٦ (المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية
٢١٤ النوع الاول فى الاستعارة
٢٣٢ النوع الثانى فى التشبيه
٢٥٠ النوع الثالث فى التجريد

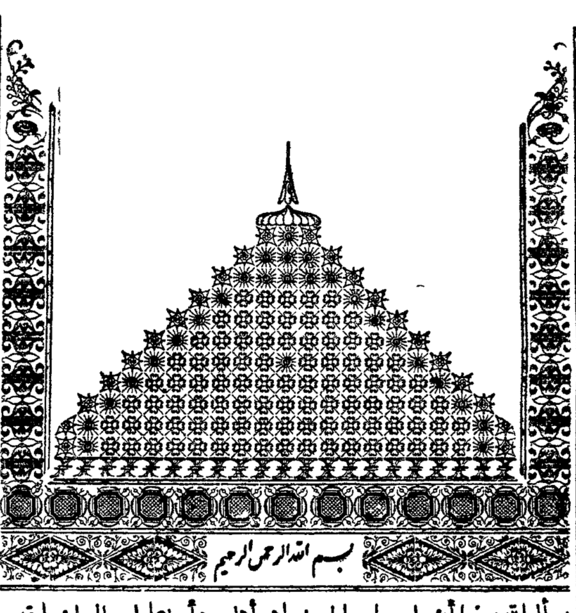
صحيفة

٢٥٤ النوع الرابع فى الالتفات
٢٦٣ النوع الخامس فى توكيد الضميرين
٢٦٧ النوع السادس فى عطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده
٢٦٨ النوع السابع فى التفسير بعد الابهام
٢٧٢ النوع الثامن فى استعمال العامّ فى النفى والخاص فى الاثبات
٢٧٥ النوع التاسع فى التقديم والتأخير
٢٨٣ النوع العاشر فى الحروف العاطفة والجارّة
٢٨٦ النوع الحادى عشر فى الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما
٢٩٠ النوع الثانى عشر فى قوة اللفظ لقوّة المعنى
٢٩٣ النوع الثالث عشر فى عكس الظاهر
٢٩٤ النوع الرابع عشر فى الاستدراج
٢٩٧ النوع الخامس عشر فى الايجاز
٣٣١ النوع السادس عشر فى الاطناب
٣٥٤ النوع السابع عشر فى التكرير
٣٧٢ النوع الثامن عشر فى الاعتراض
٣٧٦ النوع التاسع عشر فى الكناية والتعريض
٣٩٢ النوع العشرون فى المغالطات المعنوية
٣٩٧ النوع الحادى والعشرون فى الاحاجى
٤٠٣ النوع الثانى والعشرون فى المبادى والافتتاحات
٤١٧ النوع الثالث والعشرون فى التخلص والاقتضاب
٤٢٩ النوع الرابع والعشرون فى التناسب بين المعانى
٤٤٧ النوع الخامس والعشرون فى الاقتصاد والتفريط والافراط
٤٥٥ النوع السادس والعشرون فى الاشتقاق
٤٥٧ النوع السابع والعشرون فى التضمين
٤٦٠ النوع الثامن والعشرون فى الارصاد

صحيفة

٤٦٥ النوع التاسع والعشرون فى التوشيح
٤٦٦ النوع الثلاثون فى السرقات الشعرية

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر للشيخ
الامام والعلامة الهمام ضياء الدين
أبي الفتح نصر الله بن محمد بن
محمد بن عبد الكريم
الموصلي الشافعي
رحمه الله
آمين



نسأل الله ربنا أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله وأن يعلمنا من البيان ما يقصر عنه مزية الفضل وأصله وحكمة الخطاب وفصله ونرغب إليه أن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذي هو أفصح من نطق بالضاد ونسخت شريعته كل هاد وعلى آله وصحبه الذين منهم من سبق وبدر ومنهم من صابر وصبر ومنهم من آوى ونصر (وبعد) فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للاحكام وأدلة الاحكام وقد ألف الناس فيه كتبا وجاؤا ذهبا وحطبا وما من تأليف الا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به في ذلك الا كتاب الموازنة لابي القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا وكتاب سر الفصاحة وإن نبه فيه على نكت منيرة فانه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الاصوات والحروف والكلام عليها ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة الى أكثره ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها وسيرد بيان ذلك كله في مواضع من هذا

الكتاب

الكتاب إن شاء الله تعالى على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ولو عادا كراى بعض المواضع قشورا وتركا لبابا وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ولم أجد أحدا ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره وقد أوردتها ههنا وشفعتها بضروب أخر مدونة فى الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت إليها ما أضفته وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى متبعة وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب (وقد بنيته) على مقدمة ومقالتين (فالمقدمة) تشتمل على أصول علم البيان (والمقالتان) تشتملان على فروعه فالأولى فى الصناعة اللفظية والثانية فى الصناعة المعنوية ولا أدعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان ولا السلامة من سبق اللسان فإن الفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن هو بابنه وشعره مفتون وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتاب بديع فى إغرابه وليس له صاحب فى الكتب فيقال إنه من أخدانه أو من أترابه فهو فرد بين أصحابه ومع هذا فإنى أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه وحمت حول حماه ولم أقع فيه إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التى بها تنتظم العقود وترصع وتسحر العقول فتخدع وذلك شىء تحيل عليه الخواطر لا تنطق به الدفاتر (واعلم) أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول إمكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك واستنبط بإدمانك ما أخطاك وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلبا فإن حمل النصال غير مباشرة القتال

وإنما يبلغ الإنسان غايته * ما كل ماشية بالرحل شملال

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول أما مقدمة الكتاب فإنها تشتمل على عشرة فصول

(الفصـــــل الأول) في موضوع علم البيان. موضوع كل علم هو الشيء الذي
يسأل فيه عن أحواله التي تعرض لذاته فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين
والفقيه يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الفرض والنفل والحلال والحرام
والندب والمباح وغير ذلك وموضوع الطب هو بدن الانسان والطبيب يسأل
عن أحواله التي تعرض له من صحته وسقمه وموضوع الحساب هو الاعداد
والحاسب يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة
وغير ذلك وموضوع النحو هو الالفاظ والمعاني والنحوي يسأل عن أحوالهما
في الدلالة من جهة الاوضاع اللغوية وكذلك يجري الحكم في كل علم من العلوم
وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ولم يختلط بغيره وعلى هذا فموضوع علم البيان
هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو
والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة الوضع
اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي
دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء
النحو والاعراب ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم
مواقع اعرابه ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن ههنا
غلط مفسرو الاشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية
وتبيين مواضع الاعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة

(الفصـــــل الثاني) في آلات علم البيان وأدواته اعلم أن صناعة تأليف
الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة وقد قيل ينبغي للكاتب أن
يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقول فلان
النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة
فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن وملاك هذا
كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغني تلك الآلات شيأ ومثال ذلك
كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها ألا ترى أنه اذا لم يكن
في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيأ وكثيرا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع
في تعلم العلوم حتى ان بعض الناس يكون له نفاذ في تعلم علم مشكل المسلك صعب
المأخذ فاذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه ولم يكن له فيه

فيهما وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء
أو في الهجاء دون المديح أو يجيد في المراثي دون التهاني أو في التهاني دون
المراثي وكذلك صاحب الطبع في المنثور هذا ابن الحريري صاحب المقامات قد
كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحدًا في فنه فلما حضر بغداد ووقف
على مقاماته قيل هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ويحسن أثره فيه
فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة فقال فيه بعضهم

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان وقد * ألجمه في بغداد بالخرس

وهذا مما يعجب منه وسئلت عن ذلك فقلت لا عجب لأن المقامات مدارها
جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له لأن
المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام وهي متجددة على عدد الأنفاس
ألا ترى أنه إذا خطب الكاتب المفلق عن دولة من الدول الواسعة التي يكون
لسلطانها سيف مشهور وسعي مذكور ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ
عشر سنين فإنه يدون عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء كل جزء منها
أكبر من مقامات الحريري حجمًا لأنه إذا كتب في كل يوم كتابًا واحدًا
اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار إليها وإذا نخلت وغربلت واختير
الأجود منها إذ تكون كلها جيدة فيخلص منها النصف وهو خمسة أجزاء والله يعلم
ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب وما حصل في ضمنها من المعاني المبتدعة
على أن الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رقاعًا في مواضع عدة فجاء بها منحطة
عن كلامه في حكاية المقامات لا بل جاء بالغث البارد الذي لا نسبة له إلى باقي كلامه
فيها وله أيضًا كتابة أشياء خارجة عن المقامات وإذا وقف عليها أقسم أن قائل
هذه ليس قائل هذه لما بينهما من التفاوت البعيد وبلغني عن الشيخ أبي محمد أحمد
ابن الخشاب النحوي رحمه الله أنه كان يقول ابن الحريري رجل مقامات أي
أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها وإن أتى بغيرها لا يقول شيئًا فانظر أيها
المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ومن أجل
ذلك قيل شيئان لا نهاية لهما البيان والجمال * وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى
في الإنسان طبعًا قابلًا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات

(النوع الاول) معرفة علم العربية من النحو والتصريف (النوع الثانى) معرفة ما يحتاج اليه من اللغة وهو المتداول المالوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ولا المستكره المعيب (النوع الثالث) معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام فان ذلك جرى مجرى الامثال أيضا (النوع الرابع) الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظوم منه والمنثور والتحفظ للكثير منه (النوع الخامس) معرفة الاحكام السلطانية الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك (النوع السادس) حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وادراجه فى مطاوى كلامه (النوع السابع) حفظ ما يحتاج اليه من الاخبار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم والسلوك بها مسلك القرآن الكريم فى الاستعمال (النوع الثامن) وهو مختص بالناظم دون الناثر وذلك علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر * ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الانواع ليعلم أن معرفته مما تمس الحاجة اليه فنقول أما علم النحو فانه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعليم الخط وهو أول ما ينبغى اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن معرة اللحن ومع هذا فانه وان احتيج اليه فى بعض الكلام دون بعض لضرورة الافهام فان الواضع لم يخص منه شيأ بالوضع بل جعل الوضع عاما والافهام نظرا الى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج اليه فى افهام المعانى ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له قوم باثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهمه ذلك شئ وكذلك الشرط لو قلت ان تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوما والفضلات كلها تجرى هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء فاذا قلت جاء زيد راكب وما فى السماء قدر راحة سحاب وقام القوم الا زيد ولزمت السكون فى ذلك كله ولم تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد وهكذا يقال فى المجرورات وفى المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفى المبتدا والخبر وغير ذلك من أقسام أخر لا حاجة الى ذكرها لكن قد خرج عن هذه الامثلة ما لا يفهم الا بقيود تقيده وانما يقع ذلك فى الذى تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة ولنضرب لذلك مثالا يوضحه فنقول اعلم أن من أقسام الفاعل

والمفعول مما لا يفهم إلا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل فإنه إذا لم يكن ثمّ علامة تبين أحدهما من الآخر وإلا أشكل الأمر كقولك ضرب زيد عمرو ويكون زيد هو المضروب فإنك إذا لم تنصب زيدا أو ترفع عمرا وإلا لا يفهم ما أردت وعلى هذا ورد قوله تعالى إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ وكذلك لو قال قائل ما أحسن زيد ولم يبين الإعراب في ذلك لما علمنا غرضه منه إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفي الإحسان عنه ولو بين الإعراب في ذلك فقال ما أحسن زيدا وما أحسن زيد وما أحسن زيد علمنا غرضه وفهمنا مغزى كلامه لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به من الإعراب فوجب حينئذ بذلك معرفة النحو إذ كان ضابطا لمعاني الكلام حافظا لها من الاختلاف * وأول من تكلم في النحو أبو الأسود الدؤلي وسبب ذلك أنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له يا أبت ما أشد الحر متحيرة ورفعت أشد فظنها مستفهمة فقال شهر ناجر فقالت يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك فأتى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب ويوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل فقال له وما ذاك فأخبره خبر ابنته فقال هلم صحيفة ثم أملى عليه الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ثم رسم له رسوما نقلها النحويون في كتبهم وقيل إن أبا الأسود دخل على زياد ابن أبيه بالبصرة فقال إني أرى العرب قد خالطت العجم وتغيرت ألسنتها أفتأذن لي أن أضع ما يقيمون به كلامهم فقال لا فقام من عنده ودخل عليه رجل فقال أيها الأمير مات أبانا وخلف بنون فقال زياد مات أبانا وخلف بنون ردوا علي أبا الأسود فردوه فقال له ضع ما كنت نهيتك عنه فوضع شيئا ثم جاء بعده ميمون الأقرن فزاد عليه ثم جاء بعده عنبسة بن معدان المهري فزاد عليه ثم جاء بعده عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي وأبو عمرو ابن العلاء فزادا عليه ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأزدي وتتابع الناس واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك فهذا ما بلغنا من أمر النحو في أول وضعه وكذلك العلوم كلها توضع مبادئها أمرا هاشيء يسير ثم يزاد بالتدريج إلى أن تستكمل آخرا (فإن قيل) أما علم النحو فسلم إليك أنه تجب معرفته لكن التصريف لا حاجة إليه لأن التصريف إنما هو معرفة أصل

الكلمة وزيادتها أو حذفها أو إبدالها وهذا الأمر تجهله ولا تدفع معرفته ولنضرب
لذلك مثالا كيف اتفق فنقول إذا قال القائل رأيت سرداحا لا يلزمه أن يعرف
الألف في هذه الكلمة زائدة هي أم أصلية لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك
ولو قالت سردحا بغير ألف لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده فيقول
سرداحا فعلم بهذا أنه إنما ينطق بالألفاظ كما سمعت عن العرب من غير زيادة فيها ولا
نقص وليس يلزم بعد ذلك أن يعلم أصلها ولا زيادتها لأن ذلك أمر خارج تقتضيه
صناعةُ تأليف الكلام (فالجواب) عن ذلك أنا نقول اعلم أنا لم نجعل معرفة
التصريف كمعرفة النحو لأن الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفا بالمعاني مختارا
لها قادرا على الألفاظ مجيدا فيها ولم يكن عارفا بعلم النحو فإنه يفسد ما يصوغه
من الكلام ويختل عليه ما يقصده من المعاني كما أريناك في ذلك المثال المتقدم
وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معاني كلامه وإنما تفسد
عليه الأوضاع وإن كانت المعاني صحيحة وسيأتي بيان ذلك في تحرير الجواب
فنقول أما قولك إن التصريف لا حاجة إليه واستدلالك بما ذكرته من المثال
المضروب فإن ذلك لا يستمر لك الكلام فيه ألا ترى أنك مثّلت كلامك في لفظة
سرداح وقلت إنه لا يحتاج إلى معرفة الألف زائدة هي أم أصلا لأنها إنما نقلت
عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقص وهذا لا يطرد إلا فيما هذا سبيله
من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال فأما إذا أريد تصغيرها
أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يعرف الأصل في حروف الكلمة وزيادتها
وحذفها وإبدالها يضل حينئذ عن السبيل وينشأ من ذلك مجال للعائب
والطاعن ألا ترى أنه إذا قيل للنحوي وكان جاهلا بعلم التصريف كيف تصغر لفظة
اضطراب فإنه يقول ضُطيرب ولا يلام على جهله بذلك لأن الذي تقتضيه صناعة
النحو قد أتى به وذلك أن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها
حرف زائد أو لم يكن حذفتَهُ نحو قولهم في منطلق مطيلق وفي جحمرش جحيمر
ولفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون إلا أن الميم
زيدت فيها لمعنى فلذلك لم تحذف وحذفت النون وأما لفظة جحمرش فخماسية
لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا ولم يعلم النحوي أن علماء النحو إنما قالوا
ذلك مهملا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف لأنه لا يلزمهم أن يقولوا

فى كتب النحو أكثر مما قالوا وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيأ من التصريف لان كلا من النحو والتصريف علم منفرد برأسه غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ومحتاج اليه وانما قلت ان النحوى اذا سئل عن تصغير لفظة اضطراب يقول ضطيرب لانه لا يخلو اما أن يحذف من لفظة اضطراب الالف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء وهذه الحروف المذكورة غير الالف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الاولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذى ليس بزائد فلذلك قلنا ان النحوى يصغر لفظة اضطراب على ضطيرب بحذف الالف التى هى حرف زائد دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة وانما أن يعلم أن الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وانه اذا أريد تصغيرها تعاد الى الاصل الذى كانت عليه وهو التاء فيقال ضتيرب فان هذا لا يعلمه الا التصريفى وتكلف النحوى الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكلمه علم ما لا يعلمه فثبت بما ذكرناه أنه يحتاج الى علم التصريف لئلا يغلط فى مثل هذا (ومن العجب) أن يقال انه لا يحتاج الى معرفة التصريف ألم تعلم أن نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قال فى معايش معائش بالهمز ولم يعلم الاصل فى ذلك فأوخذ عليه وعيب من أجله ومن جملة من عابه أبو عثمان المازنى فقال فى كتابه فى التصريف ان نافعا لم يدر ما العربية وكثيرا ما يقع أولو العلم فى مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها واذا علم حقيقة الامر فى ذلك لم يغلط فيما يوجب قدحا ولا طعنا وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها باجماع من علماء العربية لان الياء فيها ليست مبدلة من همزة وانما الياء التى تبدل من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا تكون عينا نحو سفائن وفى هذا الموضع غلط نافع رحمة الله عليه لانه لا شك اعتقد أن معيشة بوزن فعيلة وجمع فعيلة هو على فعائل ولم ينظر الى أن الاصل فى معيشة معيشة على وزن مفعلة وذلك لان أصل هذه الكلمة من عاش التى أصلها عيش على وزن فعل ويلزم مضارع فعل المعتل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعْيِشُ ثم تنقل حركة العين الى الفاء فتصير يعيش ثم يبنى من يعيش مفعول فيقال معيوش به كما يقال مسيور به ثم يحذف ذلك بحذف الواو فيقال معيش به كما يقال مسير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير معيشة ومع هذا فلا ينبغى لصاحب هذه

قوله لان الياء ليست الخ الظاهر أن يقول لان المد فى مفرده غير زائد كما قال ابن مالك * والمد زيد ثالثا فى الواحد * همزا يرى فى مثل كالقلائد اه

الصناعة من النظم والنثر أن يهمل من علم العربية ما يخفى عليه بإهماله اللحن الخفي فإن اللحن الظاهر قد كثرت معرفته وصارت الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوي ولا شك أن قلة المبالاة بالأمر واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فيما لا يشعر أنه وقع فيه فيجهل ما يكون عالما به ألا ترى أن أبا نواس كان معدودا في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه فقال في صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها * حصباء در على أرض من الذهب

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس فإنه من ظواهر علم العربية وليس من غوامضه في شيء لأنه أمر نقلي يحمل ما قلده فيه على النقل من غير تصرف وقول أبي نواس صغرى وكبرى غير جائز فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة وههنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته وقد غلط أبو تمام في قوله

بالقائم الثامن المستخلف اطأدت * قواعد الملك ممتدا لها الطول

ألا ترى أنه قال اطأدت والصواب اتطدت لأن التاء تبدل من الواو في موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع لأنك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتعد ومثله ما ورد في هذا البيت فإنه من وطد يطد كما يقال وعد يعد فإذا بني منه افتعل قيل اتطد ولا يقال اطأد وأما غير المقيس فقولهم في وجاه تجاه وقالوا تكلان وأصله الواو لأنه من وكل يكل فأبدلت الواو تاء للاستحسان فهذه الأمثلة قد أشرت إليها ليعلم مكان الفائدة في أمثالها وتنوقي على أني لم أجد أحدا من الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك فإما أن يكون لحن لحنا يدل على جهله بمواقع الإعراب وإما أن يكون أخطأ في تصريف الكلمة ولا أعني بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا بل أعني بالشعراء من تقدم زمانه كالمتنبي ومن كان قبله كالبحتري ومن تقدمه كأبي تمام ومن سبقه كأبي نواس والمعصوم من عصمه الله تعالى على أن الخطأ في التصريف أعذر وقوعا من الخطأ في النحو لأنه قلما يقع له كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال والنقل في حروفها وأما النحو فإنه يقع الخطأ فيه كثيرا حتى إنه ليشذ في ظاهره في بعض الأحوال فكيف خافيه كقول أبي نواس في الأمين محمد رحمه الله

يا خير من كان ومن يكون * الا النبي الطاهر الميمون

فوقع في الاستثناء من الموجب وهذا من ظواهر النحو وليس من خافيه في شيء وكذلك قال أبو الطيب المتنبي

أرأيت همة ناقتي في ناقة * نقلت يدا سرحا وخفا مجمرا
تركت دخان الرمث في أوطانها * طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك * تقعان فيه وليس مسكا اذفرا

فجمع في حال التثنية لان الناقة ليس لها الا ركبتان فقال ركبات وهذا من أظهر ظواهر النحو وقد خفي على مثل المتنبي ومع هذا فيه في لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه لانه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما وانما غرضه ايراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام لانه اذا قيل جاء زيد راكب ان لم يكن حسنا الا بأن يقال جاء راكبا بالنصب لكان النحو شرطا في حسن الكلام وليس كذلك فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر اقامة اعراب كلماته وانما الغرض أمر وراء ذلك وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من الكلام المنثور وأما الادغام فلا حاجة اليه لكاتب لكن الشاعر ربما احتاج اليه لانه قد يضطر في بعض الاحوال الى ادغام حرف والى فك ادغام من أجل اقامة الميزان الشعري (النوع الثاني) وهو قولنا انه يحتاج الى معرفة اللغة مما تداول استعماله فسيرد بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة والكلام على جيدها ورديئها في المقالة المختصة بالصناعة اللفظية ويفتقر أيضا مؤلف الكلام الى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر ليجد اذا ضاق به موضع في كلامه بايراد بعض الالفاظ فيه العدول عنه الى غيره مما هو في معناه وهذه الاسماء تسمى المترادفة وهي اتحاد المسمى واختلاف أسمائه كقولنا الخمر والراح والمدام فان المسمى بهذه الاسماء شيء واحد وأسماؤه كثيرة وكذلك يحتاج الى معرفة الاسماء المشتركة ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه وهي اتحاد الاسم واختلاف المسميات كالعين فانها تطلق على العين الناظرة وعلى

ينبوع الماء وعلى المطر وغيره إلا أن المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تخصصها كي لا تكون مبهمة لأنا إذا قلنا عين ثم سكتنا وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم وإذا قرنا إليه قرينة تخصصه زال ذلك الإبهام بأن تقول عين حسناء أو عين نضاحة أو ملثة أو غير ذلك ۞ وهذا موضع للعلماء فيه مجاذبات جدلية (فمنهم) من ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقة في المعنيين جميعا ويقول إن ذلك يخل بفائدة وضع اللغة لأن اللغة إنما هي وضع الألفاظ في دلالتها على المعاني أي وضع الأسماء على المسميات لتكون منبئة عنها عند إطلاق اللفظ والاشتراك لا بيان فيه وإنما هو ضد البيان لكن طريق البيان أن يجعل أحد المعنيين في اللفظ المشترك حقيقة والآخر مجازا فإذا قلنا هذه كلمة وأطلقنا القول فهم منه اللفظة الواحدة وإذا قيدنا اللفظ فقلنا هذه كلمة شاعرة فهم منه القصيدة المقصدة من الشعر وهي مجموع كلمات كثيرة ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا البتة هذا خلاصة ما ذهب إليه من ينكر وقوع اللفظ المشترك في المعنيين حقيقة وفي ذلك ما فيه وسأبين ما يدخله من الخلل فأقول في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكري ولم يكن لأحد فيه قول من قبلي وهو أما قولك إن فائدة وضع اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ واللفظ المشترك يخل بهذه الفائدة فهذا غير مسلم بل فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين (أما البيان) فقد وفى الأسماء المتباينة التي هي كل اسم واحد دل على مسمى واحد فإذا أطلق اللفظ في هذه الأسماء كان بينا مفهوما لا يحتاج إلى قرينة ولو لم يضع الواضع من الأسماء شيئا غيرها لكان كافيا في البيان (وأما التحسين) فإن الواضع لهذه اللغة العربية التي هي أحسن اللغات نظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ورأى أن من مهمات ذلك التجنيس ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة التي هي كل اسم واحد دل على مسميين فصاعدا فوضعها من أجل ذلك وهذا الموضع يتجاذبه جانبان يترجح أحدهما على الآخر وبيانه أن التجنيس يقضي بوضع الأسماء المشتركة ووضعها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ وعلى هذا فإن وضعها الواضع ذهب بفائدة البيان وإن لم يضع ذهب بفائدة التحسين لكنه إن وضع

استدرك ما ذهب من فائدة البيان بالقرينة وان لم يضع لم يستدرك ما ذهب من فائدة التحسين فترجح جانب الوضع فوضع (فان قيل) فلم لا تنسب الأسماء المشتركة الى اختلاف القبائل لا الى واضع واحد (قلت) في الجواب هذا تعسف لا حاجة اليه وهو مدفوع من وجهين أحدهما ما قدمت القول فيه من الترجيح الذي سوّغ للواضع أن يضع الآخر أنا نرى أنه قد ورد من الجموع ما يقع على مسميين اثنين كقولهم كعاب جمع كعب الذي هو كعب الرجل وجمع كعبة وهي البنية المعروفة واذا أطلقنا اللفظ فقلنا كعاب من غير قرينة لا يدرى ما المراد بذلك أكعب الرجل أم البنية المعروفة وكذلك ورد واحد وجمع على وزن واحد كقولهم راح اسم للخمر وراح جمع راحة وهي الكف وكقولهم عقاب وهو الجراء على الذنب وجمع عقبة أيضا وفي اللغة من هذا شيء كثير وهو بالاجماع من علماء العربية أنه لم يجر فيه خلاف بين القبائل فاتضح بهذا أن الأسماء المشتركة من واضع واحد (فان قلت) ان الواضع انما وضع المفرد من الالفاظ والجمع وضعه غيره (قلت) في الجواب ان الذي وضع المفرد هو الذي وضع الجمع لان من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والمصغر والمكبر والمصادر وأسماء الفاعلين وما جرى هذا المجرى واذا أخل بشيء من ذلك كان قد أخل بقاعدة من قواعد وضع اللغة ثم لو سلمت اليك أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قد جاء الواضع الثاني ادخالا بالابهام عند اطلاق اللفظ لانه جمع كعبة التي هي البنية وكعب الرجل على كعاب وهذا لفظ مشترك مبهم عند الاطلاق ولا فرق بين أن يضعه الواضع الاول أو واضع ثان فان الابهام حاصل منه * وكان فاوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقال ان لون البقرة كان أسود والاصفر هو الاسود فأنكرت عليه هذا القول فأخذ يجادل مجادلة غير عارف ويعزو ذلك الى تفسير النقاش وتفسير البلاذري فقلت له اعلم أن هذا الاسم الذي هو الاصفر لا يخلو في دلالته على الاسود من وجهين اما أنه من الاسماء المتباينة التي يدل كل اسم منها على مسمى واحد كالانسان والاسد والفرس وغير ذلك واما أنه من الاسماء المشتركة التي يدل الاسم منها على مسميين فصاعدا ولا يجوز أن يكون من الاسماء المتباينة لانا نراه متضادا بين لونين أحدهما هذا اللون

الزعفراني الشكل والآخر اللون المظلم الشكل وعلى هذا فانه يكون من الاسماء المشتركة واذا كان من الاسماء المشتركة فلا بد له من قرينة تخصصه باللون الزعفراني دون اللون المظلم لان الله تعالى قال صفراء فاقع لونها والفاقع من صفات اللون الزعفراني خاصة لانه قد ورد للالوان صفات متعددة لكل لون منها صفة فقيل أبيض يقق وأسود حالك وأحمر قان وأصفر فاقع ولم يقل أسود فاقع ولا أصفر حالك فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسود وانما كان أصفر فلما تحقق عند ذلك الفقيه ما أشرت اليه أذعن بالتسليم (وأما النوع الثالث) فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام وقولي هذا لا يقتضي كل الامثال الواردة عنهم فان منها ما لا يحسن استعماله كما أن من ألفاظهم أيضا ما لا يحسن استعماله وكنت جردت من كتاب الامثال للميداني أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الامثال الذي يدخل في باب الاستعمال وسبيل المتصدي لهذا الفن أن يسلك ما سلكته واعلم أن الحاجة اليها شديدة وذلك أن العرب لم تضع الامثال الا لاسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لامر من الامور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشئ وليس في كلامهم أوجز منها ولا أشد اختصارا وسبب ذلك ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين (فأقول) قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور والاصل فيه كما قال المفضل بن محمد انه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر فقالت طائفة تطلع الشمس والقمر يرى وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس فتراضوا برجل جعلوه حكما فقال واحد منهم ان قومي يبغون علي فقال الحكم ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر فذهبت مثلا ومن المعلوم أن قول القائل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر اذا أخذ على حقيقته من غير نظر الى القرائن المنوطة به والاسباب التي قيل من أجلها لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم وحيث كان الامر كذلك جاز ايراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد ولولا تلك المقدمات المعلومة والاسباب المعروفة لما فهم

من قول القائل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ما ذكرناه من المعنى المقصود بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد لان البغى هو الظلم والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا فكان يصير معنى المثل ان كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر وهذا كلام مختل المعنى ليس بمستقيم فلما كانت الامثال كالرموز والاشارات التى يلوح بها على المعانى تلويحا صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا ومن أجل ذلك قيل فى حد المثل انه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه وحيث هى بهذه المثابة فلا يسعنى الاخلال بمعرفتها (وأما أيام العرب) فانها تتنوع وتتشعب فمنها أيام فخار ومنها أيام محاربة ومنها أيام منافرة ومنها غير ذلك ولا يجهلها الناظم والناثر من الاستشهاد بوصف يوم يمر به فى بعض الاحوال شبيها بيوم من تلك الايام ومماثلا له فاذا اتى بذكر بعض تلك الايام المناسبة لمراده الموافقة له وقاس عليه يومه فانه يكون فى غاية الحسن والرونق هذا لا خفاء به (وأما الوقائع) التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام فانها كالامثال فى الاستشهاد بها وسأبين لك بعضا منها حتى تعلم مقدار الفائدة بها فمن ذلك أنه ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث بيعة الحديبية تحت الشجرة وكان أرسل عثمان رضى الله تعالى عنه الى مكة فى حاجة عرضت له ولم يحضر البيعة فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشمال على اليمين وقال هذه عن عثمان وشمالى خير من يمينه وقد استعملت أنا هذا فى جملة كتاب فقلت ولا يعد البر برا حتى يلحق الغيب بالحضور ويصل من لم يصله بعراه ولا شكور فرتبة الغائب بالشاهد من كرم الاحسان ولهذا نابت شمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين عثمان ومن ذلك أنه ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه استدعى أبا موسى الاشعرى ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثى فمضى الى يرفأ مولى عمر وسأله عما يروج عنده وينفق عليه فأشار الى خشونة العيش فمضى ولبس جبة صوف وعمامة دسماء وخفا مطابقا وحضر بين يديه فى جملة العمال فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع الا عليه فأدناه وسأله عن حاله ثم أوصى أبا موسى الاشعرى به وقد استعملت أنا هذا فى جملة تقليد لبعض العمال من ديوان الخلافة فقلت واذا استعنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما رأيته من مبدإ حاله فان الاحوال تنتقل بتنقل الاجساد واياك أن تخدع

بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد فانظر كيف فعلت في هاتين القصتين وكيف أوردتهما في الغرض الذي قصدته وامض أنت على هذا النهج فانه من محاسن هذه الصنعة وعرض علي كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الى ديوان الخلافة ببغداد في سنة احدى وسبعين وخمسمائة وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية واقامة الدعوة العباسية وشرح فيه ما قاساه في الفتح من الاهوال ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه الخطابة حقها الا أنه أخل بشيء واحد وهو أن مصر لم تفتح الا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات وكان الفتح في المرة الثالثة وهذا له نظير في فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة فانه قصدها عام الحديبية ثم سار اليها في عمرة القضاء ثم سار اليها عام الفتح ففتحها وقد سألني بعض الاخوان أن أنشئ في ذلك كتابا الى ديوان الخلافة معارضا الكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله فأجبته الى سؤاله وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله فقلت ومن جملتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية وقد قام بها منبر وسرير وقالت منا أمير ومنكم أمير فرد الدعوة العباسية الى معادها وأذكر المنابر ما نسيته بها من ذكر أعوادها وكانت أخرجت منها اخراج النبي صلى الله عليه وسلم من قريته وقذف الشيطان على حقها باطله وعلى صدقها اغويته ثم طوتها الليالي طي السجل الكتاب وكثر عليها مرور الدهر حتى نسي لها عدد السنين والحساب ولم يعدها الى وطنها حتى تعرضت لها الارواح عن أوطانها وسهرت لها أجفان السيوف مع العيون عن اجفانها وتطاردت الآراء في تسهيل أمرها قبل مطاردة اقرانها وحتى تقدمتها عزمات ثلاث كلها ذوات عروب وكل خطب من خطوبها ذو خطوب الى أن تحسر ليلها عن صبحه وأصبحت في الاسلام كعام حديبيته وعمرة قضائه وعام فتحه وفي ذكر أخبارها ما يطمع الالسنة في رؤوس الاقلام ويرهب سامعها ولم ينله شيء من مكروهها سوى الكلام ويومها للدولة هو اليوم الذي أرخ فيه معاد نصرها وميعاد نشرها فاذا عدت لياليها السالفة كانت كسائر الليالي وهذه ليلة قدرها وهذا فصل من فصول الكتاب فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصري وفتح مكة وذكرت أيضا حديث الحباب بن المنذر الانصاري حيث قال بعد وفاة

النبي صلى الله عليه وسلم منا أمير ومنكم أمير وذلك لما حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة والقصة مشهورة فقال الحباب بن المنذر منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر رضي الله عنه بل نحن الامراء وأنتم الوزراء وهذا الذي ذكرته هو نكتة هذا الفن التي عليها المعول ومركزه الذي عليه يدور (وعثرت) من عبد الرحيم بن علي البيساني مع تقدمه في فن الكتابة كيف فاته أن يأتي به في الكتاب الذي كتبه وكذلك وجدت لابن زياد البغدادي كتابا كتبه الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وضمنه فصولا تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة فمن تلك الامور التي أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر وذلك لقب هو لأمير المؤمنين خاصة فانه الامام الناصر لدين الله فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا قد أجاد فيه كل الاجادة ولم أجد فيه مغمزا الا في هذا الفصل الذي يتضمن حديث اللقب فانه لم يأت بكلام يناسب باقي الفصول المذكورة بل أتى فيه بكلام فيه غثاثة كقوله ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام وشيأ من هذا النسق وكان الاليق والاحسن أن يحتج بحجة فيها روح ويذكر كلاما فيه دلاقة ورشاقة * وحضر عندي في بعض الايام بعض اخواني وجرى حديث ذلك فسألني عما كان ينبغي أن يكتب في هذا الفصل فذكرت ما عندي وهو قد علم أن للانبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حكم الانفراد وليس لاحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الانداد وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في أشياء نص عليها بحكمه ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته وبين اسمه وهذا مسوغ لامير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا وعلى غيره محظورا وقد وسم نفسه بسمة نزلت عليه من السماء وتميزت به من بين المسميات والاسماء ثم استمرت عليها الايام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ورفعها الخطباء على المنابر في أيام الجمع ومواسم الاعياد وقد شاركته أنت فيها غير مراقب لمرتبة التعظيم ولا فارق بين فسحة التحليل وحرج التحريم والشرع والادب يحكمان عليك بأن تلقى ما فرط منك بالمتاب ولا تحوج فيه الى التقريع الذي هو أشد العتاب ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده ونسخ أعمال أمسه باستئناف التيقظ في غده

والله قد رفع المؤاخذة عن أتى الشيء خطأ لا عمدا وقبل التوبة ممن أخذ على
نفسه بالاخلاص عهدا * فانظر أيها المتأمل كيف حثت بالمراد النبوي وجعلته
شاهدا على هذا الموضع ولا يمكن أن يحتج في مثل ذلك الا بمثل هذا الاحتجاج
وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتي به مع أنه كان كاتبا مفلقا أرتضي كتابته ولم
أجد في متأخري العراقيين من يماثله في هذا الفن (وأما النوع الرابع) وهو
الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فان في ذلك فوائد جمة لانه
يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ويعرف به مقاصد كل فريق منهم
والى أين ترامت به صنعته في ذلك فان هذه الاشياء مما تشحذ القريحة وتذكي
الفطنة واذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعاني التي ذكرت وتعب
في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد وأيضا
فانه اذا كان مطلعا على المعاني المسبوق اليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم
يسبق اليه ومن المعلوم أن خواطر الناس وان كانت متفاوتة في الجودة والرداءة
فان بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه الا بشيء يسير وكثيرا ما تتساوى
القرائح والافكار في الاتيان بالمعاني حتى ان بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع
بلفظ ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الاول
وهذا الذي يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر وسيأتي لذلك
باب مفرد في آخر كتابنا هذا ان شاء الله تعالى (وأما النوع الخامس) وهو
معرفة الاحكام السلطانية من الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك فانما
أوجبنا معرفتها والاحاطة بها لما يحتاج اليه الكاتب في تقليدات الملوك والامراء
والقضاة والمحتسبين ومن يجري مجراهم وأيضا فانه قد يحدث في الامامة
حادث في بعض الاوقات بأن يموت الامام القائم بأمر المسلمين ثم يتولى من بعده
من لم تكمل فيه شرائط الامامة أو يكون كامل الشرائط غير أن الامام الذي
كان قبله عهد بها الى آخر غيره وهو ناقص الشرائط أو يكون قد تنازع
الامامة اثنان أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا اماما وهم غير كاملي
الشرائط التي يجب أن توجد فيهم أو يكون أمر غير ما ذكرناه فتختلف الاطراف
في ذلك وينتصب ملك من الملوك له عناية بالامام الذي قد قام للمسلمين فيأمر كاتبه
أن يكتب كتابا في أمره الى الاطراف المخالفة له واذا لم يكن الكاتب

عند ذلك عارفا بالحكم في هذه الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها وما هو
رخصة في ذلك وما ليس برخصة لا يكتب كتابا يشفع به ولسنا نعني بهذا القول
أن يكون الكاتب مقصورا على فقه محض فقط لأنا لو أردنا ذلك لما كان يحتاج
فيه الى كتب كاتب بلاغي بل كان يقتصر على ارسال مصنف من مصنفات الفقه
عوضا عن الكاتب وانما قصدنا أن يكون الكاتب الذي يكتب في هذا المعنى
مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة في موضع والمحافظة في موضع مشحونا
ذلك بالنكت الشرعية المبرزة في قوالب البلاغة والفصاحة كما فعل الكاتب
الصابي في الكتاب الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه
الى الامام الطائع لما خلع المطيع فانه من محاسن الكتب التي تكتب في هذا
الفن (وأما النوع السادس) وهو حفظ القرآن الكريم فان صاحب هذه
الصناعة ينبغي له أن يكون عارفا بذلك لان فيه فوائد كثيرة منها أنه يضمن كلامه
بالآيات في أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها ولا شبهة فيما يصير للكلام
بذلك من الفخامة والجزالة والرونق ومنها أنه اذا عرف مواقع البلاغة
وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحرا يستخرج منه الدرر
والجواهر ويودعها مطاوي كلامه كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات
وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام فعليك أيها
المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه واشاراته فانه
تجارة لن تبور ومنبع لا يغور وكنز يرجع اليه وذخر يعوّل عليه (وأما النوع
السابع) وهو حفظ الاخبار النبوية مما يحتاج الى استعماله فان الامر في ذلك
يجري مجرى القرآن الكريم وقد تقدم القول عليه فاعرفه (وأما النوع
الثامن) وهو ما يختص بالناظم دون الناثر وذلك معرفة العروض وما يجوز
فيه من الزحاف وما لا يجوز فان الشاعر محتاج اليه ولسنا نوجب عليه المعرفة
بذلك لينظم بعلمه فان النظم مبني على الذوق ولو نظم بتقطيع الافاعيل لجاء شعره
متكلفا غير مرضي وانما أريد للشاعر معرفة العروض لان الذوق قد ينبو عن
بعض الزحافات ويكون ذلك جائزا في العروض وقد ورد للعرب مثله فاذا كان
الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز وكذلك أيضا يحتاج
الشاعر الى العلم بالقوافي والحركات ليعلم الروي والردف وما يصح من ذلك

وما لا يصح فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات وكان ذا طبع مجيب وقريحة مواتية وعلم بالطرق كتابنا هذا والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاج إليه الخطيب والشاعر ومعرفته ضرورية لا بد منها وههنا أشياء أخر هي كالتوابع والروادف وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة فما ظنك بما فوق هذا والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد فيحتاج أن يتعلق بكل فن

(الفصل الثالث في الحكم على المعاني) وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة لا سيما مفسري الأشعار فإنهم به أعنى * واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كقوله تعالى وثيابك فطهر فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس وهذا لا بد له من دليل لأنه عدول عن ظاهر اللفظ وكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال إذا أردت أن تصلي فادخل بيتك وأغلق بابك فالظاهر من هذا هو البيت والباب ومن تأول ذهب إلى أنه أراد أنك تجمع عليك همّ قلبك وتمنع أن يخطر به سوى أمر الصلاة فعبر عن القلب بالبيت وعن منع الخواطر التي تخطر له بإغلاق الباب وهذا يحتاج إلى دليل لأنه عدول عن ظاهر اللفظ فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف إذ باب التأويل غير محصور والعلماء متفاوتون في هذا فإنه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية فإن السيف بضاربه

إن السيوف مع الذين قلوبهم * كقلوبهن إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده * مثل الجبان بكف كل جبان

وذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتأويل إلى شيء غير مرضي فقال التفسير

بيان وضع اللفظ حقيقة كتفسير الصراط بالطريق والتأويل اظهار باطن اللفظ كقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد فتفسيره من الرصد يقال رصدته اذا رقبته وتأويله تحذير العباد من تعدي حدود الله ومخالفة أوامره والذي عندي في ذلك انه أصاب في الآخر ولم يصب في الاول لان قوله التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة لا مستند لجوازه بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ حقيقة ومجازا لانه من الفسر وهو الكشف كتفسير الرصد في الآية المشار اليها بالرقبة وتفسيره بالتحذير من تعدي حدود الله ومخالفة أوامره وأما التأويل فانه أخذ قسمي التفسير وذلك انه رجوع عن ظاهر اللفظ وهو مشتق من الاول وهو الرجوع يقال آل يؤول اذا رجع وعلى هذا فان التأويل خاص والتفسير عام فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلا ولهذا يقال تفسير القرآن ومن تفسيره ظاهر وباطن وهذا الفصل الذي نحن بصدد ذكره ههنا يرجع أكثره الى التأويل لانه أدق ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام اما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره واما أن يفهم منه الشيء وغيره وتلك الغيرية اما أن تكون ضدا أو لا تكون ضدا وليس لنا قسم رابع فالاول يقع عليه أكثر الاشعار ولا يجري في الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين وأما القسم الثاني فانه قليل الوقوع جدا وهو من أظرف التأويلات المعنوية لان دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده فمما جاء منه قول النبي صلى الله عليه وسلم صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في غيره من المساجد الا المسجد الحرام فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من المسجد الحرام أي ان صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة في المسجد الحرام بل تفضل ما دونها بخلاف المساجد الباقية فان ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه وكذلك جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم أيضا من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت وهذا يشتمل على معنيين ضدين أحدهما أن المراد به اذا لم تفعل فعلا تستحي منه فافعل ما شئت والآخر أن المراد به اذا لم يكن لك حياء يزعك عن فعل ما يستحي منه فافعل ما شئت وهذان معنيان ضدان أحدهما مدح والآخر ذم ومثله

ورد فى الحديث النبوى أيضا وذلك أنه ذكر شريح الحضرمى عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال لا يتوسد القرآن وهذا يحتمل مدحا وذما أمّا المدح فالمراد به أنه لا ينام الليل عن القرآن فيكون القرآن متوسدا معه لم يتهجد به وأمّا الذم فالمراد به أنه لا يحفظ من القرآن شيأ فاذا نام لم يتوسد معه القرآن وهذان التأويلان من الاضداد وكثيرا ما يرد أمثال ذلك فى الاحاديث النبوية ويجرى على هذا النهج من الشعر قول أبى الطيب فى قصيدة يمدح بها كافورا

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه وكذلك ورد قوله أيضا من قصيدة يمدحه

فان نلت ما أملت منك فربما * شربت بماء يعجز الطير ورده

فان هذا البيت يحتمل مدحا وذما واذا أخذ بمفرده من غير نظر الى ما قبله فانه يكون بالذم أولى منه بالمدح لانه يتضمن وصف نواله بالبعد والشدود وصدر البيت مفتتح بان الشرطية وقد أجيب بلفظة رب التى معناها التقليل أى لست من نوالك على يقين فان نلته فربما وصلت الى مورد لا يصل اليه الطير لبعده واذا نظر الى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذى قبله وكثيرا ما كان يقصد المتنبى هذا القسم فى شعره كقوله من قصيدة أولها

عدوّك مذموم بكل لسان * ولو كان من أعدائك القمران

ولله سرّ فى علاك وانما * كلام العدا ضرب من الهذيان

ثم قال

فمالك تعنى بالاسنة والقنا * وجدّك طعان بغير سنان

فان هذا الذم أشبه منه بالمدح لانه يقول لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك بل بجدّ وسعادة وهذا الاصل فيه لان السعادة تنال الخامل والجاهل ومن لا استحقها وأكثر ما كان المتنبى يستعمل هذا القسم فى قصائده الكافوريات (وحكى) أبو الفتح بن جنى قال قرأت على أبى الطيب ديوانه الى أن وصلت الى قصيدته التى أولها * أغالب فيك الشوق والشوق أغلب * وأتيت منها على هذا البيت وهو

وما طربى لما رأيتك بدعة * لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت له يا أبا الطيب لم تزد على أن جعلته أبا رنة فضحك لقولى وهذا القسم

من

من الكلام يسمى الموجه أى له وجهان وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه * وأما القسم الثالث فانه يكون أكثر وقوعا من القسم الثانى وهو واسطة بين طرفين لان القسم الاول كثير الوقوع والقسم الثانى قليل الوقوع وهذا القسم الثالث وسط بينهما فمما جاء منه قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم فان هذا له وجهان من التأويل أحدهما القتل الحقيقى الذى هو معروف والآخر هو القتل المجازى وهو الانكباب على المعاصى فان الانسان اذا أكب على المعاصى قتل نفسه فى الآخرة ومن ذلك ما ورد فى قصة ابراهيم وذبح ولده عليهما السلام فقال الله تعالى حكاية عنه وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده وقد يكون استئنافا بذكره بعد ذكر اسمعيل عليه السلام وذبحه والتأويل متجاذب بين هذين الامرين ولا دليل على الاختصاص بأحدهما ولم يرد فى القرآن ما يدل على أن الذبيح اسمعيل ولا اسحق عليهما السلام وكذلك لم يرد فى الاخبار التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ما يروى عنه أنه قال أنا ابن الذبيحين فخارج عن الاخبار الصحيحة وفى التوراة ان اسحق عليه السلام هو الذبيح ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لازواجه أطولكن يدا أسرعكن لحوقا بى فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتهن أطول يدا ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به وكانت كثيرة الصدقة فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة وانما أراد الصدقة فهذا القول يدل على المعنيين المشار اليهما ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فلم يقل لشئ فعلته لم فعلته ولا لشئ لم أفعله لم لا فعلته وهذا القول يحتمل وجهين من التأويل أحدهما وصف

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على خلق من يجحده والآخر أنه وصف
نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال كأنه متفطن لما في نفس رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيفعله من غير حاجة الى استئذانه ومن ذلك ما ورد
في الادعية النبوية فانه صلى الله عليه وسلم دعا على رجل من المشركين فقال اللهم
اقطع أثره وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل الاول أنه دعا عليه بالزمانة لانه
اذا زمن لا يستطيع أن يمشي على الارض فينقطع حينئذ أثره الوجه الثاني أنه
دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده ولا عقب الوجه الثالث أنه دعا عليه بأن
لا يكون له أثر من الآثار مطلقا وهو أن لا يعمل فعلا يبقى أثره من بعده كائنا
ما كان من عقب أو بناء أو غراس أو غير ذلك وظفرت الحرورية برجل فقالوا له
ابرأ من عليّ وعثمان فقال انا من عليّ ومن عثمان أبرأ فهذا يدل على معنيين
أحدهما أنه بريء من عثمان وحده والآخر أنه بريء منهما جميعا والرجل لم يرد
الا الوجه الاول ومن ذلك ما يحكى عن عبد المسيح بن بقيلة لما نزل بهم خالد
ابن الوليد على الحيرة وذاك أنه خرج اليه عبد المسيح بن بقيلة فلما مثل بين يديه
قال أنعم صباحا أيها الملك فقال له خالد قد أغنانا الله عن تحيتك هذه بسلام
عليكم ثم قال له من أين أقصى أثرك قال من ظهر أبي قال فمن أين خرجت قال
من بطن أمي قال فعلام أنت قال على الارض قال ففيم أنت قال في ثيابي قال
ابن كم أنت قال ابن رجل واحد قال خالد ما رأيت كاليوم قط أنا أسأله عن الشيء
وهو ينحو غيره وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن وهو يصلح أن يكون
جوابا لما سأل خالد عنه ويصلح أن يكون جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بقيلة
وقد ورد في التوراة أن لا يؤكل الجدي بلبن أمه وهذا يحتمل التحريم في وجهين
أحدهما ما دل عليه ظاهر لفظه وهو تحريم لحم الجدي بلبن أمه خاصة واذا أكل
بلبن غير لبن أمه جاز ذلك ولم يكن حراما وهذا لا يأخذ به أحد من اليهود
والوجه الآخر وهو الذي يؤخذ به عند اليهود جميعهم أن أكل اللحم باللبن حرام
كائنا ما كان من اللحوم الا طائفة منهم يسمون القرائين فانهم تأولوا فأكلوا
لحم الطير باللبن وقالوا انما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الالبان والطير
من ذوات البيض لا من ذوات الالبان ومما يجري على هذا النهج ما يحكى
عن افلاطون أنه قال ترك الدواء دواء فذهب بعض الاطباء أنه أراد أن الطف

المزاح وانتهى الى غاية لا يحتمل الدواء فتركه حينئذ والاضراب عنه دواء وذهب آخرون الى أنه أراد بالترك الوضع أى وضع الدواء على الداء دواء يشير بذلك الى حذق الطبيب فى أوقات علاجه ومثله فى الشعر قول الفرزدق

اذا جعفر مرّت على هضبة الحمى * فقد أخذت الأحياء منها قبورها

وهذا يدل على معنيين أحدهما ذم الاحياء والآخر ذم الاموات أما ذم الاحياء فهو أنهم خذلوا الاموات بريد أنهم لم يقاتلوا قتالهم وقوما آخرين وهم الاحياء عنهم وأسلموهم أو أنهم استنجدوهم ولم ينجدوهم وأما ذم الاموات فهو أن لهم مخازى وفضائح توجب عارا وشنارا فهم يجدون بها الاحياء ويلصقونها بهم وعلى هذا ورد قول أبى تمام

فالشعر طول اذا اصطكت قصائده * فى معشر وبه فى معشر قصر

فهذا البيت يحتمل تأويلين أحدهما أن الشعر يتسع مجاله عندك ويضيق عند غيرك يريد بذلك ان مآثره كثيرة ومآثر غيره قليلة والآخر أن الشعر يكون ذا طول وساحة عندك وذا حول عند غيرك فالطول يفهم منها ضد القصر ويفهم منها العمر من قولنا طال فلان على فلان أى جرعليه (ومما) ينتظم بهذا السلك قول أبى كبير الهذلى

عجت لسعى الدهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل أحدهما أنه أراد سعى الدهر سرعة تقضى الاوقات مدة الوصال فلما انقضى الوصل عاد الدهر الى حالته فى السكون والبطء الآخر أنه أراد سعى الدهر سعى أهل الدهر بالنمائم والوشايات فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية وهذا من باب وضع المضاف اليه مكان المضاف كقوله تعالى واسأل القرية أى أهل القرية * ومن الدقيق المعنى فى هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة من جملة قصيدته التى أولها أوه بديل من قولتى واها فقال

لو فطنت خيله لنائله * لم يرضها أن تراه يرضاها

وهذا يستنبط منه معنيان غريبان أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه لان عطاياه أنفس منها الآخر أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك اذ تكره خروجها

من ملكه وهذان الوجهان أفاد كثرتهما وإنما المذكور منهما أحدهما وهذا الذي أشرت اليه من الكلام على المعاني وتأويلاتها كاف لمن عنده ذوق وله قوة على حملها على أشباهها ونظائرها

(الفصل الرابع) في الترجيح بين المعاني وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد درهمها ودينارها بل المحك الذي يعلم منه مقدار عيارها ولا يزن به الا ذو فكرة منتقدة ولمحة متقدة فليس كل من حمل ميزانا سمي صرافا ولا كل من وزن به سمي عرافا والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهي أن هذا يرجح بين دليلي الخصمين في حكم شرعي وهذا يرجح بين جانبي فصاحة وبلاغة في ألفاظ ومعان خطابية وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهي يرجح بين خبر التواتر مثلا وبين خبر الآحاد أو بين المسند والمرسل أو ما جرى هذا المجرى وهذا لا يتعرض اليه صاحب علم البيان لأنه ليس من شأنه ولكن الذي هو من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز أو بين حقيقتين أو بين مجازين ويكون ناظرا في ذلك كله الى الصناعة الخطابية وربما اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهي في بعض المواضع كالترجيح بين عام وخاص أو ما شابه ذلك * وكنا قدمنا القول في الحكم على المعاني وانقسامها ونبين في هذا الفصل مواضع الترجيح بين وجوه تأويلاتها فنقول (أما القسم الأول) من المعاني فلا تعلق للترجيح به اذ ما دل عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل الا وجها واحدا فليس من هذا الباب في شيء والترجيح انما يقع بين معنيين يدل عليهما لفظ واحد ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام اما أن يكون اللفظ حقيقة في أحدهما مجازا في الآخر أو حقيقة فيهما جميعا أو مجازا فيهما جميعا وليس لنا قسم رابع والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج الى نظر وأما الترجيح بين الحقيقة والمجاز فانه يعلم ببديهة النظر لمكان الاختلاف بينهما والشيئان المختلفان يظهر الفرق بينهما بخلاف ما يظهر بين الشيئين المشتبهين فمثال الحقيقة والمجاز قوله تعالى ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون فالجلود هنا تفسر حقيقة ومجازا أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة وهذا هو المانع البلاغي الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية

عن المكنى عنه وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغى ويقال ما بيان هذا الترجيح فيقال طريقه ان لفظ الجلود عام فلا يخلو اما أن يراد به الجلود مطلقا أو يراد به الجوارح التى هى أدوات الاعمال خاصة ولا يجوز أن يراد به الجلود على الاطلاق لان شهادة غير الجوارح التى هى الفاعلة شهادة باطلة اذ هى شهادة غير شاهد والشهادة ههنا يراد بها الاقرار فتقول اليد أنا فعلت كذا وكذا وتقول الرجل أنا مشيت الى كذا وكذا وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرة بأعمالها فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح واذا أريد به الجوارح فلا يخلو اما أن يراد به الكل أو البعض فان أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة وان أريد به البعض فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح لامرين أحدهما أن الجوارح كلها قد ذكرت فى القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج فكان حمل الجلد عليه أولى ليستكمل ذكر الجميع الآخر أنه ليس فى الجوارح ما يكره التصريح بذكره الا الفرج فكنى عنه بالجلد لانه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته (فان قيل) ان تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفضيل كقوله تعالى فاكهة ونخل ورمان والنخل والرمان من الفاكهة (قلت) فى الجواب هذا القول عليك لا لك لان النخل والرمان انما ذكرا لتفضيلهما فى الشكل أو فى الطعم والفضيلة ههنا فى ذكر الشهادة انما هى تعظيم لامر المعصية وغير السمع والبصر أعظم فى المعصية لان معصية السمع انما تكون فى سماع غيبة أو فى سماع صوت مزمار أو وتر أو ما جرى هذا المجرى ومعصية البصر انما تكون فى النظر الى محرم وكلا المعصيتين لا حد فيها وأما المعاصى التى توجد من غير السمع والبصر فأعظم لان معصية اليد توجب القطع ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم وهذا أعظم فكان ينبغى أن تخص بالذكر دون السمع والبصر واذا ثبت فساد ما ذهبت اليه فلم يكن المراد بالجلود الا الفروج خاصة (وأما مثال المعنيين) اذا كانا حقيقيين فقول النبى صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الارض والخبايا جمع خبية وهو كل ما يخبأ كائنا ما كان وهذا يدل على معنيين حقيقيين أحدهما الكنوز المخبوأة فى بطون الارض والآخر الحرث والغراس وجانب الحرث والغراس أرجح لان مواضع الكنوز

لا تعلم حتى تلتمس والنبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر بذلك لانه شيء مجهول غير معلوم فبقي المراد بخبايا الارض ما يحرث ويغرس وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم اذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال وهذا الحديث مرخص في ترك صلاة الجماعة بسبب المطر وله تأويلان أحدهما أنه أراد نعال الارض وهو ما غلظ منها والآخر أنه أراد الاحذية والوجه هو الثاني لظهوره في الدلالة على المعنى وأكثر العلماء عليه ولو كان المراد به ما غلظ من الارض لخرج عن هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لا غلظ فيها (وأما مثال المعنيين المجازيين) فقول أبي تمام

قد بلونا أبا سعيد حديثا * وبلونا أبا سعيد قديما

ووردناه ساحلا وقليبا * ورعيناه بارضا وجميما

فعلمنا ان ليس الا بشق الأنفس صار الكريم يدعى كريما

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب والآخر أنه أراد بهما السهل وعبر السهل فان الساحل لا يحتاج في ورده الى سبب والقليب يحتاج في ورده الى سبب وكلا هذين المعنيين مجاز فان حقيقة الساحل والقليب غيرهما والوجه هو الثاني لانه أدل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه أما بلاغة القائل فالسلامة من هجنة التكرير بالمخالفة بين صدر البيت وعجزه فان عجزه يدل على القليل والكثير لان البارض هو أول النبت حين يبدو واذا كثر وتكاثف سمي جميما فكأنه قال أخذنا منه تبرعا ومسئلة وقليلا وكثيرا وأما مدح المقول فيه فلتعداد حالاته الاربع في تبرعه وسؤاله واكثاره واقلاله وما في معاناة هذه الاحوال من المشاق فهذا ما يتعلق بالترجيح الذي بين الحقيقة والحقيقة وبين المجاز والمجاز وبين الحقيقة والمجاز (وههنا) ترجيح آخر لا يتعلق بما أشرنا اليه اذ هو خارج عما تقتضيه المعاني الخطابية من جهة الفصاحة والبلاغة وذلك أن يرجح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدر أو يكون أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه أو تأخر عنه والآخر غير مناسب أو بأن ينظر في الترجيح بينهما الى شيء خارج عن اللفظ فمثال المعنيين المشار اليهما أن المعنى التام هو الذي يدل عليه لفظه ولا يتعداه وأما المقدر فهو الذي لا يدل عليه لفظه بل يستدل عليه بقرينة أخرى وتلك القرينة قد تكون من لوازمه وقد لا تكون (فمما) جاء

من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في سائمة الغنم زكاة فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان أحدهما تام والآخر مقدر فالتام دلالته على وجوب الزكاة في السائمة لا غير والمقدر دلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة إلا أنه ليس مفهوما من نص اللفظ بل من قرينة أخرى هي كالتابعة له وهي أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها وللفقهاء في ذلك مجادلات جدلية يطول الكلام فيها وليس هذا موضعها والذي يترجح عندي هو القول بفحوى المعنى المقدر وهو الذي يسميه الفقهاء مفهوم الخطاب وله في الشعر أشباه ونظائر (فمما) ورد من ذلك شعرا قول جري بن كلاب المقعسي من شعراء الحماسة وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فرده

تبغى ابن كوز والسفاهة كاسمها * ليستاد منا أن شتونا لياليا

فلا تطلبها يا ابن كوز فإنه * غذا الناس مذ قام النبي الجواريا

وهذا البيت الثاني يشتمل على المعنيين التام والمقدر أما التام فإن ابن كوز سأل أباه هذه الجارية أن يزوجه إياها في سنة والسنة الجدب فرده وقال قد غذا الناس البنات مذ قام النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أيضا أغذو هذه ولولا ذلك لوأدتها كما كانت الجاهلية تفعل وفيه وجه آخر وهو أنهم كانوا يئدون البنات قبل الإسلام فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك بقوله غذا الناس مذ قام النبي الجواريا أي في النساء كثرة فتزوج بعضهن وخل ابنتي وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ وأما المعنى المقدر الذي يعلم من مفهوم الكلام فإنه يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإحياء البنات ونهى عن الوأد ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها إذ لا فرق بين إنكاحك إياها وبين وأدها وهذا ذم للخاطب وهو معنى دقيق ومجيء المعاني المستخرجة من المفهوم قليل في الشعر (وأما) ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه فإن ذلك أدق من الأول وألطف مأخذا فمما ورد منه قول النبي صلى الله عليه وسلم من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين وهذا يستخرج منه المعنيان المشار إليهما فالتام منهما يدل على أنه من جعل قاضيا فقد عرض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين وأما المقدر فإنه يدل على أنه من جعل قاضيا فقد أمر بمفارقة هواه وهذا لا يدل عليه اللفظ نفسه بل يستدل عليه بقرينة أخرى ولكنها ليست من توابعه

ووجه ذلك أنّ لفظ الحديث عامّ يشمل القضاة على الاطلاق ولا يخلوا امّا أن يراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة لانه ليس كل قاض معذبا في الآخرة بل المعذب منهم قضاة السوء فوضح بهذا أنّ المراد بالحديث عذاب الدنيا وعلى هذا فلا يخلوا اما أن يكون العذاب صورة أو معنى ولا يجوز أن يكون صورة لانا نرى الانسان اذا جعل قاضيا لا يذبح ولا يناله شيء من ذلك فبقي أن يكون المراد به عذابا معنويا وهو الذبح المجازي غير الحقيقي ومجرى ذلك ان نفس الانسان مركبة على حبّ هواها فاذا جعل قاضيا فقد أمر بترك ما جبل على حبه من الامتناع عن الرشوة والحكم لصديقه على عدوّه ورفع الحجاب بينه وبين الناس والجلوس للحكم في أوقات راحته وغير ذلك من الاشياء المكروهة التي تشق على النفس ويحصل لها ألم منها والذبح هو قطع الحلقوم والالم حاصل به وهو كالذبح الحقيقي بل أشد منه لان ألم الذبح الحقيقي يكون لحظة واحدة ثم ينقضي ويزول وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولا ينقضي وهو أشد العذاب قال الله تعالى في عذاب أهل النار وحيل بينهم وبين ما يشتهون وقال في نعيم أهل الجنة وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الأعين وكثيرا ما رأينا وسمعنا من حمله حبّ الشيء على اتلاف نفسه في طلبه وركوب الاهوال من أجله فاذا امتنع عنه مع حبه اياه فقد ذبح نفسه أي قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم انتقلنا عن الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فسمى جهاد الكفار الجهاد الاصغر وجهاد النفس الجهاد الاكبر فكما أنّ مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سكين وهذا موضع غامض والترجيح فيه مختص بالوجه الآخر لاشتماله على المعنى المقصود وهو المراد من القضاة على الاطلاق (وأمّا) مثال المعنيين اذا كان أحدهما مناسبا للمعنى تقدمه أو للمعنى تأخر عنه والآخر غير مناسب فالاول وهو ما كان مناسبا للمعنى تقدمه كقوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا فالدعاء ههنا يدل على معنيين أحدهما النهي أن يدعى الرسول باسمه فيقال يا محمد كما يدعو بعضهم بعضا بأسمائهم وانما يقال له يا رسول الله أو يا نبيّ الله والآخر النهي أن يجعلوا حضورهم عنده اذا دعاهم لأمر من الامور كحضور بعضهم عند بعض بل يتأدبون معه بأن

لا يمارقوا مجلسه الا باذنه وهذا الوجه هو المراد لمناسبة معنى الآية التي قبله وهو قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه وأمّا الثاني وهو ما كان مناسبا لمعنى تأخر عنه كقوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف وهما اسما جبلين أيضا وتأويلهما بالجبلين أولى للمناسبة بينهما وبين ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذي هو الطور وعلى هذا ورد قول الشاعر في أبيات الحماسة

ولو كنت مولى قيس عيلان لم تجد * على لانسان من الناس درهما

ولكنني مولى قضاعة كلها * فلست أبالي أن أدين وتغرما

فاذا نظرنا الى البيت الاول وجدناه يحتمل مدحا وذمّا أي أنهم كانوا يعينونه بعطائهم أن يدين أو أنه كان يخاف الدين حذرا أن لا يقوموا عنه بوفائه لكن البيت الثاني حقق أنّ الاول ذمّ وليس بمدح وهذا المعنى لا يتحقق بهذه الابآخره وأمّا الذي يكون الترجيح فيه بسبب شئ خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم فهذا مستنبط منه معنيان أحدهما أنّ الله يعلم السرّ والجهر في السموات والارض وفي ذلك تقديم وتأخير أي يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الارض الآخر أنه في السموات وأنه يعلم السرّ والجهر في الارض من بني آدم لانّ الوقف يكون على السموات ثم يستأنف الكلام فيقول يعلم سرّكم وجهركم في الارض الا أنّ هذا يمنع منه اعتماد التجسيم وذلك شئ خارج عن مفهوم اللفظ

(الفصل الخامس في جوامع الكلم) قال النبيّ صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم فالكلم جمع كلمة والجوامع جمع جامعة والجامعة اسم فاعلة من جمعت فهي جامعة كما يقال في المذكر جمع فهو جامع والمراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتي الكلم الجوامع للمعاني وهو عندي ينقسم قسمين القسم الاول منهما هو ما استخرجته وسهت عليه ولم يكن لأحد فيه قول سابق وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعنى مالا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن تستعمل في مكانها (فمن ذلك) ما يأتي على حكم المجاز ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة أمّا ما يأتي على حكم المجاز فقوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين الآن حمي الوطيس

وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أتينا بعبارة غير ذلك في معناه فقلنا استعرت الحرب لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه حمي الوطيس والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار وذلك يخيل الى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها وهذا لا يوجد في قولنا استعرت الحرب أو ما جرى مجراه وكذلك قال صلى الله عليه وسلم بعثت في نفس الساعة فقوله نفس الساعة من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه لكن قربها منه لا يدل على ما دل عليه النفس وذلك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الانسان بنفس من هو الى جانبه وقد قال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين اصبعيه السبابة والوسطى ولو قال بعثت على قرب من الساعة أو والساعة قريبة مني لما دل ذلك على ما دل عليه نفس الساعة وهذا لا يحتاج الى الاطالة في بيانه لأنه بين واضح وقد ورد شيء من ذلك في أقوال الشعراء المفلقين ولقد تصفحت الاشعار قديمها وحديثها وحفظت ما حفظت منها وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح لي فيه مثل هذه الالفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر وطربا كطرب الالحان وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلك ولا يتفطن له سوى أنه يستحسنه من غير نظر فيما نظرت أنا فيه ويظنه كغيره من الالفاظ المستحسنة (فمما) جاء من ذلك قول أبي تمام

كم صارم عضب أناف على فتى * منهم لأعباء الوغى حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه * وطن النهى من مفرق وقذال

وقوله وطن النهى من الكلمات الجامعة وهي عبارة عن الرأس ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسد مسدها وكذلك ورد قول البحتري

قلب يطل على أفكاره ويد * تمضي الامور ونفس لهوها التعب

فقوله قلب يطل على أفكاره من الكلمات الجوامع ومراده بذلك أن قلبه لا تملؤه الافكار ولا تحيط به وانما هو عال عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها (وأما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي

سقى الله أوطارا لنا ومآربا * تقطع من أقرانها ما تقطعا

ليال تسيني الليالي حسابها * بلهنية أقضى بها الحول أجمعا
سوى عبرة لا أعرف اليوم باسمه * وأعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله لا أعرف اليوم باسمه من الكلمات الجامعة أي اني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله لا أعرف اليوم باسمه (وأما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة أي ان ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على ايجازها واختصارها وجل كلامه جار هذا المجرى فلا يحتاج الى ضرب الامثلة به وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع (فان قيل) فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما في النظر سواء (قلت) في الجواب ان الايجاز هو أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ أنها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز وحينئذ يكون ايجازا وزيادة (وأما) هذا القسم الآخر فانه ألفاظ أفراد في حسنها لا نظير لها فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون موجزة وليس الغرض منها الايجاز وانما الغرض مكانها من الحسن الذي لا نظير لها فيه ألا ترى الى قول أبي تمام وطن النهى فان ذلك عبارة عن الرأس ولا شك أن الرأس أو جزلان الرأس لفظة واحدة ووطن النهى لفظتان الا أن وطن النهى أحسن في التعبير عن الرأس من الرأس فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر

(الفصل السادس في الحكمة التي هي ضالة المؤمن) قال النبي صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها اذا وجدها والمراد بذلك أن الحكمة قد يستفيدها أهلها من غير أهلها كما يقال رب رمية من غير رام وهذا لا يخص علما واحدا من العلوم بل يقع في كل علم والمطلوب منه ههنا هو ما يخص علم البيان من الفصاحة والبلاغة دون غيره ومذ سمعت هذا الخبر النبوي جعلت كدي في تتبع أقوال الناس في مفاوضاتهم ومحاوراتهم فانه قد تصدر الاقوال البليغة والحكم والامثال ممن لا يعلم مقدار ما يقوله فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عددا وأنا أذكر منها طرفا يستدل به على أشباهه ونظائره فمن ذلك اني سرت في بعض الطرق وفي صحبتي رجل بدوي من الانباط

لا يعتد بقوله فكان يقول غدا ندخل البلد وتشتغل عني وكان الامر كما قال فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياما ثم لقيني فقال لي من تروّى فترت عظامه وهذا القول من الاقوال البليغة وهي من الحكمة التي هي الضالة المطلوبة عند مؤمن الفصاحة والبلاغة ثم انى سمعت منه بعد ذلك شيأ يناسب قوله الاول فانى سفرت له الى صاحب في حلب في شيء أخذته منه فاستقله وقال الماء أروى لشدوق النيب وهذا أيضا من الحكمة في بابها وسافرت مرة أخرى على طريق المناظر وكان في صحبتي رجل بدوي فسألته عن مسافة ما بين تدمر وأركة فقال اذا سرح سرحاهما تلاقيا فعبر عن قرب المسافة بينهما بأوجز عبارة وأبدعها ثم سألته ليلة من الليالي عن الصبح لنرتحل من موضعنا فقال قد ظهر الصبح الا أنه لم يملك الانسان بصره وهذا القول من الحكمة أيضا وكان تزوج غلام من غلماني بدمشق فوقعت المرأة منه بموقع وشغف بها ثم انى سافرت عن دمشق لمهم عرض لي وسافر ذلك الغلام في صحبتي فلما بعدنا من السفر شغل بامرأته والمقام عندها فسألته عن حاله فقال انها قد طالت وحسنت وهي كذا وكذا وأخذ يصفها فقال أخ له كان حاضرا يا مولاي هي تلك لم تزد شيأ وانما هي في عينه صارت من الحمارة وكذا القول قد ورد في بعض أبيات الحماسة وهو معدود من أبيات المعاني

أهابك اجلالا ومابك قدرة * علي ولكن ملء عين حبيبها

فكثيرا ما يصدر مثل هذه الاقوال من ألسنة الجهال * وسمعت ما يجري هذا المجرى من بعض العبيد الاحابيش الذين لا يستطيعون تقويم صيغ الالفاظ فضلا عما وراء ذلك وذلك أنه رأى صبيا في يده طاقة ريحان فقال هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان فلما سمعت ذلك منه أخذتني هزة التعجب وذكرت شعر أبي نواس الذي تواضعه الناس في هذا المعنى وهو قوله

وردة جاء بها شادن * في كفه اليمنى حيانا

سبحت ربي حين أبصرتها * ريحانة تحمل ريحانا

وحضر عندي في بعض الايام رجل نصراني موسوم بالطب وكان لا يحسن ان يقول كلمة واحدة وهو أقلف اللسان بيّن العبارة فسألته عن زيارة شخص وهل يتردد اليه أم لا فقال

ظلام الليل يهدي الى باب من أوده   وضوء النهار يضل بى عن باب من لا أوده

وهذا من ألطف المعانى وأحسنها وهو من الحكمة المطلوبة * وكنت قصدت زيارة بعض الاخوان من الاجناد وهو من الاعثام الاعجام فسألته عن حاله وكان توالت عليه نكبات طالت أيامها وعظمت آلامها فقال لى فى الجواب ما معناه انه لم يبق عندى ارتياع لوقوع نائبة من النوائب وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق أو كاتب بليغ لاستحسن منه غاية الاستحسان * وكنت فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرض فلسطين فى الجيش الذى كان قبالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم الله وتقابل الفريقان على مدينة يافا وكان الى جانبي ثلاثة فرسان من المسلمين فتعاقدوا على الحملة الى نحو العدو فلما حملوا صدق منهم اثنان وتلكأ واحد فقيل له فى ذلك فقال الموت طعام لا تجشمه المعدة فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها واذا هى صادرة عن رجل من أهل بصرى قدم من الاقدام ولو أخذت فى ذكر ما سمعته من هذا الا طلت واعاد لك بسير ما ذكرته على المراد وهو أنه يجب على المتصدى للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس فى محاوراتهم فانه لا يعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة ولو أراد استخراج ذلك بفكره لا عجزه ويحكى عن أبى تمام أنه لما نظم قصيدته البائية التى أولها

على مثلها من أربع وملاعب * انتهى منها الى قوله

يرى أقبح الاشياء أوبة آمل * كسته يد المأمول حلة خائب

ثم قال وأحسن من نور يفتحه الصبا * ووقف عند صدر هذا البيت يردده واذا سائل يسأل على الباب وهو يقول من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا فقال أبو تمام * بياض العطايا فى سواد المطالب * وأتم صدر البيت الذى كان يردده من كلام السائل وسمعت امرأة قد توفى لها ولد وهو بكرها الذى هو أول أولادها فقالت كيف لا أحزن لذهابه وهو أول درهم وقع فى الكيس فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابا من كتبى فى التعازى وهو كتاب كتبته الى بعض الاخوان وقد توفى بكره من الاولاد فقلت وهو أول درهم ادخرته فى كيس الادخار وأعددته لحوادث الليل والنهار وبلغنى عن الشيخ أبى محمد أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادى وكان اماما فى علم العربية وغيره فقيل انه كان كثيرا ما يقف على حلق القصاص والمشعبذين فاذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه فى أكثر أوقاته الا هناك

قائم على ذلك وقيل له أنت امام الناس فى العلم وما الذى يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة فقال لو علمتم ما أعلم لما لمتم ولطالما استمددت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة تجرى فى ضمن هذيانهم معانى غريبة لطيفة ولو أردت أنا أو غيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك ولا شك أن هذا الرجل رأى ما رأيته ونظر الى ما نظرت اليه

(الفصل السابع فى الحقيقة والمجاز) وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان لا بل هو علم البيان بأجمعه فان فى تصريف العبارات على الاسلوب المجازى فوائد كثيرة وسيرد بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وقد نبهنا فى هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها فأما الحقيقة فهى اللفظ الدال على موضوعه الاصلى واما المجاز فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع الى هذا الموضع اذا تخطاه اليه فالمجاز اذا اسم للمكان الذى يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما وحقيقته هى الانتقال من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل الى محل كقولنا زيد أسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية أى عبرنا من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة وقد يكون العبور لغير وصلة وذلك هو الاتساع كقولهم فى كتاب كليلة ودمنة قال الاسد وقال الثعلب فان القول لا وصلة بينه وبين هذين بحال من الاحوال وانما أجرى عليهما اتساعا محضا لا غير ولهذا مثال فى المجاز الحقيقى الذى هو المكان المجاز فيه فانه لا يخلو اما أن يجاز من سهل الى سهل أو من وعر الى وعر أو من سهل الى وعر فالجواز من سهل الى سهل أو من وعر الى وعر هو كقولنا زيد أسد فالمشابهة حاصلة فى ذات بينهما كالمشابهة الحاصلة فى المكان والجواز من سهل الى وعر كقولهم قال الاسد وقال الثعلب فكما أنه لا مشابهة بين القول وبين هذين وكذلك لا مشابهة بين السهل والوعر وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك واشباع القول فى تحقيقه فى باب الاستعارة فليؤخذ من هنالك وقد ذهب قوم الى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وذهب آخرون الى انه كله مجاز لا حقيقة فيه وكلا هذين المذهبين فاسد عندى وسأجيب الخصم عما ادعاه فيهما فأقول محل النزاع هو أن اللغة كلها حقيقة أو أنها كلها مجاز ولا فرق عندى بين قولك انها كلها حقيقة

أو أنها كلها مجاز فإن كلا الطرفين عندي سواء لأن منكرهما غير مسلم لهما وأنا بصدد أن أبين أن في اللغة حقيقة ومجازا والحقيقة المعبر بها هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي نفسه وعينه فالحقيقة اللفظية إذا هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره وتقرير ذلك أن أقول المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يستدل بها عليها ليعرف كل منها باسمه من أجل التفاهم بين الناس وهذا يقع ضرورة لا بد منها فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له فإذا نقل إلى غيره صار مجازا ومثال ذلك أنا إذا قلنا شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وهذا الاسم له حقيقة لأنه وضع بإزائه وكذلك إذا قلنا بحر أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح وهذا الاسم له حقيقة لأنه وضع بإزائه فإذا نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة وكذلك إذا نقلنا البحر إلى الرجل الجواد استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة (فإن قيل) إن الوجه المليح يقال له شمس وهو حقيقة فيه وكذلك البحر يقال للرجل الجواد وهو حقيقة فيه (فالجواب) عن ذلك من وجهين أحدهما نظري والآخر وضعي أما النظري فهو أن الألفاظ إنما جعلت أدلة على إفهام المعاني ولو كان ما ذهبت إليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح وعلى الرجل الجواد بالاشتراك وكذلك الشمس أيضا فإنها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وعلى الوجه المليح بالاشتراك وحينئذ فإذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصصه فلا يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك فإنا إذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد وإنما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم لا غير فبطل إذا ما ذهبت إليه مما سماه وأوضحناه (فإن قلت) إن العرف يخالف ما ذهبت إليه فإن من الألفاظ ما إذا أطلق لم يذهب الفهم منه إلا إلى المجاز دون الحقيقة كقولهم الغائط فإن العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الأرض (قلت) في الجواب هذا شيء ذهب إليه الفقهاء وليس الأمر كما ذهبوا إليه لأنه إن كان إطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من إسكاف وحداد ونجار وخمار ومن جرى مجراهم

اعتراض على الفقهاء في تخصيصهم الغائط بقضاء الحاجة

فهؤلاء لا يفهمون من الغائط الا قضاء الحاجة لانهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة وأنها المطمئن من الارض وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع فانهم لا يفهمون عند اطلاق اللفظ الا الحقيقة لا غير ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت فى القرآن الكريم وأريد بها قضاء الحاجة قرنت بألفاظ تدل على ذلك كقوله تعالى أو جاء أحد منكم من الغائط فان قوله أو جاء أحد منكم من الغائط دليل على أنه أراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الارض فالكلام فى هذا وأمثاله انما هو مع علماء أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازا وأما الجهال فلا اعتبار بهم ولا اعتداد بأقوالهم والعجب عندى من الفقهاء الذين دونوا ذلك على ما دونوه وذهبوا الى ما ذهبوا اليه وأما الوجه الرابع فهو أن المرجع فى هذا وما يجرى مجراه الى أصل اللغة التى هى وضع الاسماء على المسميات ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمسا ولا أن الرجل الجواد يسمى بحرا وانما أهل الخطابة والشعر توسعوا فى الاساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة الى المجاز ولم يكن ذلك من واضع اللغة فى أصل الوضع ولهذا اختص كل منهم بشئ اخترعه فى التوسعات المجازية هذا امرؤ القيس قد اخترع شيأ لم يكن قبله فمن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقوله قيد الاوابد ولم يسمع ذلك لاحد من قبله وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم حنين الآن حمى الوطيس وأراد بذلك شدة الحرب فان الوطيس فى أصل الوضع هو التنور فنقل الى الحرب استعارة ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبى صلى الله عليه وسلم وواضع اللغة ما ذكر شيأ من ذلك فعلمنا حينئذ أن من اللغة حقيقة بوضعه ومجازا بتوسعات أهل الخطابة والشعر وفى زماننا هذا قد يخترعون أشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل ولو كان هذا موقوفا من جهة واضع اللغة لما اخترعه أحد من بعده ولا زيد فيه ولا نقص منه * وأما الفرق بينه وبين الحقيقة فهو أن الحقيقة جارية على العموم فى نظائرها ألا ترى أنا اذا قلنا فلان عالم صدق على كل ذى علم بخلاف واسأل القرية لانه لا يصح الا فى بعض الجمادات وفى بعض اذ المراد أهل القرية لانهم ممن يصح السؤال لهم ولا يجوز أن يقال واسأل الحجر والتراب وقد يحسن أن يقال واسأل الربع والطلل (واعلم) أن كل مجاز فله حقيقة لانه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقة

موضوعة له اذا المجاز هو اسم للموضع الذى ينتقل فيه من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من الحقيقة الى غيرها واذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها الى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز فان من الاسماء ما لا مجاز له كاسماء الاعلام لانها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة لانه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التى هى الاصل أولى منه حيث هو فرع عليها وليس الامر كذلك لانه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابى هو اثبات الغرض المقصود فى نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر اليه عيانا ألا ترى أن حقيقة قولنا زيد أسد هى قولنا زيد شجاع لكن فرق بين القولين فى التصوير والتخييل واثبات الغرض المقصود فى نفس السامع لان قولنا زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام فاذا قلنا زيد أسد يخيل عنده ذلك صورة الاسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس وهذا لا نزاع فيه وأعجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الاحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان ويحكم بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو اقدام على أمر مهول وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال (واعلم) أنه اذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه فانظر فان كان لا مزية لمعناه فى حمله على طريق المجاز فلا ينبغى أن يحمل الا على طريق الحقيقة لانها هى الاصل والمجاز هو الفرع ولا يعدل عن الاصل الى الفرع الا لفائدة مثال ذلك قول البحترى

مهيب كحد السيف لو ضربت به * ذرى أجإ ظلت وأعلامها وهد

ويروى أيضا لو ضربت به طلى أجإ جمع طلية وهى العنق فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز لان الحقيقة أولى به ألا ترى أن الذرى جمع ذروة وهو أعلى الشئ يقال ذروة الجبل أعلاه والطلى جمع طلية وهى العنق والعنق أعلى الجسد ولا فرق بينهما فى صفة العلو فاذا فلا يعدل اذا الى المجاز اذ لا مزية له على الحقيقة وهكذا كل

ما يجيء من الكلام الجاري هذا المجرى فإنه إن لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يعدل إليه

(الفصل الثامن في الفصاحة والبلاغة) اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج ومسلك متوعر على الناهج ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلا القليل وغاية ما يقال في هذا الباب أن الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي يقال أفصح الصبح إذا ظهر ثم إنهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات أحدها أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحا الوجه الآخر أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنسب والإضافات إلى الأشخاص فإن اللفظ قد يكون ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو فهو إذا فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا وليس كذلك بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الأحوال لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف الوجه الآخر أنه إذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ينبغي أن يكون فصيحا وليس كذلك لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف قبح فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل * ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها ولم يثبت عندي منها ما أعول عليه ولكثرة ملابستي هذا الفن ومعاركتي إياه انكشف لي السر فيه وسأوضحه في كتابي هذا وأحقق القول فيه فأقول إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الاستعمال سبب استعمالها دون غيرها واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها فالفصيح إذا من الألفاظ هو الحسن (فإن قيل)

من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا
القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه (قلت في الجواب) ان هذا من الامور المحسوسة
التي شاهدها من نفسها لان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات فالذي يستلذه
السمع منها ويميل اليه هو الحسن والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح ألا ترى أن
السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ويكره صوت
الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس
والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لا خلاف في أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها
السمع وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع وهذه اللفظات الثلاث من صفة
المطر وهي تدل على معنى واحد ومع هذا فانك ترى لفظتي المزنة والديمة وما جرى
مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل
وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير ذوق سليم
لا جرم أنه ذم وقدح فيه ولم يلتفت اليه وان كان عربيا محضا من الجاهلية
الاقدمين فان حقيقة الشيء اذا علمت وجب الوقوف عندها ولم يعرج على
ما خرج عنها واذ ثبت أن الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهرا
بينا لانه مألوف الاستعمال وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه
مدرك بالسمع والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج
الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو
الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه
وقد مثلت ذلك في المثال المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة البعاق ولو كانت
الفصاحة لامر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس
منها حسن ومنها قبيح ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى وليس
لقائل هنا أن يقول لا لفظ الا بمعنى فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى فاني لم
أفصل بينهما وانما خصصت اللفظ بصفة هي له والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعا (الوجه
الثاني) ان وزن فعيل هو اسم فاعل من فعل بفتح الفاء وضم العين نحو كرم فهو
كريم وشرف فهو شريف ولطف فهو لطيف وهذا مطرد في بابه وعلى هذا فان
اللفظ الفصيح هو اسم فاعل من فصح فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للابانة عن
المعنى فكانت الفصاحة مختصة به (فان قيل) انك قلت ان الفصيح من الالفاظ

هو الظاهر الذي أي المفهوم ويرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى الا باستنباط وتفسير وتلك الآيات فصيحة لا محالة وهذا بخلاف ما ذكرته (قلت) ان الآيات التي تستنبط وتحتاج الى تفسير ليس شيء منها الا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة وانما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة ألفاظه المفردة لان معنى المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه وهذا ليس قادحا في فصاحة تلك الالفاظ لانها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة أي ظاهرة واضحة وأعجب ما في ذلك أن تكون الالفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها واذا نظر اليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير وهذا لا يختص به القرآن وحده بل في الاخبار النبوية والاشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك (وسأوضح لك منه شيأ فأقول) قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال صومكم يوم تصومون وفطركم يوم تفطرون وأضحاكم يوم تضحون وهذا الكلام مفهومة مفردات ألفاظه لان الصوم والفطر والاضحى مفهوم كله واذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل علمنا أن صومنا يوم نصوم وفطرنا يوم نفطر وأضحانا يوم نضحي فالذي أعلمنا به مما لم نعلمه واذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج الى استنباط والمراد به أنه اذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا ولم يكن ذلك اليوم أوله فان الصوم صحيح وأوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس عليه وكذا يقال في يوم الفطر ويوم الاضحى وفي هذا الخبر المشار اليه أشياء كثيرة تفهم معاني ألفاظها المفردة واذا تركبت تحتاج في فهمها الى استنباط (وأما) ما ورد من ذلك شعرا فكقول أبي تمام

ولهت فأظلم كل شيء دونها * وأنار منها كل شيء مظلم

فان الوله والظلام والانارة كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت بجملته يحتاج في فهمه الى استنباط والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بيني وبينها لما نالني من الجزع لولهها كما قول الجازع أظلمت الارض علي أي اني صرت كالاعمى الذي لا يبصر وأما قوله وأنار منها كل شيء مظلم أي وضح لي منها ما كان مستترا عني من حبها اياي وكذلك ورد قول أبي عبادة البحتري في مهزم

اذا سار بهما عاد ظهرا عدوه * وكان الصديق بكرة ذلك السهب

فان السير والسهب والظهر والعدو والصديق كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت

بعضه وبعضه يحتاج معناه الى استنباط والمراد أن هذا المهزوم يرى ما بين يديه
محبوبا اليه وما خلفه مكروها عنده لانه يطلب النجاء فيؤثر البعد مما خلفه
والقرب مما أمامه فاذا قطع سهبا وخلفه وراءه صار عنده كالعدو وقبل أن يقطعه
كان له صديقا أي يطلب انقضاءه ويحب البعد عنه فانظر أيها المتأمل الى ما ذكرته
من هذه الامثلة حتى يثبت عندك ما أردت بيانه (وأما البلاغة) فان أصلها في
وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ الشيء
منتهاه وسمي الكلام بليغا من ذلك أي أنه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية
والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالانسان من
الحيوان فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال كل
كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه
آخر غير الخاص والعام وهو أنها لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب
فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة
اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن وأما وصف البلاغة فلا
يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاما (مسئلة تتعلق بهذا الفصل)
هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب
أم بالنظر وقضية العقل (الجواب) عن ذلك انا نقول لم يؤخذ علم البيان
بالاستقراء فان العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين اما
أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل أو
أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على
أسرار اللغة ومعرفة جيدها من رديئها وحسنها من قبيحها فكذلك هو الذي
أذهب اليه وان كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فهذا يتسلسل الى أول
من ابتدعه ولم يستقره فان كل منه من اللغات لا تخلو من وصفي الفصاحة
والبلاغة المختصين بالالفاظ والمعاني الا أن اللغة العربية مزية على غيرها لما فيها
من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها (مسئلة أخرى تتعلق بهذا
الفصل أيضا) هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو أم لا
(الجواب) عن ذلك أنا نقول الفرق بينهما ظاهر وذاك أن أقسام النحو أخذت
من واضعها بالتقليد حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ولما كان

العقل يأباه ولا ينكره فانه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا قلد في ذلك كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك لانه استنبط بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة ولم يفتقر فيه الى التوقيف منه بل أخذت ألفاظ ومعان على هيئة مخصوصة وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها فان كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن اخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من اخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه (فان قيل) لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الادلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعا والمفعول منصوبا (فالجواب) عن ذلك أنا نقول هذه الادلة واهية لا تثبت على محك الجدل فان هؤلاء الذين تصدوا لاقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل أبداه لهم فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا والا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التي دعت الواضع الى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها

(الفصل التاسع في أركان الكتابة) اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا (أما) شرائطها فكثيرة وهذا التأليف موضوع لمجموعها وللقسم الآخر من الكلام المنظوم وليس يلزم الكاتب أن يأتي بالجميع في كتاب واحد بل يأتي بكل نوع من أنواعها في موضعه الذي يليق به كما أرشدنا فيما يأتي من هذا التأليف (وأما) الاركان التي لابد من ايداعها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فخمسة (الاول) أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة فان الكاتب من أجاد المطلع والمقطع أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب ولهذا باب يسمى باب المبادي والافتتاحات فليحذ حذوه وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الثاني) أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب وقد نبهنا على طرف من ذلك في باب يخصه فليطلب من هنالك وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته وكثيرا ما تجده في مكاتباتي التي أنشأتها فاني قصدته فيها وتوخيته بخلاف غيري من الكتاب لانه ربما يوجد في كتابة غيري قليلا وتجده في كتابتي كثيرا (الركن الثالث) أن يكون خروج الكاتب من معنى الى معنى

رابطة اشتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض ولا تكون مقتضبة ولذلك بات مفرداً أيضاً يسمى باب التخلص والاقتضاب وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الرابع) أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيب فاحش بل أريد أن تكون الالفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس وهي مما في أيدي الناس وهنالك معترك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها والاقلام شجاعتها كما قال البحتري

باللفظ يقرب فهمه في بعده • منا ويبعد نيله في قربه

وهذا الموضع بعيد المنال كثير الاشكال يحتاج الى لطف ذوق وشهامة خاطر وهو شبيه بالشيء الذي يقال انه لا داخل العالم ولا خارج العالم فلفظه هو الذي يستعمل وليس بالذي يستعمل أي أن مفردات ألفاظه هي المستعملة المألوفة ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب واذا انتهى أيها الكاتب الى هذه الدرجة واستطعمت طعم هذا الكلام المشار اليه علمت حينئذ أنه كالروح الساكنة في بدنك التي قال الله فيها قل الروح من أمر ربي وليس كل خاطر براق الى هذه الدرجة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ومع هذا فلا تظنن أيها الناظر في كتابي أني أردت بهذا القول اهمال جانب المعاني بحيث تؤتي باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه فانه اذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها الا أن صاحبها بليد أبله والمراد أن تكون هذه الالفاظ المشار اليها حسنة المعنى شريف على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت اليه أيسر من تحصيل الالفاظ المشار اليها (ويحكى) عن المعتز رحمه الله تعالى أنه قال ليس أحد في زماني الا وهو يسألني عن مشكل من معاني القرآن أو مشكل من معاني الحديث النبوي أو غير ذلك من مشكلات علم العربية فأنا امام الناس في زماني هذا واذا عرضت لي حاجة الى بعض اخواني وأردت أن أكتب اليه شيأ في أمرها أحجم عن ذلك لاني أرتب المعنى في نفسي ثم أحاول ان أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ولقد صدق في قوله هذا وأنصف غاية الانصاف ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع وما منهم الا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره

بالمعنى الدقيق ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين فالعبارة عن المعاني
هي التي تخلب بها العقول وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني
فانه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علما من العلوم أن يكون ذكيا بالفطرة واستخراج
المعاني انما هو بالذكاء لا بتعلم العلم ولقد رأيت قوما ببغداد من رعاع العامة
يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك
في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب
وسمعت شيئا منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة ومعاني غريبة وان لم تكن
الالفاظ التي صيغت به صيغة وهذا الركن أيضا يشترك فيه الكاتب والشاعر
(الركن الخامس) أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم
والاخبار النبوية فانها معدن الفصاحة والبلاغة وايراد ذلك على الوجه الذي
أشرت اليه في الفصل الذي يلي هذا الفصل من حل معاني القرآن الكريم
والاخبار النبوية أحسن من ايراده على وجه التضمين وتوخيت ذلك في كل كتاب
عسر حدا أو ما انفردت بذلك دون غيري من الكتاب فاني استعملته في كل
كتاب حتى انه ليأتي في الكتاب الواحد في عدة مواضع منه ولقد أنشأت تقليدا
لبعض الملوك مما يكتب من ديوان الخلافة ثم اني اعتبرت ما أوردت فيه من معاني
الآيات والاخبار النبوية فكان ما يزيد على الخمسين وهذا لا أتكلفه تكلفا وانما
يأتي على حسب ما يقتضيه الموضع الذي يذكر فيه وقد عرفتك أيها الكاتب كيف
تستعمل ما تستعمله من ذلك في الفصل الذي يأتي بعد هذا الفصل فخذه من هناك
وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر لان الشاعر لا يلزمه ذلك اذ الشعر
أكثره مدائح وأيضا فانه لا يتمكن من صوغ معاني القرآن والاخبار في المنظوم
كما يتمكن منه في المنثور ولربما أمكن ذلك في الشيء اليسير في بعض الاحيان
(واذا) استكملت معرفة هذه الاركان الخمسة وأتيت بها في كل كتاب بلاغي ذي
شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ووجب لك أن تسمى بعد ذلك كاتبا
(الفصل العاشر في الطريق الى تعلم الكتابة) هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها
وما رأيت أحدا تكلم فيه بشيء ولما هديت الى هذه الفضيلة ولعمر الله انها
ما تلقى وجدت الطريق ينقسم فيها الى ثلاث شعب (الاولى) أن يتصفح
الكاتب كتابة المتقدمين ويطلع على أوضاعهم في استعمال الالفاظ والمعاني

ثم يجد وجه وهم وهذه أدنى الطبقات عندي (الثانية) أن يمزج كتابة المتقدمين
بما يستجده لنفسه من زيادة حسنة إما في تركيب ألفاظ أو في تركيب معان
وهذه هي الطبقة الوسطى وهي أعلى من التي قبلها (الثالثة) أن لا يتصفح كتابة
المتقدمين ولا يطلع على شيء منها بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير
من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة
في المعاني والألفاظ ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة أعني القرآن والأخبار
النبوية والأشعار فيقوم ويقعد ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدي حتى يستقيم على
طريقة يفتتحها لنفسه وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة
لأحد من المتقدمين فيها وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما
في فن الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهم وغيرهم
من الأئمة المجتهدين في علم الفقه إلا أنها مستوعرة جدا ولا يستطيعها إلا من رزقه
الله تعالى لسانا هجاما وخاطرا رقاما وقد سهلت لك صعابها وذللت مصاعبها
وكنت أنجم ما طلعت وذلك لما عانيت من نيله من العناء فإني سلكت إليه كل طريق
حتى بلغته آخرا وإنما تكون نفاسة الأشياء العزيزة حصولها بمشقة وصولها

ليس حلوا وجود الشيء تطلبه * طلابا حتى يعز طلابه

ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها وأظفرتني بكنوز
جواهرها إذ لم يظفر غيري بأحجارها فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا حل
آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية وحل الأبيات الشعرية وقد قصرت هذا
الفصل على ذكر وجوهها وتقسيمها وتمهيد الطريق إلى تعلمها فمن وقف على
ما ذكرته علم أني لم آت شيئا فريا وإن الله قد جعل تحت خواطري من بنات
الأفكار سريا وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة
والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والأطراف ويقنع من لآليها بغروره ما في
الأصداف ولو استخرج منها ما استخرجت واستنتج ما استنتجت لهام
في كل واد وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد

لو يسمعون كما سمعت كلامها * خروا لعزة ركعا وسجودا

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا في كتابته بما يستخرجه من
القرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر بحيث إنه لا ينشئ كتابا إلا من ذلك بل

أريد أنه اذا احفظ القرآن الكريم وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دفائنه وقلبه ظهرا لبطن عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر الى معرفة آيات الأحكام وأخبار الأحكام والى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة والى معرفة علم العربية والى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول من أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها والى معرفة اجماع الصحابة فهذه أدوات الاجتهاد فاذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه اليه اجتهاده كما فعل أبو حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد وكذلك يجري الحكم في الكاتب اذا أحب الترقي الى درجة الاجتهاد في الكتابة فانه يحتاج الى أشياء كثيرة قد ذكرتها في صدر كتابي هذا الا أن رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء هي حفظ القرآن الكريم والاكثار من حفظ الأخبار النبوية والأشعار *

وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع فأول ما أبدأ به على عقب ذلك أن أقول حل الأبيات الشعرية ينقسم الى ثلاثة أقسام (الأول) منها وهو أدناها مرتبة أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة وهذا عيب فاحش ومثاله كمن أخذ عقدا قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوهاه وبدده وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقدا الى صورة أخرى مثله أو أحسن منه وأيضا فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجنا لا مستحسنا كقوله في بعض أبيات الحماسة

والذي حنق علي كأنما * تغلي عداوة صدره في مرجل
أرجيته عني فأبصر قصده * وكويته فوق النواظر من عل

(فقال) في نثر هذين البيتين وكم لي الذي حنق كأنه ينظر الى الكواكب من عل وتغلي عداوة صدره في مرجل فكويته فوق ناظريه وأكببته لفمه ويديه فلم يرد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئا لا يمكن تغيير لفظه فحينئذ يعذر ناثره اذا أتى بذلك اللفظ ومثاله قول الشاعر في

أوّل الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(وقد) نثرت ذلك فقلت لست ممن تستبيح ابلى بنو اللقيطة ولا الذى اذا اهتم بأمر كانت الآمال اليه وسيطة ولكنى أجل الهمل وأقرب الامل وأقول سق السيف العدل فذكرى اللقيطة ههنا لا بدّ منه على حسب ما ذكره الشاعر وكذلك الامثال السائرة فانه لابدّ من ذكرها على ما جاءت فى الشعر (وأما القسم الثانى) وهو وسط بين الاول والثالث فى المرتبة وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعبر عن البعض بألفاظ أخر وههنا تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة فانه اذا أخذ لفظ الشاعر مجيد قد نقحه وصححه وقربه من الابلاغه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن والطريق المسلوك الى هذا القسم أن تأخذ بعض بيت من الابيات الشعرية هو أحسن ما فيه ثم تماثله وسأورد ههنا مثالا واحدا ليكون قدوة للمتعلم (فأقول) قد ورد هذا البيت من شعر أبى تمام فى وصف قصيدة له

وحذاء تملأ كل أذن حكمة * وبلاغة وتدر كل وريد

فقوله تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن وهو أحسن ما فى البيت فاذا أردت أن تنثر هذا المعنى ولا بدّ من استعمال لفظه بعينه لانه فى الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله وهذا عسر جدا وهو عندى أصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه لانه مسلك مضيق لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر الى مؤاخاته وقد نثرت هذه الكلمات المشار اليها وأتيت بما يجله كتاب فقلت وكلامى قد عرف بين الناس واشتهر وفاق مسير الشمس والقمر واذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامة وأمن من سرقته اذ لو سرق لدلت عليه الوسامة ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمة ويجعل فصاحة كل لسان عجمة واذا جرت نفثاته فى الاوهام قالت أهذه بنت فكرة أم بنت كرمة فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع فانى لما أخذت تلك الكلمات من البيت

الشعري التزمت بأن آتي بها عادها ومثلها أو أحسن منها حيث بهذا الفصل كما تراه وكذلك ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله (وأما القسم الثالث) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه وثم يتبين حذق الصائغ في صياغته ويعلم مقدار تصرفه في صناعته فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية والا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الاول (واعلم) أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لسارقه فيورده بضروب من العبارات وذلك عندي شبيه بالمسائل السيالة في الحساب التي يجاب عنها بعدة من الاجوبة ومن الابيات ما يضيق فيه المجال حتى ليكاد الماهر في هذه الصناعة ان لا يخرج عن ذلك اللفظ وانما يكون هذا لعدم النظير * فأما ما يتسع المجال في سرقه فكقول أبي الطيب المتنبي

لا تعذل المشتاق في أشواقه * حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد نثرت هذا المعنى في ذلك فقولي لا تعذل المحب فيما يهواه حتى تطوي القلب على ما طواه ومن ذلك وجه آخر وهو اذا استوت القدمان في الخطر فالعذل ضرب من الهذر ومن هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي أيضا

ان القتيل مضرجا بدموعه * مثل القتيل مضرجا بدمائه

أخذت هذا المعنى فنثرته في ذلك فقولي القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون غير أن ذلك لا يجرد من غمده ولا يقاد صاحبه بعمده فزدت على المعنى الذي تضمنه البيت وغيرت اللفظ ومن ذلك وجه آخر وهو دمع المحب ودم القتيل متفقان في التشبيه والتمثيل ولا تجد بينهما بونا الا انهما يختلفان لونا وهذا أحسن من الاول * وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على السارق تبديل ألفاظه فكقول أبي تمام

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى * لها الليل الا وهي من سندس خضر

وقول أبي الطيب المتنبي

وكان بها مثل الجنون فأصبحت * ومن جثث القتلى عليها تمائم

وأمثال هذا لا تأتي الا قليلا وسببه أن المعنى ينحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي الا هكذا كهذين البيتين ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب من الاحمر والاخضر وجاء ذلك واقعا على المعنى الذي أراده من لون ثياب

القتلى وثياب الجنة فاذا ابتدأت نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك وبيت أبى الطيب جار هذا المجرى فانه بناه على واقعة من الوقائع وذلك أن حصنا من حصون سيف الدولة قصده الروم وانتزعوه وأخربوه فنهد سيف الدولة اليه واسترجعه وجدد بناءه وهزم الروم ونصب من جثث القتلى على السور فنظم المتنبى فى هذا قصيدة أولها * على قدر أهل العزم تأتى العزائم * فلما انتهى الى ذكر الحصن جاء بهذا البيت فى جملة أبيات فشرح صورة الحال فى ارعاج الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه وأبرز ذلك فى معنى التمثيل بالجنون والتمائم وهذا لا يمكن تبديل لفظه وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة فى فك نظامه لانه يتصدى لنثره بألفاظه فان كان عنده قوة تصرف وبسطة عبارة فانه يأتى به حسنا رائقا وقد نثرت هذين البيتين أما بيت أبى تمام فانى قلت فى نثره لم تكسه المنايا نسج شعارها حتى كسته الجنة نسج شعارها فبدل أحمر ثوبه بأخضره وكأس حمامه بكاس كوثره وهذا من الحسن على غاية يكون كمد حسودها من جملة شهودها وأما بيت أبى الطيب المتنبى فانى قلت فى نثره سرى الى حصن كذا مستعيدا منه سبية رعها العدو واختلاسا وأخذها مخادعة لا افتراسا فما زالها حتى استقادها ولا زالها حتى استعادها وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم وعلق عليها من رؤس القتلى تمائم وفى هذا من الحسن ما لا خفاء به فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا والا فليترك وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر وأبرزته فى صورة أخرى وذلك أنى أضفت الى هذا البيت البيت الذى قبله وهو

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا * وموج المنايا حولها متلاطم

ولما نثرت هذين البيتين قلت فى نثرهما ما أذكره وهو بناها والاسنة فى بنائها متقاصفة وأمواج المنايا فوق أيدى البانين متلاطمة وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من الرؤس والاجساد ولا شك أن الحرب تعتزيها مثل عزمات جبانه ونقول الا هكذا فليكسب المجد كاسبه وهذا أحسن من الاول وأتم معنى * وقد تصرفت فى هذا الموضع بزيادة فى معناه ونثرته على أسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت بناها ودون ذلك البناء شوك الاسل وطوفان المنايا الذى لا يقال سآوى منه الى جبل

ولم يكن سناؤها الا بعد أن هدمت رؤس عن أعناق وكأنما أصبحت بجنون فعلقت
القتلى عليها مكان التمائم أو نيطت بعطل فعلقت مكان الأطواق وهذا الفصل
فيه زيادة على الفصل الذي قبله * واذا انتهى بنا الكلام الى ههنا في التنبيه على
نثر الشعر وكيفية نثره وذكر ما سهل منه وما يعسر ولنتبع ذلك بقول كلي في هذا
الباب فنقول من أحب أن يكون كاتباً أو كان عنده طبع مجيب فعليه
بحفظ الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم يأخذ في نثر الشعر من
محفوظاته وطريقه أن يبتدئ فيأخذ قصيدا من القصائد فينثره بيتاً بيتاً على
التوالي ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها فانه
لا يستطيع الا ذلك واذا مرنت نفسه وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة
وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا
من العبارات المختلفة وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعاني لقاح فيستنتج منها
معاني غير تلك المعاني وسبيله أن يكثر الادمان ليلاً ونهاراً ولا يزال على ذلك مدة
طويلة حتى يصير له ملكة فاذا كتب كتاباً أو خطب خطبة تدفقت المعاني في أثناء
كلامه وجاءت ألفاظه مطبوعة لا مصنوعة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص
رقصاً وهذا شيء خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير (فان قيل) الكلام قسمان
منظوم ومنثور ولم حضضت على حفظ المنظوم وجعلته مادة للمنثور وهلا كان
الامر بالعكس (قلت) في الجواب ان الاشعار أكثر والمعاني فيها أغزر وسبب
ذلك أن العرب الذين هم أصل الفصاحة كان جل كلامهم شعراً ولا نجد الكلام
المنثور في كلامهم الا يسيرا ولو كثر فانه لم ينقل عنهم بل المنقول عنهم هو الشعر
فأودعوا أشعارهم كل المعاني كما قال الله تعالى ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ثم جاء
الطراز الاول من المخضرمين فلم يكن لهم الا الشعر ثم استمرت الحال على ذلك وكان
الشعر هو الاكثر والكلام المنثور بالنسبة اليه قطرة من بحر ولهذا صارت المعاني
كلها مودعة في الاشعار وحيث كانت بهذه الصورة فكان حثي على حفظها
واستعمال معانيها في الخطب والمكاتبات لهذا السبب وقد نثرت في هذا الموضع
أبياتاً لتكون قدوة للمتعلم فمن ذلك قولي في فصل من فصول الكلام يتضمن
ذكر السيادة وهو الشريف من شرف بنفسه لا عاد من مع أبيه في رمسه
فان تلك مكارم أتت فضل الزمان بما أتاها ثم مات أربابها فدفنت مع موتاها

ولو ساد الناس بآبائهم لكانت السيادة للطبقة الاولى ولقد حاق الابناء من الآباء مجهولا وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر

وما الفخر بالعظم الرميم وانما * فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

غير أن الفصل الذي ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ما تضمنه هذا البيت (ومن ذلك) ما كتبته في فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لاخوته وتنصله اليهم فقلت جرحوا اقلي وهم يذهبون بألم الجراحة وطرفوا عيني وهم يريدون في نظرها ملاحة واذا صدرت الاساءة عن الاحباب لم يكن وقرها وقرا وأصبحت وهي منسية اذا تجددت الاساءة بالذكرى وما منهم الا من سبط دمي بدمه ولحمي بلحمه ولولا أن الاسماء معارف الاشخاص لكان اسمي واردا على اسمه وكيف أخشن عليهم وقد جبلني الله لهم على اللين أم كيف اذود النفس عنهم وهي مشتقة منهم وآدم بين الماء والطين ومتى أؤمل من شجر في أغصانا كهذه الاغصان وقد أصبحت جرثومتها الاجداد ولهذا قيل ان الاخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الاولاد آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله

تعزيت عمن أعوزتك حياته * ووشك التعزي عن نظائرك أجدر

تعذر أن نعتاض عن أمهاتنا * وأبنائنا والنسل لا يتعذر

غير أن ابن الرومي ذكر ذلك في تعزية انسان بابنه فتصرفت أنا في هذا المعنى ونقلته الى هذا الفصل في تضمنه معاتبة أخ لاخوته (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب فقلت والعيش كل العيش في سن الحداثة وما يأتي بعدها فلا يدعى الا سن الغثاثة وليس بعد الاربعين من مصيف للذة ولا مربع وهي نهاية القوة الصالحة من الطبائع الاربع فاذا تجاوزها المرء أشمت عاذره على حرصها وصارت زيادته كزيادة التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها وأصبح بعد ذلك يدعى أبا بعد ان كان يدعى ابنا وتقمص ثوبا من المشيب لا يجر ثوبه خيلاء ولا يرى به حسنا وان قيل ان أحسن الثياب شعارا البياض قيل الا هذا الثوب فانه مستثنى ويكفيه من الفظاعة أن ينظر الاحباب اليه نظر القتال ولولا أن الجود بعده لما استعير له لفظة الاشتعال ومن الناس من يدلس لونه بصبغة الخضاب وليس ذلك الا حدادا على فقد الشباب وهو في فعله هذا

كاذب ولا يخفى أنس الصادق من وحشة الكذاب وخداع النفس ان تسلو عن أثر المعطلة وقصره المشيد ويحسن اليها الخروج فى ثوب مرقع وهى تراه بعين الثوب الجديد وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى وهو قوله

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه * حدادا على شرخ الشبيبة يلبس

غير أن فى هذا الفصل معانى كثيرة لطيفة لا توجد فى كلام آخر (ومن ذلك) قولى فى وصف الجود والسخاء وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة فمنها قولى فى العطاء وهو شافهتنى أسباب الغنى برؤيته حتى كادت تنطق واخضرت أكناف مرلى بعطائه حتى كادت تورق ومن فضيلة كرمه أنه لا يأتى به على أعين الناس واذا غرسه عند انسان رب ذلك الغراس فلا يستكثر ما جادت به سحاب يده ولا يمنعه عطاء يومه عن عطاء غده وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا * لم يهدموا لبنائهم أساسا

ومن هذا المعنى أيضا قولى وهو أحد المكارم من سمائها وأرضها وقام بنقلها فى الناس وفرضها وتجلى بعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسد البعضها فالمحرم للعائذ بحرمه وصفر للطامع فى سعادة قدمه وربيع لرائد نواله ورجب لاقوال عذاله وهذا مأخوذ من قول الفرزدق

بدا لى بذر ربيع الناس فيها * وفى الاخرى الشهور من المحرم

وقد قال الشعراء فى ذلك كثيرا الا أنى أنا تصرفت فى هذا المعنى تصرفا لم يتصرف فيه أحد غيرى (ومن هذا المعنى) ما ذكرته فى فصل من كتاب وهو ولقد سوى بين أعدائه فى البغض وبين أمواله فهذه معيبة بوقع نصاله وهذه معيبة بصنائع نواله ولو أحب المال لكان أحبه اليه ما يبذله كما أن أحب الناس اليه من يسأله ومن أحسن ما فيه من الكرم أنه جاد حتى بدل رغب العارفين رهدا ورأى الجدعو صامن الصنيعة وأبى أن يعتاض من صنائعه حمدا وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس وهو

ان اعدائى كانوا * لابى اسحق مالا

(ومن ذلك) قولى فى وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والانجاد وما يتعلق بذلك ويجرى معه وهذا الفصل يشتمل على معان مختلفة (فمن ذلك) ما ذكرته فى وصف العسكر وهو فسر بانى عمامة من الكتائب تظلها عمامة

من الطيور الاشائب فهذه يضمها نحرمن حديد وهذه يضمها نار من صعيد وما مرت بلاد الا زالت أرضه من سمائه وألبست نهاره ثوب ظلمائه وبدلت احراره بعبيده وحرائره بامائه وكذلك فعلت عدية فلانة وقد ضرب الامن عليها أسوارا وعهدها بالنوائب لم تدخل لها ديارا فهي تخبر عن بلهنية الخفض ولم ترع عنه بالانتقال ولا رأت السيف وقد ألقى لونه في ذوائب الاطفال هنا شعر أهلها الا وقد رجها الجيش بكلكله ورماها بوابل قسطله وطل السحابة قسطل وابله وبرزت خيل القوم ولهارى بفرسانها وهي مشتاقة الى طرادها كاشتياقها الى ميدانها وما منهم الامن تتأود القناة من يده بين لهذمين وتستقل السرج منه ومن جواده بين مطهمين فخرت المغافير الى المعافير وتلاقت الرياح بالاعاصير وكان الطعن بينهم عناقا واللبث وفاقا وسقى ألم الموت ألم الجراح ومدت غير مختصة أسرعتها أسنة الرماح وحصل القوم القصة ودموا عقبى النهضة وجيء بالاسرى مقرنين في الاصفاد موقنين أن رؤسهم عوارى على تلك الاجساد ولو استطاع رأس أحدهم أن يسكر عنقه لاذكره ولا يوده وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره وتصرفت أيدى المسلمين في القتل والنهاب وكان للسيف رقاب وللسيوف رقاب في هذا الفصل معان كثيرة مستحسنة ومنها ما أخذ من شعر المتنبي كقوله

سحاب من العقبان ترحف تحتها * سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وكقوله

واستعار الحديد لونا وألقى * لونه في ذوائب الاطفال

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف المسلوبين في فصل من جملة كتاب يتضمن البشرى بهزيمة الكفار وهو فسلبوا وعاصتهم الدماء عن اللباس فهم في صورة عار وزيهم زى كاس وما أسرع ما خيط لهم لباسها الحمر غير أنه لم يجب عليهم ولم يزر وما السوء حتى لبس الاسلام شعار النصر الباقي على الدهر وهو شعار نسجه اللسان الخارق لا الصنع الحاذق ولم يعب عن لابسه الا ريثما غابت البيض في الطلى والهام وألف الطعن بين ألف الخط واللام وهذه معان حسنة رائقة ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحترى وهو

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم * محمرة فكأنهم لم يسلبوا

(ومن ذلك) ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن فتحا وهو أصدرت هذا الكتاب والفتح غض طرى لم تنصل حمرة يومه ولا أغمدت سيوف قومه فسطوره مترّبة غبار عجاجه ممثلة بخط ضربه وإعجام رماحه وهذا المعنى ينظر الى قول أبى تمام

كتبت أوجههم مشقا ونمنمة * ضربا وطعنا يقد الهام والصلفا

كتابة ماتنى مقروءة أبدا * وما خطت بها لاما ولا ألفا

الا أن ابا تمام مثل آثار الضرب والطعن فى الوجوه بالكتابة وأنا مثلت الكتابة وإعجامه بالضرب والطعن فكأنى عكست المعنى الذى ذكره أبو تمام وهذا مقصد فى حل الابيات الشعرية حسن فان استخراج المعنى من عكسه أدق من استخراجه من نفسه وقد نبهت على ذلك فى مواضع اخر من هذا الباب (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن هزيمة الكفار وهو وأقبلت احزاب الكفر وهى معتصمة بصلبها ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطبها ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة وأنه ذو شعب أربع والتربع نحس فى حكم النجامة وكيف تربو بكفرها طهورا ولها منه معنى الاحتداء وللاسلام معنى السلامة ولما التقى الجمعان اصطفقت يمين وشمال ورجعت جبال الى جبال وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفى بالآجال وأقدمت الخيل اقدام فرسانها وأظلم النقع فلم تبصر الابآذانها وبانت الصدور ثارها من كعوب الرماح واشتكت الاسنة فلا طريق بينها لمهب الرياح واستؤصلت شجرة الكافرين بالقطع لا بالجداد وحال حد السيف دون حديد الاصفاد ونقلوا الى جهنم بصلوبها وبئس المهاد وانقلب المسلمون وقد ملؤا الاعماد نصرا والعصائب أسرا والايدى وقرا والقلوب جذلا والالسنة شكرا وكان ذلك اليوم فى الايام علما وفى الاقسام قسما ولم يره الزمان منسوبا اليه الا راجع شبابا بعد أن نام هرما فى هذا الفصل شئ من معانى الشعر وذلك من قول أبى الطيب المتنبى

أتاهم بأوسع من أرضهم * طوال السبيب قصار العسب

تغيب الشواهق فى جيشه * وتبدو صغارا اذا لم تغب

ولا تعبر الريح فى جوه * اذا لم تخط القنا أو تثب

(ومن قوله أيضا)

في محفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

(ومن ذلك) ما ذكرته في الانجاد وإجابة الصريخ وهو إذا استصرخ أصرخ بعزم غدته صحة الجيش عن لذة العيش فهو يستعذب حر الثغور على برد الثغور ويلهو بالبيض الذكور عن بيض الخدور ولا طيب عنده إلا أريج العجاج ولا عناق إلا أطراف الرماح ولا أرب له في الرقاد إلا على صهوات الجياد فعسكر قلبه أمضى في الوغى من عسكر ونجدة بأسه تأبى لقاء الأقران في درع أو مغفر وهذه المعاني مأخوذة من أبيات الحماسة ومن شعر مسلم بن الوليد (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف المجرد دون المطر وهو إذا سموت لأمر فكن واحدا في مكانك ولا ترض بكثرة الشركاء فيقال فلان من أقرانك ألم تر إلى الحرباء الذي هو دويبة حقيرة الشان ضعيفة الأركان فإنه ارتفع في هواه عن الأرض وأنسها إلى السماء وشمسها وقال لا أحب من تفسد الأيام من حسنه ولا من أخذ سمة حليه ولا حذنه والهمم ليست منوطة بنضارة المناظر والتعويل على الجوهر المستتر في الأفئدة الباطنة لا على الظواهر ومن ههنا قيل إن وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الأجساد ورقم الشيم أحسن من رقم الأبراد وآخر هذا الفصل ينظر إلى قول سحيم عبد بني الحسحاس

إن كنت عبدا فنفسي حرة كرما * أو أسود اللون إني أبيض الخلق

إلا أن الفصل يتضمن معنى غريبا لم يسبقني إليه أحد (ومن ذلك) ما ذكرته في الحسد في فصل من كتاب وهو حاسد سيدنا ينظر إلى زهرة دنياه ولا ينظر إلى استحقاقه وهو كالناظر إلى الأطواق الموضوعة في الجيد ولا يدري أن الجيد أحسن من أطواقه ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الحسد من صدره وقال ما لي أحسد من لم يبلغ قدر دنياه إلى معشار قدره (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن الاعتذار عن تواتر المكاتبات وهو إذا اعتذر من انقطاع الكتب اعتذر الخادم من اتصالها ولو كانت واردة على غير ذلك الباب الكريم لخاف من إملالها وقد عد احتمال تثقيلها من جملة الأيادي التي أثقلته وأراد أن يجري معها سوابق شكره وأعجلته وما أمهلته وهو الآن مرتهن بين قديم وجديد وأصبح كخراش إذ تكاثرت عليه الظباء فلم يدر

لكثرتهم ما يصيد فان أمسك سيدنا من أياديه والا فليتوصل على الشكر بالانتظار واعلم أن ذمة وفائه كذمة ديوان المال في الاعسار هذا فصل في هذا المعنى قلما يؤتى بمثله وفيه معنى واحد من قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش * فما يدرى خراش ما يصيد

(ومن ذلك) ما ذكرته في استصلاح مودة فقلت كنت عنده بالمنزلة التي آمن بها ما أجنيه فصرت أخاف مالم أجنه وكان لا يقبل على شهادة عينه وأصبح الآن يقبل على شهادة أذنه لكن لم يجعل الله القلوب بين اصبعين من أصابعه الا ليذهب بها كل واد ومن ههنا كانت تنتقل من وداد الى قلى ومن قلى الى وداد ولا شك أن لهاتين الحالتين عمرا تنتهي اليه كما تنتهي أعمار الاجساد والصبر خير ما استعمل في جفاء الاخوان والماء اذا جرى في مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود الى ذلك المكان وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي

عهدتك لا تعتد بالعين شاهدا * على فلم أصبحت تعتد بالاذن

(ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الملوك على يد بعض العفاة وهو الشيم الكريمة للانسان بمنزلة المسك في سرر الغزلان غير أن طيب هذه يعبق بالانوف وطيب هذه يعبق بالآذان وقد جعل تفاوت المرية بين هذين الطيبين فرقا فأحدهما يبقى دائما ولا يذهب والآخر يذهب ولا يبقى ونصيب مولانا من الطيب الباقي نصيب ركبت معادنه وكثرت خزائنه وسارت في الارض محاسنه ورفعه الله به الى محل يبعد شأوه على الطالب ولا يرى الا في لسان شاعر أو لسان خاطب وهو مما استثنى من خلق الناس الذي هو من طين لازب ومن أجل ذلك يرون أشباهها أعداه وما منهم الا من يقر بفضله ولو كان من حساده أو عداه وقد أصبحوا وهم يقولون لديه حين يكثرون ويقول كل منهم لصاحبه أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون هذا الفصل وان تضمن شيأ من القرآن الكريم فليس المراد ههنا القرآن الكريم بل فيه شئ مأخوذ من الشعر وهو قول المتنبي

الناس مالم يروك أشباه * والدهر لفظ وأنت معناه

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الخمر وهو الخمر لا تفي لذة اسكارها بقبح عارها وهي حرفاء البيان بدية اللسان وتأتيها بذلك أنها من ناقصات العقول

والاديان وقد عرف مهابة الجور فى أحكامها ولولا ذلك لما استأثرت من الرؤس بحماية اقدامها وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف لانه قال

ذكرت حقائدها القديمة اذ غدت * وهما تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا فتحكمت * فيهم فادت منهم بالثار

وكذلك قال فى وصفها أيضا وهو مدامة تنفى خواطر الهموم وتسرى مسرى الارواح فى الجسوم وتشهد بأن الكرم مشتق من ماء الكروم وتشتعل حببها نجوما الا أنها مضلة والهداية للنجوم وبعض هذا مأخوذ من قول أبى نواس

اذا هى حلت فى اللهاة من الفتى * دعى همه من صدره برحيل

ومازال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى سمح لكن الذى ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعانى فى وصفها وكذلك ما ذكرته فى وصفها وهو الخمر كالعذراء فى نفورها وملازمة خدورها ولهذا تشمئز من نكاح المزاج وتصحب لمس الماء صحب الابكار لمس الازواج ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف اكليلا على راسها وكذلك شأن العرائس عند زفافها الى أعراسها وهذه المماثلة بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيرى وانما وصفت بما ذكر كقول أبى نواس

فقلت لشيخ منهم متكلم * له دين قسيس وفى نطقه كفر
أعندك بكر مرة الطعم قرقف * صنيعة دهقان تراخى له العمر
فقال عروس كان كسرى ربيبها * ممنعة من دونها الباب والستر

(ووصفت) بالنكاح والزواج كقوله أيضا

وقهوة كالعقيق صافية * يطير من كأسها لها شرر
زوجتها الماء كى تذلله * فامتنعت حين مسها الذكر

(ومن ذلك) ما ذكرته فى الحزم وهو لا ينبغى للحازم أن يساور المورد المؤذن بضيقه وان أفضى الصدر الى رحيبه فان توقى الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه ولا يدع قول من يقعد على تل السلامة ثم يلبس الكتائب بالكتائب ويقول ليس للعزم الا تمام الصدور وليس له تمام العواقب بعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام

وركب كاطراف الاسنة عرسوا * على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم أن يتم صدوره * وليس عليهم أن تتم عواقبه

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الرأى والكيد وهو أخفى على العدو كيده حتى لم يدع كائدا وأعمى عليه سلوك الطريق حتى ظنه حائدا فسطوه تسطو على بعدها ولا تقطع الاوهي في غمدها وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبي تمام وهو

سكن الكيد فيهم ان من أعـ * ـظم كيد أن لا يسمى أريبا

(وكذلك) قولي في هذا المعنى وهو أخذ بسمع العدو وبصره وسد مطلع ورده وصدره فبداه مغلولة مع أنها مطلقة السراح ومقاتله بادية على أنها شاكية السلاح وهذا المعنى ينظر الى المعنى الذي قبله وكذلك قولي أيضا وهو يبيت برأيه العدو قبل جيشه وتلقاه بطيش قلمه الذي كل الحلم في طيشه فاذا أطلت وجوه الآراء كان رأيه لها صباحا واذا جهزت الجحافل لحرب كان قلمه لها سلاحا وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البحتري

وهو المرء ما غرا العدا بالرأى الا كفاه غزو الجنود

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف السير والركاب والخيل والقفار وما يتعلق بها (فمنه) ما يتعلق بالسير وهو وركب ظهر الليل فبارى مسيره شهبه في سير أشهبه ويستقرب بعد المدى في نيل مطلبه غير أن تلك تفرى أديم الغياهب وهذا يفرى أديم السباسب وهذا مأخوذ من قول المتنبي

يبارى نجوم القذف في كل ليلة * نجوم له منهن ورد وأدهم

(ومن هذا المعنى) أيضا قولي وهو اتخذ الليل ظهرا واستلان حشوته المسرى فلم يزل يقذف صبغه سواده بصبغة سواده حتى بدت في أديم الليل شيات صباحه وشابه الادهم في غرته وأوضاحه وعند ذلك أخذ أحدهما في رحيله وأخذ الآخر في نزوله وهذا المعنى ينظر الى الذي قبله وفيه من شرف الصنعة ما لا خفاء به (ومن ذلك) ما ذكرته أيضا في فصل من كتاب وهو سرت وتحتي ست قفره لا يذهب السرى بجماحها ولا تستزيد الحادى من مراحها فهى طموح باثناء الزمام واذا سارت بين الآكام قيل هذه واحدة من الآكام ولم تسم جسرة الا لانها تقطع عرض الفلاة كما يقطع الجسر عرض الماء ولا سميت حرفا الا لانها جاءت لمعنى في العزائم لا لمعنى في الافعال والاسماء وخلفها جنيب من الخيل يقبل بجذع ويدبر بصخره وينظر من عين محطة ويسمع باذن حشره

ويجرى مع الريح الزعزع فيبددها وقد ظهر فيها أثر القترة وما قيد حلها الا وهو يهتدى بها فى المسالك المضلة ويطأ على اثرها فيرقم وجوه المدر باشكال الاهلة هذا والليل قد ألقى جرانه ولم يبرح والكواكب قد ركدت فيه ولم تسبح وانا أود لو زاد طوله ولم تظهر غرة أدهمه ولا تحوله فقد قيل انه أدنى للسعد وأكتم للاسرار ودل عليه القول السوى بأن الارض تطوى فيه ما لا تطوى فى النهار ومازالت أسير بيدها تنوبه حتى كاد يصول لون السواد وظهر لون السرحان فأغار على سرح السماء كما يغير السرحان على سرح المقاد بعد ذلك نهلت العين من الكرى نهلة الطائر ولم يكن ذلك على ظهر الارض المطمئنة وانما كان على الظهر السائر فى هذا الفصل كل مليحة من المعانى ولو لم يكن فى هذا الكتاب سواه لكان كافيا وبعضه مأخوذ من الشعر كقول أبى تمام

طموح بانشاء الزمام كأنما * يجال بها من عدوها طيف جنة

وكقوله

بالشدقيات العتاق كأنما * أشباحها بين الاكام اكام

(ومن ذلك) ما ذكرته فى النسب فى فصل من كتاب وهو لهم نسب لا تدخله لام التعريف وهو موضوع لا يجرى على سنن التوقيف فاذا ذكرأوله وقفت من عرفانه على طائل ووجدته مهملا فى جملة الهمل وان قيل انه من نجوم السماء قلت لكنه لا يخرج عن الثور أو الحمل فما أرهف لوصفه لسان الانسان ولا اقتدح له زناد خاطر الا كان وهم فيه كآوى الذى يرى الناس له ابنا ولا يرون لابنه أبا وهذا من أغرب ما يؤتى به فى ذم النسب وهو من باب توليد المعانى الذى يسمى الكيمياء وبعضه مستولد من قول أبى نواس فى هجاء الخصيب

وما خبره الا كآوى يرى ابنه * ولم يرآوى فى حزون ولا سهل

فأبو نواس ذم خبز الخصيب فى عدم رؤيته وأنا نقلت ذلك الى النسب فجاء ألطف وأحسن وأليق وأدخل فى باب الصنعة واذا حقق النظر فيما ذكره أبو نواس فى هذا المعنى لم يوجد مناسبا فان الخبز فى عدم رؤيته لا يحمل على ابن آوى وانما المناسبة تقع فى النسب من أجل ذكر الابن والأب (ومن ذلك) ما ذكرته فى ذم قوم وهو فصل من كتاب فقلت ترك قوما لم ينفعوا صديقا ولم يضروا الى مدى فأعراضهم سكرة العارف وأموالهم حطة الناقف لا تظرهم

على كثرة نباتها ولا تركوا الربيعة بأرضهم على غبائها وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضي

تركت أناسا لم يهشوا لمنة * ولم يقعوا إلا على الظماء الخوامس

على القرب منهم إنني غير طامع * ومنك على بعد المدى غير آيس

ومن هذا الباب أيضا قولي وهو تركت قوما يسلون الحبيب ويملون القريب ولا يرعون من يرعاهم ولا يدر الناس على مرعاهم فنوالهم خبايا وأعراضهم ضحايا ومن أحسن صفاتهم أنهم يعافون على الطمع ولا يرتاحون لمنة فالذرائع لديهم مدفونة والصنائع غير مصونة وبعض هذه المعاني مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي

رأيتكم لا يصون العرض جاركم * ولا يدرّ على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل * وحظ كل محبّ منكم ضغن

(ومن ذلك) ما ذكرته على الحث على الاغتراب وهو لولا التغرب لما ارتقت بنات الأصداف إلى شرف الأعناق ولا ارتقى تراب الأحجار إلى نور الأحداق (وكذلك) قولي في هذا المعنى وهو في الانتقال تنويه لخامل الأقدار ولولا ذلك لم يكتس الهلال حلة الإبدار والمندل الرطب حطب في أوطانه والمسك دم في سرر غزلانه ولولا فراق السهم وتره لم يحظ بفضل الإصابة ولولا فراق الوشيج منبته لم يتحل بغرر السنان ولا شرف الذؤابة وهذا الفصل فصل من القول في معناه ومما لم ينسج للخواطر ابتداء مبناه فمنه ما هو مأخوذ من الشعر ومنه ما سمح به الخاطر على غير مثال وهو يشهد لنفسه (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الأيام وهو أيام تعد بأعوام لقصر أعمارها وشهور لا يشعر بإنصافها ولا سرارها فالأوقات بها أصائل والمحاسن فيها شمائل والمآرب في ساعاتها رياض في خمائل فما أدري أهي خيالات أحلام عنّت أم أحاديث أمان مرّت وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة

شهور ينقضين وما شعرنا * بإنصاف لهنّ ولا سرار

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الإخوان وهو ليس الصديق من عد سقطات قرينه وجاراه بغثه وسمينه بل الصديق من ماشى أخاه على عرجه واستقام له على عوجه فذلك الذي إن رأى سيئة وطئها بالقدم وإن رأى حسنة رفعها

على علم وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * عني وما سمعوا من صالح دفنوا

الأول الذي ذكرته ضد هذا المعنى وقد يستخرج المعنى من ضده وهو أحسن مما يستخرج من نفسه (ومن هذا) قولي أيضا وهو ليس الصديق من صرّى اخلاف وده وغش في صفقة عهده بل الصديق من لا ترد سلعة وده بإقالة ولا عيب ولا تخص محافظة أمانته شهادة دون غيب وذلك أخ من غير نسب وكثير من غير نشب وهذا مأخوذ من الفقه في تصرية ضرع الشاة عند البيع وذلك يوجب الرد (ومما) ينتظم بهذا السلك قولي وهو الانتقال عن خلة الوداد كالانتقال عن نسب الميلاد وكما يحرم هذا في نص الحكم المشروع فكذا يحرم هذا في خلق الكرم المطبوع على أن نسب الخلة الذي ينميه القلب إلى القلب أوصل من نسب الرحم الذي ينميه الابن إلى الأب ولهذا كانت مودة سلمان قربى ونسب أبي لهب سما وثنا وبعض هذا مأخوذ من شعر أبي نواس وهو

كانت مودة سلمان له نسبا * ولم يكن بين نوح وابنه رحم

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الديار وهو دار كانت مقاصر رحمة فأصبحت وهي ملاعب جنة ولقد عميت أخبار قطانها وأنشأ رأوطانها حتى شامت أعداها في الدماء الأخرى في العفاء وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب ظلام غير أن السحاب بكاهم فجرت بها سوافح دموعه والليل شق عليهم ثوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه وهذه معان لطيفة جدا وبعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضي رحمه الله تعالى

أمرابع الغزلان غيرك البلى * حتى غدوت مراتع الغزلان

(ومما) يلتئم بهذا المعنى قولي أيضا وهو دار أصبحت مراتع أذواد بعد أن كانت مناجع رواد ولو تصورت الآمال التي مثلت بمائها كما تصورت الآثار المماثلة من بنائها لرأيت رسومها مع رسوم القباب وعلمت كم غار بها من بحر ونضب من سحاب وهذا معنى حسن له من نفسه مثن وحامد ومن سامعه عين وشاهد وهو من معاني المستخرجة (ومن ذلك) قولي أيضا وهو النقص موكل بكمال النعماء ولذلك كان الوخم مقترنا بالمرعى والماء وقلما ترى ثمرة إلا ومعها زور ولا لذة إلا وإلى جانبها شيء محذور (وكذلك) قولي أيضا وهو لا يظفر الرجل

عطاء له شفعا ولا تؤتيه من كل جهة نفعا بل يرى مرعى بلا ماء وماء بلا مرعى ولذلك كانت النحلة مع الشهدة والشوكة مع الوردة وبعض هذه المعانى مأخوذ من قول أبى تمام

أرض بها عشب زاك وليس بها * ماء وأخرى بها ماء ولا عشب

الا أن فى الكلام المنثور زيادة على ما تضمنه الشعر وكأنه ينظر اليه نظرا بعيدا ومن سبيل المتصدى لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل الاكسير فى صناعة الكيمياء ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة كما فعلت فى هذا الموضع فانى أخذت معنى هذا البيت من الشعر فاستخرجت منه ما ليس منه وهذا أعلى الدرجات فى نثر المعانى الشعرية وقد بسطت القول فى هذا الموضع وكشفت عن دفائنه فى الكتاب الذى وسمته بالوشى المرقوم فى حل المنظوم وهو كتاب مفرد فى هذا الفن خاصة ومن هذا الضرب الذى هو الكيمياء فى توليد المعانى ما ذكرته فى وصف الربيع فقلت فصل الربيع هو أحد ميزانى عامه والمستفيد لسانه من حامه وقد وصف بأنه ميعاد نطق الاطيار وميلاد أجنة الازهار والذى تستوفى به حواملها سلامة العقار فاذا سلت السحب فيه سيوفها كان ذلك للرضا لا للغضب واذا خلعت على الارض غلائلها التى كانت لها ديباجة منسوجة بالذهب وهذا المعنى مستولد من قول أبى تمام فى وصف السحاب

سلبته الجنوب والدين والدنـ * ـيا وصافى الحياة فى سلبه

الا أن فى الذى ذكرته معنيين غريبين اذا أمعن الناظر نظره فيهما (ومن ذلك) ما ذكرته فى لين القول واعادته وما يجرى مجراه كقولى فى فصل من كتاب وهو لم أعد عليه القول لانه لا يبلغ مدى ميدانه الا بتحريك سوطه وعنانه بل أخذا بأدب الله فى أذكار القرآن واتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى تثويب الاذان وبعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام

لو رأينا التأكيد خطة عجز * ما شفعنا الاذان بالتثويب

(وكذلك) قولى أيضا وهو وقد علم أن لين القول أنجع قبولا وهو من أدب كليم الله اذ بعثه الى فرعون رسولا ألا ترى أن الحداء يبلغ من المطايا بلاطفه ما لا يبلغه السوط على عنفه وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى تمام

وخذهم بالرقى ان المهارى * يهيجها على السير الحداء

(ومن ذلك) ما ذكرته في ذم الدنيا وهو أكدار الدنيا مشوبة بالاشياء التي جبلت النفوس على حبها وكل ما تستلذه الابدان من مآكلها فانه يصير ضارا من جهة طبها واهدا بذم من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الانسان بشيء من لذاتها الا ضره من جهة ثوابه وهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لاثوابه وقد ضرب لذلك مثل من الامثال وقيل ان كل ما ينفع الكبد مضر بالطحال وهذا مأخوذ من الامثال العربية والمولدة

(ومن ذلك) ما ذكرته في الزهد وهو الناس في الدنيا أبناء الساعة الراهنة وكأن النفوس ليست فيها قاطنة وكذلك الاحوال ليست بقاطنة ولهذا كانت المآتم بها كالاعراس يتفرق نديّ جمعها فهذه تنسى ما مضى من لذة سرورها وهذه تنسى ما مضى من ألم فجعها ولا شبه لها على ذلك الا الاحلام التي يتلاشى خيالها عاجلا ويجعل اليقظة حقها باطلا وما ينبغي حينئذ أن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تره وغاية مطلوب الانسان منها أن يمد له في مدة عمره ويملى له في امتداد كثره أما تعميره فيعترضه المشيب الذي هو عدم في وجود وهو أخو الموت في كل شئ الا في سكنى اللحود فالجوارح التي يدرك بها الشهوات ترى وكل منها قد تحول وأصبح كالطلل الدارس الذي ليس عنده من معول فلا الملي بالملي ولا النوار بالنوار ولا الاسماع أسماع ولا الابصار أبصار وأما ماله فان أمسكه فهو عرضة لوارث يأكله أو لحادث يستأصله وان أنفقه كان عليه في الحلال حسابا وفي الحرام عقابا فهذه زهرة الدنيا الناضرة وهذه عقباها الخاسرة وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر صالح بن عبد القدوس

واذا الجنازة والعروس تلاقيا * ألفيت جمعا كله يتفرق

ومن قول أبي العتاهية

انما أنت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي أنت فيها

(ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن تعزية وهو كيف يطلع ذلك اللحد وبه من أعمال ساكنه أنوار أم كيف يجدب وبه من فيض يمينه سحاب مدرار أم كيف توحش أقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الاقطار أم كيف يحجبه

طول العهد على زواره وطيب ترابه فاد للزوار وما أعلم ما أقوله فى هذا الخطب
الجليل الذى دق فيه الحزن الجليل وسمحت له النفوس بالفدية على حب
الحياة وذلك من الفداء القليل وقد قيل انه لم يخلق الدمع الا انذارا بأن نوائب
الزمان ستنوب وقد جعله الله ذخرا للقلوب واعتاد ذخر السلاح للقاء الحروب
والذى ذخرته منه لم يغن عنى فى هذه النائبة وأى جنة تقوم فى وجه سهامها
الصائبة لاجرم أنى أصبحت بين يديها هدفا للرماء ولم يبق من الانضاء الا الحشاشة
ومن العجب بقاء الذماء وشىء من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا * الله أدرى بلوعة الحزن

(وكذلك) ذكرت فصلا فى كتاب آخر يتضمن تعزية وهو فياويح أيد أسلمته
الى الثرى وما كان يسلمها الى الاعدام وألبسته ظلمة اللحد وطالما خلعها
غيابة الظلم والاظلام وغادرته بوحدته مستوحشا وقد كان يؤنسها بنوافل
الانعام ومثله لا يوارى القبر منه الا صورة يدركها الفساد وتبلى كما يبلى غيرها
من الاجساد ولكنه لا يستطيع مواراة الذكر الخالد الذى يذهب بشماتة الحساد
ويتمثل فى السماء بصورة الكواكب وفى الارض بصورة الاطواد وبعض هذا
مأخوذ من قول بعض شعراء الحماسة

فان تدفنوا البكرى لا تدفنوا اسمه * ولا تدفنوا معروفه فى القبائل

(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كلام بالفصاحة وهو فصل من كتاب فقلت
له البيان الذى يغض منه نسق الفريد ولا يخلق نضرة لباسه الجديد وهو
فوق كلام المجيد ودون القرآن المجيد واذا اشتهر واصفه قال انه يستميل سمع
الطروب ويستحق وقار القلوب ويتمثل آيات بيضاء من غير سوء الى الجيوب
ويرى فى الارض غير لاغب اذا مس غيره فترة اللغوب ولا تزال الناس فى عشق
معانيه ضربا واحدا والعاشقون ضروب ولما وقفت عليه قلت سبحان
من أعطى سيدنا ما لم يحل وخصه بنبوة البيان الا أنه لم يرسل ولولا أن الوحى
قد سد بابه لقيل هذا كتاب منزل ولقد سار الله لأولى الفصاحة اذ لم يجيئوا
الى عصره ولم يبتلوا فيه بداء الحسد الذى يصليهم بتوقد جمره ولئن سلموا
من ذلك فما سلمت أقوالهم من أقواله التى محتها محو المداد وقد كانت باقية
بعدهم فلما أتى صارت كما صاروا الى الالحاد فى هذا الفصل شىء من المعانى

الشعرية كقول البحتري

مستقبل سمع الظروف المعنى * عن أغاني معبد وعقيد

وقول الشريف الرضي رحمه الله

عشقت ومالي يعلم الله حاجة * سوى نظري والعاشقون ضروب

وفيه أيضا شيء من معاني القرآن الكريم الا أنها جاءت سهلا وتبعا وموضعها يأتي بعد الابيات الشعرية (وكذلك) ذكرت فصلا آخر من هذا الاسلوب وهو وان الكلمة طعما يعرف مذاقه من بين الكلام وخفة الارواح معلومة من بين ثقل الاجسام فلولم نعرفه بطعمه عرفناه بوسمه والصباح لا يتمارى في اسفاره ولا يفتقر الى دليل على اشراق أنواره وقد علم أن العرق يعرف بعصمه وأن القول يعرف بطبعه وبما نس هذه العقود ولا يبرزها الا أمناسه ودررها القطه وسلوكها قرطاسه (ومن) هذا الباب قولي أيضا وهو ألفاظ كحدق السود أوزار الاسود ومعان تدل بارهافها أمضاها السيوف وان قلوبا عتماهي العمود فهالها المتأمل حومة طعان أو حلبة رهان وبعض هذا مأخوذ من شعر البحتري

يقظان ينتهب الكلام كأنه * جيش لديه يريد أن يلقى به

(ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدعي الكتابة وليس من أهلها فقلت وقد يتطابق بسم ما قلما الخط اللذان ينسب أحدهما الى المداد وينسب الآخر الى الصعاد فهو يدير هذا في معركة المقال وهذا في معركة الطراد ولربما نهل أحد قلميه من فوق صفحات الدروج كما نصهل الجياد من تحت أعواد السروج فله احتمال المواطن والمجالس والبعضاء أصحاب العمائم والقلانس لا كمن لا يجاوز زهمه طرفي ردائه واذا نودي لمصيبة قبل اعايسمع الحي بندائه وكم في الناس من صور لا تجد لمعناها أثرا واذا رأيتها قلت أرى حالا ولا أرى مطرا وأي جمال عند من ليس له الاجمال ثيابه وهل ينفع السيف الكهام أن يجعل من الذهب حلية قرابه وكل من هؤلاء ذنب يسمى بغير راس ولا لهم همّ الا في عيشة الطاعم الكاسي واذا اعتبر حاله وجد من البهائم وان كان منسوبا الى الناس والسيادة ليست في وشي الثياب ولا في طيب الطعام والشراب وانما هي في شيئين اما شهامة تقلم تعرق لها قلوب العمود أو شهامة رمح تفرق لها قلوب

الاسود وكأني بقوم يسمعون هذا وكلهم يتعض امتعاض المغضب وتتابع
نفسه تتابع المتعب ويعترض الشجي في حلقه حتى يغص من غير أن شرب
ولم يزل ما الحاسد من سيد ماداه يورثهم أرقا ويوسعهم شرقا وكثيرا ما تعرق له
جباههم وكذا الميت تندى جبينه عرقا وما أرى لهؤلاء دواء الا أن يطرحوا
عن مناكبهم ثقل المساجلة والحسد انما يكون ممن يجري مع صاحبه
في مضمار المماثلة وكنت أحب أن يقام على الكتابة محتسب حتى يتملص منها
خلق كثير وتستريح جياد كثيرة من ركوب حير وفي مثل هذا السوق يظهر
أهل الخلابة والغش وما منهم الا من هو في الحضيض الاسفل وقد أجلس
نفسه قائمة العرش ونار الآلة العمرية تميز خالص النقود من زيفها ولا حيف
في هذا المقام على من أسرفت دعواه الكاذبة في حقها وبعض هذا الفصل
مأخوذ من شعر عبد السلام بن رغبان عرف بديك الجن

ترهى به القلبان الا أن ذا * لدن المجس وأن ذا بكعوب
عودان يقصب ذا الطلى بلعابه * ويجوب ذا المهجات بالتركيب

ويكفيك أيها المتوشح لنثر الشعر أن تنظر الى هذا الفصل وتتأمل الموضع الذي
أخذت معنى هذين البيتين ووضعته فيه فان فيه غناء ومقنعا (وأما) حل آيات
القرآن العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية لان ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها
لمكان فصاحتها الا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملته فان ذلك من باب
التضمين وانما يؤخذ بعضه فاما أن يجعل أولا للكلام أو آخرا على حسب
ما يقتضيه موضعه وكذلك تفعل بالاخبار النبوية على أنه قد يؤخذ معنى الآية
والخبر فيكسى لفظا غير لفظه وليس لذلك من الحسن ما للقسم الاول للفائدة التي
أشرنا اليها وقد سلكت في ذلك طريقا اخترعتها وكنت أبا ابن عذرتها وعند تأمل
ما أوردته منها في هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاوي واني كان من تقدمني أتى
بشيء من ذلك فاني ركبت فيه جوادا وركب بغلا ونال من مورده نهلة واحدة
ونلت منه نهلا وعللا ومن آتاه الله في القرآن بصيرة فانه يسبك ألفاظه ومعانيه
في كلامه ويستغني به عن غيره الا أنه ينبغي أن يكون فيه صوغا يصرح منه
ضروب المصوغات أو صيرفا ينقد في نقوده المختلفة من الذهب المختلف الالوان
ولا أقول من الفضة فانه ليس فيه من الفضة شيء وهو أعلى من ذلك أو يكون فيه

تاجرا بديره على يده ويتصرف فى أرباحه ويصرح من الامتعة الحالوية من مناجعه كل عريبة عجيبة وكل هذا يفهمه من عرف فلزم وحكم عناعلم

وما كل من قال القريض بشاعر * ولا كل من عانى الهوى عتيم

(واعلم) أن المتصدى لحل معانى القرآن يحتاج الى كثرة الدرس فانه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل وهذا شئ جربته وخبرته فانى كنت آخذ سورة من السور وأتلوها وكلما مربى معنى أثبته فى ورقة مفردة حتى أنتهى الى آخرها ثم آخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتها واحدا بعد واحد ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة وأفعل مثل ما فعلته أولا وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر فى كل مرة من المعانى مالم يظهر فى المرة التى قبلها وسأورد فى هذا الموضع سورة من السور ثم أردفها بآيات أخرى من سور متفرقة حتى يتبين لك أيها المتعلم ما فعلته فتحذو حذوه وقد بدأت بالسورة أولا وهى سورة يوسف عليه السلام لانها قصة مفردة برأسها وفيها معان كثيرة * فالاول ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب وهو وصل كتاب الحضرة السامية أحسن الله أثرها وأعلا خطرها وقضى من العلياء وطرها وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها وأسعد بها كواكب السيادة وشمسها وقمرها وهذا أول معنى فى السورة وقد نقلته عن قصة المنام الى الدعاء ثم أبرزت هذا المعنى فى صورة أخرى وهو أكرم الايام ما كان فيها ذكرى للعابدين وتقدمه انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير وتجلو ظلمة الخطب بالصباح المنير فانظر الى أثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شئ قدير ثم تصرفت فى هذا المعنى وأخرجته فى معرض آخر وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء فقلت وقد علم أمير المؤمنين ما فى مجلسه من ممانه وآنسه على وحدة الانفراد بحفل ندمائه ورفعه حتى ودت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه وذلك مقام لا تستطيع الجدود أن ترقى الى رتبته ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته فليرد اعجابا بما نالته مواطئ أقدامه وليطر الى سعود الكواكب له فى يقظته لا فى منامه (ومن ذلك) ما ذكرته فى ذم بخيل وهو لم أر كواهب فلان ملأت أملى بطامع وعودها وفرغت يدى من نيل جودها

لم أحط الا بلامع سرابها وكانت كدم القميص في كذبها (ومن ذلك)
ما ذكرته في تزكية انسان تمارى به وهو لم ترم بذنب الا وأنت البراءة له مناب
الشهود ويجيء من أهلها بشهادة القميص المقدود (ومن ذلك) ما ذكرته
في عذر الهوى وهو لم يوحشنا الا كان لأهل التقى فيه اسوة ولا ليم من
أجله الا اعتذر بعذر امرأة العزيز الى النسوة (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من
جواب كتاب الى بعض الاخوان وهو ان كان الكلام كما قيل ذكرا والجواب أنثى
فجوابي هذا عروس تجلى في حلاها الحبرة وعقودها المشذرة وترضى بما آتاها الله
من الحسن الذي ليس بالمجلوب ولا ترضى بتقطيع الايدي دون تقطيع القلوب
وها قد أرسلتها الى سيد بأحق يعلم أن نتائج خاطري على الفطرة وأنها معشوقة
الصورة فكل الناس في هواها ذو عذرة في هذا الفصل معنى الآية والخبر السوي
والبيت من الشعر (ومن ذلك) ما ذكرت في تقلب الايام وهو لقينا أياما ضاحكات
وليتها أياما عابسات فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات (ومن ذلك)
ما ذكرته في وصف كريم وهو ليس ممن يرقب صرف الزمان ويدخر الحب في سنبله
ولكنه يستأنف الصرف في آخره ويستهلك المال في أوله فلا يبقي من يومه لغده
ولا يتهم ربه فيما بيده (ومن ذلك) ما ذكرته في حب الرشوة وهو الرشوة تحل عقد
القلوب وتهون فراق المحبوب ألا ترى أن رد البضاعة حكم على أخي يوسف
بالاضاعة (ومن ذلك) ما ذكرته في الاستسلام لحكم الاقدار وهو لا تحترس
من جنود الاقدار بالآراء المتعمقة وسواء عندها الباب الواحد والابواب
المتفرقة (ومن ذلك) ما ذكرته في تتابع الاساءة وهو لم يزل يرشقني بقوارصه
حتى تكاثر النبل واستحكم التبل ولم يكفه الالقاء في غيابة الجب حتى قال
ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل (ومن ذلك) ما ذكرته في التوكل وهو اذا طلب
أمرا أجمل في المطلوب ووكله الى الذي بيده مفاتيح الغيوب وتأسى في حاجته
منه بالحاجة التي كانت في نفس يعقوب (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الكيد
وهو لم يأت امرأ الا أخفى أسباب أواخيه وبدأ فيه بالأوعية قبل وعاء أخيه
وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام (وأما) الآيات التي هي
من سور متفرقة فأولها ما كتبته في صدر كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه
وهو ورد كتابه عشية يوم كذا فعرض علي عرض الجياد على سليمان

وتساو ينافي الاشتغال منه ومنها بالاستحسان غير أن الجياد وان خببت هامها لاتبلغ في الحسن مبلغ الكتاب لكن قلت كما قال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب وان قصي الاشتغال هنالك مسح سوق وأعناق فانه لم يقض ههنا مسح سطور ولا أوراق واما اشتغلت عن عبادة بعبادة ولو شئت لقلت عن افادة بافادة وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام في سورة ص وهي قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والاعناق فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها وبين الكتاب ثم اني تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة بينهما أخرى وهكذا ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله (ومن ذلك) ما كتبته عن الملك الافضل علي بن يوسف الى الديوان العزيز النبوي ببغداد في فصل من كتاب وهو وقد علم أن المال الذي يختزن كالماء الذي يحتقن فكما أن هذا يأجن بتعطيل الايدي عن امتياح مشاربه فكذلك يأجن هذا بتعطيل الايدي عن امتياح مواهبه وأي فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تملك به القلوب وتقل به الخطوب ويركب به ظهر العزم الذي ليس بركوب ومن بسط الله يده فيه ثم قبضها جعله فانه يقف دون الرجال معمورا ويقعد عن نيل المعالي ملوما محسورا واذا أدركته منيته مضى وكأنه لم يكن شيأ مذكورا وقد ناط الله بيد الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها الامر بط أشقره ومركز أسمره وما عداها فانه مصروف الى قوة الاسلام في سد ثغوره وتكثير جنوده وايقاد حرب عدوه بعد خمودها واستماحة جمرها عند وقوده وما يفضل عن ذلك فانه للناس يشتركون في وشله وغمره والمسلم أخو المسلم يساويه في حقه من بيت المال وان خالفه في مزية قدره ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يدلس من هذا المال بتبعة المطلوب أو يلتحق بالقوم الذين يكنزونه فيجري عليه حكم الجباه والظهور والجنوب ولم يأت به الله على فترة من مثله الا ليحيي به سمات الدين ويعيد به الاسلام الى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترقمها الدنيا في ديوانه وتنقل بها الى الآخرة كفة ميزانه في هذا الفصل معنى آيتين احداهما في سورة هل أتى والاخرى

في سورة براءة (ومن ذلك) ما كتبته عنه الى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب
من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل اليه وهو من شيمة الاقدار أن تذهب
ببصائر ذوي الالباب ويمثل لهم الخطأ في مثال الصواب ولولا ذلك لما زل الحكيم
واعوج المستقيم والمملوك يقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية
لا زال عرفها مأمولا واحسانها عند الله مقبولا وفعلها في المكرمات مبتدعا
اذا كان فعل الايادي مفعولا وينهي الى عفوها الذي يكفي فيه لفظة
الاعتذار ولا يفسده مواظبة الاصرار ولو عرف ذنبه لبادر بالفزع لهن المدامة
وعاد على نفسه بالملامة ولما كان عجيبا أن يكون مليما وأن يكون مولاه
كريما لكنه حمل امرة الذنب وهو برئ من حملها وخاف أن تكون هذه
كأخواتها التي سلفت من قبلها والامور المتشابهة يقاس البعض منها على
البعض والملسوع لا يستطيع أن يرى مجر حبل على الارض ولم يحترم المملوك
الآن جريمة سوى انه فر الى الاعتصام وألقى بيده الى أقوام لم يكونوا له أقوام
واذا ضاق على المرء أقربه كان الابعد له من ذوي الارحام وليس بأول من ذهب
هذا المذهب ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب وانني قال بعض
الناس انه عجل في اعتصامه وفراره وانه لو صبر لجددت له اصطباره فهذا قول
من لم يعرف حال المملوك فيقيم له عذرا ولا يبتلي بما ابتلي به من قوارض مولاه
مرة بعد أخرى ولقد تكاثرت عليه هذه الاقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل
السهاد وجسمه شوك القتاد وأصبح وهو يرى أنه راق في حطيئته زلقا وغص
بدمه من أجلها شرقا وبدت له سوآته حتى طفق يخصف عليها ورقا ومع هذا
فانه واثق أن حلم مولانا لا يؤتى من الزلل وأن حصاة الذنوب لا تخف بوزن ذلك
الجبل وها هو قد جاء نازعا وللذارع القتبي وعاد مستشفعا ولا شفيع أكرم من
القربى ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب وفي الذي أوردته من هذا
الفصل معنى آية من القرآن في سورة الاعراف وهي قوله تعالى فبدت لهما
سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (ومن ذلك) ما كتبته عن الملك
القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الديوان
العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل في التقليد وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة
فما جاء في صدر الكتاب بعد الدعاء قولي وهو اذا توفي ولي من أولياء الدولة من

السمة أن يعزى بعقده ويستخرج اذمها فى سلبه القائم من بعده حتى لا تعلو أرضها من رواسى الجبال ولا سما وهامن مطالع الكواكب التى تجلو ظلمة الليالى وقد مضى والدالعبد الى رحمة الله وهو موفور من الطاعة خبرزاد عرى خاتف من احصاه الرقيب العتيد اذ جعلها له من العتاد وما عليه وقد ثقلت كفة ميزانه ما كان فى الكفة الاخرى من الحسنات الكثيرة الاعداد ومضمون وصيته التى عهد بها أن يمشى فى الطاعة على اثره ويهتدى بالاوامر الشريعة فى مورد الامر ومصدره وقد جعلها العبد نجى فكره اذا قام واذا قعد وسجية صلاته اذا ركع واذا سجد وهو يرى أنه لم يمض والده حتى أبقى للدولة من يثبت قدمه موضع قدمه وعند ذلك يقال ان فضل الشجرة كالشجرة فى ثبات أصله وقوة مغرسه وهذا مقام لا تمتاز فيه الآباء عن الابناء وليست المزية لاكتهال السن انما هى لشيمة العلياء وقد أوتى يحيى الحكم قبل أن يجرى القلم فى كتابه وشهد له بالتزكية قبل أن ينتصب فى محرابه وكذلك قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة على فتاء عمره وشهد أنه خليق بما أسند اليه من أمره والعبد وان بسط الاستحقاق لسانه فان الادب يحكم بانقباضه ويرى أن التفويض الى انعام الديوان العزيز أسرع فى نجح أغراضه ولا شك أن منتهى الآمال لا يبلغ أدنى تلك المواهب ولو جمعت فى صعيد واحد ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك المطالب وهذا الفصل من أول الكتاب وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام أما الاولى فقوله تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام وآتيناه الحكم صبيا وأما الثانية فقوله تعالى وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وفى هذا الفصل أيضا معان ثلاثة من الاخبار النبوية وليس هذا موضعها وانما جاءت ضمنا وتبعا (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف الغبار فى الحرب وهو وعقد العجاج سقفا فانعقد وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد وزينت بنجوم الصعاد فمنها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الارزاق ومنها تقذف شياطين الحرب لاشياطين الاستراق وهذه المعانى مأخوذة من سورة الرعد وسورة الصافات وسورة الذاريات (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف طعام وهو فصل من كتاب فقلت طعام لا يمل اذا شبعت الاطعمة ملالها وكأنما تولته يد الملائكة ولم تباشره الايدى بعملها فهو من بقايا المائدة التى نزلت من السماء وقد طاب

حتى لا يحتاج من بعده الى استعمال الماء وما رآه ذو شبع الا رأى تركه عنا وودّ لو ريدالى بطنه بطنا وبعض هذا مأخوذ من سورة المائدة (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو قد تكاثرت وسائل الخادم حتى لا يدرى ما يجعله لطلابه سفيرا وما منها الا ما يقال انه أوّل وليس فيها ما يجعل اخيرا غير أنه لا يذكر منها الا ما هو توأم اخيه والذى لا ينظر الله من ابن آدم الا الى مكانه وفى ذلك كاف عن الوسائل التليدة والطريفة وقول لا اله الا الله لا يعدله شئ من الحسنات المودعة فى الصحيفة وقد غدا الآن للخادم مطلب هو بالنسبة الى مواهب الديوان العزيز يسير ولو قامت مطالب الناس فى صعيد واحد لأعطى كلا منهم مرامه ولم يقل ذلك كثير وكتابه هذا سائر الى تلك المواهب التى يضيق عنها صدر الارض باتساعه وليس الذى يسأله منها بمايل على المطر الى الجبل فى امتناعه وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار وكذلك مطالبهم أطوار وقد جعل الله الاشياء متفاوتة فى مراتبها وكل شئ عنده بمقدار وهذا الفصل من أحسن ما يكتب فى استنجاز مطلوب وفيه معان ثلاثة أخبار نبوية ومعنى آيتين من القرآن الكريم وليس هذا موضع الاخبار واعا طاخما وتبعا فالآية الاولى فى سورة الاعراف والآية الثانية فى سورة الرعد (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كاتب وهو اذا دجا ليل قلمه وطلعت فيه نجوم كلمه لم يقعد لها شيطان بلاغة مقعدا الا وجد له شهابا مرصدا فاسرارها مصونة عن كل خاطف مطوية عن كل قائف وهذا المعنى مأخوذ من سورة الجن (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كاتب أيضا فقلت له بنت فكر ما تمخضت عنها الا اتهمته من غير ماتم له وأتت به قومها تحمله ولم يعرض على ملأ من العلماء الا ألقوا أقلامهم أيهم يستعيره لا أيهم يكفله فى هذين السطرين آيتان من القرآن الكريم الاولى فى سورة مريم وقصتها وقصة ولدها عليهما السلام وهى قوله تعالى فأتت به قومها تحمله والثانية فى سورة آل عمران فى قوله اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن وصف القلم فقلت وقد أوحى الله تعالى الى قلمه ما أوحاه الى النحل غير أنها تأوى الى المكان الوعر وهو يأوى الى البنان السهل ومن شأنه أن يجتنى من ثمرات ذات أرواح لا ذات أكمام ويخرج من مشاقه شراب مختلف طعمه فيه شفاء للاوهام

وأين ما تنبته كثافة الخشب مما تنبته لطافة الغصن ولا تستوي نضارة هذا الثمر
وهذا الثمر ولا طيب هذا الغصن وهذا الجنى وقد أرخص الله ما يكثر وجوده
ويذهب في لهوات الأفواه وأغلى ما يعز وجوده فيبقى خالدا على ألسنة الرواة
وكل هذه الأوصاف لا تصح إلا في قلم سيدنا الذي إذا أخذ لا تخاطره امتلأت
هديته المحافل وإذا حلا كتابه وجدت الكتب الخالية من قبله وهي عواطل
فله حينئذ أن ينظر إلى غيره بعين الاحتقار ولو أنصفه أن يسهب وهو قائم مقام
الاختصار هذا الفصل غريب عجيب وقد جمع بين الأضداد فمناله بعيد وفهمه
قريب وهو مأخوذ من سورة النحل (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم بخيل وهو
له شيمة في الجود لا يسلم نائلها وإذا هزها سائلها قال إنها كلمة هو قائلها
وهذا مأخوذ من سورة المؤمنين (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب وهو
وصل كتابه فوقفت منه على اللفظ الرخيم والمعنى الذي هو في كل واد يهيم وقال
يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ثم أخذ في إعلاء قدره وتنويه ذكره ولم
يستفت الملأ في الإذعان لأمره ولا أهدى في مقابلته سوى هدية لسانه وصدره
لا جرم أنها تقبل ولا ترد وتعتد بها ولا تعد فإنها مال لا يعده الإنفاق وجوهر
تتحلى به الأخلاق لا الأعناق وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام
في كتابه إلى بلقيس وهي مذكورة في سورة النمل وفي هذا من شرف الصنعة أنه
خولف بين معانيه ومعاني ما أتى به القرآن الكريم (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر
كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار وهو إذا أخطب القلم عن الرمح
الذي هو بيده قام مختصلا وأسهب مترويا ومرتجلا حتى يأتي في خطابته
بالمعاني الخواطر وأصدق القول ما صدر عن شهادة الضمائر للضمائر وكتابنا
هذا يصف معركة احمرت ضبابتها وصافت بالأسود غاباتها فالطعن بها محتضر
والموت محتقر والنصر من كلا الفريقين مقتسم وكان الإسلام فيها الزجر
السنيح وفوز القدح المنيح وليس الذي يرقب المعونة من الله الذي هو رب المسيح
كمن يرقبها من المسيح ولقد نفذت الرماح في أعداء الله تعالى حتى اعتدلت من
جانبي الصدور والظهور وتركت الناجي منهم وهو لا ينظر إلى الصليب إلا نظر
الخائف المذعور فليس لهم من بعدها جيش يجمع ولا لواء يرفع وقد كانت
بلادهم من قبل مانعة وهي الآن لا تذب عنها ولا تمنع وهذه معركة قلت بها

الرقاب المأسورة وكثرت النفوس المقتولة وقربت منها القرابين التي تأكلها النار
لا لأنها مقبولة ومعنى الآية في هذا الفصل مأخوذ من سورة آل عمران إلا أنها
تخالفه وذلك أن القربان كان يقبل فتنزل النار تأكله وأجساد هؤلاء الكفار
قربان تأكله النار لكنها لا تأكله لأنه مقبول وباقي الفصل يتضمن معنى حسنا
رقيقا (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق
بعض الإخوان وهو ولقد صبرت على أخلاقه العاثية وعاملته بالخليقة الرائقة
وعالجته بضروب المعالجات فلم تنفع فيه رقى الراقية ولا نفث النافثة ولما أعيا
علي إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة وهذا مأخوذ من
قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر في سورة الكهف (ومن ذلك) ما ذكرته
في فصل من كتاب وهو فجمعوا في نار الندم يعرضون عليها غدوا وعشيا وصار
الأمر الذي كانوا يرجونه مخشيا وأصبحوا كأهل النار الذين صاروا أعداء وكانوا
شيعا وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا وهذا مأخوذ من سورة
حم المؤمن ومن سورة سبا (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم غلام لي كنت أقاسي
من بلهه نكدا فكتبت يوما من الأيام إلى بعض إخواني كتابا وعرضت فيه
بذكره فقلت ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يقظ في صورة نائم وحتى حقق قول
التناسخ في نقل أرواح الآدميين إلى البهائم فما أرسل في حاجة إلا ذهبت عن قلبه
يمنة ويسرة ولا طلب منه ما استحفظه إلا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة وهذا
فصل يشتمل على عدة معان منها ما هو مأخوذ من القرآن الكريم من سورة
الكهف (ومن ذلك) ما ذكرته في تقليد قاض وهو فصل منه فقلت والفضائل
ما بقيت موجودة ولم تفتقد وهي حية وإن أودى أربابها ولا يورث من لم يولد
ومن أكرم ما أوتيه منها فضيلة التقوى التي الكرم من شعارها والعاقبة
الحسنى كلاهما من آثارها وما نقول إلا أنه اتخذها حارسا يمنع الخصم من
تسور محرابه ويؤمن قلبه من الفتنة الداعية إلى استغفاره ومتابه وقد قرن الله
له هذه الفضيلة بالعلم الذي أعلمه بعلامته ووسمه بوسامته وقذف في روعه
ما لا يسأل معه عن السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار وإقامته وعلى ما
يلغه منه فإنه فيه أحد المؤمنين اللذين لا يشتبهان وإذا كان لغيره فيه نظر واحد
ومتبوع فله فيه نظران وسمعان في هذا الفصل المختصر معاني عدة آيات وخبر

من الاخبار النبوية أما الآية الاولى فقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وأما الآية الثانية فقوله تعالى والعاقبة للتقوى وأما الثالثة فقوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب وأما الآية الرابعة فقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها وكذلك الى آخر القصة وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء فقلت بعد الابتداء بصدر الكتاب وقد علم منه أنه يعتد لطالب فضله فضلا ويرى المتبرع بمعروفه فرضا اذا رآه غيره مع المسامحة نفلا وما ذاك الا لأمر به خلق يوجد بطيب التربة وشرف الرتبة وأوتي من كنوز الكرم ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة ولهذا خرج على قومه من الاخلاق في زينته وفضل الخلق بطيبة غير طينته ومن فضله أنه يسأل عن السائلين ويحتال في استنباط أمل الآملين ثم مضيت على هذا النهج حتى انتهيت الكتاب والغرض أن تعلم أيها المتعلم كيف تضع يدك في احدها تأخذه من بعض الآية ثم تضيف اليه كلاما من عندك وتجعله مسجوعا كما قد فعلت أنا في هذا الموضع ألا ترى أني أخذت بعض هذه الآية في قصة من سورة القصص وهي قوله تعالى ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت اليه كلاما من عندي حتى جاء كما تراه مسجوعا وكذلك فعلت بالآية الاخرى من هذه السورة أيضا وهي قوله فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وهذا ينبغي لك اذا أردت أن تسلك هذه الطريق وقدرت على سلوكها وهي من محاسن الصناعة اللاعبة وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها لانها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به وانه يختص بها من يشاء من عباده وفيما ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم (وأما) الاخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل معانيها (فان قلت) ان الاخبار النبوية لا يجري فيها الامر مجرى القرآن اذ القرآن له حاصر وضابط وكل آياته تدخل في الاستعمال كما قال بعضهم لو ضاع مني عقال لوجدته في القرآن الكريم وأما الاخبار فليست كذلك لانها كثيرة لا تحصر ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال ومنها ما لا يدخل ولا بد من بيان ذلك

الاحاطة به والوقوف عنده (قلت) في الجواب عن هذا ان أول ما تحفظه من
الاخبار هو كتاب الشهاب فانه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لانه يتضمن
حكما وآدابا فاذا حفظته وتدربت باستعماله كما أريتك ههنا حصل عندك قوة على
التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل وعند ذلك تتصفح كتاب
صحيح البخاري ومسلم والموطا والترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وغيرها
من كتب الحديث وتاخذ ما تحتاج اليه وأهل مكة أخبر بشعابها والذي تأخذه
ان أمكنك حفظه فالدرس عليه هو المراد لان ما لا تحفظه فلست منه على ثقة
وان كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ودواوين كثيرة من الشعر
وما ورد من الامثال السائرة وغير ذلك مما أشرنا اليه فعليك بمداومة المطالعة
للاخبار والاكثار من استعمالها في كلامك حتى ترقم على خاطرك فتكون اذا
احتجت منها الى شيء وجدته وسهل عليك أن تأتي به ارتجالا فتأمل ما أوردته
عليك واعمل به وكنت جردت من الاخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف
خبر كلها تدخل في الاستعمال وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين
فكنت انهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد
على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عني منه شيء وهذا الذي أوردته ههنا
في حل معاني الاخبار هو من هنالك وسأذكر ما دار بيني وبين بعض علماء الادب
في هذا الاسلوب الذي أنا بصدده ههنا وذلك أنه استوعره وأنكره وقال هذا
لا يتهيأ الا في الشيء اليسير من الاخبار النبوية فقلت لا بل يتهيأ في الاكثر منها
فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اختصم اليه في جنين فقضى على
من أسقطه بغرة عبد أو أمة فأين يستعمل هذا ففكرت فيما ذكره ثم أنشأت هذا
الفصل من الكلام وأودعته فيه قد كثر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان
جاهل وضرب المثل بباقل وكم في هذه الصور المماثلة من باقل ولو عرف كل انسان
قدره لما مشى بدن الا تحت رأسه ولا انتصب رأس الا على بدنه ولكان صاحب
العمامة بعمامته وصاحب الرسن أحق برسنه وكنت سمعت بكاتب من الكتاب
كلمه الى غثاثة وقلمه بغاثة لا يستنسر وأي بطش لبغاثة واذا وجب الوضوء
على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سهل ثلاثة هذا وهو يدعي أنه
في الفصاحة أمة وحده ومن قس اياد وسحبان وائل عنده واذا كشف عن

خاطره

خاطره وجدناه لا يخرج عن العمه والكمه وإن رام أن يستفيه في حين من الاحيان قصي عليه بغرة عبد أو أمة وكثيرا ما يتقدم ونقيصته هذه على الافاضل من العلماء وقد صار الناس الى زمان يعلو فيه حضيض الارض على هام السماء فلما أوردته عليه ظهرت امارة الحسد على صفحات وجهه وفلتات لسانه مع اعجابه به واستغرابه اياه ثم قال وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال فهذا أين يستعمل من المكاتبات فتروّيت في قوله تروّيا يسيرا ثم قلت هذا يستعمل في كتاب الى ديوان الخلافة وأمليت عليه الكتاب فجاء هذا الحديث في فصل منه وهو اذا أفاض الخادم في وصف ولائه نكصت همم الاولياء عن مقامه وعلموا أنه اخذ الامر بزمامه فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والايمان فهذا يظهر أثره في طاعة السر وهذا في طاعة الاعلان وما عداهما فان دخوله الى قلبه من الاشياء المحظورة والملائكة لا تدخل بيتا فيه تمثال ولا صورة فليقل الديوان العزيز على سيف من سيوف الله يفري بالاصابع ويسري بالاحامل ولا يسل الا بيد حق ولا يغمد الا في ظهر باطل وليعلم أنه كرشه وعيبته في تقص الاسرار وأنه أحد سعديه اذا عدت مواقف الانصار فلما رأى هذا الفصل بهت له وأعجب منه ثم اني لم أقنع بايراد ذلك الحديث حتى قرنت به حديثا آخر وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم الانصار كرشي وعيبتي * وحيث عرفتك أيها المتعلم ما تقتدي به في هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة كثيرة تتدرّب بها (فمن ذلك) ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب وهو اعاد الله أيامه من العيد وبين جمار محامده نقص كل خطر وجعل ذكره زاد الكل ركب وأنسا لكل سمر ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا المعنى مأخوذ من الحديث في وصف نعيم الجنة ونقلته الى الدعاء (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الحلم وهو تركته حتى جال في الميدان وامتد في الاشطان ولم انتصر خوفا من قيام الملك وقعود الشيطان والحليم لا يظهر أثر حلمه الا عند تلذذه والكظيم هو أشد ما يخاف من تنذده وهذا المعنى أخذته من قصة أبي بكر رضي الله عنه في خصامه فانه بغي عليه ثلاث مرات وهو ساكت وفي الثالثة انتصر فقال النبي صلى الله عليه وسلم كان الملك جالسا الى جانب أبي بكر

يكذب خصمه بما يقول فلما انتصر قام الملك وقعد الشيطان (ومن ذلك) ما ذكرته في النصرة على العدو في موطن القتال وهو مأخوذ بأسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النصر الذي نرجوه ونبذنا في وجه العدو كفا من التراب وقلما شاهت الوجوه فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا وأقدم حيزوم فأغنى عن أقدامنا وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حنين وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخذه قبضة من التراب وإلقائها في وجوه الكفار وقوله شاهت الوجوه والمعنى الآخر مأخوذ من حديث غزوة بدر ورود أن رجلا من المسلمين لاقى رجلا من الكفار فأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتا قبل أن يصل إليه وسمع الرجل المسلم صوتا من فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال ذلك من مدد السماء الثالثة (ومن ذلك) ما ذكرته في ضيق مجال الحرب وهو وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور وتصافحت الثغور بالثغور والصدور بالصدور واستظل حينئذ بالسيوف لاشتمال نجالها وتبوأت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها وهو مأخوذ من الحديث النبوي وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم الجنة تحت ظلال السيوف (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب أذم فيه الزمان فقلت ولكنها الأيام تبدي أساس جوهرها كل غريبة وتسوس بسياسة العبد المجدع الذي كان رأسه زبيبة وليس للمرء فيما يلقاه من أحداثها نعمى كانت أو بؤسى إلا أن يكل الأمور إلى وليها فيقول حاج آدم موسى وهذا مأخوذ من الخبر النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم حاج آدم موسى فقال له موسى أنت أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة وأشقيتهم فقال له آدم أنت الذي اصطفاك الله تعالى برسالته وكلامه أتلومني على أمر كتبه الله تعالى علي قبل أن يخلقني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف بعض الكتاب وهو فصل من كتاب كتبته إليه فقلت ولقد سردت عليه أحاديث البلاغة فاستغنى عن بسط ردائه وهدى إلى جوامع كلمها فاقتدى الناس باهتدائه فإذا اشتبهت عنده مسالك طرقها لم يملكه سلطان الحيرة وإن أغرب في أساليبها لم يقل فيه ما قيل في رواية أبي هريرة وهذا الفصل من أحسن ما يؤتى به في صناعة نثر المعاني وهو مأخوذ من حديث أبي هريرة قال قلت يا رسول الله أسمع منك أشياء

ولا أحفظها فقال ابسط رداءك فبسطته فحدث حديثا كثيرا فما نسيت شيئا
حدثني به (وأما) رواية أبي هريرة فشك فيها قوم لكثرتها وقد اجتمع في هذا الفصل
معنى الحديث النبوي وغيره ومثل هذا لا يتفطن له عند الوقوف عليه الا من تبحر
في الوقوف على الاخبار النبوية ومن أجل ذلك جعلته ركنا من أركان الكتابة
في الفصل التاسع (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة فقلت
ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة مجموع لها بين حر مكة ولأواء المدينة
الا أنها لم يأمن حرمها في الخطفة ولا نقلت حماها الى الجحفة في هذه الكلمات
القصار آية من القرآن الكريم وخبران من الاخبار النبوية فالآية من سورة
العنكبوت وهي قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من
حولهم وهذا موضع يختص بالاخبار لا بالآيات غير أن الآية جاءت ضمنا وتبعا
وأما الخبران فالاول منهما قول النبي صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة
ولأواء المدينة ضمنت له على الله الجنة وأما الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم
في دعائه للمدينة اللهم حببها الينا كما حببت الينا مكة وانقل حماها الى الجحفة
فانظر أيها المتأمل الى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية
والخبرين سواء بسواء وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف علي
في الاعتراف به اثنان (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان
جوابا عن كتاب ورد منه وكان كتابه تأخر عني زمانا طويلا فقلت ولما تأملته
ضممته الي والتزمته ثم استلمته والتثمته وعلمت أن المعارف وان قدمت أيامها
أنساب وشيجة وتأسيت بالخلق النبوي في العجوز التي كانت تأتي في زمن خديجة
وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أنها قالت كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح الشاة فيقطعها أعضاء ويقسمها في أصدقاء
خديجة وكانت تأتيه عجوز فيكرمها ويبسط لها رداءه فسألته عن ذلك فقال
هذه كانت تأتينا في زمن خديجة وحسن العهد من الايمان (ومن ذلك) ما ذكرته
في وصف كتاب وهو كل سطر منه روضة غير أنها ليل في صباح وكل معنى منه
دمية غير أن ليس على مصورها من جناح وهذا مأخوذ من الحديث في تحريم
الصور (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف كريم وهو فأغنى بجوده أغنياء المطر
وسما الى المعالي سمو الشمس وسار في منازلها مسير القمر ونخ من ابكار

فصاناه ما اداالدعاء غيره قيل للعاهر الحجر وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش وللعاهر الحجر (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الفصاحة فقلت افكار الخواطر لا تستولد على انفرادها وغايتها أن يتناكح في استنتاج أولادها وأما أنكح فكرى له فكرى نكاح الانساب ولا أخاف أن أضوى فأميل الى الاغتراب وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم في الامر بنكاح البعيدة النسب فقال غربوا لا تضووا يريد بذلك أن الانسان اذا نكح المرأة القريبة اليه حصل بينهما حياء يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغي فيجيء الولد ضاويا أي هزيلا وهذا معنى غريب لم استخرجته من الحديث النبوي (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جرت بينه وبينه مخاصمة فقلت وصل كتابه وهو كتاب من أكثر الشكوى وطال العدوى ونزل من الظلم بالعدوة الدنيا وأنزل خصمه بالعدوة القصوى والقاضي لا يحكم لاحد الخصمين حتى يحضر صاحبه وان فقئت عين أحدهما فربما فقئت عينا الآخر وهشم حاجبه على أنه قد اعترف أن كليهما كان للعم أخيه آكلا وعليه في حال محضره صائلا وسباب المؤمن معدود من فسوقه واطراقه عن تورد هذا المقام أولى من طروقه ولولا تغليظ النكير لما جعل اللسان واليد سواء فيما جرحا ولما أخر الله المغفرة عن المتخاصمين فيها حتى يصطلحا فكن أنت ممن أطاع تقواه لا هواه واتبع من علم الحق فرآه أو سمعه فرواه واعلم أن تهاجر الاخوين فوق الثلاث من منهيات الحرام وان الفائز بالاجر منهما هو البادئ بالسلام ودفع السيئة بالحسنة يجعل العدو وليا حميما وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابرا وجعل له حظا عظيما والشيطان انما يحوم على آثاره مواقع الشنآن ولا يحمد من اعمال بينهما شأ الاما ريل بين الاخوان في هذا الفصل معاني آيات وأخبار وهذا الموضع مختص بذكر الاخبار دون الآيات فأول المعاني المأخوذة من الاخبار قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له فربما أتى خصمه وقد فقئت عيناه وأما المعنى الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأما المعنى الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم ان الاعمال تعرض على الله يوم الاثنين

ويوم الخميس فيغفر لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا الا امرأ كانت بينه وبين أخيه
شحناء فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا وأما المعنى الرابع فقوله صلى الله عليه
وسلم لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث وأما المعنى الخامس فقول النبي
صلى الله عليه وسلم اذا التقى المتهاجران فأعرض هذا وأعرض هذا فخيرهما الذي
يبدأ بالسلام وأما المعنى السادس فقوله صلى الله عليه وسلم ان ابليس له عرش
على البحر فيبث سراياه في آفاق الارض فيأتي أحدهم فيقول فعلت كذا وفعلت كذا
فيقول ما فعلت شيئا ويأتي أحدهم فيقول ربأت بينه وبين أخيه أو بينه وبين
زوجته فيقول نعم الولد أنت فانظر كم في هذه الاسطر اليسيرة من معنى خبر نبوي
هذا سوى ما فيها من معاني الآيات واذا عددت هذه الكلمات المذكورة
في هذه الاسطر وجدتها جميعها منتظمة من الآية والخبر وهذا مما يدلك على
الاكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجة اليه على الفور (ومن ذلك)
ما ذكرته في صدر كتاب وهو جواب عن كتاب يتضمن تهديدا وتخويفا فقلت
ورد الكتاب مضمنا من الوعد والوعيد ما آدس نفس المملوك وأوحشها ونفع
ضلوعه وأعطشها وأقام له من الظنون السيئة جنودا تقاتله وتأخذ عليه
شعب الافكار ولا تزاوله وكانت كلماته طوالا وأوراقه ثقالا وما أقلت سطرا
من سطوره الا كان الآخر له عقالا ولما استكمل الوقوف عليه تقلبت
أطوار الخوف والرجاء من أطواره وعرضت عليه الجنة والنار في قرطاسه
كما عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرض جداره ولولا وثوقه بأناة
مولانا لذهبت نفسه فرقا وابتغى في السماء سلما وفي الارض نفقا لكنه قد
توسم في كرمه مخايل الصفح الوسيم وعرف منه ما عرفه من ربه الكريم وعلم أن
خلق حلمه يغلب خلق غضبه اذ هذا حادث وذا قديم ففي هذا الفصل معنى خبر
من الاخبار النبوية وهو أنه كان صلوات الله عليه يخطب فمال بيده الى الجدار
وقال عرضت على الجنة والنار في عرض هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر
(ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب الى بعض الاخوان وهو الخادم يواصل
بالدعاء الذي لا يزال لقلمه زميلا وللسانه رسيلا واذا رفع أدعيته الملائكة قربا
اذا تباعدت عن غيره مميلا ولا اعتداد بالدعاء الا اذا صدر عن أكرم مصدر
ووجد له فوق السماء مظهرا وان لم يكن هنالك من مظهر ووصف باطنه بأنه

الابيض الناصع الذي هو خير من ظاهر الاشعث الاغبر ولا يعامل الخادم أهل وده الا بسده المعاملة ومن خلقه المخارفة في بذل المودة اذا أخذ الناس بسمة المكايلة في هذا معنى خبرين أحدهما قول النبي صلى الله عليه وسلم انه اذا كذب الكاذب تباعد الملك عنه ميلا لنتن كذبه والآخر قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لابره (ومن هذا الباب) ما ذكرته في كتاب يتضمن خطبة مودة فابتدأت الكلام فيه بعد تصديره بالدعاء فقلت لولا العادة لرفع الخادم كتابه هذا أن يسطر في ورقة وليس ذلك الا لارساله في خطبة مودة رأى صورتها في سرقة ولما تأملها قال ان يكن ذلك من عند الله يمضه وأبدى لها صفحة الرضا وان كانت كل مودة لم ترضه وخير المودات ما ليس لها ضرة تشاركها في وسامتها ولا تضاهيها في درجة كرامتها فتلك التي تردهي ذا الهمة أبوة وجمالا ولم يطلب مهرها ولو بذل فيه نفسا لا مالا وما يطلبها الخادم الا هذه المودة التي خطبها وقد علمت أن تكون راغبة ولكن هو الذي أرغبها على أنه لم يترشح لها الا من هو من أكفائها وليست الكفاءة ههنا الا ما تسدله الضمائر من صفاتها وقد أتاح الله لها كفؤا يكثر من ايناسها ويضعها من البر بمحلة ناسها ويجعل كل يوم من ايامها عرسا حتى تتصل مواسم أعراسها ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب والمعنى المأخوذ فيه من الخبر النبوي في موضعين الاول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها ان جبريل عليه السلام عرض علي صورتك في سرقة والسرقة حريرة بيضاء وقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة فقلت ان يكن ذلك من عند الله يمضه فأخذت انا هذا المعنى ونقلته الى خطبة مودة ولا يأتي في خطبة المودات شيء أحسن منه ولا ألطف ولا أشد مقصدا الخبر النبوي الثاني قول النبي صلى الله عليه وسلم انما تنكح المرأة لاربع لحسبها أو لدينها أو لمالها أو لجمالها فقلت أنا فتلك التي تردهي الهمة أبوة وجمالا أي قد جمعت الحسب والجمال (ومن ذلك) ما ذكرته في سبب حب المال وهو بين المال علاقة وكيدة وبين القلوب وهي له بمنزلة المحب وهو لها بمنزلة المحبوب وليس ذلك الا لان الله قبض قبضة من جميع الارض فخلق آدم من تلك القبضة ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضة ولولا أن يكون منهما عنصر ابدائه

لما

كما جعل سما الاطباء دواء من دائه ولا تستغرب اذن أن تكون على سمها مطبوعا اذ كان منها مصنوعا وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والحزن والسهل والخبيث والطيب غير أني استنبطت أنا حب المال من هذا الحديث وهو معنى غريب لم أسبق اليه (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف كلام وهو ليس السحر ما أودع في حف طالعة بل ما أودع في صوغ معنى أو نظم سجعة ولذلك لبيد في شعره أسحر من لبيد في سحره وكلا صنعيهما من الغريب العجيب غير أن ما يستنبط من القلب أعجب مما يدس في القليب وهذا المعنى مأخوذ من قصة لبيد بن الاعصم في سحره النبي صلى الله عليه وسلم ومن عرف القصة وصورتها علم ما قد ذكرته في هذه الكلمات البديعة (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف المنجنيق من جملة كتاب فقلت ونصب المنجنيق فخيم بين يدي السور مناصيا وبسط كفه اليه مؤاتيا ثم تولى عقوبته بعصاه التي تعتك بأحجاره واذا عصى عليها بلد أحدث في تأديب أسواره فما كان الا أن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيدا وعاصيه مستقيدا وقال ألم يكن نهي عن المد والتجريد فمالي لا أرى الا مدا وتجريدا وعند ذلك أذعن لفتح الابواب وتلا قوله تعالى لكل أجل كتاب وكذلك لم تأت صعبا الا استسهل ولا حمة امتطيا الا استعجل وطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشجه طول الانتظار ولم يحظ منه الا بسائلة المصب احجار الديار في هذا الفصل معنى غريب من الاخبار النبوية وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن ضرب المحدود لا مد ولا تجريد أي لا يمد على الارض ولا يجرد عنه ثوبه (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب الى الديوان العزيز النبوي وهو خلد الله دولة الديوان العزيز النبوي ولا زالت اكنافها وادعة وعلياؤها جامعة وحدودها كالنجوم التي ترى في كل حين طالعة وأيامها كالليالي ساكنة ولياليها كالايام ناصعة وأبوابها كأبواب الجنة التي يقال فيها ثامن وثامنة اذا قيل في أبواب غيرها سادس وسابعة وهذا الدعاء قد استجابه الله قبل أن ترفع اليه يد أو ينطق به ضمير فاذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه أولا وجاءه في الزمن الآخر فليس له حينئذ الا أن يدعو لما خوله الديوان العزيز بالدوام وأن يعيده

من النقص بعد التمام ثم يستهدي ما نوّهل له من الخدم التي يعتدّها من لطائف الاحسان واذا ادب لتكاليف أوامرها قال والحمد والشكر يستمدان ولا شك أن درجات الاولياء تتفاوت في الصفات والاسماء فمنها ما يكون بطن الارض ومنها ما يرى كالكوكب في أفق السماء ولولا النهي عن تزكية المرء نفسه لادّعى الخادم أن له اعلاها وجاء بالاولياء من بعده فقال والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها لكنه لا يمنّ بما يعتدّه عند الله من دعوه وسر الولاء في هذا المقام أكرم من جهره وليس الذي يمنّ بصلاته وصيامه كالذي يمنّ بسرّ وقر في صدره والله لا ينظر الى الاعمال وانما ينظر الى القلوب وفرق بين المطيع بحضر الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب ولو اطلع الديوان العزيز على ضمير الخادم في الطاعة لسرّه وعلم أن الاشعث الاغبر الذي لو أقسم على الله لأبرّه في هذا الفصل من الآيات والاخبار عدّة مواضع وهذا الموضع مختص بالاخبار فلنذكرها دون الآيات أما الاول منها فقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم ترون أهل الدرجات العلى في الجنة كما ترون الكواكب في أفق السماء وأما الخبر الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا صيام ولكن فضلكم بسرّ وقر في صدره وأما الخبر الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه وفيما أوردته من حل المعاني الشعرية وحل آيات القرآن والاخبار النبوية طريق واضح لمن يقوى على سلوكه والله الموفق للصواب

(المقالة الاولى في الصناعة اللفظية)

وهي تنقسم قسمين (القسم الاول في اللفظة المفردة) اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه الى ثلاثة أشياء الاول منها اختيار الالفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم الثاني نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها الثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل اكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة في العنق وتارة يجعل شنفا في الاذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من

الحسن تخصه فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها وهي الاصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر فالاول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة وهذا الموضع يضل في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار حتى ينظر الى أسرار ما يستعمله من الالفاظ فيضعها في مواضعها ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة الا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا لا يدركه الا من دق فهمه وجل نظره فمن ذلك قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وقوله تعالى رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فاستعمل الجوف في الاولى والبطن في الثانية ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضا فانظر الى سبك الالفاظ كيف تفعل ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى وقوله ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وان كانا مختلفين في الوزن ولم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع الآخر وعلى هذا ورد قول الاعرج من أبيات الحماسة

نحن بنو الموت اذا الموت نزل * لا عار بالموت اذا حم الاجل

* الموت أحلى عندنا من العسل *

وقال أبو الطيب المتنبي

اذا شئت حفت بي على كل سابح * رجال كأن الموت في فمها شهد

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله وقد وردت لفظة العسل في القرآن دون لفظة الشهد لانها أحسن منها ومع هذا فان لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الاعرج وكثيرا ما نجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المفلقين وغيرهم ومن بلغاء الكتاب ومصقعي الخطباء وتخفى دقائقه ورموزه الا

عملت وقيس عليها اشتماعها وتظائرها كان صاحب الكلام فى العلم والمتوقد
انتهى الى الغاية القصوى فى اختيار الالفاظ ووضعها فى مواضعها اللائقة بها
واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الالفاظ اكثر مما يقع فى مفرداتها
لان التركيب أعسر وأشق ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها
قد استعملتها العرب ومن بعدهم ومع ذلك فانه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه
وليس ذلك الا لفضيلة التركيب وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا اذا فكرت
فى قوله تعالى وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر
واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين أنك لم تجد ما وجدته لهذه
الالفاظ من المزية الظاهرة الا لامر يرجع الى تركيبها وأنه لم يعرض لها هذا
الحسن الامن حيث لاقت الاولى بالثانية والثالثة بالرابعة وكذلك الى آخرها
فان ارتبت فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين
اخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية ومما يشهد
لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها فهذا
ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الالفاظ فى تركيبها وانفرادها
وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ما ذكرته وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية
من القرآن وبيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة وفى الشعر ركيكة
ضعيفة فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين أما الآية فهى قوله تعالى
فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى
منكم والله لا يستحيى من الحق وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى

تلذ له المروأة وهى تؤذى * ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة الا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه
وفى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها فى
تركيب الآية فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه واعرضه على طبعك السليم حتى
تعلم صحته وهذا موضع غامض يحتاج الى فضل فكرة وامعان نظر وما تعرض
للتنبيه عليه أحد قبلى وهذه اللفظة التى هى تؤذى اذا جاءت فى الكلام فينبغى
أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى ان ذلكم كان
يؤذى النبى وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ألا ترى أنه قال تلذ له المروأة

وهى تؤذى ثم قال ومن يعشق يلذ له الغرام فجاء بكلام مستأنف وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى وأضيف اليها كاف الخطاب فأزال ما بها من الضعف والركة وذاك انه اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه جبريل عليه السلام ورقاه فقال بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك فانظر الى السر فى استعمال اللفظة الواحدة فانه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها ومن ههنا تزاد الهاء فى بعض المواضع كقوله تعالى فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه انى ظننت أنى ملاق حسابيه ثم قال ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه فان الاصل فى هذه الالفاظ كتابى وحسابى ومالى وسلطانى فلما أضيفت الهاء اليها وتسمى هاء السكت أضافت اليها حسنا زائدا على حسنها وكستها لطافة ولباقة وكذلك ورد فى القرآن الكريم ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ولفظة لى أيضا مثل لفظة تؤذى وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها واذا جاءت منقطعة لا تجىء لائقة كقول أبى الطيب أيضا

تمسى الامانى صرعى دون مبلغه * فما يقول لشئ ليت ذلك لى

وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه كقول أبى الطيب

ما أحذر الايام والليالى * بان تقول ماله ومالى

فان لفظة لى ههنا قد وردت بعد ما وقبلها ماله ثم قال ومالى فجاء الكلام على نسق واحد ولو جاءت لفظة لى ههنا كما جاءت فى البيت الاول لكانت منقطعة عن النظير والشبيه فكان يعلوها الضعف والركة وبين ورودها ههنا وورودها فى البيت الاول فرق يحكم فيه الذوق السليم وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت فى آية من القرآن الكريم وفى بيت من شعر الفرزدق فجاءت فى القرآن حسنة وفى البيت الشعر غير حسنة وتلك اللفظة هى لفظة القمل أما الآية فقوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وأما البيت الشعر فقول الفرزدق

من عزه احتجزت كليب عنده * زربا كأنهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت فى الآية

مندرجة فى ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها وجاءت فى الشعر قافية أى آخرا انقطع الكلام عندها وإذا نظرنا الى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم غصنا منه فى بحر عميق لا قرار له فمن ذلك هذه الآية المشار اليها فانها قد تضمنت خمسة ألفاظ هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وأحسن هذه الالفاظ الخمسة هى الطوفان والجراد والدم فلما وردت هذه الالفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم آخرا وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ليطرق السمع أولا الحسن من الالفاظ الخمسة وينتهى اليه آخرا ثم ان لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان والجراد وأخف فى الاستعمال ومن أجل ذلك جىء بها آخرا ومراعاة مثل هذه الاسرار والدقائق فى استعمال الالفاظ ليس من القدرة البشرية (وقد ذكر) من تقدمنى من علماء البيان للالفاظ المفردة خصائص وهيآت تتصف بها واختلفوا فى ذلك واستحسن أحدهم شيأ خولف فيه وكذلك استقبح الآخر شيأ خولف فيه ولو حققوا النظر ووقفوا على السر فى اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف فى شئ منها وقد أشرت الى ذلك فى الفصل الثامن من مقدمة كتابى هذا الذى يشتمل على ذكر الفصاحة وفى الوقوف عليه والاحاطة به غنى عن غيره لكن لا بد أن نذكرها ههنا تفصيلا لما أجملناه هنالك لانا ذكرنا فى ذلك الفصل أن الالفاظ داخلة فى حيز الاصوات لانها مركبة من مخارج الحروف فما استلذه السمع منها فهو الحسن وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح واذا ثبت ذلك فلا حاجة الى ما ذكر من تلك الخصائص والهيآت التى أوردها علماء البيان فى كتبهم لانه اذا كان اللفظ لذيذا فى السمع كان حسنا واذا كان حسنا دخلت تلك الخصائص والهيآت فى ضمن حسنه (وقد رأيت) جماعة من الجهال اذا قيل لأحدهم ان هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال كل الالفاظ حسن والواضع لم يضع الا حسنا ومن يبلغ جهله الى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج وبين لفظة المدامة ولفظة الاسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الاسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ولا يجاوب بجواب بل يترك وشأنه كما قيل اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر فى رحله وما مثاله فى هذا المقام الا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة

رد على من قال ان كل الالفاظ حسن والواضع لم يضع الا حسنا

السواد شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط كأنه زبيبة وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل ومبسم كأنما نظم من أقاح وطرة كأنها الليل على صباح فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه ولا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهذه ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فإن هذا حاسة وهذا حاسة وقياس حاسة على حاسة مناسب فإن عاند معاند في هذا وقال أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الأشياء فقد يعشق الإنسان صورة الزنجية التي ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التي وصفتها قلت في الجواب نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال بل نحكم على الكثير الغالب وكذلك إذا رأينا شخصا يحب أكل الفحم مثلا أو أكل الجص والتراب ويختار ذلك على ملاذ الأطعمة فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض قد فسدت معدته وهو محتاج إلى علاج ومداواة ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتا منكرا كصوت حمار وأن لها في الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذي غلب عليه غلظ الطبع وفجاجة الذهن بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسنا والذي نستقبحه هو الذي كان عندهم مستقبحا والاستعمال ليس بدليل على الحسن فإنا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن وإنما نستعمله لضرورة وليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور في أن يقول ما قال

لا يعرف الشوق إلا من يكابده * ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومع هذا فإن قول القائل بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن قول فاسد لا يصدر إلا عن جاهل فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال وإنما هو

رأي ابن سنان الخفاجي

شيء له خصائص وهيآت وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الفصاحة والبلاغة وأمّا الذي يقلد العرب فيه من الالفاظ فانما هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها والاخذ بأقوالها في الاوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجرّ المضاف اليه وجزم الشرط وأشباه ذلك وما عداه فلا وحسن الالفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو أو الى عمرو دون زيد لانه وصف ذاتيّ لا يتغير بالاضافة ألا ترى أنّ لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلمّ جرّا لا يختلف أحد في حسنها وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها (وقد ذكر) ابن سنان الخفاجي ما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها الى عدة أقسام كتباعد مخارج الحروف وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي غير شاذة وأن تكون مصغرة في موضع يعبر به عن شيء لطيف أو خفيّ أو ما جرى مجراه وأن لا تكون مبتذلة بين العامة وغير ذلك من الاوصاف وفي الذي ذكره ما لا حاجة اليه أمّا تباعد المخارج فانّ معظم اللغة العربية دائر عليه لانّ الواضع قسمها في وضعه ثلاثة أقسام ثلاثيا ورباعيا وخماسيا والثلاثيّ من الالفاظ هو الاكثر ولا يوجد فيه ما يكره استعماله الا الشاذ النادر وأمّا الرباعيّ فانه وسط بين الثلاثيّ والخماسيّ في الكثرة عددا واستعمالا وأمّا الخماسيّ فانه الاقل ولا يوجد فيه ما يستعمل الا الشاذ النادر وعلى هذا التقدير فانّ أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه ولا تقتضي حكمة هذه اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات الا ذلك ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقالا واستكراها فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ولا بين اللام والراء ولا بين الزاي والسين وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب ومن العجب أنه كان يخل بمثل هذا الاصل الكليّ في تحسين اللغة وقد اعتنى بأمور أخر جزئية كمماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغليان والضربان والنقزان

والنزوان

والعروات وغير ذلك مما يجري مجراه فان حروفه جميعها متحركات وليس فيها حرف ساكن وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة الى هذه الدقائق التي هي كالاطراف والحواشي فكيف كان يخل بالاصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها الى بعض على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الالفاظ وهل هي متباعدة أو متقاربة لطال الخطب في ذلك وعسر ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ولا الكاتب ينشئ كتابا الا في مدة طويلة تمضي عليها أيام وليال ذوات عدد كثير ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فان حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الالفاظ وقبح ما يقبح وسأضرب لك في هذا مثالا فأقول اذا سئلت عن لفظة من الالفاظ وقيل لك ما تقول في هذه اللفظة أحسنة هي أم قبيحة فاني لا أراك عند ذلك الا تفتي بحسنها أو قبحها على الفور ولو كنت لا تفتي بذلك حتى تقول للسائل اصبر الى أن اعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ما ذهب اليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطا في اختيار الالفاظ وانما شذ عنه الاصل في ذلك وهو أن الحسن من الالفاظ يكون متباعد المخارج فحسن الالفاظ اذن ليس معلوما من تباعد المخارج وانما علم قبل العلم بتباعدها وكل هذا راجع الى حاسة السمع فاذا استحسنت لفظا أو استقبحته وجدنا ما تستحسنه متباعد المخارج وما تستقبحه متقارب المخارج واستحسانها واستقباحها انما هو قبل اعتبار المخارج لا بعده على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة لانه قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك وتسمى ثلاثتها الشجرية واذا تركب منها شيء من الالفاظ جاء حسنا رائقا فان قيل جيش كانت لفظة محمودة أو قدمت الشين على الجيم فقيل شجي كانت أيضا لفظة محمودة ومما هو أقرب مخرجا من ذلك الباء والميم والفاء وثلاثتها من الشفة وتسمى الشفهية فاذا نظم منها شيء من الالفاظ كان جميلا حسنا كقولنا فم فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم وكقولنا ذقته بفمي وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها وكلاهما حسن لا عيب فيه (وقد ورد) من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضا ولو كان التباعد

سيما الحسن لما كان سببا للقبح اذهما ضدان لا يجتمعان (من ذلك) أنه يقال
ملع اذا عدا فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان
وكل ذلك متباعد ومع هذا فان هذه اللفظة كروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق
السليم ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة (وههنا نكتة غريبة) وهو
أنا اذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت علم وعند ذلك تكون حسنة لا مرية
على حسنها وما ندرى كيف صار القبح حسنا لانه لم يتغير من مخارجها شيء وذلك
أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ولو كان مخارج الحروف
معتبرا فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة فى ملع وعلم (فان قيل) ان اخراج
الحروف من الحلق الى الشفة أيسر من ادخالها من الشفة الى الحلق فان ذلك
انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل (فالجواب) عن ذلك أنى أقول لو استمر لك
هذا الصحيح ما ذهبت اليه لكان كل ما ورد من الالفاظ ما اذا عكسنا حروفه من الشفة الى
الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره الى الحلق لا يتغير كقولنا علب فان العين
من حروف الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة واذا عكسنا ذلك صار
بلع وكلاهما حسن مليح وكذلك تقول حلم من الحلم وهو الأناة واذا عكسنا
هذه الكلمة صارت ملح على وزن فعل بفتح الفاء وضم العين وكلاهما أيضا حسن
مليح وكذلك تقول عقر ورقع وعرف وفرع وحلف وفلح وقلم وملق وكلم وملك
ولو شئت لأوردت من ذلك شيأ كثيرا تضيق عنه هذه الاوراق ولو كان ما ذكرته
مطردا لكنا اذا عكسنا هذه الالفاظ صار حسنها قبحا وليس الامر كذلك وأما
ما ذكره ابن سنان من جريان اللفظة على العرف العربى فليس ذلك مما يوجب لها
حسنا ولا قبحا وانما يقدح فى معرفة مستعملها عما ينقله من الالفاظ فكيف
يعد ذلك من جملة الاوصاف الحسنة وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شيء
لطيف أو خفى أو ما جرى مجراه فهذا مما لا حاجة الى ذكره فان المعنى يسوق
اليه وليست معانى التصغير من الاشياء الغامضة التى يفتقر الى التنبيه عليها
فانها مدونة فى كتب النحو وما من كتاب نحو الا والتصغير باب من أبوابه ومع هذا
فان صاحب هذه الصناعة مخير فى ذلك ان شاء أن يورده بلفظ التصغير وان شاء
عبر عنه كقول بعضهم

لو كان يخفى على الرحمن خافية * من خلقه خفيت عنه بنو اسد

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ويجىء هكذا كما جاء بيته هذا فالوصية بها ادن ملغاة لاحاجة اليها (وأما الاوصاف الباقية التى ذكرت وهى التى ينبغى أن ينبه عليها) فمنها أن لاتكون الكلمة وحشية وقد حقق الوحشى على جماعة من المنتمين الى صناعة النظم والنثر وظنوه المستقبح من الالفاظ وليس كذلك بل الوحشى ينقسم قسمين أحدهما غريب حسن والآخر غريب قبيح وذلك أنه منسوب الى اسم الوحش الذى يسكن القفار وليس بأنيس وكذلك الالفاظ التى لم تكن مأنوسة الاستعمال وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحا بل أن يكون نافرا لايألف الانس فتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا وعلى هذا فان أحد قسمى الوحشى وهو الغريب الحسن يختلف باختلاف النسب والاضافات وأما القسم الآخر من الوحشى الذى هو قبيح فان الناس فى استقباحه سواء ولايختلف فيه عربى بادولاقروى متحضر وأحسن الالفاظ ما كان مألوفا متداولا لانه لم يكن مألوفا متداولا الا لمكان حسنه وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الفصاحة فان أرباب الخطابة والشعر نظروا الى الالفاظ ونفوا عنها ثم عدلوا الى الاحسن منها فاستعملوه وتركوا ماسواه وهو أيضا يتفاوت فى درجات حسنة فالالفاظ اذن تنقسم ثلاثة أقسام قسمان حسنان وقسم قبيح فالقسمان الحسنان أحدهما ماتداول استعماله الاول والآخر من الزمن القديم الى زماننا هذا ولايطلق عليه أنه وحشى والآخر ماتداول استعماله الاول دون الآخر ويختلف فى استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله وهذا هو الذى لايعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشى وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهى التى يطلق عليها غريب القرآن وكذلك تضمن الحديث النبوى منه شيأ وهو الذى يطلق عليه غريب الحديث (وحضر عندى فى بعض الايام رجل متفلسف) فجرى ذكر القرآن الكريم وأخذت فى وصفه وذكر مااشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأى فصاحة هناك وهو يقول تلك اذا قسمة ضيزى فهل فى لفظة ضيزى من الحسن مايوصف فقلت له اعلم أن لاستعمال الالفاظ أسرارا لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا

رد على متفلسف اعترض على قوله تعالى قسمة ضيزى

والفارابي ولا من أضلهم مثل ارسطاليس وافلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة ضيزى فانها في موضعها لا يسد غيرها مسدها ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وكذلك الى آخر السورة فلما ذكر الاصنام وقسمة الاولاد وما كان يزعمه الكفار قال ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه وغيرها لا يسد مسدها في مكانها واذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا ان غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة لانها تكون خارجة عن حرف السورة وسأبين ذلك فأقول اذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى الا انا اذا نظمنا الكلام فقلنا ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الاول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج الى تمام وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه ربا لسانه في فمه انجاما ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد الذي مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهيا ويقولون ما يقولونه جهلا واذا حوققوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم * وحيث انتهى القول الى ههنا فاني أرجع الى ما كنت بصدد ذكره فأقول وأمّا القبيح من الالفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيا فقط بل يسمى الوحشي الغليظ وسيأتي ذكره واذا نظرنا الى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلا سلسا وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدا هذا وقد أنزل في زمن العرب العرباء وألفاظه كلها من أسهل الالفاظ وأقربها استعمالا وكفى به قدوة في هذا الباب قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل مثل أمّ القرآن وهي السبع المثاني يريد بذلك فاتحة الكتاب واذا نظرنا الى ما اشتملت عليه من الالفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوقة وان لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة فان أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه وهكذا فلتكن الالفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها والمقتدى بألفاظ القرآن

يكتفى بها عن غيرها من جميع الالفاظ المنثورة والمنظومة * وأمّا ما ورد من اللفظ الوحشىّ فى الاخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طهفة بن أبى زهير النهدىّ وذلك أنه لما قدمت وفود العرب على النبىّ صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبى زهير فقال أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس ترتمى بنا العيس نستحلب الصبير ونستخلب الخبير ونستعضد البرير ونستخيل الرهام ونستجيل الجهام فى أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف المدهن ويبس الجعثن وسقط الاملوج ومات العسلوج وهلك الهدىّ ومات الودىّ برئنا اليك يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الاسلام ماطمى البحر وقام تعار ولنا نعم همل اغفال ما تبض ببلال ووقير كثير الرسل قليل الرسل أصابتنا سنية حمراء مؤزلة ليس لها علل ولا نهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها وفرقها وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر وافجر له الثمد وبارك له فى المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ولا تلحد فى الحياة ولا تتثاقل عن الصلاة (وكتب) معه كتابا الى بنى نهد من محمد رسول الله الى بنى نهد السلام على من آمن بالله ورسوله لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يؤكل أكلكم ما لم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة * وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتضى استعمال هذه الالفاظ ولا تكاد توجد فى كلامه الا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث وما جرى مجراه على أنه قد كان فى زمنه متداولا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله الا يسيرا لانه أعلم بالفصيح والافصح وهذا الكلام هو الذى نعده نحن فى زماننا وحشيا لعدم الاستعمال فلا تظن أن الوحشىّ من الالفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به وانما هو الغريب الذى يقلّ استعماله فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة وذلك فى اللفظ

عيبان أحدهما أنه غريب الاستعمال والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ ويسمى أيضا المتوعر وليس وراءه في القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شئ من معرفة هذا الفن أصلا (فان قيل) فما هذا النوع من الالفاظ (قلت) قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك وثقل على لسانك النطق به وسأضرب لك في ذلك مثالا فمنه ما ورد لتأبط شرا في كتاب الحماسة

يظل بموماة ويمسي بغيرها * جحيشا ويعروري ظهور المسالك

فان لفظة جحيش من الالفاظ المنكرة القبيحة ويالله العجب أليس أنها بمعنى فريد وفريد لفظة حسنة رائقة ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شئ من وزنه فتأبط شرا ملوم من وجهين في هذا الموضع أحدهما أنه استعمل القبيح والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله ولم يعدل عنها ومما هو أقبح منها ما ورد لأبي تمام قوله

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت * عشواء تالية غبسا دهاريسا

فلفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة وأنها غليظة في السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة دهاريس أيضا وعلى هذا ورد قوله من أبيات يصف فرسا من جملتها

نعم متاع الدنيا حباك به * أروع لا حيدر ولا حبس

فلفظة حيدر غليظة وأغلظ منها قول أبي الطيب المتنبي

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم * شيم على الحسب الاغر دلائل

فان لفظة جفخ مرة الطعم واذا مرت على السمع اقشعر منها وأبو الطيب في استعمالها كاستعمال تأبط شرا لفظة جحيش فان تأبط شرا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة كما أشرنا اليه فيما تقدم وكذلك أبو الطيب في استعمال هذه اللفظة التي هي جفخت فان معناها فخرت والجفخ الفخر يقال جفخ فلان اذا فخر ولو استعمل عوضا عن جفخت فخرت لاستقام وزن البيت وحظي في استعماله بالاحسن وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الالفاظ هو الوحشي اللفظ الغليظ الذي

ليس له ما يدانيه في قبحه وكراهته وهذه الامثلة دليل على ما أردناه والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على الغريب القبيح وأما الحصري فانه يلام على استعمال القسمين معا وهو في أحدهما أشد ملامة من الآخر على أن هذا الموضع يحتاج الى قيد آخر وذلك شيء استخرجته أنا دون غيري فاني وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي الى ما أوردته من الامثلة وربما أنكره بعد ذلك اما عنادا واما جهلا لعدم الذوق السليم عنده (فمن ذلك) قول الفرزدق

ولولا حياء زدت رأسك شجة * اذا سبرت ظلت جوانبها تغلي

شرنبثة شمطاء من يرتمي بها * يشمه ولو بين الخماسي والطفل

فقوله شرنبثة من الالفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر وهي ههنا غير مستكرهة الا أنها لو وردت في كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها وكذلك وردت لفظة مشمخر فان بشارا قد استعملها في أبياته التي يصف بها القاء الاسد فقال

وأطلقت المهند عن يميني * فقد له من الاضلاع عشرا

فخر مضرجا بدم كأني * هدمت به بناء مشمخرا

وعلى هذا ورد قول البحتري في قصيدته التي يصف بها ايوان كسرى فقال

مشمخر تعلو له شرفات * رفعت في رؤس رضوى وقدس

فان لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات ولا بأس بهما ههنا في الشعر وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب بن نباتة كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة فقال اقمطر وبالها واشمخر نكالها فما طابت ولا ساغت ومن هذا الاسلوب لفظة الكنهور في وصف السحاب كقول أبي الطيب

ياليت باكية شجاني دمعها * نظرت اليك كما نظرت فتعذرا

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة * الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فلفظة الكنهور لا تعاب نظما وتعاب نثرا وكذلك يجري الامر في لفظة العرمس وهي اسم الناقة الشديدة فان هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر ولا يعاب مستعملها كقول أبي الطيب أيضا

ومهمه جبته على قدمي * تعجز عنه العرامس الذلل

فانه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ولو استعملت في الكلام المنثور لما طابت ولا ساغت وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام كقوله

هي العرمس الوجناء وابن ملمة * وجاش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك ورد قوله أيضا * يا موضع الشدنية الوجناء * فان الشدنية لا تعاب شعرا وتعاب لو وردت في كتاب أو خطبة وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الالفاظ المشار اليها وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الالفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور وذلك شيء استنبطته واطلعت عليه لكثرة ممارستي لهذا الفن ولان الذوق الذي عندي دلني عليه فمن شاء أن يقلدني فيه والا فليدمن النظر حتى يطلع على ما اطلعت عليه والاذهان في مثل هذا المقام تتفاوت (وقد رأيت) جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ويبعد متناوله واذا رأوا كلاما وحشيا غامض الالفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك لان الفصاحة هي الظهور والبيان لا الغموض والخفاء * وسأبين لك ما تعتمد عليه في هذا الموضع (فأقول) الالفاظ تنقسم في الاستعمال الى جزلة ورقيقة ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك وأما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الاشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعني بالجزل من الالفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا وانما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبي تمام

ناعمات الاطراف لو أنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق

وسأضرب لك مثالا للجزل من الالفاظ والرقيق فأقول انظر الى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى فانك لا ترى شيأ من ذلك وحشي الالفاظ ولا متوعرا ثم انظر

الى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات في خطاب الانبياء وخطاب المذنبين والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى فانك لاترى شيأ من ذلك ضعيف الالفاظ ولاسفسافا (فمثال الاول) وهو الجزل من الالفاظ قوله تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر النار والجنة وانظر هل فيها لفظة الا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة وكذلك ورد قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (وأما مثال الثاني) وهو الرقيق من الالفاظ فقوله تعالى في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى الى آخر السورة وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسئلة واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة وكذلك كلام العرب الاول في الزمن القديم مما ورد عنها نثرا ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه فقال له انك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر ما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لاتحتاج الى تذكير من واعظ ولا تبصير من مجرب ولك من سودد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتد يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ولاتتجاوز الهمم الى غاية الارجعت اليك ووجدت عندك

كلام قبيصة لامرئ القيس لما أتاه يعفو عن دم أبيه

من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطاول رغباتها ويستغرق طلباتها وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع كان لحجر ولو كان يفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ولا يلحق أقصاه أدناه فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا فقدناه اليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته فنقول رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستلّ سخيمته إلا تمكينه من الانتقام أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القضب الى أجفانها لم ترددها تسليط الإحن على البراء وإما أن وادعتنا الى أن تضع الحوامل فتسدل الأزر وتعقد الخمر فوق الرايات قال فبكى ساعة ثم رفع رأسه فقال لقد علمت العرب أنه لا كفؤ لحجر في دم وإني لن أعتاض جملا ولا ناقة فاكتسب به سبة الأبد وفتّ العضد وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سببا وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حنقا وفوق الأسنة علقا

إذا جالت الحرب في مأزق * تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون قالوا بل ننصرف بأسوإ الاختيار وأبلى الاجترار بمكروه وأذية وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت * كتائبنا في مأزق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس لا والله ولكن أستعذبه فرويدا ينفرج لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى إذ كنت نازلا بربعي ولكنك قلت فأوجبت فقال امرؤ القيس هو ذلك * فلننظر الى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرئ القيس حتى يدع المتعمقون تعمقهم في استعمال الوحشي من الألفاظ فإن هذا الكلام قد كان في الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور وما عداه فليس بشيء وهذا المشار إليه ههنا هو من جزل كلامهم وعلى ما نراه من السلاسة والعذوبة وإذا تصفحت أشعارهم أيضا وجدت الوحشي من الألفاظ قليلا بالنسبة الى المسلسل

قوله ولكنك قلت الخ كذا في النسخ والظاهر أن يقول فقلت ولكنك الخ اه

في الفهم والسمع ألا ترى الى هذه الابيات الواردة للسموأل بن عاديا وهي

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل
علونا الى خير الظهور وحطنا * لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا * كهام ولا فينا يعد بخيل
اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول
وأيامنا مشهورة في عدونا * لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل غرب ومشرق * بها من قراع الدارعين فلول
معودة الا تسل نصالها * فتغمد حتى يستباح قتيل

فاذا نظرنا الى ما تضمنه من الجزالة نجد انها زبر من الحديد وهي مع ذلك سهلة مستعذبة غير مرتبطة ولا غليظة وكذلك قد ورد للعرب في جانب الرقة من الاشعار ما يكاد يذوب لرقته كقول عروة بن أذينة

ان التي زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها * بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي * ما كان أكثرها لنا وأقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوة * شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

(وكذلك ورد قول الآخر)

أقول لصاحبي والعيس تهوي * بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد * وريا روضة غب القطار
وأهلك اذ يحل الحي نجدا * وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا * بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل * وأطيب ما يكون من النهار

ومما ترقص الاسماع له ويرق على صفحات القلوب قول يزيد بن الطثرية في محبوبته من جرم

بنفسي من لو مر برد بنانه * على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته * فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

واذا كان هذا قول ساكن في الفلاة لا يرى الا شيحة أو قيصومة ولا يأكل الا ضبا أو يربوعا فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الالفاظ وشظف العبارات ولا يخلد الى ذلك الا اما جاهل بأسرار الفصاحة واما عاجز عن سلوك طريقها فان كل أحد ممن شدا شيئا من علم الادب يمكنه أن يأتي بالوحشي من الكلام وذلك أنه يلتقطه من كتب اللغة أو يتلقفه من أربابها وأما الفصيح المتصف بصفة الملاحة فانه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه فان مارى في ذلك ممار فلينظر الى أشعار علماء الادب ممن كان مشارا اليه حتى يعلم صحة ما ذكرته هذا ابن دريد قد قيل انه أشعر علماء الادب واذا نظرت الى شعره وجدته بالنسبة الى شعر الشعراء المجيدين منحطا مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الادب عشر معشار ما عرفه هذا العباس ابن الاحنف قد كان من أوائل الشعراء المجيدين وشعره كنسيم على عذبات أغصان وكلؤلؤات طل على طرر ريحان وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج الى استخراجها من كتب اللغة فمن ذلك قوله

واني ليرضيني قليل نوالكم * وان كان لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود الا عدتم بجميل

وهكذا ورد قوله في فوز التي كان يشبب بها في شعره

يا فوز يا منية عباس * قلبي يفدي قلبك القاسي
أسأت اذ أحسنت ظني بكم * والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني شوقي فآتيكم * والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الابيات وأعلق بالخاطر وأسرى في السمع ولمثلها تخف رواجح الاوزان وعلى مثلها تسهر الاجفان وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان ولم أجرها بلساني يوما من الايام الا ذكرت قول أبي الطيب المتنبي

اذا شاء أن يلهو بلحية أحمق * أراه غباري ثم قال له الحق

ومن

ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سهلة وعرة قريبة بعيدة وهذا أبو العتاهية كان في غرة الدولة العباسية وشعراء العرب اذ ذاك موجودون كثيرا وكانت مدائحه في المهدي بن المنصور واذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة ألفاظ ولطافة سبك وليس بركيك ولا واه وكذلك أبو نواس وبهذا قدم على شعراء عصره وما هيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء ويكفي منهم مسلم بن الوليد الذي كان فارس الشعر وله الاسلوب الغريب العجيب غير أنه كان يتعمق في أكثر ألفاظه ويحكى أن أبا نواس جلس يوما الى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى ماء فلما شرب قال * عذب الماء وطابا * ثم قال أجيزوه فأخذ أولئك الشعراء يترددون في اجازته واذا هم بأبي العتاهية فقال ما شأنكم مجتمعين فقالوا هو كيت وكيت وقد قال أبو نواس * عذب الماء وطابا * فقال أبو العتاهية * حبذا الماء شرابا * فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث وكل شعر أبي العتاهية كذلك سهل الالفاظ وسأورد منه ههنا شيأ يستدل به على سلاسة طبعه وترويق خاطره (فمن ذلك) قصيدته التي يمدح فيها المهدي ويشبب فيها بجاريته عتب

ألا ما لسيدتي مالها * تدل فأحمل ادلالها
ألا ان جارية للاما * م قد سكن الحسن سربالها
لقد أتعب الله قلبي بها * وأتعب في اللوم عذالها
كأن بعيني في حيثما * سلكت من الارض تمثالها

ولما وصل الى المديح قال من جملته

أتته الخلافة منقادة * اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره * لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب * لما قبل الله أعمالها

ويحكى أن بشارا كان شاهدا عند انشاد أبي العتاهية هذه الابيات فلما سمع المديح قال انظروا الى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده يريد هل زال عن سريره طربا بهذا المديح ولعمري ان الامر كما قال بشار وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته سواء كان في مديح أو غيره وقد أشرت الى ذلك فيما يأتي

من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة فلم توجد من هناك (واعلم) أن هذه الابيات
المشار اليها ههنا من رقيق الشعر غزلا ومديحا وقد أدمن لمديحها الشعراء من
أهل ذلك العصر ومع هذا فانك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات
وهذا هو الكلام الذى يسمى السهل الممتنع فتراه يطمعك ثم اذا حاولت مماثلته
راغ عنك كما يروغ الثعلب وهكذا ينبغى أن يكون من خاض فى كتابة أو شعر فان
خير الكلام ما دخل الاذن بغير اذن (وأما) البداوة والعنجهية فى الالفاظ فتلك
أمة قد خلت ومع أنها قد خلت وكانت فى زمن العرب العاربة فانما قد عيبت
على مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر
(وبعد هذا) فاعلم أن الالفاظ تجرى من السمع مجرى الاشخاص من البصر
فالالفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والالفاظ
الرقيقة تتخيل كأشخاص ذى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ولهذا ترى ألفاظ
أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد
وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين
بأصناف الحلى واذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتنى قد سلكت على الطريق
وصورت لك أمثالا مناسبة (واعلم) أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا
ما يضيق به مجال الكلام فى بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد
والطاء والظاء والغين فان فى الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن
من هذه الاحرف المشار اليها والناظم فى ذلك أشد ملامة لانه يتعرض لان
ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتى فى أكثرها بالبشع الكريه الذى
يمجه السمع لعدم استعماله كما فعل أبو تمام فى قصيدته الثائية التى مطلعها
قف بالطلول الدارسات علاثا * وكما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته الشينية
التى مطلعها * مبيتى من دمشق على فراش * وكما فعل ابن هانئ المغربى فى قصيدته
الخائية التى مطلعها * سرى وجناح الليل أقتم أفتخ * والناظم لا يعاب اذا لم ينظم
هذه الاحرف فى شعره بل يعاب اذا نظمها وجاءت كريهة مستبشعة وأما الناثر
فانه أقرب حالا من الناظم لان غاية ما يأتى به سجعتان أو ثلاثة أو أربع على حرف
من هذه الاحرف وما يعدم فى ذلك ما يروق اذا كان بهذه العدة اليسيرة فان كانت
أيها الشاعر أن تنظم شيأ على هذه الحروف فقل هذه الحروف هى مقاتل الفصاحة

وعذري واضح في تركها فإن واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تعذب في الفم
ولا تلذ في السمع والذي هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليل جداً ولا يصاغ منه
الا مقاطيع أبيات من الشعر وأما القصائد المقصدة فلا تصاغ منه وإن صيغت
جاء أكثرها مشنعاً كريهاً على أن هذه الحروف متفاوتة في كراهة الاستعمال
وأشدها كراهية أربعة أحرف وهي الخاء والصاد والطاء والعين وأما الثاء
والذال والشين والظاء فإن الأمر فيهن أقرب حالاً وهذا موضع ينبغي لصاحب
الصناعة أن يتنبه له فيه وقد أشرنا إليه كفاية للمتعلم المعرفة وليقف عنده
(ومن أوصاف الكلمة) أن لا تكون مبتذلة بين العامة وذلك ينقسم قسمين
(الأول) ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة
وجعلته دالاً على معنى آخر وهو ضربان الأول ما يكره ذكره كقول أبي الطيب

أذاق الغواني حسنه ما أذقنني * وعف فجازاهن عني بالصرم

فإن لفظة الصرم في وضع اللغة هو القطع يقال صرمه إذا قطعه فغيرتها العامة
وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادا
ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها لكن المكروه
منها ما يستعمل على صيغة الاسمية كما جاءت في هذا البيت وأما إذا استعملت
على صيغة الفعل كقولنا صرمه ويصرمه وتصرمه فإنها لا تكون كريهة لأن
استعمال العامة لا يدخل في ذلك وهذا الضرب المشار إليه لا يعاب البدوي
على استعماله كما يعاب الحضري لأن البدوي لم تتغير الألفاظ في زمنه
ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت في زمن الحضرية من الشعراء فمن أجل
ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما جرى مجراها على الشاعر الحضري ولم يعب
على الشاعر البدوي ألا ترى إلى قول أبي صخر الهذلي

قد كان صرم في الممات لنا * فعجلت قبل الموت بالصرم

فإن هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبي قوله في البيت المقدم ذكره
وقد صنف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادي المعروف بابن الجواليقي كتاباً
في هذا الفن وسماه بإصلاح ما تغلط فيه العامة فمنه ما هذا سبيله وهو الذي
أنكر استعماله لكراهته ولأنه مما لم ينقل عن العرب فهذان عيبان وأما
الضرب الثاني وهو أنه وضع في أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره

الا أنه ليس عستقبح ولا مستنكره وذلك كتسميتهم الانسان ظريفا اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله والظرف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط (وقد قيل فى صفات خلق الانسان ما أذكره هنا) وهو الصباحة فى الوجه الوضاءة فى البشرة الجمال فى الانف الحلاوة فى العينين الملاحة فى الفم الظرف فى اللسان الرشاقة فى القد اللباقة فى الشمائل كمال الحسن فى الشعر فالظرف انما يتعلق بالنطق خاصة فعبرته العامة عن بابه وممن غلط فى هذا الموضع أبو نواس حيث قال

اختصم الجود والجمال * فيك فصارا الى جدال
فقال هذا يديه لى * للعرف والبذل والنوال
وقال هذا الوجه لى * للظرف والحسن والكمال
فافترقا فيك عن تراض * كلاهما صادق المقال

وكذلك غلط أبو تمام فقال

لك هضبة الحلم التى لو وازنت * أجأ اذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التى لو مازجت * خلق الزمان الفدم عاد ظريفا

فأبو نواس غلط ههنا فى أنه وصف الوجه بالظرف وهو من صفات النطق وأبو تمام غلط فى أنه وصف الخلق بالظرف وهو من صفات النطق أيضا الا أن هذا غلط لا يوجب فى هذه اللفظة قبحا لكنه جهل بمعرفة أصلها فى وضع اللغة (القسم الثانى) مما تداولته العامة وهو الذى لم تغيره عن وضعه وانما أنكر استعماله لانه مبتذل بينهم لا لانه مستقبح ولا لانه مخالف لما وضع له وفى هذا القسم نظر عندى لانه ان كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة فان من الكثير المتداول بينهم ألفاظا فصيحة كالسماء والارض والنار والماء والحجر والطين وأشباه ذلك وقد نطق بها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة منه وجاءت فى كلام الفصحاء نظما ونثرا والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هو الالفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة (فمما) جاء منه قول أبى الطيب المتنبى

وملومة سمهرية ردينية * يصيح الحصا فيها صياح اللقالق

فان لفظة اللقالق مبتذلة بين العامة جدا وكذلك قوله

ومن الناس من تجوز اليهم * شعراء كأنها الخازباز

وهذا البيت من مضحكات الاشعار وهو من جملة البرسام الذى ذكره فى شعره حيث قال

ان بعضا من القريض هراء * ليس شيأ وبعضه احكام

فيه مايجلب البراعة والفهـ * ـم وفيه مايجلب البرسام

ومثل هذه الالفاظ اذا وردت فى الكلام وضعت من قدره ولو كان معنى شريفا وهذا القسم من الالفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر لكن منهم المقل ومنهم المكثر حتى ان العاربة قد استعملت هذا الا أنه فى أشعارها أقل فمن ذلك قول النابغة الذبيانى فى قصيدته التى أولها من آل مية رائح أو مغتدى

أو دمية فى مرمر مرفوعة * بنيت بآجر يشاد بقرمد

فلفظة آجر مبتذلة جدا وان شئت أن تعلم شيأ من سر الفصاحة التى تضمنها القرآن فانظر الى هذا الموضع فانه لما جىء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ولا بلفظ القرمد أيضا ولا بلفظ الطوب الذى هو لغة أهل مصر فان هذه الاسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا فعبر عن الآجر بالوقود على الطين (ومن هذا القسم المبتذل) قول الفرزدق فى قصيدته التى أولها عزفت بأعشاش وما كدت تعزف

وأصبح مبيض الصريب كأنه * على سروات البيت قطن مندف

فقوله مندف من الالفاظ العامية (ومن هذا القسم) قول البحترى

وجوه حساد لك مسودة * أم صبغت بعدى بالراح

فلفظة الراح من أشد ألفاظ العامة ابتذالا وقد استعمل أبو نواس هذا النوع فى شعره كثيرا كقوله

يامن جفانى وملا * نسيت أهلا وسهلا

ومات مرحبا لما * رأيت مالى قلا

انى أظنك فيما * فعلت تحكى القرلا

(وكقوله)

وأثر الجلد تصبرنه * في الناس راغا وشقراقا
مازلت أجري كلكي فوقه * حتى دعا من تحته قاقا
(وكقوله)
ومحنة بالعذل تحسب أنني * بالجهل أترك صحبة الشطار

وقد استعمل لفظة الشاطر والشاطرة والشطار والشطارة كثيرا وهي من الالفاظ التي ابتذلها العامة حتى سئمت من ابتذالها وهذه الامثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها (ومن أوصاف الكلمة) أن لا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره واذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وذلك اذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح وأما اذا جاءت ومعها قرينة فانها لا تكون معيبة كقوله تعالى فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام وعلى الضرب الذي هو دون الحد وذلك نوع من الهوان وهما معنيان ضدان فحيث وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها خصصت معناها بالحسن وميزته عن القبح ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح مثال ذلك لو قال قائل لقيت فلانا فعزرته لسبق الى الوهم أنه ضربه وأهانه ولو قال لقيت فلانا فأكرمته وعزرته لزال ذلك اللبس (واعلم) أنه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجبت قبحه ولو لم تجئ معه لما استقبح كقول الشريف الرضي

أعزز علي بأن أراك وقد خلا * عن جانبيك مقاعد العواد

وقد ذكر ابن سنان الخفاجي هذا البيت في كتابه فقال ان ايراد هذه اللفظة في هذا الموضع صحيح الا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر لا سيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليه وهم العواد ولو انفرد لكان الامر فيه سهلا فأما الاضافة الى من ذكره فيها قبح لا خفاء به هذا حكاية كلامه وهو مرضي واقع في موقعه ولقد كرهت ما عهدناه في ذلك فقول قد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر في القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية وهي قوله تعالى واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال وكذلك قوله تعالى

وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت في الشعر ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العوّاد مقاعد الزيارة أو ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن وجاءت على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي وعلى هذا ورد قول تأبط شرًّا

أقول للحيان وقد صفرت لهم * وطابي ويومي ضيق الجحر معور

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب كثقب الحية واليربوع وعلى الفرج المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة تخصصه سبق إلى الوهم ما يقبح ذكره لاشتهاره به دون غيره ومن ههنا ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن لا يلسع من جحر مرتين وحيث قال يلسع زال اللبس لأن اللسع لا يكون إلا للحية وغيرها من ذوات السموم وأما ما ورد مهملا بغير قرينة فقول أبي تمام

أعطيت لي دية القتيل وليس لي * عقل ولا حق عليك قديم

فقوله ليس لي عقل يظن أنه من عقل الشيء إذا علمه ولو قال ليس لي عليك عقل لزال اللبس فيجب إذا على صاحب هذه الصناعة أن يراعي في كلامه مثل هذا الموضع وهو من جملة الألفاظ المشتركة التي يحتاج في إيرادها إلى قرينة تخصصها ضرورة (ومن أوصاف الكلمة) أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا وهذا مما ذكره ابن سنان في كتابه ثم مثله بقول أبي الطيب المتنبي

ردٌّ على ابن سنان

إن الكرام بلا كرام منهم * مثل القلوب بلا سويداواتها

وقال إن لفظة سويداواتها طويلة فلهذا قبحت وليس الأمر كما ذكره فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة وقد كانت وهي مفردة حسنة فلما جمعت قبحت لا بسبب الطول والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى فسيكفيكهم الله فإن هذه اللفظة تسعة أحرف وكقوله تعالى ليستخلفنهم في الأرض فإن هذه اللفظة عشرة أحرف وكلاهما حسنة رائقة ولو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك ألا ترى أنه لو أسقط من

لفظة سويداواتها الهاء والالف اللتين هما عوض عن الاضافة لبقي منها ثمانية
أحرف ومع هذا فانها قبيحة ولفظة ليستخلفنهم عشرة أحرف وهي أطول منها
بحرفين ومع هذا فانها حسنة رائقة والاصل في هذا الباب ما أذكره وهو أن
الاصول من الالفاظ لا تحسن الا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كقولنا عذب
وعسجد فان هاتين اللفظتين احداهما ثلاثية والاخرى رباعية وأما الخماسي
من الاصول فانه قبيح ولا يكاد يوجد منه شيء حسن كقولنا جحمرش وصهصلق
وما جرى مجراهما ولو كان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان
حسنتين واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين لان تلك تسعة أحرف وعشرة
وهاتان حسنة وحسنة ونرى الامر بالضد مما ذكره وهذا لا يعتبر فيه طول
ولا قصر وانما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض وقد تقدم الكلام على
ذلك ولهذا لا يوجد في القرآن من الخماسي الاصول شيء الا ما كان من اسم نبي
عرب اسمه ولم يكن في الاصل عربيا نحو ابراهيم واسمعيل (ومما يدخل في هذا
الباب) أن تجتنب الالفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة
أو قصيرة ومثال ذلك قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي هي من جملة
القصائد السبع الطوال

غدائره مستشزرات الى العلا * تضل المدارى في مثنى ومرسل

فلفظة مستشزرات مما يقبح استعمالها لانها تثقل على اللسان ويشق النطق بها
وان لم تكن طويلة لانا لو قلنا مستنكرات أو مستنفرات على وزن مستشزرات
لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة وربما اعترض بعض الجهال
في هذا الموضع وقال ان كراهة هذه اللفظة انما هو لطولها وليس الامر كذلك
فانا لو حذفنا منها الالف والتاء وقلنا مستشزر لكان ذلك ثقيلا أيضا وسببه
أن الشين قبلها تاء وبعدها زاي فثقل النطق بها والا فلو جعلنا عوضا من الزاي
راء ومن الراء فاء وقلنا مستشرف لزال ذلك الثقل ولقد رأى بعض الناس
وأنا أعيب على امرئ القيس هذه اللفظة المشار اليها فأكبر ذلك لوقوفه مع شهرة
التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة
الضعيفة وقلت له لا يمنع احسان امرئ القيس من استقباح ماله من القبح
ومثال هذا كمثال غزال المسك فانه يخرج منه المسك والبعر ولا يمنع طيب

ما يخرج من مسكه من حيث ما يخرج من ثغره ولا تكون لذاذة ذلك الطيب حامية للعبث من الاستكراه فأسكت الرجل عند ذلك (وحضر) عندي في بعض الأيام رجل من اليهود وكنت إذ ذاك بالديار المصرية وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وغيره وكان لعمري كذلك فجرى ذكر اللغات وأن اللغة العربية هي سيدة اللغات وأنها أشرفهن مكانا وأحسنهن وضعا فقال ذلك الرجل كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ثم إن واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فإنه عندنا في اللسان العبراني كوميل ثمالا على وزن فوعيل فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا وذكر أشياء كثيرة ولقد صدق في الذي ذكره وهو كلام عالم به (ومن أوصاف الكلمة) أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء لأن الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان ولعل لك مثالا تهتدي به في هذا الموضع وهو أنا قول إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي ج ز ع فإذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجزع أو مكسورة فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا الجزع وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا الجزع ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرا لمخارج حروفها حتى ينسب ذلك إلى اختلاف تأليف المخارج بل وجدناها تارة تكتسي حسنا وتارة يسلب ذلك الحسن عنها فعلمنا أن ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها (واعلم) أنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلا كقوله تعالى ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر وكقوله تعالى إن المجرمين في ضلال وسعر وكقوله تعالى وكل شيء فعلوه في الزبر فحركة الضم في هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثقل

ولا كراهة وكذلك ورد قول أبي تمام

فـمن يحتثه نفس * ودموع لبس تختنس
ومعان للذكرى دثر * عطل من عهده درس
شهرت ما كنت اكتمه * ما نطقت بالهوى خرس

فانظـر كيف جاءت هـذه الالفاظ الاربعـة مضمومات كلها وهي مع ذلك حسـنة لا ثقل بها ولا ينبو السمع عنها وهـذا لا ينقض ما أشرنا اليه لان الغالب أن يكون توالي حركة الضم مستثقلا فاذا شذ عن ذلك شيء يسير لا ينقض الاصل المقيس عليه (القسم الثاني في الالفاظ المركبة) قد قدمنا القول في شرح أحوال اللفظة المفردة وما يختص بها وأما اذا صارت مركبة فان لتركيبها حكما آخر وذلك أنه يحـدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيـل للسامع أن هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة ومثال ذلك كمن اخذ لآلئ ليست من ذوات القيم الغالية فالفها وأحسن الوضع في تأليفها فخيل للناظر بحسن تأليفه واتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددة وفي عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات القيم الغالية و فسد تأليفها فانه يضع من حسنها وكذلك يجـرى حكم الالفاظ الغالية مع فساد التأليف وهـذا موضع شريف ينبغي الالتفات اليه والعناية به (واعـلم) أن صناعة تأليف الالفاظ تنقسم الى ثمانية أنواع هي السجع ويختص بالكلام المنثور والتصريع ويختص بالكلام المنظوم وهو داخل في باب السجع لانه في الكلام المنظوم كالسجع في الكلام المنثور والتجنيس وهو يعم القسمين جميعا والترصيع وهو يعم القسمين أيضا جميعا ولزوم ما لا يلزم وهو يعم القسمين أيضا والموازنة وتختص بالكلام المنثور واختلاف صيغ الالفاظ وهو يعم القسمين جميعا وتكرير الحروف وهو يعم القسمين جميعا (النوع الاول السجع) وحده أن يقال تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحـد وقد ذمه بعض أصحاب من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به والا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فانه قد أتي منه بالكثير حتى انه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور فمن ذلك قوله تعالى ان الله لعن الكافرين وأعدّ لهم

السجع

سعيرا

سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا وكقوله تعالى في سورة طه
طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض
والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض
وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا
هو له الأسماء الحسنى وكذلك قوله تعالى في سورة ق بل كذبوا بالحق لما جاءهم
فهم في أمر مريج أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من
فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج
وكقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به
نقعا فوسطن به جمعا وأمثال ذلك كثيرة * وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام
النبي صلى الله عليه وسلم شيء كثير أيضا (فمن ذلك) ما رواه ابن مسعود رضي الله
عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قلنا إنا
لنستحيي من الله يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ
الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة
ترك زينة الحياة الدنيا (ومن ذلك) ما رواه عبد الله بن سلام قال لما قدم
رسول الله صلى الله عليه وسلم جئت في الناس لأنظر إليه فلما تبينت وجهه علمت
أنه ليس بوجه كذاب وكان أول شيء تكلم به أن قال أيها الناس أفشوا السلام
وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام (فإن قيل)
إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع
أسجعا كسجع الكهان ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه
وسلم (فالجواب) عن ذلك أنا نقول لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقا
لقال أسجعا ثم سكت وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان فلما قال أسجعا
كسجع الكهان صار المعنى معلقا على أمر وهو إنكار الفعل لم كان على هذا
الوجه فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير وأنه لم يذم
السجع على الإطلاق * وقد ورد في القرآن الكريم وهو صلى الله عليه وسلم
قد نطق به في كثير من كلامه حتى إنه غير الكلمة عن وجهها اتباعا لها بأخواتها
من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام أعيذه من الهامة والسامة
وكل عين لامة وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من ألم فهو ملم وكذلك قوله صلى

الله عليه وسلم ارجعن مأزورات غير مأجورات وإنما أراد موزورات من الوزر
فقال مأزورات لمكان مأجورات طلبا للتوازن والسجع وهذا مما يدلك
على فضيلة السجع على أن هذا الحديث الذي يتضمن إنكار سجع
الكهان عندي فيه نظر فإن الوهم يسبق إلى إنكاره فيقال فما سجع الكهان الذي
يتعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والجواب عن ذلك أن
النهي لم يكن عن السجع نفسه وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ
المسجوع ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين بغرة عبد
أو أمة قال الرجل أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك
بطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أي أتتبع سجعا
كسجع الكهان وكذلك كان الكهنة كلهم فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاؤا
بالكلام مسجوعا كما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة فإنه قال لما امتحن قبل
السؤال عن قصتها ثمرة في كمرة فقيل له نريد أبين من هذا فقال حبة بر في إحليل
مهر والحكاية مشهورة فلهذا اختصرناها هنا وكذلك قال سطيح فإنه قال عبد
المسيح جاء إلى سطيح وهو موف على الضريح لرؤيا الموبذان وارتجاس
الإيوان وأتم الكلام إلى آخره مسجوعا والحكاية مشهورة أيضا فلهذا
اختصرناها فالسجع إذا ليس بمنهي عنه وإنما المنهي عنه هو الحكم المتبوع
في قول الكاهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أي
أحكما كحكم الكهان وإلا فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال أأدي
من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل وهذا كلام حسن من
حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع
الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة (واعلم) أن الأصل في السجع إنما هو
الاعتدال في مقاطع الكلام والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل
إليه بالطبع ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط ولا عند
تواطؤ الفواصل على حرف واحد إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل
أديب من الأدباء سجاعا وما من أحد منهم ولو شدا شيأ يسيرا من الأدب
إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتي بها في كلامه بل ينبغي أن تكون
الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة وأعني بقولي غثة باردة

أن صاحبها يصرف نظره الى السجع نفسه من غير نظر الى مفردات الالفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ولا الى تركيبها وما يشترط له من الحسن وهو في الذي يأتي به من الالفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون وهذا مقام تزل عنه الاقدام ولا يستطيعه الا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا فاذا صفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فان وراء ذلك مطلوبا آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ فانه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب وكذلك يجري الحكم في الانواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما * وسأبين لك في هذا مثالا لا تتبعه فأقول اذا صورت في نفسك معنى من المعاني ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك الا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه ولا يكون محتاجا الى الزيادة ولا الى النقصان وانما تفعل ذلك لان المعنى الذي قصدته يحتاج الى لفظ يدل عليه واذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعا الا أن تضيف اليه شيأ آخر أو تنقص منه فاذا فعلت ذلك فانه هو الذي يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف وأما اذا كان محمولا على الطبع غير متكلف فانه يجيء في غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام واذا تهيأ للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة فانه يكون قد ملك رقاب الكلام يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها وفي مثل ذلك فليتنافس وعن مقامه فليتقاعس وصاحبه أولى بقول أبي الطيب المتنبي

أنت الوحيد اذا ركبت طريقة * ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا

(فان قيل) فاذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت اليه فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعا وليس الامر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع (قلت في الجواب) ان أكثر القرآن مسجوع حتى ان السورة لتأتي جميعها مسجوعة وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعا الا أنه سلك به مسلك الايجاز والاختصار والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الايجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب وههنا وجه آخر هو

أقوى من الاول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع وانما تضمن القرآن غير المسجوع لان ورود غير المسجوع معجزا أبلغ في باب الاعجاز من ورود المسجوع ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا (واعلم) أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة فان عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا وهذا شئ لم ينبه عليه أحد غيري وسأبينه ههنا وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم وأمثل لذلك مثالا اذا احتذيته أمنت الطاعن والعائب وقيل في كلامك ليبلغ الشاهد الغائب والذي أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه لان التطويل انما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها واذا وردت سجعتان يدلان على معنى واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه وجل كلام الناس المسجوع جار عليه واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فانك ترى أكثر المسجوع منه كذلك والاقل منه على ما أشرت اليه ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما واكبابهم عليهما فوجدت الاكثر من السجع فيهما على الاسلوب الذي أنكرته فالكلام المسجوع اذا يحتاج الى أربع شرائط الاولى اختيار مفردات الالفاظ على الوجه الذي أشرت اليه فيما تقدم الثانية اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت اليه أيضا فيما تقدم الثالثة أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ الرابعة أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها فهذه أربع شرائط لا بد منها * وسأوردها هنا من كلامي أمثلة تحتذى حذوها فاني لما سلكت هذه الطريق وأتيت بكلامي مسجوعا توخيت أن تكون كل سجعة منه مختصة بمعنى غير المعنى الذي تضمنته أختها ولم أخل بذلك في مكاتباتي كلها واذا تأملتها علمت صحة ما قد ذكرته (فمن ذلك) ما كتبته في صدر كتاب عن بعض الملوك الى دار الخلافة وهو الخادم واقف موقف راج هائب لازم لكتابه هذا وقار حاضر عن شخص غائب موجه وجهه الى ذلك الجناب الذي تقسم فيه أرزاق العباد ويتأدب به الزمان تأدب ذوي الاستعداد وتستمد الملوك من خدمته شرف

نقد على المقامات الحريرية والخطب النباتية في السجع

الحدود كما تستغني بسببها اليه عن شرف الاجداد ولو ملك الخادم نفسه لقصرها على خدمة قصره وأخطاها من النظر اليه برد العيش الذى عمرها محسوب من عمره وهذا القول يقوله وكل ماجد فيه حامد وشاهد به راكع ساجد والديوان العزيز محمود الاقتراب وهو موطن الرغبات الذى الاعتراب اليه ليس بالاغتراب وما يناس فى القرب من أبوابه الكريمة الا دوو الهمم الكريمة وقد ودت الكواكب بأسرها أن تكون له منادمة فضلا عن ندمانى جديدة (ومن ذلك) ما كتبته من كتاب يتضمن العناية بنص الناس وهو الكريم من أوجب لسائله حقا وجعل كوادب آماله صدقا وكان خرق العطايا منه خلقا ولم ير بين دمه وبين رحمه فرقا وكل ذلك موجود فى كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة وجعل نعمه على تمام كل نقص قديرة وأوطأه من كل مجد سريرا كما بوأه من كل قلب سريرة ولا زالت يده بالمكارم حديرة ومن الايام مجيرة ولضرائرها من البحار والسحاب مبيرة ولا برحت تتولد عقائم المعانى وتستنجد أبيتها حتى تشهد الناس منها فى كل يوم عقيقة أو وكيرة ومن صفات كرمه أنه يسلك الاموال مآثر ويتخذها عند السؤال دخائر وهى تفنى لديهم بالانفاق وذكرها على مرور الايام باق ومن أربح منه صفقة وقد باع صامتا بناطق وما هو معترض لحوادث المسرفات فالاتصل اليه يد سارق ومثله من عرف الدنيا فرغب عن اقتنائها وحذف اثناء الحامد من دم بنائها وعلم أن مالها ليس عند الضمين به الا أحجارا وأن عطاءمها لا يريده الا اقتمارا فهو لماله عبد يخدمه ولا يستخدمه وأمّ ترصه فيسعيها ولا تعطامه (ومنه) ما كتبته فى جواب كتاب يتضمن اباق غلام وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه الى المكتوب اليه فقلت وأمّا الاشارة الكريمة فى أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يعتز المهر من عليقه ويطير الفراش الى حريقه وغير بعيد أن ينوبه مصححه أو يكبو به مطمعه فيرجع وقد ندم من رجوعه ما ندمه من ذهابه وعلم أن النعمة كل النعمة فى ايابه فما كل شجرة تحاول اتقها ولا كل دار ترحب بطارقها ومن أبق عن مولاه عاصيا وجانب محل احسانه الذى لم يكن له مجانبا فانه يجد من مفارقة الاحسان ما يجده من مفارقة معاهد الاوطان وهل أصل سعيا من دفع فى صدر العافية وغدا يسأل عن الاسقام

وألقى الثروة من يده وهى فى طلب الاعداء ومع هذا فان الخادم يشكره على ذنب الاباق الذى أقدم على اجترائه وليس ذلك الا لانه صار سد الافتتاح باب المكاتبة الذى لم يطمع فى افتتاحه ولا جزاء له عنده الا السعى فى اعادته الى الخدمة التى تقلب فى أنشائها وهى أربه من أمه التى تقلب فى أحشائها ومن فصلها أنها تلقاه من حلها بوسيلة الشافع ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع (فانظر) أيها المتأمل الى هذه الاسجاع جميعها وأعطها حق النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها وكذلك فليكن السجع والا فلا * وسأورد ههنا من كلام الصابى ما ستراه (فمن ذلك) تحميد فى كتاب فقال الحمد لله الذى لا تدركه الاعين بألحاظها ولا تحده الالسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ثم انتهى الى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لم ير للكفر أثرا الا طمسه ومحاه ولا رسما الا أزاله وعفاه ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور وكذلك لا فرق بين محو الاثر وعفاء الرسم (ومن كلامه) أيضا فى كتاب وهو وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الايام ومتعاقب الاعوام تعتل طورا وتصح أطوارا وتلتاث مرة وتستقل مرارا من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع وبناؤها ثابت لا يتضعضع وهذه الاسجاع كلها متساوية المعانى فان الاعتلال والالتياث والطور والمرة والرسوخ والثبات كل ذلك سواء وكذلك ورد له فى جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه جوابا عن كتاب وصله من الامير عبد الكريم ابن المطيع لله فقال وصلنى كتابه مفتتحا من الاعتزاء الى امارة المؤمنين والتقلد لامور المسلمين بما أعراقه الزكية محوزة لاستمراره وأرومته العلية مسوغة لاستقراره لولا كل يحجب احد حظه من نسبه وضارب بسهم فى منصبه اذ كان ذلك جاريا على الاصول المعهودة فيه والاسباب العاقدة له من اجماع المؤمنين كافة فان تعذر اجتماعهم مع انبساطهم فى الارض وانتشارهم فى الطول والعرض فلا بد من اتفاق أشراف كل قطر وأفاضله وأعيان كل صقع وأماثله وهذا الكلام كله متماثل المعانى فى أسجاعه فان امارة المؤمنين والتقلد لامور المسلمين سواء فى المعنى وكذلك الاعراق والارومة والتحويز والتسويغ والاشراف والافاضل والاعيان والاماثل

والمطر والموقع كل ذلك سواء (وعلى هذا) جاء كلامه في كتاب آخر فقال يسافر رأيه وهو دان لم يبرح ويسير تدبيره وهو ثاو لم يبرح وكلا هذين سواء أيضا وما أحسن هذا المعنى لو قال يسافر رأيه وهو دان لم يبرح ويثخن الجراح في عدوه وسيفه في الغمد لم يبرح فانه لو قال مثل هذا لسلم من هجنة التكرار وأمثال ذلك في كلام الصابي كثير * وعلى منواله نسج الصاحب بن عباد (فمن ذلك) ما ذكره في وصف منهزمين فقال طاروا واقين بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم وكلا المعنيين سواء (وكذلك) قوله في هذا الكتاب وصف مضيق مجال الحرب فكان ضيقا على الفارس والراجل ضيق على الرامح والنابل (ومن كلامه) في كتاب وهو لا تتوجه همته الى أعظم مرقوب الاطماع ودان ولا تمتد عزيمته الى أضخم مطلوب الاكان واستكان وكل هذا الذي ذكره شيء واحد (وله من كتاب) وهو وصل كتابه جامعا من الفوائد أشدها للشكر استحقاقا وأتمها للحمد استغراقا وتعرفت من احسان الله فيما أورده من سلامته وهنأه من كرامته أيسر موهوب ومطلوب وأجدر مرقوب ومخطوب وهذا كله متماثل المعاني متشابه الالفاظ وفيما أوردته هاهنا مقنع فانظر أيها الواقف على هذا الكتاب فيما بينته لك ووضعت يدك عليه حتى تعلم كيف تأتي بالمعاني في الالفاظ المسجوعة والله الموفق للصواب

(فان قيل) انك اشترطت أن تكون كل واحدة من الفقرتين في الكلام المسجوع دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها وانما اشترطت هذه الشريطة فرارا من أن يكون المعنيان شيئا واحدا ونرى قد ورد في القرآن الكريم لفظتان بمعنى واحد في آخر احدى الفقرتين المسجوعتين كقوله تعالى واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكل رسول نبي (قلت في الجواب) ليس هذا كالذي اشترطته أنا في اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذي اختصت به أختها وانما هذا هو ايراد لفظتين في آخر احدى الفقرتين بمعنى واحد وهذا لا بأس به لمكان طلب السجع ألا ترى أن أكثر هذه السورة التي هي سورة مريم عليها السلام مسجوعة على حرف الياء وهذا يجوز لصاحب السجع أن يأتي به وهو بخلاف ما ذكرته أنا ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد غير اللفظة عن وضعها طلبا للسجع فقال

مأزورات وإنما هي موزورات وقال الغني الأئمة وإنما هي المأثمة إلا أنه ليس في ذلك زيادة معنى بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة مقام موزورات وكذلك يفهم من لفظة لائمة أنها بمعنى مليمة فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة وأجيز معه أن يورد لفظتان بمعنى واحد في آخر إحدى القرينتين ومع هذا لم يجز في استعماله أن يورد فقرتان بمعنى واحد لأنه تطويل محض لا فائدة فيه وبين الذي ذكرته أنت وبين الذي ذكره أبا فرق ظاهر (والذي قدمته) من الأمثلة المسجوعة للصابي والصاحب بن عباد مما كانت يسيرة أتهم فيها بالتعصب ويقال إني التقطتها التقاطا من جملة رسائلهما وقد خرجت من عهدة هذه التهمة وذاك أني وجدت للصابي تقليدا بنقابة الأشراف العلويين ببغداد وكنت أنشأت تقليدا بنقابة الأشراف العلويين بالموصل وقد أوردت التقليدين هاهنا ليتأملهما الناظر في كتابي هذا ويحكم بينهما إن كان عارفا أو يسأل عنهما العارف إن كان مقلدا وقد أوردت تقليد الصابي أولا لأنه المقدم زمانا وفضلا وهو هذا ما عهد أمير المؤمنين إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي حين وصلته به الأنساب وتأكدت له الأسباب وظهرت دلائل عقله وإنابته ووضحت مخايل فضله ونجابته ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين ما مكن له عند أمير المؤمنين من المحل المكين ووصفه به من الحلم الرزين وأشاد به فيه من رفع المنزلة وتقديم المرتبة والتأهيل لولاية الأعمال والحمل للأعباء الثقال وحيث رعاه فيه سابقة الحسين أبيه في الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة والمقامات المشهودة التي طابت بها أخباره وحسنت فيها آثاره وكان محمد متخلقا بخلائقه وذاهبا في طرائقه علما وديانة وورعا وصيانة وعفة وأمانة وشهامة وصرامة بالحظ الجزيل من الفضل الجليل والأدب الجزل والتوجه في الأهل والإيفاء بالمناقب على لداته وأترابه والإبرار على قرانه وأضرابه فقلده ما كان داخلا في أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبيين أجمعين بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار شرقا وغربا وبعدا وقربا واختصه بذلك جذبا بضبعه وإنافة بقدره وقضاء لحق رحمه وترفيها لأبيه وإسعافا بإيثاره فيه أمر المؤمنين واستخلافه عليه من النظر في المظالم وتسيير الحجيج في المواسم والله يعرف أمير المؤمنين فيما

أمر وديره حسن العاقبة فيما قضى وأمضى وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله
عليه يتوكل وإليه ينيب وأمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين وسيماء
الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين وأن يعتقدها سرًّا وجهرًا ويعتمدها
قولًا وفعلًا ويأخذ بها ويعطي ويسر بها وينوي ويأتي ويذر ويورد
ويصدر فإنها السبب المتين والمعقل الحصين والزاد النافع يوم الحساب
والمسلك المفضي إلى دار الثواب وقد حضّ الله أولياءه عليها وهداهم في محكم
كتابه إليها فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين
وأمره بتلاوة كتاب الله مواظبًا وتصفحه مداومًا ملازمًا والرجوع إلى
أحكامه فيما أحلّ وحرّم ونقض وأبرم وأثاب وعاقب وباعد وقارب فقد
صحّ الله برهانه وحجته وأوضح منهاجه ومحجته وجعله ضياء في الظلمات طالعًا
ونورًا في المشكلات ساطعًا فمن أخذ به نجا وسلم ومن عدل عنه هوى وندم
قال الله تعالى وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد وأمره بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشبهات وتطلع إليه
التبعات وأن يضبطها ضبط الحليم ويكفها كفّ الحكيم ويجعل عقله
سلطانًا عليها وتمييزه آمرًا ناهيًا لها ولا يجعل لها عذرًا إلى صبوة ولا هفوة
ولا يطلق منها عنانًا بعد ثوره ولا فوره فإنها أمارة بالسوء ميّالة إلى الغيّ فمن
رفضها نجا ومن اتبعها هوى فالحازم متهم عند تحرك طرفه وأربه واهتياج
غيظه ولا يدع أن يغضها بالشكيم ويعركها عرك الأديم ويقودها إلى مصالحها
بالخزائم ويعتقدها من مقارفة المآثم والمحارم كيما يغير تذليلها وتأديبها
ويحلّ رياضها وتقويمها والمفرّط تطمح به إذا طمحت وتجمح معها إذا
جمحت ولا يلبث أن توردَه حيث لا يصدر وتجذبه إلى أن يتقدر وتقيه
مقام النادم الواجم وتمسك بسبيل الراشد السالم وأحق من تحلّى
بالمحاسن وتصدّى لاكتساب المحامد من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين
الشريف ومنصبه المنيف واجتمع معه في ذؤابة العترة الطاهرة واستظل
بأوراق الدوحة الفاخرة فذلك الذي تتضاعف به المآثر إن آثرها والمثالب
إن أسفّ إليها ولا سيما من كان منه ونائبًا بالسياسة ومرشحًا للتقليد على أهله إذ
ليس يفي بإصلاح من ولي عليه ولا يفي بإصلاح ما بين جنبيه ومن أعظم الهم

وفارقوا الحيرة والاخوان وتجشموا المغارم الثقال وتعسفوا السهولة والجبال
يلبون دعاء الله ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه وحقيق على
المسلم أن يحرسهم متبرعا ويحوطهم متطوعا فكيف من تولى ذلك وضمنه
وتقلده واعتقده قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه
سبيلا وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام واطرافها واقطارها
واكنافها وأن يجبي أموال وقفها ويستقصي جميع حقوقها وأن يلم
شعثها ويستدرها بما يتحصل من هذه الوجوه قبله لا يزيل رسما جرى
ولا ينقص عادة كانت لها وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها
ويذكر اسمه بعده بأن عمارتها جرت على يده وصلاح أداه قول أمير المؤمنين في ذلك
تنويها باسمه واشادة لذكره وأن يولي ذلك من قبله من حسنت أمانته وطهرت
عفته وصيانته فقد قال الله جل من قائل انما يعمر مساجد الله من آمن بالله
واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا
من المهتدين وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الاعمال
في الامصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة من يثق به من صلحاء
الرجال ذوي الوفاء والاستقلال وأن يعهد اليهم مثل ما عهد اليه ويعتمد
عليهم مثل ما اعتمد عليه ويستقصي في ذلك آثارهم ويتعرف أخبارهم فمن
وجده محمودا قربه ومن وجده مذموما صرفه ولم يمهله واعتاض من ترجى
الامانة عنده وتكون الثقة معهودة منه وأن يختار لكتابته وحجابته والتصرف
فيما قرب منه وبعد عنه من يرتضيه ولا يشينه وينصح له ولا يغشه ويجمله
ولا يهجنه من الطبقة المعروفة بالعفاف المتصونة عن الطمع ويجعل لهم من
الارزاق الكافية والاجرة الوافية ما يصدهم عن المكاسب الذميمة والمآكل
الوخيمة فليس تجب عليهم الحجة الا مع اعطاء الحاجة قال الله تعالى وأن ليس
للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وأمره أن
يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له حجته الى أصحاب المعارف بالشد
على يده وايصال حقه اليه وحسم الطمع الكاذب فيه وقبض اليد الظالمة
عنه اذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه والوقوف عند رسمه وحده هذا
عهد أمير المؤمنين اليك وحجته لك وعليك قد أبان منه سبيلك وأوضح دليلك

وهذا الرشد لك وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به ولا تخالفه وانته إليه ولا تجاوزه وإن عرض لك عارض يحول بينك والوفاء به ويشتبه عليك الخروج منه أنهيته إلى أمير المؤمنين مبادرا وكنت إلى ما يأمرك به صائرا إن شاء الله تعالى

(وأما التقليد الذي أنشأته أنا) فقد أوردته بعد هذا التقليد وهو أما بعد فإن كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم وكل كتاب لا يرقم باسمه فليس بمعلم وعلى هذا فإن حمده ينزل من الكلام منزلة الأعضاء من الأجسام واسمه ينزل من الكتاب منزلة الرقوم من الثياب وقد جمعنا في كتابنا هذا بين التسمية والتحميد وجعلنا أحدهما مفتاحا للتيمن والآخر سببا للمزيد ثم ردفناهما بالصلاة على سيدنا محمد الذي أيده الله بالقرآن المجيد وجعل شهادته فوق كل شهيد وعلى آله وصحبه الذين هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ومما يقترن بهذه الصلاة في ثوابها ويجري على أعقابها النطق في أمر الأسرة النبوية التي وصل ودها بوده وجعلها إحدى الثقلين المخلفين من بعده وقد تقادم الآن زمانها وتشعبت أغصانها ونسي ما لها في الرقاب من عهدة الأمانة ولم توضع فيما وضعها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المكانة وأولى الناس بها من أصبح ولاؤها حقا وأوجب أن يرد معها الحوض حين يقال لوارده سحقا وكان من تحت يده منها بارا رفيقا حتى لا يسأله برا ولا رفقا ونحن نرجو أن نفوز بفضيلة هذه الحسنة وأن نسبق إليها سبق المقرب في الجمعة بدنة ومن أهم أمورها أن يختار لها زعيم يرأف بها رأفة الوالد بولده ويقوم بأمرها قيام الرأس بجسده حتى تأتلف أصولها كائتلافها في مغرسها ولا يحكم عليها من ليس من أنفسها وقد اخترنا لها من وفقنا في اختياره وأخذنا فيه ببيان الرأي وحزمه لا بشبهة الهوى واغتراره ولو لم يكن من القوم الذين ولوها لكان استحقاقه لها بينا والتعويل عليه متعينا فكيف وقدمه فيها قديمة الميلاد ووراثته إياها عن سيادة الجدود وسؤدد الأجداد وهو أنت أيها السيد الأجل الشريف الحسيب النسيب فلان بن فلان الحسيني ولو شئنا لأسندنا هذه النسبة كابرا عن كابر ونضدناها آخرا بعد أول عن أول قبل آخر حتى وصلنا هذا الفرع بشجرته الطيبة وهذا القطر بسحابته الصيبة وشرف الأنساب أصدقه ما كان الدهر به شهيدا وأمجده ما كان قديما وأخلقه

ما كان حديدا وما تولى الروح الامين مدحه قرآنا أكرم مما تولى الشعراء
مدحه قصيدا ولا فضل للمعتزى الى هذا النسب حتى تلحق النبوة بالابوة
ويضيف درجة الفضيلة الى مجد النبوة وحينئذ يقال ما أقرب الشبه على
قدم عهده وهذا ماء الورد بعد ذهاب ورده وأنت ذلك الرجل الذى تردد
الشرف فى مناسبه تردد القمر فى منازله وربما الهدى اقتبسه زهو الروض
فى خمائله ولكن حسبك تغنيك عن سؤال من وما وقلا يولدك وجدك قلما
وعلما والحسب ما حفظت أواخره أوائله وأوضحت الليالى والايام دلائله
وأقرت به الاعداء فعارضت فضائله وهذه هى المآثر التى اذا نظمت عارت
الشعراء عليها من الشعر واذا نثرت وجدت فى محكم الذكر وأنت صاحبها
وابن صاحبها ومن لم يرثها عن آبائه فهذا دال عن آثارها ولو جادت رياستها
مصانعا ومشيت بها الضراء متواضعا لدل عليك وضعها وعرف منك عرفها
وقد قلدك الله أمر هذه الاسرة الطاهرة التى هى أسرتك وأقرك عليها وامرتها
امرتك فتولها تولى من خفض لها جناحه وأفاض عليها سماحة وأنصف بها
غدوه ورواحه حتى يقال انك الراعى الذى تناول ثلته ما راح صغيرها
وجبر كسيرها وارتاد لها خصبا وأوردها ماءها الاعذبا وأذكى فى كلاءتها
عينا وقلبا ومن حقها عليك أن تنظر الى ذات شمالها وذات يمينها وتتصفح
أحوالها فى أمر دنياها ودينها فأول ذلك أن تعلمها كتاب الله تعالى الذى
فى تعليمه نهج الصواب وفى تلاوته مضاعفة حسنات الثواب وقد مثل
قارئه بالبيت العامر وتاركه بالبيت الخراب وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم
التنزيل وتولى الله حفظه من التحريف والتبديل واختصه بالسبع المثانى التى
لم ينزل مثلها فى التوراة ولا فى الانجيل وهو الموصوف أنه النور المستضاء به
فى غيابة الظلماء والحبل الممدود من الارض الى السماء والبحر الذى لا يستخرج
لؤلؤه ومرجانه الا الراسخون من العلماء وكذلك فخذ هذه الاسرة بتعليم
الفضائل التى تتفاوت بها القيم وتسمو برياضة الآداب وتهذيب الشيم ولا
تتركها ودعى لا يدنس أحدها بسمة القدر المنيف ولا يرجع الى حسب تليد
ولا الى نسب طريف وتكون غاية ما عنده من الفضيلة أن ينال ولاء الشريف
ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أن توفى فضل مكانها وفضائل

بين شأن غيرها من المسلمين وبين شأنها فلا تتدخل بمجالس الولاة في انتزاع ظلامة ولا في اقامة حد يسلب معه رداء الكرامة وأنت تتولى ذلك منها فما وجب عليها من حق يجدها باقتضائه وأمض فيها حكم الله الذى أمر بامضائه وليكن ذلك على وجه الرفق الذى يسلس له القياد ويتوطأ له المهاد وان أمكنك اهداء شئ من هذه الظلامات التى تتوجه عليها فعاد وقد أتم الله فضلها مع كرائمها الامن كهؤلاء نادة في عنصره ولا عصاصة في محتده وهو الذى ان فاته شرف النبوة فى معرسه فلم يفته شرف السماحة فى معشره واذا تباينت الاقدار فلا فرق بين المناكح المخطوبة وبين الاسلاب المسلوبة فاحفظ لأمرتك حرمة هذه المنزلة واجعلها فى كتاب الوصايا التى وصيت بها مكان البسملة وكما أمرناك بالنظر فى صون أقدارها فكذلك نأمرك بالنظر فى حفظ مادة درهمها ودينارها وقد علمت أن لها أوقافا وقفها قوم حظوا بأجرها واسمها وستعطى أنت بالعدل فى قسمها فأجر على كل منها رزقه وأعط كل ذى حق حقه وفى الناس طائفة أدعياء يرومون الحاق الرأس بالذنب والنبع بالغرب ويلحقون أبا العيران واسما لعيرأب كل ذلك رغبة فى سحت يأكلونه لا فى نسب يوصلونه فنقب عن حال هؤلاء تنقيبا واجعل النسيب نسيبا والغريب غريبا حتى تخلص السلالة من طراقها وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها ومن علمت كذبه فازجره بأليم الازدجار وأعلمه بأنه قد تبوأ مقعده من النار وأشهره فى الناس حتى ينتهى وينتهى غيره بذلك الاشتهار وههنا وصية هى أهم من هذه الوصية أمرا وأعظم أجرا وأجدر بأن تكون هى الاولى وتكون هذه الأخرى وهى الأخذ على ألسنة السفهاء من الخوض فيما شجر بين آل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه واظهار العصبية التى تزحزح الحق عن نصابه وترجعه على أعقابه وليس مستندها الامقالات ذوى الجهل وزعانف من القتلة والفتنة أشد من القتل وكل هؤلاء قد غربا قاطعا وسهما قامعا ولن فى ذلك شارعا لما كان الله شارعا فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيهم كان الاقتداء كان به الاهتداء وقصارى المحسن فى هذا الزمان أن يتعلق منهم سببا ويأخذ عنهم دينا وأدبا ولا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهبا ونحن نعلم أنك واقف على سنن اقتصادك وأن هذه الوصية هى محض اعتقادك والمنصف فى هذا المقام

من رمقه نظر حلي ووفى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما حقهما وان كان من نسل
علي فكل قد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضله وهؤلاء من صحابته
وهذا من أهله ونعوذ بالله من الاهواء الزائغة والاقوال التي ليست بسائغة
ولا حجة الا بالحق ولله الحجة البالغة وقد جعلنا لك في مالنا عطاء دارا تستعين به
على لوازم النفقات وتخرج بالفته في وقاية عرضك التي هي محسوبة من
الصدقات فان من ساد قوما يفتقر الى تحمل أثقالهم والافاضة من ماله
على أحوالهم وهذا ان يكون مما أصله وملك فرعه وثواب يكون لك قصده
ولنا شرعه وصاحب الاحسان من سن سبيل الاحسان ولم نرض أن أريناك
مكانه حتى أمددناك فيه بالامكان وأعط مالنا ونعلم من سنة أفضالنا ولدولتنا
بذلك ثوب جمال كلما لبس زاد جدة وعمود كرم كلما مضت عليه مدد الايام طال
مدة ولا ملك في الدنيا من لم يجعل ملكه حديثا حسنا ويشتري المحامد فيجعله لها
ثمنا ومن عرف قدر الثناء جد في تحصيله ولو أنفق الكثير في قليله فكم من
دولة أعدمت منه فدرست آثار معالمها ولو كانت منه مثرية لما ذهبت مع بقاء
مكارمها واذ ذكرنا هذا فلنختمه بما يكون قلادة لصاحب هذا التقليد وهو أن
نجرد العناية بوجاهته حتى يلبس بقدمانا ذلك التجريد ونحوى ذلك أن يعلم الناس
ماله في الدولة من منزلة الكرامة ويعرفوا أنه فيها ابن جلا غير محتاج الى وضع
العمامة ونحن نأمر نوابنا وولاتنا وأصحابنا أن يوفوه حق أبوته الشريفة
وفضيلته التي ردفتها فأضحت وهي لها رديفة وأن يعطوه ما شاء من اعلاء شانه
ويعضوا بفعل يده وقول لسانه ان شاء الله تعالى (وقد وجدت للصابي) أيضا تقليدا
أنشأه لفخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي بن بويه عن الخليفة الطائع
رحمه الله وهو مثبت ههنا على صورته وكان عرض علي تقليد كتب للملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب من الخليفة المستضيء بالله رحمه الله في سنة احدى
وسبعين وخمسمائة فوجدت فيه كلاما نازلا بالمرة وسألني بعض الاخوان بمدينة
دمشق أن أعارضه فعارضته بتقليد في معناه وهو مثبت ههنا أيضا وكلا
التقليدين بأمر ملك كبير وفيهما يظهر ما يظهر من فصاحة وبلاغة
(فأما التقليد) الذي أنشأه الصابي فهو هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع
لله أمير المؤمنين الى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين

حين عرف غناءه وبلاءه واستنصح دينه ويقينه ورعى قديمه وحديثه واستحمد
عوده ونجاره وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبى الحسين مولى أمير
المؤمنين عليه وأشار بالمزيد فى الصنيعة إليه وأعلم أمير المؤمنين اقتداءه به فى كل
مذهب ذهب فيه من الخدمة وغرض رمى إليه من النصيحة ودخولا فى زمرة
الأولياء المنصورة وخروجا عن جماعة الأعداء المدحورة وتصرفا على
موجبات البيعة التى هى لعز الدولة أبى منصور مرتبطة وعلى سائر ما يتلوه ويتبعه
مأخوذة مشروطة فقلده الصلات وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج
والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى وسائر وجوه الجبايات
والعرض والعطاء والنفقة فى الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار فى
دور الضرب والطرز والحسبة بكورة همذان واستراباذ والدينور ونورير
والامعارين وأعمال أذربيجان وأرّان والسجاسين وموقان وانقاصه باستقبال
استدامتها والاستزادة بالشكر منها والتحبب لعطفها وجودها والتمسك
لاعتياشها وتمامها والتعمد لما يمكن له الحظوة والزلفى ويحرس عليه الأثرة
والقربى بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح والولاء الصريح والغيب الأمين
والصدر السليم والمقاطعة لكل من قطع العصمة وفارق الجملة والمواصلة لكل
من حمى البيضة وأخلص النية والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ومع
عز الدولة أبى منصور وفى حوزته والله جل اسمه يعرف لأمير المؤمنين حسن
العقبى فيما أبرم ونقض وسداد الرأى فيمن رفع وخفض ويجعل عزائمه
مقرونة بالسلامة محجوبة عن موارد الندامة وحسب أمير المؤمنين الله ونعم
الوكيل أمره بتقوى الله التى هى العصمة المتينة والجنة الحصينة والطود
الأرفع والمعاد الأمنع والجانب الأعز والملجأ الأحرز وأن يستشعرها سرا
وجهرا ويستعملها قولا وفعلا ويتخذها ذخرا دافعا لنوائب القدر وكهفا
حاميا من حوادث الغير فإنها أوجب الوسائل وأقرب الذرائع وأعودها على
العبد بمصالحه وأدعاها إلى كل مناجحه وأولاها بالاستمرار على هدايته
والنجاة من غوايته والسلامة فى دنياه حين توبق موبقاتها وتردى مردياتها
وفى آخرته حين تروع رائعاتها وتخيف مخيفاتها وأن يتأدب بأدب الله
فى التواضع والإخبات والسكينة وصدق اللهجة إذا نطق وغض الطرف إذا

رمق وكظم الغيظ اذا أحفظ وضبط اللسان اذا أغضب وكف اليد عن المآثم وصون النفس عن المحارم وأن يذكر الموت الذى هو نازل به والموقف الذى هو صائر اليه ويعلم أنه مسؤل عما اكتسب مجزى عما اقترف واحتقب ويتزود من هذا الممر لذلك المقر ويستكثر من أعمال البر لتنفعه ومن مساعى الخير لتنقذه ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها ويزدجر عن السيآت قبل أن يزجر عنها ويبتدئ باصلاح نفسه قبل اصلاح رعيته فلا يبعثهم على ما يأتى ضده ولا ينهاهم عما يقترف مثله ويجعل ربه رقيبا عليه فى خلواته ومروأته مانعة له من شهواته فان أحق من غلب سلطان الشهوة وأولى من ضرع لعداء الحمية من ملك أزمة الامور واقتدر على سياسة الجمهور وكان مطاعا فيما يرى متبعا فيما يشا يلى على الناس ولا يلون عليه ويقتص منهم ولا يقتصون منه فاذا اطلع الله منه على نقاء جيبه وطهارة ذيله وصحة سريرته واستقامة سيرته أعانه على حفظ ما استحفظه وأنهضه بثقل ما حمله وجعل له مخلصا من الشبهة ومخرجا من الحيرة فقد قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون وقال واتقوا الله وكونوا مع الصادقين الى آى كثيرة حضا بها على أكرم الخلق وأسلم الطرق فالسعيد من نصبها ازاء ناظره والشقى من نبذها وراء ظهره وأشقى منهما من بعث عليها وهو صادف عنها واهاب اليها وهو بعيد منها وله ولا مثاله يقول الله تعالى ذكره أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وأمره أن يتخذ كتاب الله اماما متبعا وطريقا منتهجا ويكثر من تلاوته اذا خلا بذكره ويلا بتأمله أرجاء صدره فيذهب معه فيما أباح وحظر ويقتدى به اذا نهى وأمر ويستبين بيانه اذا استغلقت دونه المعضلات ويستضيء بمصابيحه اذا غطت عليه المشكلات فانه عروة الاسلام الوثقى ومحجته الوسطى ودليله المقنع وبرهانه المرشد والكاشف لظلم الخطوب والشافى من مرض القلوب والهادى لمن ضل والمتلافى لمن زل من نجا به فقد فاز وسلم ومن لها عنه فقد خاب وندم قال الله تعالى وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأمره أن يحافظ على الصلوات ويدخل فيها فى حقائق الاوقات قائما

على

على حدودها متبعاً لرسومها جامعاً فيها بين نيته ولفظه متوقعاً المطامح بهمه
ولحظه منقطعاً إليها عن كل قاطع لها مشتغلاً بها عن كل شاغل عنها متثبتاً
في ركوعها وسجودها مستوفياً عدد مفروضها ومسنونها موفراً عليها
ذهنه صارفاً إليها همه عالماً بأنه واقف بين يدي خالقه ورازقه ومحييه ومميته
ومعاقبه ومثيبه لا تستتر دونه خائنة الأعين وما تخفي الصدور فإذا قضاها على
هذه السبيل من تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع
بارتفاعها ويستمع باستماعها لا يتعدى فيه مسائل الأبرار ورغائب الأخيار
من استصفاح واستغفار واستقالة واسترحام واستدعاء لمصالح الدين والدنيا
وعوائد الآخرة والأولى فقد قال الله تعالى إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً
موقوتاً وقال تعالى وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأمره
بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة وفي الأعياد إلى المصليات الصاحية
بعد التقدم في فرشها وكسوتها وجمع القوّام والمؤذنين والمكبرين فيها
واستدعاء الناس إليها وحضهم عليها آخذين الأهبة متنظفين في البزة
مؤدين لفريضة الطهارة ومبالغين في ذلك أقصى الاستقصاء معتقدين خشية الله
وخيفته متدرعين تقواه ومراقبته مكثرين من دعائه عز وجل وسؤاله
مصلين على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله بقلوب على اليقين موقوفة وهمم
إلى الدين مصروفة وألسن بالتقديس والتسبيح فصيحة وآمال في المغفرة والرحمة
فسيحة فإن هذه المصليات والمعبدات بيوت الله التي فضلها ومساكنه التي
شرفها وفيها يتلى القرآن الكريم وتعوذ العائذون ويتعبد المتعبدون
ويتهجد المتهجدون وحقيق على المسلمين أجمعين من وال ومولى عليه أن يوفوها
ويعمروها ويواصلوها ولا يهجروها وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين
ثم لنفسه على الرسم الجاري فيها قال الله تعالى في هذه الصلاة يا أيها الذين آمنوا
إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع وقال في عمارة
المساجد إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى
الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وأمره أن يراعي
أحوال من يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ويطلق لهم الأرزاق
في أوقات الوجوب والاستحقاق وأن يحسن في معاملتهم ويجمل في

استخدامهم ويتصرف فى سياستهم بين رفق من غير ضعف وخشونة فى غير عنف مثيبا لمحسنهم ما زاد بالاثابة فى حسن الاثر وسلم معها من دواعى الاشر ومتعمدا لمسيئهم ما كان التعمد له بافعاله فيه ناجعا فان تكررت زلاته وتتابعت عثراته تناوله من عقوبته ما يكون له مصلحا ولغيره واعظا وأن يختص أكابرهم وأماثلهم وأهل الرأى والخطر منهم بالمشاورة فى الملم والاطلاع على بعض المهم مستخلصا مخايل صدورهم بالبسط والادناء ومستشحذا بصائرهم بالاكرام والاجتباء فان فى مشاورة هذه الطبقة استدلالا على مواقع الصواب وتبريا من غلط الاستبداد وأخذا بمجامع الحزامة وأمنا من مفارقة الاستقامة وقد حض الله عز وجل على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين وأمره أن يعتمد ما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين ورباط المرابطين ويقسم لها قسما وافرا من عنايته ويصرف اليها طرفا بل شطرا من رعايته ويختار لها أهل الجلد والشدة وذوى البأس والنجدة ممن عجمته الخطوب وعركته الحروب واكتسب دربة بخدع المتنازلين وتجربة بمكايد المتقارعين وأن يستظهر بكثرة عددهم واعتبار عددهم وانتخاب خيلهم واستجادة أسلحتهم غير مخير بعثا اذا بعثه ولا مستكره اذا وجهه بل يناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تعنتهم وترفههم ولا تؤذيهم فان فى ذلك من فائدة الاجمام والعدل فى الاستخدام ما يشد قلوبهم ويقوى عزائمهم ويبعث على الجد فى الحرب فيما عاد عليهم من الظفر والنصر وبعد الصيت والذكر واحراز الغنم والاجر ما يحق أن يكون الولاة به عاملين وللناس عليه حاملين وأن يكرر فى أسماعهم ويثبت فى قلوبهم مواعيد الله تعالى لمن صبر ورابط وسامح بالنفس من حيث لا يقدمون على تورط غرة ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ولا ينكصون عن تورد معركة ولا يلقون بأيديهم الى التهلكة فقد أخذ الله ذلك على خلقه والمؤمنين على دينه وأن يزيح العلة فيما يحتاج اليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها واستطراق طرقها ومسالكها وافاضة الاقوات والعلوفة فيما للمترتبين بها والمترددين اليها والحاملين لها وأن يبذل أمانه لمن طلبه ويعرضه على من لم يطلبه ويفى بالعهد اذا عاهد وبالعقد اذا

عاقد غير محفوردمة ولا جارح أمانة فقد أمر الله تعالى بالوفاء فقال عزوجل
يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ونهى عن النكث فقال عزمن قائل فمن نكث
فانما ينكث على نفسه وأمره أن يعرض من فى حبوس عمله على جرائمهم فمن كان
اقراره واجبا أقره ومن كان اطلاقه سائغا أطلقه وأن ينظر فى الشرطة
والاحداث نظر عدل وانصاف ويختار لهما من يخاف الله ويتقيه ولا يحابى ولا
يراقب فيه ويتقدم اليهم بقمع الجهال وردع الضلال وتتبع الاشرار
وطلب الدعار مستدلين على أماكنهم متوغلين الى مكامنهم متوكلين
عليهم فى مظانهم متوثقين ممن يجدونه منهم منفذين أحكام الله تعالى فيهم
بحسب الذى يتبين من أمرهم ويصح من فعلهم فى كبيرة ارتكبوها
وعظيمة احتقبوها ومهجة ان أغاظوها واستهلكوها وحرمة ان استباحوها
وانتهكوها فمن استحق حدا من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير محففين منه
وأحلوه به غير مقصرين عنه بعد أن لا يكون عليهم فى الذى يأتونه حجة ولا
يعترضهم فى وجوبه شبهة فان الواجب فى الحدود أن تقام بالبينات وأن تدرأ
بالشبهات فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها أن لا يقدموا عليها مع نقصان ولا
يتوقفوا عنها مع قيام الدليل ومن وجب عليه القتل احتاط عليه بما يحتاط به على مثله
من الحبس الحصين والتوثق الشديد وكتب الى أمير المؤمنين بخبره وشرح جنايته
وثبوتها باقرار يكون منه أو شهادة تقع عليه وانتظر من جوابه ما يكون عمله
بحسبه فان أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أو معاهد الا ما أحاط به علما
وأتقنه فهما وكان ما يمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها الشك ولا يشوبها ريب
ومن ألم بصغيرة من الصغائر ويسيرة من الجرائر من حيث لم يعرف له مثلها
ولم يتقدم له أختها وعظه وزجره ونهاه وحذره واستتابه وأقاله مالم يكن
عليه خصم فى ذلك يطالب بقصاص منه وجزائه فان عاد تناوله من التقويم
والتهذيب والتعزير والتأديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ووفى بما قدم
فقد قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وأمره أن يبطل
ما فى أعماله من الحانات والمواخير ويطهرها من القبائح والمناكير ويمنع من
يجمع أهل الخنا فيها ويؤلف شملهم بها فانه شمل يصلحه التشتيت وجمع يحفظه
التفريق ومازالت هذه المواطن الذميمة والمطارح الدنية داعية من يأوى

اليها ويعكف عليها الى ترك الصلوات واهمال المفترضات وركوب
المنكرات واقتراف المحظورات وهى بيوت الشيطان التى فى عمارتها لله
معصية وفى اخرابها الخير محلمة والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين كنتم
خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله
ويقول عز من قائل لغيرنا من المذمومين فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة
واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وأمره أن يولى الحماية فى هذه الاعمال
أهل الكفاية والعناية من الرجال وأن يضم اليهم كل من خف ركابه وأسرع
عند الصريخ مرتحالهم فى المسالح وسادا بهم ثغر المسالك وأن يوصيهم بالتيقظ
ويأخذهم بالتحفظ ويزيح عللهم فى علوفة خيلهم والمقرر من أزوادهم
وميرهم حتى لا تثقل لهم عن البلاد وطأة ولا يدعوهم الى تحيفهم وثلمهم
حاجة وأن يحوطوا السابلة بادئة وعائدة ويبذرقوا القوافل صادرة وواردة
ويحرسوا الطرق ليلا ونهارا ويتصفحوها رواحا وغدوا وينصبوا لاهل
العيث الارصاد ويكمنوا لهم بكل واد ويتفرقوا عليهم حيث يكون
التفرق مضيقا لمضائقهم ومؤديا الى اقتناصهم ويجتمعوا حيث يكون
الاجتماع مطفئا لجمرتهم وصادعا لمروتهم ولا يخلوا هذه السبل من حماة لها
وسيارة فيها يترددون فى جوادها ويتعسفون فى عواديها حتى تكون
الدماء محقونة والاموال مصونة والفتن محسومة والعارات مأمونة ومن
حصل فى أيديهم من لص خاتل وصعلوك خارب ومخيف لسبيل ومنتهك لحريم
امتثل فى أمره أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل انما جزاء الذين
يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع
أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم
فى الآخرة عذاب عظيم وأمره بوضع الرصد على من يجتاز فى أعماله من اباق
العبيد والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم والبحث عن الاماكن التى
فارقوها والطرق التى استطرقوها ومواليهم الذين أبقوا منهم ونشزوا عنهم
وأن يردوهم عليهم قهرا ويعيدوهم اليهم صغرا وان ينشدوا الضالة ما أمكن
أن تنشد ويحفظوها على ربها ما جاز أن تحفظ ويتحسسوا الامتطاء لظهورها
والانتفاع بأوبارها والبان ما يجز ويحلب وأن يعرّفوا اللقطة ويتبعوا أثرها

ويشيعوا

ويشيعوا حيرها فاذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سلمت اليه ولم
يعترض فيها عليه والله عز وجل يقول ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات
الى أهلها ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم ضالة المؤمن حرق النار وأمره أن
يوصى عماله بالشد على يد الحكام وتنفيذ ما يصدر عنهم من الاحكام وأن
يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذابين عنها المقيمين لرسوم الهيبة
وحدود الطاعة فيها ومن خرج عن ذلك من ذى عقل ضعيف وحلم سخيف
بالوا ما يردعه وأحلوا به ما يزعه ومتى تقاعس متقاعس عن حضور مع
خصم يستدعيه بأمر يوجبه الحكم اليه أو التوى ملتو بحق يحصل عليه
ودين يستقر فى ذمته قادوه الى ذلك بأزمة الصغار وخزائم الاضطرار وأن
يحسنوا او يطلقوا أقوالهم ويثبتوا الايدى فى الاملاك والفروج ويدعوا
قضاياهم فانهم أمناء الله فى فصل ما يقضون وبث ما ينبئون وعن كتابه وسنة
نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون وقد قال الله عز وجل يا داود انا
جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك
عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم
الحساب وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج فى استيفاء حقوق
ما استعملوا عليه واستطاف بقاياهم فيه والرياضة لمن ساء طاعته من
معامليهم واحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم عن آداب الله
تعالى للعبد الذى يحق عليه أن يحتذيها ويجعلها للرضا عنه سببا قوله تعالى
وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله
شديد العقاب وأمره أن يجلس للرعية جلوسا عاما وينظر فى مظالمها نظرا
تاما يساوى فى الحق بين خاصها وعامتها ويوازى فى المجالس بين عزيزها وذليلها
وينصف المظلوم من ظالمه والمغصوب من غاصبه بعد الفحص والتأمل والبحث
والتبيين حتى لا يحكم الا بعدل ولا ينطق الا بفصل ولا يثبت يدا الا فيما وجب
تثبيتها فيه ولا يقبضها الا عما وجب قبضها عنه وأن يسهل الاذن لجماعتهم
ويرفع الحجاب بينه وبينهم ويوليهم من حصانة الكنف ولين المعطف والاشتمال
والعناية والصون والرعاية ما تتعادل به أقسامهم وتتوازى معه أقساطهم ولا
يصل الركين منهم الى استضامة ما تأخر عنه ولا ذو السلطان الى هضيمة من حل

دونه وأن يدعوهم الى أحسن العادات والخلائق ويحملهم على أحمد
المذاهب والطرائق ويعدل عنهم كله ويمد عليهم ظله ولا يسومهم عنتا ولا يلحق
بهم حيفا ولا يكلفهم شططا ولا يجشمهم مضلعا ولا يثلم لهم معيشة ولا يداخلهم
في حرفة ولا يأخذ بريا بسقيم ولا حاضرا بعديم فان الله عز وجل يقول ولا
تزر وازرة وزر أخرى ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سن عليها من سنة
ظالمة وسلك بها من محجة جائرة ويستقري آثار الولاة قبله عليها فيما ارتكبوه
من خير أو شر اليها فيقر من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما خبث وقبح فان
من غرس الخير يحظى بمعسول ثمره ومن زرع الشر يصلى بمرور ريعه والله
تعالى يقول والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا
كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان
الغلات ووجوه الجبايات موفرا ويزيد ذلك مثمرا بما يستعمله من الانصاف
لاهلها واجرائهم على صحيح الرسوم فيها فانه مال الله الذى به قوة عباده وحماية
بلاده ودرور حلبه واتصال مدده وبه يحاط الحريم ويدفع العظيم ويحمى
الذمار ويذاد الاشرار وأن يجعل افتتاحه اياه بحسب ادراك اصنافه وعند
حضور مواقيته وأحيانه غير مستلف شيأ قبلها ولا مؤخر لها عنها وأن يخص
أهل الطاعة والسلامة بالترفية لهم وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشديد
عليهم لئلا يقع ارهاق لمذعن أو اهمال لطامع وعلى المتولي لذلك أن يضع كلا
من الامرين موضعه ويوقعه موقعه متجنبا اخلال العاطفة من لا يستحقها
واعطاء الفسحة من ليس أهلها والله تعالى يقول وأن ليس للانسان الا ما سعى
وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وأمره أن يتخير عماله على الخراج
والاعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من أهل الظلف
والنزاهة والضبط والصيانة والجزالة والشهامة وأن يستظهر مع ذلك
عليهم بوصية تعيها أسماعهم وعهود يقلدها أعناقهم بأن لا يضيعوا
حقا ولا يأكلوا سحتا ولا يستعملوا ظلما ولا يقارفوا غشما وأن يقيموا
العمارات ويحتاطوا ويتحرزوا من اتواء حق لازم أو تعطيل رسم عادل مؤدين
في جميع ذلك الامانة مجتنبين للخيانة وأن يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن
المال على تمامه واستجادة نقده على عياره واستعمال الصحة في قبض

مايقبضون واطلاق مايطلقون وأن يوعزوا الى سعاة الصدقات فى أخذ الفرائض من سائمة مواشى المسلمين دون عاملتها وكذلك الواجب فيها وأن لا يجمعوا فيها متفرقا ولا يفرقوا مجتمعا ولا يدخلوا فيها خارجا عنها ولا يضموا اليها ما ليس منها من فحل ابل وأكولة راع أو عقيلة مال فاذا استوفوها على حقها واستوفوها على رسمها أخرجوها فى سبلها وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه العزيز الا المؤلفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه الكريم وسقط سهمهم فان الله تعالى يقول انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم والى جباة أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية فى المحرم من كل سنة بحسب منازلهم فى الاحوال وذات أيديهم فى الاموال وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المعهودة لها وأن لا يأخذوها من النساء ولا من لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذى سن عالية ولا ذى علة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل وأن يراعى جماعة هؤلاء العمال مراعاة يسرها ويظهرها ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها لئلا يزولوا عن الحق الواجب أو يعدلوا عن السنن اللاحب فقد قال الله تعالى وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأمره أن ينتدب لعرض الرجال واعطائهم وحفظ جراياتهم وأوقات اطعامهم من يعرفه بالثقة فى متصرفه والامانة فيما يجرى على يده والبعد عن الاسفاف الى الدنية والاتباع للدناءة وأن يبعثه على ضبط الرجال وشيات الخيل وتجديد العرض بعد الاستحقاق وايقاع الاحتياط فى الانفاق فمن صح عرضه ولم يبق فى نفسه شئ منهم من شك يعرض له أو ريبة يتوهمها أطلق أموالهم موفورة وحصلها فى أيديهم غير مثلومة وأن يرد على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والاخلال ما سادلك الى جهته مورداله على حقيقته وأن يطالب الرجال باحضار الخيل المختارة والآلات المستكملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم وبحسب منازلهم ومراتبهم فان أخر أحدهم شيأ من ذلك قاصه به من رزقه وأغرمه مثل قيمته فان المقصر فيه خائن لأمير المؤمنين ومخالف لرب العالمين اذ يقول سبحانه وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأمره أن

يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات
هذه الولايات من ثقة ودراية وعلم وكتابة ومعرفة ورواية وتجربة وحنكة
وحصانة ومسكة فانها أحوال تضارع الحكم وتناسبه وتدانيه وتقاربه وأن
يتقدم الى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره
والتحرز من وقوع تخون فيه أو اهمال له اذ كان ذلك عائدا بتحصين الفروج
وتطهير الانساب وأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويقربوا أهل العفة ولا
يمضوا بيعا على شبهة ولا عقدا على تهمة والى ولاة العيار تخليص عين الدرهم
والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش والنزاهة من المش وبحسب
الامام المقتدر بمدينة السلام وحراسة السكك من أن تتداولها الايدى المرغلة
وتتناقلها الجهات المبهة واثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهبا وفضة
واجراء ذلك على الرسم والسنة والى ولاة الطرز أن يجروا الاستعمال في جميع
المناسج على أتم النيقة وأسلم الطريقة وأحكم الصنعة وأفضل الصحة وأن
يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكسا والفرش والاعلام والبنود والى
ولاة الحسبة تصفح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم ومجتمع أسواقهم
ومعاملاتهم وأن يعايروا الموازين والمكاييل ويمرزوها على التعديل
والتكميل ومن اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس أو غيلة أو تدليس أو
بخس مايوفيه واستفضال فيما يستوفيه نالوه بتغليظ العقوبة وعظمها وضوعفوا
بوجيعها وأليمها واقتفين في ذلك عهد الحد الذى يرونه لذنبه مجاريا وفي تأديبه
كافيا فقد قال الله تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون
واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عليك
وقد وقفك على سواء السبيل وأرشدك الى واضح الدليل وأوسعك تعليما
وتحكيما وأقنعك تعليما وتفهيما ولم يألك جهدا فيما عصمك وعصم على يدك
ولم يدخرك ممكنا فيما أصلح بك وأصلحك ولا ترك لك عذرا في غلط تغلطه ولا طريقا
الى تورط تتورطه فالقائك في الاوامر والزواجر الى حيث يلزم الائمة أن يندبوا
الناس اليه ويحثوهم عليه مقيما لك على محجات المسالك صارفا لك عن
مرديات المهالك مريدا فيك ما يسلمك في دينك ودنياك ويعود بالحظ عليك في
آخرتك وأولاك فان اعتدلت وعدلت فقد فزت وغنمت وان تجانفت

وأعوجت فقد فسدت وندمت والأولى بك عند أمير المؤمنين من معرسك الزاكي ومنبتك السامي وعودك الأنجب وعنصرك الأطيب أن تكون لظنه محققا ولمخيلته فيك مصدقا وأن تستريده بالأثر الجميل قربا وثوابا يوم الدين وزلفى عند أمير المؤمنين وثناء حسنا من المسلمين فخذ ما نبذ اليك أمير المؤمنين من معاذيره وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه واجعل عهده مثالا تحتذيه واماما تقتفيه واستعن بالله يعنك واستهده يدلك وأخلص اليه في طاعته يخلص لك الحظ في معونتك ومهما أشكل عليك من خطب أو أعضل عليك من صعب أو بهرك من باهر أو بهظك من باهظ فاكتب الى أمير المؤمنين منهيا وكن الى ما يرد عليك ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (وأما التقليد) الذي أنشأه أنا فهو هذا أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قيادا ولكل أمر مهادا ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى له زادا وجعلته عن الخلافة لم يضعف عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسوّرت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا وحققت فيه قول الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ثم يصلي على من أيدت الملائكة نصره امدادا وأسرى به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصرا ولا أكذب فؤادا ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوراقا وأعوادا وورثت النور المبين تلادا ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وارشادا وخصوصا عمه العباس المدعوّ له بأن يحفظ نفسا وأولادا وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا واذا استوفى القلم مداده من هذه الجملة وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة فانه يأخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حليما لقرطاسه واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه وليس ذلك الا لافاضته في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الاكثار واشتبه التطويل فيها بالاختصار وهي التي لا ينتهي واصفها الى القول المعاد ولا يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل في سلوك الاطواد وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الاجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك

تحدثا بشكرك ويباهى بك أولياءه تنويها بذكرك ويقول أنت الذى تشتكى
وتشكو للدولة سهمها الصائب وشهابها الثاقب وكنزها الذى تذهب المكنوز
وليس بذاهب وماضرها وقد حضرت فى نصرتها اذ كان غيرك هو الغائب
فاشكر اذا مساعيك التى أهلتك لما أهلتك وفضلتك على الاولياء بما فضلتك
ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الاضمار فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة
فكان له سطوة الانتصار وفرق بين من أمد بقلبه وبين من أمد بيده فى درجات
الامداد وما جعل الله القاعدين كالذين قاموا وأمروا بالصبر بنا أكابدها الى
برك الغماد وقد كملت من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها وطمست
على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها
محفوف من الباطل بمحرابين ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من
السوارين اللذين أولهما كذابين فقصرمنهما واحدا كان تجرى أنهارها من
تحته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته
من يوم أحده ولا يوم سبته وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى
والصمم واتخذوه صنما بينهم ولم تكن الضلالة هنالك الا بعجل أو صنم فقمت أنت
فى وجه باطله حتى قعد وجعلت فى جيده حبلا من مسد وقلت ليده تبت
فأصبح وهو لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت
باليمن ناجمته وسامت فيه سائمته فوضع نفسه موضع الكعبة اليمانية وقال
هذا ذو الخلصة الثانية فاى مساعيك يعترف الاسلام بسبقه أم أيها يقوم
بأداء حقه وههنا فليصح القلم للسيف من الحساد وليقصر مكاتبه عن مكانته
وقد كان له من الامداد ولم يحط بهذه المزية الا لانه أصبح لك صاحبا وحربك
حتى طال حراما عن جانبيا وقضى بولايتك فكان بها قاضيا لما كان حده
قاضيا وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجدا وما اشتملت
عليه رعية وجندا وما انتهت اليه أطرافها برا وبحرا وما يستقدس
مجاوريها مسالمة وقهرا وأضاف اليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن
الممدنة والمراكز المحصنة مستثنيا منها ما هو بيد نور الدين اسمعيل بن نور الدين
محمود رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الاسلام ترفع
ذكره فى الذاكرين وتخلفه فى عقبه فى الغابرين وولده هذا قد هدته الفطرة

فى القول

في القول والعمل وليست هذه الربوة الا من ذلك الجبل فليكن له منك جار يدنو منه ودادا كما دنا أرضا ويصح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضا والذى قدمناه من الثناء عليك رغبة تجاوز بك درجة الاقتصاد والعتك عن وصلة الازدياد فاياك أن تنظر سعيك بالاعجاب وتقول هذه بلاد أنا افتحتها بعد أن أضرب عنها كثيرا من الاضراب ولكن اعلم أن الارض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ولا منة للعبد باسلامه بل المنة لله بهداية عبده وكم سلف من قبلك من لو رام مارمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه لكن ذخره الله لك لتعطى فى الآخرة عقاره وفى الدنيا برقم طرازه فألق بيدك عند هذا القول القاء التسليم وقل لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم وقد قرن تقليدك هذا بحلاه تكون لك فى الاسم شعارا وفى الوسم فخارا وتناسب محل قلبك ونصرك وخير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبا وأبصارا ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق ويشير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق ثم انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح ولأملك بالانفساح وتؤمر معه عند يدك الى العليا لا نضمها الى الجناح وهذه الثلاثة المشار اليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة وهى التى لا مزيد عليها فى الاحسان فيقال انها الحسنى وزيادة فاذا صارت اليك فانصب لها يوما يكون فى الايام كريم الانساب واجعله لها عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضرا وأنت نائى عن الحضور وتنسق أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها وما تقول الا انها لك صاحبة وأنت توصفها فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها واعمل لها فان الاعمال بخواتيمها واعلم أنك قد تقلدت أمرا تعين به نبى الحلوم ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم وكثيرا ما يرى حسابه يوم القيامة وهى مقتسمة بأيدى الخصوم ولا ينجو من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار وأشفق من شهادة الاسماع والابصار وعلم أن الولاية ميزان احدى كفتيه فى الجنة والاخرى فى النار قال النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر انى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم فانظر الى هذا القول النبوى نظر من لم ينخدع بحديث الحرص والآمال

ومثل الدنيا وقد سبقت اليك بعد ادبرها أليس مصيرها الى زوال والسعيد اذا جاءته قضى بها أرب الارواح لا أرب الجسوم واتخذ منها وهي السم دواء وقد تتخذ الادوية من السموم وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تباعتها التي لا نستهم ولا نسوها وأحصاها الله عليهم ونسوها ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التي حدثت بضعفك ومحلك من الولاية التي بسطت من ذرعك فخذ هذا الامر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان وكن في رعايته ممن اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان وملاك ذلك كله في اسماع العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب واغنى سواه وحده عن أعمال الثواب وقد ربو ما نسمه بعبادة ستين عاما في الحساب ولم يأمر به آمر الا زيد قوة في أمره وتحصن به من عدوه ومن دهره ثم يجاء به يوم القيامة وفي يديه كتابا أمان ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن ومع هذا فان مركبه صعب لا يستوى على ظهره الا من أمسك عنان نفسه قبل امساك عنانه وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه ومن أوكد فروضه أن يمحى السنن السيئة التي طالت مدد أيامها ويئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمد الانتظار ظلامها وتلك السنن هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة ولا غنى للايدى العفيفة اذا كانت ذات نفوس فقيرة وكلما زيدت الاموال الحاصلة منها قدر ازدادها الله محقا وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسموها حقا ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ في عقابه ومثلت توبة المرأة الغامدية عتابه وهل أشقى ممن يكون السواد الاعظم له خصما ويصبح وهو مطالب منهم بما يعلم وبما لم يحط به علما وأنت مأمور بأن تأتى هذه الظلامات فتمحى على ابطالها وتلحق اسماءها في المحو بأفعالها حتى لا يبقى لها في العيان صور مسطورة ولا في الالسنة أحاديث مذكورة فاذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضي سنة سوء سنها بيداه وعن الآتي متابعة ظلم وجده نهجا مسلوكا فجرى على مداه فبادر الى ما أمرت به مبادرة من لم يضق به ذرعا وانظر الى الحياة الدنيا بعينيه فرآها في الآخرة متاعا واحمد الله تعالى على أن قيض للامام هدى يقف بك على هداك ويأخذ بحجزتك

عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عدائك وهذه البلاد الموطأة بطاعتك تشتمل على أطراف متباعدة وتفترق سياستها الى أيد متساعدة ولهذا يكثر بها قضاة الاحكام وأولو تدبيرات السيوف والاقلام وكل من هؤلاء ينبغي أن يقف على باب الاختبار ويسلط عليه شاهدا عدل من أمانة الدرهم والدينار فما أضل الناس شيء كحب المال الذي به ورقت من أجله الاديان وهجرت بسببه الاولاد والاخوان وكثيرا ما نرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الاوثان فاذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بمعرفته من قبل ايالته فان الاحوال تنتقل بتنقل الاجساد واياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالربيع بن زياد وكذلك أومر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف مواطنين وينهوا عن المنكر مخاشنين ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين وابدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ويأمروها بما يأمرون به سواها ولا يكونوا ممن هدى الى طريق البر وهو عنه حائد وانتصب لطب المرضى وهو محتاج الى طبيب وعائد فما تنزل بركات السماء الا على من خاف مقام ربه وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه واذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم الا بمصباحهم ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا في الاصطحاب وجيرانا في الاقتراب وأعوانا في نوع الحمل الذي يثقل على الرقاب فالمسلم أخو المسلم وان كان عليه أميرا وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا وليست الولاية لمن يستحقها بكثرة اللفيف ويتولاها بالوطء العنيف ولكنها لمن يمال على جوانبه ويؤكل من أطايبه ولمن اذا غضب لم ير للغضب عنده أثر واذا ألحف في سؤاله لم يلق الالحاف منه الا بالضجر واذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر فذلك الذي يكون في أصحاب اليمين والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الأمين ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه وجارين على نهج صوابه واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه وبعد هذه الوصية فان ههنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود وطالما أغنت عن صاحبها اغناء الجنود وتيقظت

للصبر والعيون رقود وهي التي تسمح لها الآلاء ولا يقطعها البلاء
ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه والرغبة في المغفرة
لما تقدم وتأخر من ذنبه وتلك هي الصدقة التي فضل الله بها بعض عباده لمزية
اتصالها وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر أمثالها وهو يأمرك أن
تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق وألبستهم التعفف
ثوب الغنى وهم في ضيق من الاملاق فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء
فصبروا وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليها اذ نظروا وينبغي أن يبني لهم
من أمرهم مرفقا ويضرب بينهم وبين الفقر موثقا وما أطلنا لك القول
في هذه الوصية الا علما بأنها من المهم الذي يستقل ولا يستندر ويستكثر
منه ولا يستكثر وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال ويتلوه جهاد العدو
الكافر في مواقف القتال وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف
في ملازمته أخا وتستقل له نفسك ان كان أحد بنفسه سخا ومن فضائله أنه
العمل المخصوص بفضل الكرامة الذي يجري أجره بعد صاحبه الى يوم القيامة
وبه تتميز طاعة الخالق على المخلوق وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو
المختص دونها برتبة الخلوق ولولا فضله لما كان محسوبا شطر الايمان ولما
جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الأثمان وقد علمت أن العدو هو جارك
الأدنى والذي يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ولا تكون للاسلام نعم الجار حتى
تكون له بئس الجار ولا عذر لك في ترك جهاده عنك ومالك اذا قامت لغيرك
الأعذار وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مكافحا أو تطرق أرضه مناهبا
أو مصافحا بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير
وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير
وعلى الخصوص البيت المقدس فانه بلد الاسلام القديم وأخو البيت الحرام
في شرف التعظيم والذي توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم
وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته وأضحت كلمة التوحيد وهي
تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته فانهض اليه نهضة توغل
في قرحه وتبدل صعب قياده بسمحه وان كان له عام حديبية فاتبعه بعام
فتحه وهذه الاستزادة انما تكون بعد سداد ما في اليد من ثغر كان مهملا

فحصنت

تخبث موارده أو مستهدما قد رفعت قواعده ومن أهمها ما كان حاضر البحر فانه عورة مكشوفة وخطة مخوفة والعدو قريب منه على بعده وكثيرا ما يأتيه بغتة حتى يسبق برقه رعده فينبغي أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجعانها وتقل أقرانها ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليا لأن يرى مكانها وحينئذ يصح كل منها رله من الرجال أسوار ويعلم أهله أن ثبات السيف أمنع من ثبات الاحجار ومع هذا لابد لها من اسطول يكثر عدده ويقوى مدده فانه العدة التي تستعين بها على كشف الغماء والاستكثار من سبايا العبيد والاماء وجيشه أخو الجيش السليماني فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار وتساوت أقدار خلقتها على اختلاف مدة الاعمار فاذا أشرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم واذا نظر الى أشكالها قيل انها أهلة غير أنها تهتدي في مسيرها بالنجوم ومثل هذه الخيل ينبغي أن يغالي في جيادها ويستكثر من عدادها وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ويسلك طرقه سلوك من لم تفته معرفتها ولكن ويلها بخبره وكذلك فليكن ممن أدبت الايام تجاربه ورجحتها كسبه وممن يدل الصعب اذا هو ساسه وان لان جانبه وهذا هو الرجل يرأس على القوم ولا يحب ذهرة بالرياسة وان كان في الساقة ففي الساقة أو كان في الحراسة ففي الحراسة ولقد أطلت عصابة اعتصبت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رايه واعلم أنه قد أخل من الجهاد ركن يقدح في عمله وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النية تأتي في أوله وذلك هو قسم الغنائم فان الايدي قد تداولته بالاجحاف وخلطت جوادها به علوقها ولم ترجع بالكفاف والله قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدوده وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا زمانه وبأسه شر بأس ولم يستحلها على حفظ أركان دينه ثم نهى له اهمال مضيع ولا اهمال ناس والذي نأمرك به أن تجري هذا الامر على المنصوص من حكمه وتبرئ ذمتك مما يكون عبرك العائر به وائده وأنت المطالب بائمه وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الاكلة التي تكون غدا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما فتصفح ما سطرناه لك

فى هذه الاساطير التى هى عزائم مبرمات بل آيات محكمات وتحسب الى الله والى
أمير المؤمنين باقتفاء كلماتها وابن لك منها محجة ابقى فى عقبك اذا أصيبت الموت
فى أعقابها وهذا التقليد ينطق عليك بانه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها وانه
لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ثم انه قد ختم بدعوات دعا بها أمير
المؤمنين عند ختامه وسأل فيها خيرة الله التى تنقل من كل أمر عمرلة نظامه
ثم قال اللهم انى أشهدك على من قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فانى
لم آمره الا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى وهى لمن تبعها هدى ورحمة
وبشرى واذا أحدها التى محنته يوم يسأل عن الحجج ولم يختلج دون رسول
الله صلى الله عليه وسلم على الخوض فى جملة من يختلج وقيل لا حرج عليك ولا
اثم اذ نجوت من ورطات الاثم والحرج والسلام (وهذا الذى ذكرته) من كلامى
وكلام الصابى فى هذه التقاليد الاربعة لم أقصد به الوضع من الرجل وانما ذكرت
ما ذكرته لبيان موضع السجع الذى يثبت على المحك ولا شك أن هذا الوصف
المشار اليه فى هذا الاسجاع لم يكن مقصودا فى الزمن القديم اما لمكان عسره
أو لانه لم يتنبه له وكيف أصنع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه وهو امام هذا الفن
والواحد فيه ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد فى السلطانيات كل
الاجادة وأحسن كل الاحسان ولو لم يكن له سوى كتابه الذى كتبه عن عز الدولة
بختيار بن بويه الى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته اياه بالعصيان
لاستحق به فضيلة التقدم كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل بديعة لكنه
فى الاخوانيات مقصر وكذلك فى كتب التعازى (وعندى فيه رأى) لم يره
أحد غيرى ولى فيه قول لم يقله أحد سواى وذلك أن عقل الرجل فى كتابته زائد
على فصاحته وبلاغته وسأبين ذلك فأقول ليتدبر الناظر فى هذين التقليدين
اللذين أوردتهما له فانه يرى وصايا وشروطا واستدراكات وأوامر ما بين أصل
وفرع وكل وجزء وقليل وكثير ولا يرى ذلك فى كلام غيره من الكتاب الا أنه عبر
عن تلك الوصايا والاوامر والشروط والاستدراكات بعبارة فى بعضها ما فيه
من الضعف والركة وقد قيل ان زيادة العلم على المنطق هجنة وزيادة المنطق على
العلم خدعة ومع هذا فانى أقر للرجل بالتقدم وأشهد له بالفضل (واذا فرغت)
مما أردت تحقيقه فى هذا الموضع فانى أرجع الى ما كنت بصدد ذكره من الكلام

ثناء على الصابى وتفضيله فى الكتابة وتفوقه فى السلطانيات

على

على السجع وقد تقدم من ذلك ما تقدم وبقى ما أنا ذاكره ههنا وهو أن السجع
قد ينقسم الى ثلاثة أقسام (الاول) أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد
أحدهما على الآخر كقوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر
وقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا
فوسطن به جمعا ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الاجزاء حتى كأنها
أفرغت فى قالب واحد وأمثال ذلك فى القرآن الكريم كثيرة وهو أشرف
السجع منزلة للاعتدال الذى فيه (القسم الثانى) أن يكون الفصل الثانى
أطول من الاول لا طولا يخرج به عن الاعتدال خروجا كثيرا فانه يقبح عند
ذلك ويستكره ويعد عيبا فمما جاء من ذلك قوله تعالى بل كذبوا بالساعة
وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا
وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ألا ترى أن
الفصل الاول ثمانى لفظات والفصل الثانى والثالث تسع تسع (ومن ذلك) قوله
تعالى فى سورة مريم وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا وأمثال هذا فى القرآن كثيرة
ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاث فقرات فان الفقرتين الاوليين
تحسبان فى عدة واحدة ثم تأتى الثالثة فينبغى أن تكون طويلة طولا يزيد
عليهما فاذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون
الثالثة عشر لفظات أو احدى عشر ومثال ذلك ما ذكرته فى وصف صديق
فقلت الصديق من لم يعتض عنك بخالف ولم يعاملك معاملة حالف واذا بلغته
أذنه وشاية أقام عليها حد سارق أو قاذف فالأولى والثانية ههنا أربع لفظات
أربع لفظات لان الاولى لم يعتض عنك بخالف والثانية ولم يعاملك معاملة حالف
وجاءت الثالثة عشر لفظات وهكذا ينبغى أن يستعمل ما كان من هذا
القبيل وان زادت الأولى والثانية عن هذه العدة فتزاد الثالثة بالحساب وكذلك
اذا نقصت الأولى والثانية عن هذه العدة فافهم ذلك وقس عليه الا أنه لا ينبغى
أن تجعله قياسا مطردا فى السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام بل تعلم
أن الجواز يعم الجانبين من التساوى فى السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة
الثالثة ألا ترى أنه قد ورد ثلاث سجعات متساويات فى القرآن الكريم كقوله

تعالى وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين ولو جعلت الثالثة منها خمس لفظات أو ستا لما كان ذلك معيبا (القسم الثالث) أن يكون الفصل الآخر أقصر من الاول وهو عندي عيب فاحش وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الاول بحكم طوله ثم يجيء الفصل الثاني قصيرا عن الاول فيكون كالشيء المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء الى غاية فيعثر دونها (واذا انتهينا الى ههنا) وبينا أقسام السجع وأنه وقشوره فسنقول فيه قولا كليا وهو أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان (أحدهما) يسمى السجع القصير وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة وكلما قلت الالفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع وهذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده متناولا ولا يكاد استعماله يقع الا نادرا (والضرب الآخر) يسمى السجع الطويل وهو ضد الاول لانه أسهل متناولا وانما كان القصير من السجع أوعر مسلكا من الطويل لان المعنى اذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه لقصر تلك الالفاظ وضيق المجال في استجلابه وأما الطويل فان الالفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع من حيث وليس كما يقال وكان ذلك سهلا وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته في عدة ألفاظ (أما السجع القصير) فأحسنه ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كقوله تعالى والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا وقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة وكذلك الى العشرة وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل فما جاء منه قوله تعالى والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى وقوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (وأما السجع الطويل) فان درجاته تتفاوت أيضا في الطول فمنه ما يقرب من السجع القصير وهو أن يكون تأليفه من احدى عشرة الى اثنتي عشرة لفظة وأكثره خمس عشرة لفظة كقوله تعالى ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء

بعد صبرنا ساعته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور فالاولى احدى عشرة لفظة والثانية ثلاث عشرة لفظة وكذلك قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (ومن السجع الطويل) ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها كقوله تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور ومن السجع الطويل أيضا ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط (واعلم) أن التصريع في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور وفائدته في الشعر أنه قبل كمال البيت الاول من القصيدة تعلم قافيتها وشبه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام وأما اذا كثر التصريع في القصيدة فلست أراه مختارا الا أن هذه الاصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها انما يحسن منها في الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة من الوجه أو كان كالطراز من الثوب فأما اذا تواترت وكثرت فانها لا تكون مرضية لما فيها من أمارات الكلفة (وهو عندي ينقسم الى سبع مراتب) وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه أحد غيري (فالمرتبة الاولى) وهي أعلى التصريع درجة أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه في فهم معناه غير محتاج الى صاحبه الذي يليه ويسمى التصريع الكامل وذلك كقول امرئ القيس

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل * وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

فان كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج الى ما يليه وعليه ورد قول المتنبي

اذا كان مدح فالنسيب المقدم * أكل فصيح قال شعرا متيم

(المرتبة الثانية) أن يكون المصراع الاول مستقلا بنفسه غير محتاج الى الذي يليه فاذا جاء الذي يليه كان مرتبطا به كقول امرئ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فالمصراع الاول غير محتاج الى الثانى فى فهم معناه لكن لما جاء الثانى صار مرتبطا به وكذلك ورد قول أبى تمام

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم * وأن ينظم الشمل المبدد ناظم

وعليه ورد قول المتنبى

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى

(المرتبة الثالثة) أن يكون الشاعر مخيرا فى وضع كل مصراع موضع صاحبه ويسمى التصريع الموجه وذلك كقول ابن الحجاج البغدادى

من شروط الصبوح فى المهرجان * خفة الشرب مع خلو المكان

فان هذا البيت يجعل مصراعه الاول ثانيا ومصراعه الثانى أولا وهذه المرتبة كالثانية فى الجودة (المرتبة الرابعة) أن يكون المصراع الاول غير مستقل بنفسه ولا يفهم معناه الا بالثانى ويسمى التصريع الناقص وليس بمرضى ولا حسن فما ورد منه قول المتنبى

مغانى الشعب طيبا فى المغانى * بمنزلة الربيع من الزمان

فان المصراع الاول لا يستقل بنفسه فى فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثانى (المرتبة الخامسة) أن يكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ويسمى التصريع المكرر وهو ينقسم قسمين أحدهما أقرب حالا من الآخر فالاول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها وهو أنزل الدرجتين كقول عبيد ابن الابرص

فكل ذى غيبة يؤب * وغائب الموت لا يؤب

القسم الآخر أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها كقول أبى تمام

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا * فأصبح للهندية البيض مرتعا

(المرتبة السادسة) أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على صفة يأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ويسمى التصريع المعلق فما ورد منه قول امرئ القيس

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى * بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فان المصراع الاول معلق على قوله بصبح وهذا معيب جدا وعليه ورد قول المتنبى

قد علم البين منا البين أجفانا * تدمى وألف فى ذا القلب أحزانا

فان المصراع الاول معلق على قوله تدمى (المرتبة السابعة) أن يكون التصريع فى البيت مخالفا لقافيته ويسمى التصريع المشطور وهو أنزل درجات

التصريع وأقبحها من ذلك قول أبي نواس

أقلني قد ندمت على الذنوب * وبالاقرار عذت عن الجحود

فصرّع بحرف الباء في وسط البيت ثم قفاه بحرف الدال وهذا الارتكاب يستعمل الا قليلا نادرا (النوع الثاني في التجنيس) اعلم أن التجنيس غرّة شادخة في وجه الكلام وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغرّبوا وشرّقوا لاسيما المحدثين منهم وصنف الناس فيه كتبا كثيرة وجعلوه أبوابا متعددة واختلفوا في ذلك وأدخلوا بعض تلك الابواب في بعض فمنهم عبد الله بن المعتز وأبو علي الحاتمي والقاضي أبو الحسين الجرجاني وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم وانما سمي هذا النوع من الكلام مجانسا لان حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد (وحقيقته) أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا وعلى هذا فانه هو اللفظ المشترك وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شئ الا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيسا وتلك تسمية بالمشابهة لا لانها دالة على حقيقة المسمى بعينه (وعلى هذا) فاني نظرت في التجنيس وما يشبه به فأجرى مجراه فوجدته ينقسم الى سبعة أقسام واحد منها يدل على حقيقة التجنيس لان لفظه واحد لا يختلف وستة أقسام مشبهة (فأما القسم الاول) فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها كقوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة وليس في القرآن الكريم سوى هذه الآية فاعرفها ويروى في الاخبار النبوية أن الصحابة تنازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمامه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلوا بين جرير والجرير أي دعوا زمامه ومما جاء منه في الشعر قول أبي تمام

وأصبحت غرر الايام مشرقة * بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الاولى استعارة من غرر الوجه والغرر الثانية مأخوذة من غرّة الشئ أكرمه فاللفظ اذا واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

من القوم جعد أبيض الوجه والندى * وليس بنان يجتدى منه بالجعد

فالجعد السيد والبنان الجعد صفة البسيط وأحدهما يوصف به السخي والآخر يوصف به البخيل وكذلك قوله

فكل فتى ضرب يعرّض للقنا * محيا محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب بالسيف فى الحرب وكذلك قوله

عداك حر الثغور المستضامة عن * برد الثغور وعن سلسالها الحصب

فالثغور جمع ثغر وهو واحد الاسنان وهو أيضا البلد الذى على تخوم العدو

ثم قال فى هذه القصيدة

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة * تهتز من قضب تهتز فى كثب

بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت * أحق بالبيض أبدانا من الحجب

فالقضب السيوف والقضب القدود على حكم الاستعارة وكذلك البيض

السيوف والبيض النساء وهذا من النادر الذى لا يتعلق به أحد وكذلك قوله

اذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا * صدور العوالى فى صدور الكتائب

واحد الصدور فى هذا البيت واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

عامى وعام العيس بين وديقة * مسجورة وتنوفة صيهود

حتى أغادر كل يوم بالفلا * للطير عيدا من بنات العيد

فالعيد فحل من فحول الابل والعيد اليوم المعروف من الايام وقد أكثر أبو تمام

من التجنيس فى شعره فمنه ما أغرب فيه وأحسن كالذى ذكرته ومنه ما أتى به

كريها مستثقلا كقوله

ويوم أرشق والهيجاء قد رشقت * من المنية رشقا وابلا قصفا

وكقوله يا مضعنا حالذاك الشكل ان * حلد حقدا عليك فى حلده

وكقوله وأهل موقان اذ ماقوا فلا وزر * أنجاهم منك فى الهيجا ولا سند

وكقوله مهلا بنى مالك لا تجلبن الى * حى الاراقم دؤلول الله الرقم

(ثم قال فيها)

من الرديمة اللائى اذا عسلت * تشم تيو الصغار الانف ذا الشمم

(وكقوله)

قرت بقران عين الدين واشتترت * بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وله من هذا الغث البارد المتكلف شئ كثير لا حاجة الى استقصائه بل قد أوردنا

منه قليلا يستدل به على أمثاله (ومن الحسن) فى هذا الباب قول أبى نواس

عباس عباس اذا احتدم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

(وكذلك قوله)

وقل لأبي العباس إن كنت مذنبا * فأنت أحق الناس بالأخذ بالفضل
فلا تجحدوني ود عشرين حجة * ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل
(وعلى هذا النهج ورد قول البحتري)
اذا العين راحت وهي عين على الهوى * فليس بسر ما تسر الأضالع
فالعين الجاسوس والعين معروفة وكذلك ورد قول بعضهم
وترى سوابق دمعها اذ توا كفت * ساق تجاوب فوق ساق ساقا
فالساق ساق الشجرة والساق القمري من الطيور وعلى هذا الأسلوب جاء قول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالمعزي في قصيدة قصد بها التجنيس في كثير من أبياتها فمن ذلك ما أورده في مطلعها
لو زار يا طيف ذات الخال أحيانا * ونحن في حفر الأجداث أحيانا
(ثم قال في أبياتها)
تقول أنت امرؤ جاف مغالطة * فقلت لا هوّمت أجفان أجفانا
(وكذا قال في آخرها)
لم يبق غيرك انسانا يلاذ به * فلا برحت لعين الدهر انسانا
(ورأيت) الغانمي قد ذكر في كتابه بابا وسماه رد الأعجاز على الصدور خارجا عن باب التجنيس وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذي نحن بصدد ذكره ههنا فما أورده الغانمي من الأمثلة في ذلك قول بعضهم
وتسري غميل الصبح ذكرا طيب النشر
وتفري سيوف الهند من أسرف في المفر
ويجري في شرى الجد * على شاكلة البحر
(وكذلك قول بعضهم في الشيب)
يا بياضا أذرى دموعي حتى * عاد منها سواد عيني بياضا
(وكذلك قول البحتري)
وأغر في الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني الا أنه * في الحسن جاء كصورة في هيكل
وليس الأخذ على المعاني في ذلك مناقشة على الأسماء وانما المناقشة على أن ينصب نفسه لايراد علم البيان وتفصيل أبوابه ويكون أحد الأبواب الذي

ذكرناها اذا احتلفا في الآخر فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصباح وربما جهل بعض الناس فأدخل في التجنيس ما ليس منه نظرا الى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى فمن ذلك قول أبي تمام

أظن الدمع في خدّي سيبقى * رسوما من بكائي في الرسوم

وهذا ليس من التجنيس في شيء اذ حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وهذا البيت المشار اليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا وهذا مما ينبغي أن ينبه عليه ليعرف ومن علماء البيان من جعل له اسما فماه به وهو الترديد أي أنّ اللفظة الواحدة رددت فيه وحيث نبهت عليه ههنا فلا احتاج أن أعقد له بابا أفرده بالذكر فيه (وأما الاقسام الستة) المشبهة بالتجنيس (فالقسم الاول) منها أن تكون الحروف متساوية في تركيبها مختلفة في وزنها فمما جاء من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهمّ كما حسنت خلقي حسن خلقي ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان في التركيب مختلفتان في الوزن لانّ تركيب الخلق والخلق من ثلاثة أحرف وهي الخاء واللام والقاف الا أنهما قد اختلفا في الوزن اذ وزن الخلق فعل بفتح الفاء ووزن الخلق فعل بضم الفاء ومن هذا القسم قول بعضهم لا تنال غرر المعالي الا بركوب الغرر واهتبال الغرر وقال البحتري

وفرّ الحائن المغرور يرجو * أمانا أي ساعة ما أمان

يهاب الالتفات وقد تصدّى * للحظة طرفه طرف السنان

(وكذلك ورد قول الآخر)

قد ذبت بين حشاشة وذماء * ما بين حرّ هوى وحرّ هواء

(القسم الثاني) من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الالفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير وان زاد على ذلك خرج من باب التجنيس (فمما) جاء منه قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فان هاتين اللفظتين على وزن واحد الا أن تركيبهما مختلف في حرف واحد وكذلك قوله تعالى وهم ينهون عنه وينأون عنه وكذلك قوله تعالى ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وعلى نحو من هذا ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم الخيل معقود بنواصيها الخير وقال بعضهم لا تنال المكارم الا بالمكاره وقال أبو تمام

يعدون من أيد عواص عواصم * تصول بأسياف قواص قواصم

(وقال البحترى)

من كل ساجى الطرف أغيد أجيد * ومهفهف الكشحين أحوى أحور

وكذلك قوله شواجر أرماح تقطع بينهم * شواجن أرحام ملوم قطوعها

(القسم الثالث) من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الالفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد كقوله تعالى والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق وقوله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه ويده (ودخل ثعلب) صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ومجلسه غاص فجلس الى جانبه ثم أقبل عليه وقال أخاف أن أكون ضيقت عليك على أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين فقال له أحمد الصديق لا يحاسب والعدو لا يحتسب له وهذا كلام حسن من كلا الرجلين والتجنيس فى كلام أحمد رحمه الله فى قوله يحاسب ويحتسب له (وقد جاءنى شئ من ذلك) على جهة الطبع لا بثقل التطبع (فمنه ما ذكرته) فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد فقلت وحبل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبى وسيوفه قد تطلعت أن يقال لها انصرى ومواطن الجهاد قد بعد عهدها باستسقاء شآبيب الحور وانسات ربيع الذباب والنسور وما ذلك الا لان العدو اذا طلب تقمص ثوب اذلاله وتنصل من صحة نصاله واعتصم بمعاقله التى لا فرق بينها وبين عقاله (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كريم فقلت وقد جعل الله حرمه ملتقى الجمان وملتقى الاجفان فهو حى لمن حى عليه زمانه وجار لمن بعد عنه جيرانه (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو ولقد دانت ان الخادم من بركة طاعته ما يغنى عنه غيرها بآراء ووجد من أثرها فى صلاح دنياه ما استدل به على صلاح أخراه فهو المركب المنجى والعمل المرجو لا المرجى والمعنى المراد من هداية الصراط المستقيم وتأويل قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (ومن ذلك) ما ذكرته فى أثناء كتاب الى بعض الاخوان وذلك وصف بعض المنعمين فقلت نحن من حسن شيمه وفواضل احسانه بين هند وهنيدة

ومن بين بقيته وامامة عينه بين أم معبد وأبى عبيدة (ومن ذلك) ما ذكرته
فى مطلع كتاب الى بعض الاخوان فقلت الكتب وان عدها قوم عن صامت
الاعراض وتقالوها حتى قالوا هى سواد فى بياض فانها عند الاخوان وجها
وسيما ومحلا كريما وهى خاتم القلوب اذا فارق حبيب حميما ومن أحسنها كتاب
سيدنا ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب (ومن هذا القسم) قول أبى تمام

أيام تدمى عينه تلك الدما * فيها وتقمر لبه الاقمار

وكذلك قوله بيض فهن اذا رمقن سوافر * صور وهن اذا رمقن صوار
وكذلك قوله بدر أطاعت فيك بادرة النوى * ولعا وشمس أولعت شماس
وكذلك قوله كادوا النبوة والهدى فتقطعت * أعناقهم فى ذلك المضمار

جهلوا فلم يستكثروا من طاعة * معروفة بعمارة الاعمار

وكذلك قوله ان الرماح اذا غرسن بمشهد * فجنى العوالى فى ذراه معالى
وكذلك قوله اذا أحسن الاقوام أن يتطاولوا * بلا نعمة أحسنت أن تتطولا
وكذلك قوله أى ربع يكذب الدهر عنه * وهو ملقى على طريق الليالى

بين حال جنت عليه وحول * فهو نضو الاحوال والاحوال
شد ما استرلتك عن دمعك الأ * ظعان حتى استهل صوب العزالى
أى حسن فى الذاهبين تولى * وجمال على ظهور الجمال
ودلال مخيم فى ذرى الخيـ * ـم وحجل مفصم فى الحجال

فالبيت الثانى والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا والابيات الساقية
جاءت تبعا ومما جاء من ذلك قول على بن جبلة

وكم لك من يوم رفعت سناءه * بذات حفون أو بذات جفان

(وكذلك قول محمد بن وهيب الحميرى)

قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا * فمالك موتور وسيفك واتر

وهذا من المليح النادر (ومن هذا القسم) قول البحترى

جدير بأن تنشق عن ضوء وجهه * ضبابة نقع تحتها الموت ناقع

وكذلك قوله نسيم الروض فى ريح شمال * وصوب المزن فى راح شمول

(وذم أعرابى رجلا) فقال كان اذا سأل ألحف واذا سئل سوف
يحسد على الفضل ويزهد فى الافضال (القسم الرابع) من المشبه بالتجنيس

ويسمى المعكوس (وذلك ضربان) أحدهما عكس الالفاظ والآخر عكس الحروف (فالاول) كقول بعضهم عادات السادات سادات العادات وكقول الآخر شيم الاحرار أحرار الشيم ومن هذا النوع ماورد شعرا قول الاضبط ابن قريع من شعراء الجاهلية

قد يجمع المال غير آكله * ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه * ويلبس الثوب غير من قطعه

(وكذلك) ورد قول أبي الطيب المتنبي

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

(وكذلك) قول الشريف الرضي من أبيات يذم فيها الزمان

اسف بمن يطير الى المعالي * وطار بمن يسف الى الدنايا

(وكذلك قول الآخر)

ان الليالي للانام مناهل * تطوى وتنشر بينها الاعمار
فقصارهن من الهموم طويلة * وطوالهن من السرور قصار

(وأحسن من هذا كله وألطفه) قول ابن الزقاق الاندلسي

غير تابد الزمان * فهو ندشت والتجي
فاستحال الضحى دجا * واستحال الدجا ضحى

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب التبديل وذلك اسم مناسب لمسماه لان مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدما في جزء كلامه الاول مؤخرا في الثاني وبما كان مؤخرا في الاول مقدما في الثاني ومثله قدامة بقول بعضهم اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك (ومن هذا القسم) قوله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي (وكذلك) ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم جار الدار أحق بدار الجار (وكتب علي بن أبي طالب) رضي الله عنه الى عبد الله بن عباس رضي الله عنه كتابا وقال أما بعد فان الانسان يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا بما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول أمل وكان قد والسلام (وروى عن أبي تمام) أنه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان وامتدحه بقصيدته

المشهورة التي مطلعها * أهنّ عوادي يوسف وصواحبه * أنكر عليه أبو سعيد الضرير وأبو العميثل هذا الابتداء وقالا لم لا يقول ما يفهم فقال لم لا يفهمان ما يقال فاستحسن منه هذا الجواب على الفور وهو من التجنيس المشار اليه (وقد جاءني شيء منه) كقولي في فصل من كتاب يتضمن فتحا وهو وكم كان في افتراع عذرة الحصن من افتراع عذرة حصان وكم حيز به من سنان لفظ استرقه لفظ سنان (وكذلك) قولي في صدر كتاب الى ديوان الخلافة وهو الخادم يبلغ خدمته الى ذلك الجناب التي تعطره الشفاه قبلا وتوسعه العفاة املا وترى الخول به ملوكا والملوك خولا وطاعته هي محك الاعمال التي أشير اليها بقوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا (وكذلك) ورد قولي أيضا وهو فصل من تقليد وزير فقلت وقد صدّق الله فيك فراسة المثنى عليك أن يقول انك الرجل الذي تضرب به الامثال والمهذب الذي لا يقال معه أي الرجال واذا وازرت مملكة فقد خطب منك شد أزرها وسد ثغرها وأصبحت وأنت صدر لقلبها وقلب لصدرها فهي من دانة منك بالفصل المتين معانة بالقوي الأمين (وأما الضرب الثاني) من هذا القسم وهو عكس الحروف فهو كقول بعضهم

أهديت شيأ يقل لولا * أحدوثة الفال والتبرك
كرسي تفاءلت فيه لما * رأيت مقلوبه يسرك

(وكذلك قول الآخر)

كيف السرور باقبال وآخره * اذا تأملته مقلوب اقبال

(وأجود من هذا كله) قول الآخر

حاذيتها والريح تجذب عقربا * من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتمنعت * وتحجبت عني بقلب العقرب

واذا قلب لفظ عقرب صار برقعا وهذا الضرب نادر الاستعمال لانه قل ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجيء معناها صوابا (القسم الخامس) من المشبه بالتجنيس ويسمى المحقق وذلك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين احداهما كالتبع للاخرى والجنيبة لها كقول بعضهم

أنا ابن العباس لا تحسب بأني * لبسي من حلى الاشعار عاري
ولي طبع كسلسال معين * زلال من ذرا الاحجار جاري

وهذا القسم عندي فيه نظر لانه يلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس ألا ترى أنّ التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وههنا لم يتفق الا حرف من اللفظ وهو أقله وأمّا اللزوم في الكلام المنثور فهو تساوي الحروف التي قبل الفواصل المسجوعة وهذا هو كذلك لانّ العين والراء تساويا في البيت الاول في قوله الاشعار وعار والجيم والراء في البيت الثاني في قوله الاحجار وجار (القسم السادس) من المشبه بالتجنيس وهو ما ساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر وذلك كقول أبي تمام

بيض الصفائح لاسود الصحائف في * متونهنّ جلاء الشك والريب

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت وقد ورد في الكلام المنثور كقوله صلى الله عليه وسلم في فضيلة تلاوة القرآن الكريم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرأ فقوله صلى الله عليه وسلم اقرأ وارق من التجنيس المشار اليه في هذا القسم (النوع الثالث في الترصيع) وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر وكذلك نجعل هذا في الالفاظ المنثورة من الاسجاع وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الاول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية وهذا لا يوجد في كتاب الله تعالى لما هو عليه من زيادة التكلف فأمّا قول من ذهب الى أن في كتاب الله منه شيأ ومثله بقوله تعالى انّ الابرار لفي نعيم وانّ الفجار لفي جحيم فليس الامر كما وقع له فان لفظة لفي قد وردت في القرينتين معا وهذا يخالف شرط الترصيع الذي شرطناه لكنه قريب منه وأمّا الشعر فاني كنت أقول انه لا يتزن على هذه الشريطة ولم أجده في اشعار العرب لما فيه من تعمق الصنعة وتعسف الكلفة واذا جيء به في الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة التي تكون اذا جيء به في الكلام المنثور ثم اني عثرت عليه في شعر المحدثين ولكنه قليل جدّا فمن ذلك قول بعضهم

فمكارم أوليتها متبرّعا * وجرائم ألغيتها متورّعا

فمكارم بازاء جرائم وأوليتها بازاء ألغيتها ومتبرعا بازاء متورّعا وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الاول مخالفا لما يقابله من الفصل الثاني وهذا

ليس شيء لمخالفته حقيقة الترصيع (فمما جاء من هذا النوع) منثورا
قول الحريري في مقاماته فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع
بزواجر وعظه فانه جعل ألفاظ الفصل الاول مساوية لالفاظ الفصل الثاني
وزنا وقافية فجعل يطبع بإزاء يقرع والاسجاع بإزاء الاسماع وجواهر
بإزاء زواجر ولفظه بإزاء وعظه (ومما جاء في هذا النوع) ما ذكرته في جواب
كتاب الى بعض الاخوان وهو قد أعدت الجواب ولم أستعر له لفظا ملفقا
ولا حليت الفه حسنا مسترقا بل أخرجته على رسله وغنيت بصقال حسنه
عن صقله فجاء كما تراه غير ممشوط ولا محطوط فهو يرفل في أثواب بداوته
وقد حوى الجمال بجملته والحسن ما وشته فطرة التصوير لا ما حشته
فكرة التزوير والترصيع في قولي وشته فطرة التصوير وحشته فكرة التزوير
وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الاولاد فقلت من قوّم أود
أولاده ضرّم كمد حساده فهذه الالفاظ مشتركة في ترصيعها فقوّم
بإزاء ضرّم وأود بإزاء كمد وأولاده بإزاء حساده وكذلك قول بعضهم
في الامثال المولدة التي لم ترد عن العرب وهو من أطاع غضبه أضاع أدبه فأطاع
بإزاء أضاع وغضبه بإزاء أدبه * وقد ورد هذا الضرب كثيرا في الخطب التي
أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله (فمن ذلك) قوله في أول
خطبة الحمد لله عاقد أزمة الامور بعزائم أمره وحاصد أئمة الغرور بقواصم
مكره وموفق عبيده لمغانم ذكره ومحقق مواعيده بلوازم شكره فالالفاظ
التي جاءت في الفصلين الاولين متساوية وزنا وقافية والتي جاءت في الفصلين
الآخرين فيها تخالف في الوزن فان مواعيد تخالف وزن عبيد ولا تخالف
قافيتها التي هي الدال (ومن ذلك) قوله أيضا في جملة خطبة أولئك الذين أملوا
فبعدتم ورحلوا فأقمتم وأبادهم الموت كما علمتم وأنتم الطامعون في البقاء
بعدهم كما زعمتم كلا والله ما أشخصوا لتقرّوا ولا نغصوا لتسمرّوا ولا بد أن تمرّوا
حيث مرّوا ولا تثقوا بخدع الدنيا ولا تغترّوا وهذا الكلام فيه أيضا مثل الذي
قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن (وكذلك) قوله أيضا
في خطبة أخرى أيها الناس أسيموا القلوب في رياض الحكم وأديموا النحيب على
ابيضاض اللمم وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم وأجيلوا الافكار في انقراض

الامم

الامر (وأما ما ورد في الشعر) على مخالفة بعض الالفاظ بعضا فكقول ذي الرمة

كحلاء في برج صفراء في نعج * كأنها فضة قد مسها ذهب

فصدر هذا البيت مرصع وعجزه خال من الترصيع وعذر الشاعر في ذلك واضح لانه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ولو رصع هذا البيت الترصيع الحقيقي لكان يلزمه أن يأتي بألفاظه على حرفين أحدهما الباء أو كان يقسم البيت نصفين ويماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف وذلك مما يعسر وقوعه في الشعر وأرباب هذه الصناعة قد قسموا الترصيع الى هذين القسمين المذكورين وهذه القسمة لا أراها صوابا لان حقيقة الترصيع موجودة في القسم الاول دون الثاني (ومما جاء) من هذا القسم الثاني قول الخنساء

حامي الحقيقة محمود الخليقة * مهدي الطريقة نفاع وضرار

(وكذلك قول الآخر)

سود ذوائبها بيض ترائبها * محض ضرائبها صيغت من الكرم

لزوم ما لا يلزم

(النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم) وهو من أشق هذه الصناعة مذهبا وأبعدها مسلكا وذلك لان مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه فان اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه انما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفا واحدا وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روي الابيات الشعرية وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان في ذلك كتابا وسماه كتاب اللزوم فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والرديء الذي يذم وسأذكر في كتابي هذا في هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يهتدى بها (فمن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب في فصل يتضمن ذم حمار فقلت اذا نزل به حطت ملابسه العرق واذا استحث في أمر لم يؤمن الا اذا أدركه الغرق (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت الخادم يهدي من دعائه وثنائه ما سلك أحدهما سماء والآخر أرضا ويصون أحدهما نفسا والآخر عرضا وأعجب ما فيهما أنهما توأمان غير أن هذا مستخرج من ضمير القلب وهذا من نطق اللسان فاللزوم ههنا في الراء والضاد (وكذلك) ورد قولي في جملة كتاب الى ديوان الخلافة

فقلت وقد علم من شيم الديوان العزيز أنه يسر بامتداد الأيدي إلى بابه وإذا أغب أحدها في المسئلة نهاه عن إغبابه حتى لا يخلو حرمه الكريم من الطائف ولا يده الكريمة من الإسعاف فاللزوم ههنا في لفظتي بابه وإغبابه (ومن ذلك) ما كتبته في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضا وهو ومهما شد به عضد الخادم من الإنعام فإنه قوة لليد التي خولته ولا يقوى تصعد السحب إلا بكثرة غيثها الذي أرسلته وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعمد من طرافها ومركز الدائرة من أطرافها ولا يؤيد السيف إلا بقائمه ولا ينهض الجناح إلا بقوادمه فاللزوم في هذا الموضع في الراء والفاء في قولي طراف وأطراف (ومن ذلك) ما كتبته في صدر كتاب إلى الملك الأفضل علي بن يوسف أهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسمائة فقلت المملوك يهني مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واجتبائه وتمكينه حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه ولو أنصف لهني الأرض منه بواليها والأمة بكافلها وخصوصا أرض مصر التي خصت بشرف سكناه وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يداه وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المكتوبات التي أنشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها (وقرأت في كتاب الأغاني) لأبي الفرج أن لقيط بن زرارة تزوج بنت قيس بن خالد بن ذي الجدين فحظيت عنده وحظي عندها ثم قتل فآمت بعده وتزوجت زوجا غيره فكانت كثيرا ما تذكر لقيطا فلامها على ذلك فقالت إنه خرج في يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ثم أتاني وبه نضح دم فضمني ضمة وشمني شمة فليتني مت ثمة فلم أر منظرا كان أحسن من لقيط فقولها ضمني ضمة وشمني شمة فليتني مت ثمه من الكلام الحلو في باب اللزوم ولا كلفة عليه وهكذا فليكن فإن الكلفة وحشة تذهب رونق الصنعة وما ينبغي لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجيء به متكلفا ومثاله في هذا المقام كمن أخذ موضوعا رديئا فأجاد فيه صنعته فإنه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الأصل وأضاع جودة الصنعة في رداءة الموضوع (وقد سلك ذلك) أبو العلاء المعري أحمد بن عبد الله بن سليمان فمما جاء من ذلك قوله في حرف التاء مع الخاء

بت عن الدنيا ولا بنت لي * فيها ولا عرس ولا أخت

وقد تحملت من الوزر ما * تعجز أن تحمله الحث
ان مدحوى ساءنى مدحهم * وخلت أنى فى الثرى سحت

(وله من ذلك الجيد كقوله)

لا تطلبن بآلة لك حاجة * قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما * هذا له رمح وهذا أعزل

وهذا بين الاسترسال وبين الكلفة وأما ما تكلف له تكلفا ظاهرا وان أجاد فقوله

تنازع فى الدنيا سواك وما له * ولا لك شئ فى الحقيقة فيها
ولكنها ملك لرب مقدر * يعبر جوب الارض من ترفيها
ولم يحظ من ذاك النزاع بطائل * من الامر الا أن تعد فيها
فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها * فحقق وما مثل محتلميها
تداعوا الى البرالقليل فجالدوا * عليه وخلوها لمعتريها
وما أم صل أو حليلة ضيغم * بأظلم من دنياك فاعترفيها
تلاقى الوفود القادميها بفرحة * وتبكى على آثار منصرفيها
وما هى الا شركة ليس عندها * وجدك أرطاب لمجتنيها
كما سدت للطير والوحش رازم * فألقت شرورا بين مختطفيها
بيان عن الانصاف من صيم لم يجد * سبيلا الى غايات منتصفيها
فأطبق فاعيها وكفاو مقيله * وقل لغوى الناس فاك لفيها

(ومن ذلك)

أرى الدنيا وما وصفت ببر * اذا اعنت فقيرا أرهقته
اذا أخشيت أشر عجلته * وان رجيت لخير عوقته
حياة كالحبالة ذات مكر * ونفس المرء صيد أعلقته
فلا يخدع بحيلتها أريب * وان هى سورته وطلقته
أذاقته شهيا من جناها * وصدت فاه عما ذوقته

وقد ورد للعرب شئ من ذلك الا أنه قليل مما جاء منه قول بعضهم فى أبيات الحماسة

ان التى زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها * بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى * ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة * شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وهذا من اللطافة على ما يشهد له حسه (ومما يجري هذا المجرى) قول حجر بن حية العبسي من شعراء الحماسة أيضا

ولا أدوم قدري بعد ما نضجت * بخلا لتمنع ما فيها أثافيها

حتى تقسم شتى بين من وسعت * ولا يؤنب تحت الليل عافيها

ومما ورد من ذلك أيضا قول طرفة بن العبد البكري

ألم تر أن المال يكسب أهله * فضوحا إذا لم يعط منه نوائبه

أرى كل مال لا محالة ذاهبا * وأفضله ما ورث الحمد كاسبه

(وكذلك قول الفرزدق)

وغير لون راحلتي ولوني * تردي الهواجر واعتمامي

أقول لها إذا ضجرت وعضت * بمورك الورك منه مع الزمام

علام تلفتين وأنت تحتي * وخير الناس كلهم أمامي

(وكذلك قوله أيضا)

منع الحياة من الرجال وبعضها * حدق تقلبها النساء مراض

وكأن أفئدة الرجال إذا رأوا * حدق النساء لنبلها أغراض

وإذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذوق صحيح فانظر إلى هذا القول في كلامه السهل الذي كأنه ماء جار وانظر إلى ما أوردته لأبي العلاء المعري فإن أثر الكلفة عليه باد ظاهر (وممن) قصد من العرب قصيدة كلها على اللزوم كثير عزة وهي القصيدة التي أولها

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا * قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتا وهي مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها وليس عليها من أثر الكلفة شيء ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ما ورد في أبيات الحماسة وهو

وعيشة ليست كهذي العيش * قد مائت من ترف وطيش

إذا بدت قلت أمير الجيش * من ذاقها يعرف طعم العيش

(وهذا) ليس من باب اللزوم لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر ما لا يلزمه كقولنا شرق وفرق مثلا فإنه لو قيل بدلا من ذلك شرق وحمق لجاز ذلك وفي

هذه الابيات لا يقع الامر كذلك لانه لو قيل طيش وعرش لما جار وهذا يقال له الردف في الشعر وهو الياء والواو قبل حرف الروي واذا جيء بذلك في الشعر وفي الكلام المنثور لا يقال انه التزام ما لا يلزم لان الملتزم ما لا يلزم له مندوحة في العدول الى غيره وههنا لا مندوحة (ومن الطف ذلك) ما يروى لامرأة من البصرة هجت ابا نواس فقالت

ان حرى حزنبل حزابيه * اذا قعدت فوقه نبا بيه

* كالارنب الجاثم فوق الرابيه *

(وكذلك ورد قول أبي تمام وهو)

خدم العلا فخدمنه وهي التي * لا تخدم الاقوام ما لم تخدم

فاذا ارتقى في قلة من سودد * قالت له الاخرى بلغت تقدم

(وعلى هذا الاسلوب قوله أيضا)

ولو حرّتني لو جدت حرقا * يصافي الاكرمين ولا يصادي

حذارا أن يكدر الطرف شربا * الى بعض الموارد وهو صادي

(وله من أبيات تتضمن مرثيه)

لقد خمدت عتابة ورهبره * ونعلة أخرى الليالي ووائله

ومستدبر المعروف تسري هباته * اليهم ولا تسري اليهم غوائله

طواه الردى طيّ الرداء وغيبت * فضائله عن قومه وفواضله

طوى شيما كانت تروح وتغتدي * وسائل من أعيت عليه وسائله

فيا عارضا للعرف أقلع مزنه * ويا واديا للجود جفت مسايله

ألم ترني أرذت عيني على أبي * محمد الضم المشرق آمله

وأخلصتها فيه كما لو أتيته * طريد الليالي احلصتني نوافله

وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب وليس فيه تكلف كشعر أبي العلاء فانّ حسن هذا ما طبوع وحسن ذاك مصنوع وكذلك أقول في غير اللزوم من الانواع المذكورة أولا فانّ الالفاظ اذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مستجلبة ولا متكلفة جاءت غير محتاجة الى التأنق ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق (فان قيل) ما الفرق بين المتكلف من هذه الانواع وغير المتكلف (قلت في الجواب) أمّا المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية وذلك

أن ينفي الخاطر في طلبه ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره وعبر المتكلف بأني مستر يحاص ذلك كله وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في انشاء خطبته أو كتابته فيما هو كذلك اذ سمح له نوع من هذه الانواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب ألا ترى الى قول أبي نواس في مثل هذا الموضع

اترك الاطلال لا تعبأ بها * انها من كل بؤس دانيه
وابعث الراح على شعريها * اعادياك دار فانيه
من عقار من رآها قال لي * صيدت الشمس لنا في آنيه

(وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضا)

كم من علام دي تحاسين * أفسده ناطف ياسين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد (وحكى ابراهيم المدبحى) قال رأيت شيخا ضعيفا يبيع ناطفا فقلت له يا شيخ أمارات في هذه الصناعة قال مذ كنت ولكن الحال كانت واسعة والسلعة نافقة وكنت ممن يشار الى حتى قال أبو نواس في وأنشد هذا البيت فانظر أيها المتأمل ما أحلى لفظ أبي نواس في لزومه وما أعراه عن الكلفة وكذلك فلتكن الالفاظ في اللزوم وغيره (واعلم) أنه اذا صغرت الكلمة الاخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور فان ذلك ملحق باللزوم ويكون التصغير عوضا عن تساوى الحروف التي قبل روى الابيات الشعرية والحروف التي قبل الفاصلة من النثر (فمن ذلك) قول بعضهم

عزعلى ليلى بذى سدير * سوء مبيتي ليلة الغمير
مقفعلا تنتهي في طمري * تنتهر الرعدة في ظهيرى
يهفو الى الزور من صديرى * ظماآن في ريح وفي مطير
وازرق الآيس بالعريري * من لدما ظهر الى سحيرى
حتى بدت لى جبهة القمير * لاربع خلون من شهير

وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب فاعرفه وأحسن منه ماورد عن أبي نواس وعن عنان جارية الناطف وله معها حكايات كثيرة غير هذه فقال أبو نواس

أما ترى لصب * يكفيه منك قطيره

فقالت عنان

اياى تعنى بهذا * عليك فاجلد عميره

فقال أبو نواس

أخاف ان رمت هذا * على يدى منك غيره

فالبيتان

فالبيتان الاول والثاني من هذا الباب والثالث جاء تبعا وقد ورد في القرآن الكريم شيء من اللزوم الا أنه يسير جدا (فمن ذلك) قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق وقوله تعالى والطور وكتاب مسطور وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه كقوله تعالى ان المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم وهذا لا يدخل في باب اللزوم لان الاصل فيه نعيم وجحيم والياء هي من حروف المد واللين فلا يعتد بهما (ومن هذا الباب) قوله تعالى وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وكذلك ورد قوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير (وعلى هذا الاسلوب) جاء قوله تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد ولا تجد أمثال ذلك في القرآن الا قليلا (النوع الخامس في الموازنة) وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الالفاظ وزنا وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال لانه مطلوب في جميع الاشياء واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مراء فيه لوضوحه وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة دون المماثلة لان في السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ولا تماثل في فواصلها فيقال اذا كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة (فما جاء منها) قوله تعالى وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم فالمستبين والمستقيم على وزن واحد وكذلك

الموازنة

قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا وكذلك قوله تعالى في سورة طه من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا وكذلك ورد قوله تعالى في سورة حم عسق والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير وهذه الآيات جميعها على وزن واحد فإن شديد وقريب وبعيد وعزيز ونصيب وأليم وكبير كل ذلك على وزن فعيل وإن اختلف حروف المقاطع التي هي فواصلها وأمثال هذا في القرآن كثير بل معظم آياته جارية على هذا النهج حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور ولقد تصفحته فوجدته لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة (وأما ما جاء) من هذا النوع شعرا فقول ربيعة بن ذؤابة

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم * بعتيبة بن الحرث بن شهاب
بأشدهم بأسا على أصحابه * وأعزهم فقدا على الأصحاب

فالبيت الثاني هو المختص بالموازنة فإن بأسا وفقدا على وزن واحد (النوع السادس في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها) وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ومكانة شريفة وحلي الألفاظ اللفظية منوطة به ولقد لقيت جماعة من مدعي فن الفصاحة وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني فما وجدت أحدا منهم تيقن معرفة هذا الموضع كما ينبغي وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها وسأتي

النوع السادس في اختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها

ذكرها

ذكرناهما (أما اختلاف صيغ الألفاظ) فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسنا وحسنها فصار قبحا (فمن ذلك) لفظة خود فإنها عبارة عن المرأة الناعمة وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل خوّد على وزن فعّل بتشديد العين ومعناها أسرع يقال خوّد البعير إذا أسرع فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة وقد وردت في النظم والنثر كثيرا وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة كقول أبي تمام

وإلى بني عبد الكريم تواهقت * رتك النعام رأى الظلام فخوّدا

وهذا يقاس عليه أشباهه وأنظاره إلا أن هذه اللفظة التي هي خوّد قد نقلت عن الحقيقة إلى المجاز فخف عنها ذلك القبح قليلا كقول بعض شعراء الحماسة

أقول لنفسي حين خوّد رألها * رويدك لما تشفقي حين مشفق
رويدك حتى تنظري عمّ تنجلي * غيابة هذا البارق المتألق

والرأل النعام والمراد به ههنا أن نفسه فرت وفزعت وشبه ذلك بفرار النعام في فراره وفزعه ولما أورده على حكم المجاز خف بعض القبح الذي على لفظة خوّد وهذا يدرك بالذوق الصحيح ولا خفاء بما بين هذه اللفظة في إيرادها ههنا وإيرادها في بيت أبي تمام فإنها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سخيفة ووردت ههنا بين بين (ومن هذا النوع) لفظة ودع وهي فعل ماض ثلاثي لا ثقل بها على اللسان ومع ذلك فلا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مستحسنة ولكنها تستعمل مستقبلة وعلى صيغة الأمر فتجيء حسنة أما الأمر فكقوله تعالى فدعهم يخوضوا ويلعبوا ولم تأت في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة وأما كونها مستقبلة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وصالا لا يدع له المتعمقون تعمقهم وقال أبو الطيب المتنبي

يشلكم بقناها كل سلهبة * والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذا ولا حسن له كقول أبي

قوله فدعهم الخ لا وجه له فذرهم ولو قال ودع أذاهم لأصاب اه

متناهيه أثروا فلم يدخلوا قبورهم * شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم * أعظم نفعاً من الذي ودعوا

وهذا غير حسن في الاستعمال ولا عليه من الطلاوة شيء وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شيء سوى أنها نقلت من الماضي إلى المستقبل لا غير وكذلك لفظة ذر فإنها لا تستعمل ماضية وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر فهي لم ترد في القرآن إلا على هاتين الصيغتين وكذلك في فصيح الكلام غير القرآن وأما إذا جاءت على صيغة الماضي فإنها لا تستعمل وهي أقبح من لفظة ودع لأن لفظة ودع قد استعملت ماضية وهذه لم تستعمل وههنا فليعلم الخائضون في هذا الفن نظرهم ويعلموا أن في الزوايا خبايا وإذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال وأعرقوا في الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب (ومن هذا النوع) لفظة الأخدع فإنها وردت في بيتين من الشعر وهي في أحدهما حسنة رائقة وفي الآخر ثقيلة مستكرهة كقول ابن الصمة عبد الله من شعراء الحماسة

تلفت نحو الحي حتى وجدتني * وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

(وكقول أبي تمام)

يا دهر قوم من أخدعيك فقد * أضججت هذا الأنام من خرقك

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع والكراهة في النفس أضعاف ما وجد لها في بيت ابن الصمة عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما مثناة في الآخر وكانت حسنة في حالة الإفراد مستكرهة في حالة التثنية وإلا فاللفظة واحدة وإنما اختلاف صيغتها أثر فيها ما ترى (ومن هذا النوع) ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستفتى في ذلك إلا الذوق السليم وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره (فمن ذلك) لفظة اللب الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة ولم ترد مفردة كقوله تعالى وليتذكر أولو الألباب وإن في ذلك لذكرى لأولي الألباب وأشباه ذلك

وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ومخارجها بعيدة وليست عستثقلة ولا مكروهة وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا اليها أما كونها مضافا اليها فكقولنا لا يعلم ذلك الا ذو لب وان فى ذلك لعبرة لذى لب وعليه ورد قول جرير

ان العيون التى فى طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله أركانا

وأما كونها مضافة فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من احداكن يا معشر النساء فان كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الاضافة فانها لا تأتى حسنة ولا تجد دليلا على ذلك الا مجرد الذوق الصحيح واذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعى فيها الجمع دون الافراد كلفظة كوب فانها وردت فى القرآن مجموعة ولم ترد مفردة وهى وان لم تكن مستقبحة فى حال افرادها فان الجمع فيها أحسن لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسنا ليس لها وذلك كقولى فى جملة أبيات أصف بها الخمر وما يجرى معها من آلاتها

ثلاثة تعطى الفرح * كأس وكوب وقدح

ما ذبح الزق بها * الا ولهو تم ذبح

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح على هذا الاسلوب حسنها وكأنه جلاها فى غير لباسها الذى كان لها اذا جاءت مفردها (وكذلك وردت) لفظة رجا بالقصر والرجا الجانب فانها لم تستعمل موحدة وانما استعملت مجموعة كقوله تعالى والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوبا من الحسن لم يكن لها فى حال كونها موحدة وقد تستعمل موحدة بشرط الاضافة كقولنا رجا البئر ولربما أخطأ بعض الناس فى هذا الموضع وقاس عليه ما ليس بمقيس وذلك أنه وقف على ما ذكرته ههنا واقتفى فقال وكذلك قد وردت لفظة الصوف فى القرآن الكريم ولم ترد الا مجموعة كقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى

حين وهذا الخلاف ما وردت عليه في شعر أبي تمام

كانوا برود زمانهم فتصدعوا * فكأنما لبس الزمان الصوفا

وهذا البيت كالذي أشرت إليه فإن لفظة الصوف لفظة حسنة مفردة ومجموعة وإنما أزرى بها في قول أبي تمام أنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان وعلى هذا النهج وردت لفظة خرؤ وإن لفظة هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ولم ترد في القرآن إلا مجموعة (وفي ضد ذلك) ما ورد استعماله من الألفاظ مفردا ولم يرد مجموعا كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل ومن الأرض مثلهن في قوله تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن (ومما ورد) من الألفاظ مفردا فكان أحسن مما يرد مجموعا لفظة البقعة قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا بقاع الأرض أو ما جرى مجراها (وكذلك) لفظة طيف في ذكر طيف الخيال فإنها لم تستعمل إلا مفردة وقد استعملها الشعراء قديما وحديثا ولم يأتوا بها إلا مفردة لأن جمعها جمع قبيح فإذا قيل طيوف كان من أقبح الألفاظ وأشدها كراهة على السمع ويا لله العجب من هذه اللفظة ومن أختها ساعدة ووزنا وهي لفظة ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة وكلاهما في الاستعمال حسن رائق وهذا مما لا يعلم السر فيه والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراهما (وأما جمع المصادر) فإنه لا يجيء حسنا والإفراد فيه هو الحسن (ومما) جاء في المصادر مجموعا قول عنترة

فإن يبرأ فلم أنفث عليه * وإن يفقد فحق له الفقود

قوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد يفقد فقدا واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ وإن كان جائزا وهي في استعمال ما استعمله من الألفاظ والهون مع الحسن لا مع الجواز وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف فما عذب في فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه ألا ترى أنه يقال الأمة بالضم عبارة عن الجمع

الكثير

الكثير من الناس ويقال الامة بالكسر وهي النعمة فان الامة بالضم لفظة حسنة وبالكسر ليست بحسنة واستعمالها قبيح (ورأيت صاحب كتاب الفصيح) قد ذكرها فيما اختاره من الالفاظ الفصيحة وياليت شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها وكذلك قد اختار ألفاظا أخر ليست بفصيحة ولا لوم عليه لان صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير واسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية وانما تؤخذ منهم مسئلة نحوية أو تصريفية أو نقل كلمة لغوية وما جرى هذا المجرى وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها واذا شذ عن صاحب كتاب الفصيح ألفاظ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فان هذا منه كبير (ومما يذكر في هذا الباب) أنه يقال سهم صائب فاذا جمع الجمع الحسن الذي يعدل في الفم قيل سهام صوائب وصائبات وصيب فاذا جمع الجمع الذي يقبح قيل سهام صيب على وزن كتب قال أبو نواس

ما أحل الله ما صنعت * عينه تلك العشية بي
قتلت انسانها كبدي * بسهام للردى صيب

فقوله سهام صيب من اللفظ الذي ينبو عنه السمع ويبعد عنه اللسان ومثله ورد قول عريف القوافي من أبيات الحماسة

ذهب الرقاد فما أحس رقاد * مما شجاك ونامت العواد
لما أتاني من عيينة أنه * أمست عليه بظاهر أقياد

فقوله أقياد في جمع قيد مما لا يحسن استعماله بل الحسن أن يقال في جمعه قيود وكذلك قول مرة بن محكان التميمي من أبيات الحماسة وذلك من جملة الابيات المشهورة التي أولها

يا ربة البيت قومي غير صاغرة * ضمي اليك رحال القوم والقربا

فقال فيها

ماذا ترين أندنيهم لأرحلنا * في جانب البيت أم نبني لهم قببا

فانه جمع قبة على قبب وذلك من المستبشع الكريه والاحسن المستعمل هو قباب لا قبب وكذلك يجري الامر في غير هذا (ومن المجموع) ما يختلف استعماله وان كان متفقا في لفظة واحدة كالعين الناظرة وعين الناس وهو المنبه فيهم فان العين الناظرة تجمع على عيون وعين الناس تجمع على أعيان

اعتراض على صاحب الفصيح في ذكره لفظة الامة في فصيحه

وهذا يرجع فيه الى الاستحسان لا الى جائز الوضع اللغوى وقد شذ هذا الموضع عن أبي الطيب المتنبى فى قوله

والقوم فى أعيانهم خزر * والخيل فى أعيانها قبل

فجمع العين الناظرة على أعيان وكان الذوق يأبى ذلك ولا تجد له على اللسان حلاوة وان كان جائزا ولولا خوف الاطالة لاوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة وكشفت عن رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطى هذا الفن لكن فى الذى أشرت اليه منبه لأهل الفطانة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره (وأعجب من ذلك كله) أنك ترى ورباً واحداً من الالفاظ فتارة تجد مفرده حسنا وتارة تجد جمعه حسنا وتارة تجدهما جميعا حسنين فالاول نحو جرور وهو فرخ الحبارى فان هذه اللفظة يحسن مفردها لا مجموعها لان جمعها على حماريين وكذلك طنبور وطنابير وعرقوب وعراقيب وأما الثانى فنحو طول وطائل وأطول وأطاول وهذا ضد الاول وأما الثالث فنحو جمهور وجماهير وعرجون وعراجين فانظر الى الوزن الواحد كيف يختلف فى أحواله مفردا ومجموعا وهذا من أعجب ما يجىء فى هذا الباب (وهكذا قد جاءت ألفاظ) على وزن واحد ثلاثية ساكنة الوسط وجمعها حسن فى الاستعمال واذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شئ دون شئ (فمن ذلك) لفظة الثلث والربع الى العشر فان الجميع على وزن واحد واذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثلث وربع وخمس وكذلك الى عشر فان الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثلث والخمس والسدس والباقى وهو الربع والسبع والثمن والتسع والعشر ليس كالاول فى حسنه هذا والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة والجميع حسن فى الاستعمال قبل أن يثقل وسطه ولما ثقل صار بعضه حسنا وبعضه غير حسن وكذلك نجد الامر فى أسماء الفاعلين كالثلاثى منها نحو فعل بفتح الفاء والعين وفعل بفتح الفاء وكسر العين وفعل بفتح الفاء وضم العين فان هذه الاوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين أما فعل بفتح الفاء والعين فليس له الا اسم واحد أيضا وهو فاعل لا غير ولا يقع فيهما اختلاف وكذلك فعل بفتح الفاء وضم العين فليس له الا اسم واحد أيضا وهو فعيل ولا يقع فيه اختلاف الا ما شذ ... فعلان فعل بفتح الفاء وكسر العين يقع فى اسم فاعله

الاختلاف استحسانا واستقباحا لان له ثلاثة أوزان نحو فاعل وفعل وفعلان تقول منه جد فهو جاد وجد وجدان وقد جاء على وزنه فرح تقول منه فرح زيد فهو فرح وهو الاحسن ولا يحسن أن يقال فارح ولا فرحان وان كان جائزا لكن فرحان أحسن من فارح وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم ولا تستعمل الا على فرح لا غير كقوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وكقوله تعالى ان الله لا يحب الفرحين وقد جاءت هذه اللفظة فى شعر بعض شعراء الحماسة فى باب المراثى

فما أنا من حزن وان جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح

وهذا غير حسن وان جاز استعماله وعلى نحو منه يقال غضب وهو غضبان ولا يقال غاضب وان كان جائزا وقد تقدم القول أمام تأليف الكلام بصدد استعمال الحسن والاحسن لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز (ومما يجرى هذا المجرى) افعل وافتعل فان لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ألا ترى أنك تقول قعدت الى فلان أحدثه ولا تقول اقتعدت اليه وكذلك تقول اقتعدت غارب الجمل ولا تقول قعدت على غارب الجمل وان جاز ذلك لكن الاول أحسن وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم فانه لا يمكن أن يقام عليه دليل (وأما افعل وافعوعل) فانا نقول أعشب المكان فاذا كثر عشبه قلنا اعشوشب فلفظه افعوعل للتكثير على أنى استقريت هذه اللفظة فى كثير من الالفاظ فوجدتها عذبة طيبة على تكرار حروفها كقولنا اخشوشن المكان واعرورقت العين واحلولى الطعم وأشباههما (وأما فعلة) نحو همزة ولمزة وجثمة ونومة ولكمة وضحكة وأشباه ذلك فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة وهذا أخذته بالاستقراء وفى اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها فانظر الى ما يفعله اختلاف الصيغة بالالفاظ وعليك أن تتفقد أمثال هذه المواضع لتعلم كيف تضع يدك فى استعمالها فكثيرا ما يقع مثل الشعراء والخطباء فى مثلها ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر اذا مرت به ألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح فما يجد الحسن منها موحدا وحده وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الالفاظ (النوع السادس فى المعاظلة اللفظية) والمعاظلة معاظلتان لفظية ومعنوية

المعاظلة اللفظية

(أمّا المعنوية) فسيأتي ذكرها في باب التقديم والتأخير من المقالة الثانية فليؤخذ من هنالك (وأمّا المعاظلة اللفظية) وهي المخصوصة بالذكرها في باب صناعة الالفاظ وحقيقتها مأخوذة من قولهم تعاظلت الجراد تان اذا ركبت احداهما الاخرى فسمي الكلام المتراكب في ألفاظه أو في معانيه المعاظلة مأخوذا من ذلك وهو اسم لائق بمسماه ووصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى فقال كان لا يعاظل بين الكلام (وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة) فقال قدامة بن جعفر الكاتب التعاظل في الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا أعرف ذلك الا فاحش الاستعارة كقول أوس بن حجر

وذات هدم عار نواشرها * تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الطفل تولبا والتولب ولد الحمار هذا ما ذكره قدامة بن جعفر وهو خطأ اذ لو كان ما ذهب اليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدم وهو التراكب من قولهم تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تركب في ألفاظه ولا في معانيه (وأمّا) غير قدامة فانه خالفه فيما ذهب اليه الا أنه لم يقسم المعاظلة الى لفظية ومعنوية ولكنه ضرب لها مثالا كقول الفرزدق وما مثله في الناس الا مملكا * أبو أمه حي أبوه يقاربه

وهذا من القسم المعنوي لا من القسم اللفظي ألا ترى الى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه لان الاصل في معناه وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه وسيجيء شرح ذلك مستوفى في بابه من المقالة الثانية ان شاء الله تعالى * واذ احققت القول في باب المعاظلة والكشف عن حقيقتها فاني أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكرها (فأقول) اني تأملته بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر في حقيقتها نفسها فوجدتها تنقسم الى خمسة أقسام (الاول منها) يختص بأدوات الكلام نحو من والى وعن وعلى وأشباهها فان منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع أخواته ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك (فمما جاء منه) قول أبي تمام

إلى خالد راحت بنا أرحبية * مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله من عن كراكرها من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به على أنه قد وردت هاتان اللفظتان وهما من وعن في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل من عن يمين الطريق والسبب في ذلك أنهما وردتا في بيت أبي تمام مضافتين إلى لفظة الكراكر فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى وإلا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة وكانتا خفيفتين كقوله

ولقد أراني للرماح دريئة * من عن يميني مرة وأمامي

والأصل في ذلك راجع إلى السبك فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو ما يجري مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطري وإذا سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت أبي تمام (ومن هذا القسم) قول أبي تمام أيضا

كأنه لاجتماع الروح فيه له * في كل جارحة من جسمه روح

فقوله في بعد قوله فيه له مما لا يحسن وروده وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي

وتسعدني في غمرة بعد غمرة * سبوح لها منها عليها شواهد

فقوله لها منها عليها من الثقيل الثقيل الثقيل وكذلك قوله

تبيت وفودهم تسري إليه * وجدواه التي سألوا اغتفار

فخلفهم برد البيض عنهم * وهامهم له معهم معار

وقوله وهامهم له معهم مما يثقل النطق به ويتعثر اللسان فيه لكنه أقرب حالا من الأول ومن الحسن في هذا الموضع قول أبي تمام

دار أجل الهوى عن أن ألم بها * في الركب إلا وعيني من منائحها

فقوله عن أن في هذا البيت من الخفيف الحسن الذي لا بأس به (القسم الثاني من المعاظلة اللفظية) مختص بتكرير الحروف وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ ولا بتكرير المعاني مما يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم فيثقل حينئذ النطق به (فمن ذلك) قول بعضهم

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

فهذه القافات والراءات كأنها في تتابعها سلسلة ولا خفاء بما في ذلك من الثقل

وكذا ورد قول الحريري في مقاماته

واروزّ من كان له زائرا * وعاف عافي العرف عرفانه

فقوله وعاف عافي العرف عرفانه من التكرير المشار اليه وكذلك ورد قوله أيضا في رسالتيه اللتين صاغهما على حرفي السين والشين فانه أتى في احداهما بالسين في كل لفظة من ألفاظها وأتى في الاخرى بالشين في كل لفظة من ألفاظها فجاء تا كأنهما رقى العقارب أو خدروفة العزائم وما أعلم كيف خفي ما فيهما من القبح على مثل الحريري مع معرفته بالجيد والرديء من الكلام (ويحكى) عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أورده حتى حبات وحمات الجيب فصاح رجل من الحاضرين في الهاس وماد وتعاشي فقال له رجل كان الى جانبه ما الذي سمعت حتى حدث بك هذا فقال سمعت حيماني حيم في حيم فصحت وهذا من أقبح عيوب الالفاظ (ومما جاء منه) قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي مطلعها * أتراها لكثرة العشاق

كيف ترثي التي ترى كل جفن * راءها غير جفنها غير راقي

وهذا وأمثاله اعاب يعرض لقائله في نوبة الصرع التي تنوب في بعض الايام (ومن هذا القسم) قول الشاعر المعروف بكشاجم في قصيدته التي مطلعها دا وخماري بكاس خمر

والزهر والقطر في رباها * ما بين نظم وبين نثر

حدائق كف كل ريح * حل بها جيب كل قطر

وهذا البيت يحتاج الناطق به الى بركار يضعه في شدقه حتى يديره له وعلى هذا الاسلوب ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذي يتداكره الناس

ملت مطال مولود مفدى * مليح مانع مني مرادي

وهذه الميمات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض (وكان بعض أهل الأدب) من أهل مصر ما هذا يستعمل هذا القسم في ألفاظه كثيرا في كلامه نثرا ونظما وذلك لعدم معرفته بسلوك الطريق (وأنا أذكر نبذة من ذلك) كقوله في وصف رجل سمي أنت المديح كمدا تريح والمديح ان يجهم المليح بالتكليح عند سائل تلوح بل يفوق اذ يروق مرأى لوح يامعوق كاس الجد يا مصبوح صاق عن بذاك اللوح وسابل المفتوح تستريح وتريح دا التبريح وترفه

الطليح فانظر الى حرف الحاء كيف قد لزمه فى كل لفظة من هذه الالفاظ فجاء كما ترامن الثقل والغثاثه (واعلم) أن العرب الذين هم الاصل فى هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهم وذلك أنه اذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا فقالوا فى حلل لك حلك وفى تضربوننى تضربونى وكذلك قالوا استعد فلان للامر اذا تأهب له والاصل فيه استعدد واستتب الامر اذا تهيأ والاصل فيه استتبب وأشباه ذلك كثير فى كلامهم حتى انهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا أمليت الكتاب والاصل فيه أمللت فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل واذا كان قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا (القسم الثالث من المعاظلة) أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا فمنها مايحتلف بين ماض ومستقبل ومنها مالايختلف فالاول كقول القاضى الارجانى فى أبيات يصف فيها الشمعة وفيها معنى هوله مبتدع ولم يسمع من غيره وذلك أنه قال عن لسان الشمع انه ألف العسل وهو أخوه الذى ربى معه فى بيت واحد وان النار فرقت بينه وبينه وانه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضا من ألم الفراق الا أنه أساء العبارة فقال

بالنار فرقت الحوادث بيننا * وبها نذرت أعود أقتل روحى

فقوله نذرت أعود من المعاظلة المشار اليها وأما مايرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبى الطيب المتنبى

أقل أنل أقطع احمل علّ سلّ أعد * زدهشّ بشّ تفضل أدن سرّ صل

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة وهى صيغة الامر كأنه قال افعل افعل هكذا الى آخر البيت وهذا تكرير للصيغة وان لم يكن تكريرا للحروف الا أنه أخوه ولا أقول ابن عمه وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا كما قال عبد السلام بن رغبان

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيـ * ـف والا فمت شديد الهزال

احل وامرر وضر وانفع ولن واخـ * ـشن وأبرر ثم انتدب للمعالى

ألاترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الالفاظ كتراكبها فى بيت أبى الطيب المتقدم ذكره (فان قيل) انك جعلت ما كان واردا على صيغة واحدة على سبيل

التكرار معاظلة وقد ورد ذلك في القرآن الكريم كقوله تعالى فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ولو كان معاظلة لما ورد في القرآن الكريم مثله (فالجواب عن ذلك) أني أقول هذه الآية ليست كالذي أنكرته فان هذا الموضع ينظر فيه الى الكثير والقليل فاذا كثر كان معاظلا لثقله وثقله على النطق وقد عرفتك أن ما يفصل بين صيغه بواو العطف يكون أقل ثقلا مما لا يفصل والذي أنكرته من ذلك هو أن تأتي ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عقد متصلة بحيث يثقل النطق بها ويكره موقعها من السمع كبيت أبي الطيب المتنبي وأما هذه الآية المشار اليها فانها خارجة عن هذا الحكم ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فرق بينها بواو العطف ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها الا في اثنتين وهما خذوهم واحصروهم وأما الصيغة الاولى فانها أضيف اليها كلام آخر فقيل اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف اليها كلام آخر أيضا فقيل واقعدوا لهم كل مرصد لا جرم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الامر فيها أربع مرار وهذه رموز ينبغي أن يتنبه لها في استعمال الالفاظ اذا جاءت هكذا (القسم الرابع من المعاظلة) وهو الذي يتضمن مضافات كثيرة كقولهم سرج فرس غلام زيد وان زيد على ذلك قيل لبد سرج فرس غلام زيد وهذا أشد قبحا وأثقل على اللسان وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر في مفتتح قصيدة له

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي * فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

(القسم الخامس من المعاظلة) أن ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول أبي تمام في قصيدته التي مطلعها * ما لكثيب الحمى الى عقده * فقال يصف جملا

سأخرق الخرق بابن خرقاء كالـ * ـهيق اذا ما استحم من نجده

مقابل في الجديل صلب القرى * لوح من عجبه الى كتده

تامكه نهده مداخله * ملمومه محزئله أجده

فالبيت الثالث من المعاظلة التي تقلع الاسنان دون ايرادها وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحا

ومن لم يرم ودا ذؤابتاه على ✽ أسمر مثل يوم التوى حسده

مارية لدنه مثقفه ✽ عزاصه في الاكف مطرده

وهذا كالاول في قبحه وثقله فقاتله الله ما أمتن شعره وما أسخفه في بعض الاحوال وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضا يصف الممدوح

البيك عن سيل عارض حمل الشؤبوب يأتي الحمام من بعده

مسمه نزه مستمعه ✽ والله مستبله حرده

ولو لم يكن لابي تمام من القبيح الشنيع الا هذه الابيات لحطت من قدره وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي

دان بعيد محب مبغض بهج ✽ أغر حلو ممر لين شرس

ندٍ أبيّ غرٍ واف أخي ثقة ✽ جعد سري نه ندب رضي ندس

وهذا كأنه سلسلة بلا شك وقلما يوجد في أشعار الشعراء ولم أجده كثيرا الا في شعر الفرزدق وتلك معاظلة معنوية وسيأتي بيانها في بابها وهذه معاظلة لفظية وهي توجد في شعر أبي الطيب كثيرا (النوع السادس في المنافرة بين الالفاظ في السبك) وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه وغاية ما يقال انه ينبغي أن لا تكون الالفاظ نافرة عن مواضعها ثم يكتفى بهذا القول من غير بيان ولا تفصيل حتى انه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة وكل منهما نوع منفرد برأسه له حقيقة تخصه الا انهما قد اشتبها على علماء البيان فكيف على جاهل لا يعلم (وقد بينت) هذا النوع وفصلته عن المعاظلة وضربت له أمثلة يستدل بها على أخواتها وما يجري مجراها وحل الامر أن مدار سبك الالفاظ على هذا النوع والذي قبله دون غيرهما من تلك الانواع المذكورة لان هذين النوعين أصل لسبك الالفاظ وما عداهما فرع عليهما واذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفا بهما فاتت مقاتله نبذا و كثيرا (وحقيقة هذا النوع) الذي هو المنافرة أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر وعلى هذا فان الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هي التراكب والتداخل اما في الالفاظ أو في المعاني على ما أشرت اليه وهذا النوع لا تراكب فيه وانما هو ايراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذي ترد فيه (وهو ينقسم قسمين) أحدهما ما يوجد في اللفظة الواحدة والآخر في الالفاظ المتعددة فأما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فانه اذا ورد

في الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو في معناه سواء كان ذلك الكلام نثرا أو نظما وأما الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنه لا يمكن تبديله بغيره في الشعر بل يمكن ذلك في النثر خاصة لأنه يعسر في الشعر من أجل الوزن فمما جاء من القسم الأول قول أبي الطيب المتنبي

ولا يبرم الأمر الذي هو حالل * ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم

فلفظة حالل نادرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال

ولا يبرم الأمر الذي هو ناقض * ولا ينقض الأمر الذي هو يبرم

لجاءت اللفظة قارّة في مكانها غير قلقة ولا نادرة (ونقل) عن أبي العلاء ابن سليمان المعري أنه كان يتعصب لأبي الطيب حتى إنه كان يسميه الشاعر ويسمي غيره من الشعراء باسمه وكان يقول ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها فيجيء حسنا مثلها فياليت شعري أما وقف على هذا البيت المشار إليه لكن الهوى كما يقال أعمى وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية فاجتمع له العمى من جهتين وهذه اللفظة التي هي حالل وما يجري مجراها قبيحة الاستعمال وهي فك الإدغام في الفعل الثلاثي ونقله إلى اسم الفاعل وعلى هذا فلا يحسن أن يقال بلّ الثوب فهو بالل ولا سلّ السيف فهو سالل ولا أن يقال همّ بالأمر فهو هامم ولا حطّ الكتاب فهو حاطط ولا حنّ إلى كذا فهو حانن وهذا لو عرض على من لا ذوق له لأدركه وفهمه فكيف من له ذوق صحيح كأبي الطيب لكن لابد لكل جواد من كبوة وأنشد بعض الأدباء بيتا لدعبل وهو

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه * يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقلت له عجز هذا البيت حسن وأما صدره فقبيح لأنه سبكه قلقا نادرا وتلك الفاء التي في قوله شفيعك فاشكر كأنها ركبة البعير وهي في زيادتها كزيادة الكرش فقال لهذه الفاء في كتاب الله أشباه كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر فقلت له بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدركه العلم أولا وبالذوق ثانيا أما العلم فإن الفاء في وربك فكبر وثيابك فطهر هي الفاء العاطفة فإنها واردة بعد قم فأنذر وهي مثل قولك امش فأسرع وقل فأبلغ وليست الفاء التي في شفيعك فاشكر كهذه الفاء لأن تلك زائدة لا موضع لها ولو جاءت

رد على أبي العلاء المعري

في السورة

في السورة كما جاءت في قول دعبل وحاش لله من ذلك لا تسدّئ الكلام وقيل ربك فكبر وثيابك فطهر لكنها لما جاءت بعد قم فأنذر حسن ذكرها فيما يأتي بعدها من وربك فكبر وثيابك فطهر وأمّا الذوق فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دعبل ويستثقلها ولا يوجد ذلك في الفاء الواردة في السورة فلما سمع ما ذكرته أذعن بالتسليم ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراسخ في علم الفصاحة والبلاغة (ومن هذا القسم) وصل همزة القطع وهو محسوب من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور وكذلك قطع همزة الوصل لكن وصل همزة القطع أقبح لأنه أثقل على اللسان (فمما ورد من ذلك) قول أبي تمام

قرابى اللهفا والودّ حقّ كأنما ✱ أفاد الغنى من نائلي وفوائدي

فأصبح يلقاني الزمان من أجله ✱ بإعظام مولود ورأفة والد

فقوله من اجله وصل لهمزة القطع وعليه ورد قول أبي الطيب المتنبي

توسطه المفاوز كل يوم ✱ طلاب الطالبين لا الانتظار

فقوله لا الانتظار كلام نافر عن موضعه (ومن هذا القسم) أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحتري

حلفت لها بالله يوم التفرق ✱ وبالوجد من قلبي بها المتعلق

تقديره من قلبي المتعلق بها فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي هي المتعلق بالضمير الذي هو بها قبح ذلك ولو كان قال من قلب بها متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة (ومن هذا القسم أيضا) أن تزاد الألف واللام في اسم الفاعل ويقام الضمير فيه مقام المفعول كقول أبي تمام

فلو عاينتهم والزائريهم ✱ لما ميزت البعيد من الحميم

فقوله الزائري اسم فاعل وقوله هم الذي هو الضمير في موضع المفعول تقديره الزائرين أرضهم أو دارهم أو الزائرين اياهم فاستعمال هذا مع الألف واللام قبيح جدا وإذا حذفنا زال ذلك القبح وقد استعملها الشعراء المتقدمون كثيرا (ومما جاء من القسم الثاني) الذي يوجد في الألفاظ المتعددة قول أبي الطيب أيضا

لا خلق أكرم منك إلا عارف ✱ بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

قرأ ورش من أهل ذلك كثيرا وهذا كما علمت من باب النقل لا الوصل والبيت بعد همزة وصل لا قطع اه

فان هذا البيت ما عري عن مواضعه وأمثال هذا في الاشعار كثير

(المقالة الثانية في الصناعة المعنوية)

وهي تنقسم قسمين الاول منهما في الكلام على المعاني مجملا والثاني في الكلام عليها مفصلا وقبل الكلام على ذلك لابد من توطئة تكون شاملة لما نحن بصدد ذكره فيهما فأقول اعلم أن المعاني الخطابية قد حصرت أصولها وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان غير أن ذلك الحصر كلي لا جزئي ومحال أن تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها لا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوي البادي راعي الابل ما كان يؤتى من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال ان قال شعرا أو تكلم نثرا (فان قيل) ان ذلك البدوي كان له ذلك طبعا وخلقة والله فطره عليه كما فطر ضروب نوع الآدمي على فطر مختلفة في لهم في أصل الخلقة فانه فطر الترك على الاحسان في الرمي والاصابة وهم من غير تعليم وكذلك فطر أهل الصين على الاحسان في صنعة اليد فيما يباشرونه من مصنوع أو خشب أو فخار أو غير ذلك وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة وهذا لا نزاع فيه فانه مشاهد (فالجواب عن ذلك) أني أقول ان سلمت اليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضروا وسكنوا البلاد ولم يروا البادية ولا خلقوا بها وقد أجادوا في تأليف النظم والنثر وجاؤا بمعان كثيرة ما جاءت في شعر العرب ولا نطقوا بها (فان قلت) ان هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه (قلت لك في الجواب) هذا شئ لم يكن ولا علم أبو نواس شيأ منه ولا مسلم بن الوليد ولا أبو تمام ولا البحتري ولا أبو الطيب المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد والصابي وغيرهم فان ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك في الجواب هذا باطل بي أنا فاني لم أعلم شيأ مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ومع هذا فانظر الى كلامي فقد أوردت لك نبذة منه في هذا الكتاب واذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي وهي عدة مجلدات وعرفت أني لم أتعرض لشئ مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله وأنه لا يحتاج اليه أبدا وفي كتابي

هذا ما عندي فيه وهو كاف (ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا) وانساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا ثم مع هذا جميعه فإن مفعول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابي أنه يورد على مقدمتين ونتيجة وهذا ما لم يخطر لأبي علي بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع فإن له شيئا من ذلك في كلامه وعند ما صاغه في صوغ ما صاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ولو أنه فكر أولا في المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشيء ينتفع به ولطال الخطب عليه بل أقول شيئا آخر وهو أن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولا نتيجة وإنما هذه أوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر وهي كما يقال فقاقع ليس لها طائل كأنها شعر الأبيوردي * وحيث أوردت هذه المقدمة قبل الخوض في تقسيم المعاني فإني راجع إلى شرح ما أجملته وأقول (أما القسم الأول) فإن المعاني فيه على ضربين أحدهما ما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الأمور الطارئة ولنشر في هذا الموضع إلى نبذة لتكون مثالا للمتوشح لهذه الصناعة (فمن ذلك) ما ورد في شعر أبي تمام في وصف مصلوبين

بكروا وأسروا في متون ضوامر * قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم * أبدا على سفر من الأسفار

وهذا المعنى مما يتنبه عليه عند الحوادث المتجددة والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة (وكذلك) قال في هذه القصيدة في صفة من أحرق بالنار

ما زال سر الكفر بين ضلوعه * حتى اصطلى سر الزناد الواري
نارا يساور جسمه من حرها * لهب كما عصفرت شق إزار
طارت لها شعل يهدم لفحها * أركانه هدما بغير غبار

المعاني المبتدعة من غير أن يقتدى فيها بمن سبق

فصل منه كل مجمع مفصل * وفعلن فاقرة بكل فقار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك * ما كان يرفع ضوأها للسارى
صلى لها حيا وكان وقودها * ميتا ويدخلها مع الفجار

وهذا مما يعين على استخراج المعانى فيه شاهد الحال (وقد ذيل البحترى) على ما ذكره أبو تمام فى وصف المصلبين فقال

كم عزيز أباده فغدا يركب عودا مركبا فى عود
أسلمته الى الرقاد رجال * لم يكونوا عن وترهم برقود
تحسد الطير فيه ضبع البوادى * وهو فى غير حالة المحسود
غاب عن صحبه فلا هو موجود لديهم وليس بالمفقود
وكأن امتداد كفيه فوق الجذع فى محفل الردى المشهود
طائر مقدم تريد جناحيه استراحات متعب مكدود
أخطأ الناس راكبا فاد أرحل حاطت منه غير الملبد

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود الا أن فيها معنى مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد الانصارى وهو قوله

نصبته حيث ترتاب الرياح به * وتحسد الطير فيه أضبع البلد

لكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة وهى قوله وهو فى غير حالة المحسود (ومن هذا الضرب) ما جاء فى شعر أبى الطيب المتنبى فى وصفه الحمى وهو قوله

وزائرتى كأن بها حياء * فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا * فعافتها وباتت فى عظامى
كأن الصبح يطردها فتجرى * مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق * مراقبة المشوق المستهام

وقد شرح أبو الطيب بهذه الابيات حاله مع الحمى (ومن بديع ما أتى به فى هذا الموضع) أن سيف الدولة بن حمدان كان مخيما بأرض ديار بكر على مدينة ميافارقين فعصفت الريح بخيمته فتطير الناس لذلك وقالوا فيه أقوالا فمدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها * أينفع فى الخيمة العذل * فمنه ما أحسن فيه كل الاحسان وهو قوله

تضيق بشخصك أرجاؤها * ويركض فى الواحد الجحفل

وتقصر ما كنت في حومها * وتركب فيها القنا الذبل
وكيف تقوم على راحة * كأن البحار لها أنمل
فليت وقارك فرقته * وحملت أرضك ما تحمل
فصار الأنام به سادة * وسدتهم بالذي يفضل
رأت لون نورك في لونها * كلون الغزالة لا يغسل
وأن لها شرفاً باذخاً * وأن الخيام بها تخجل
فلا تنكرن لها صرعة * فمن فرح النفس ما يقتل
ولو بلغ الناس ما بلغت * لخانتهم حولك الأرجل
ولما أمرت بتطنيبها * أشيع بأنك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها * ولكن أشار بما تفعل
وعرف أنك من همه * وأنك في نصره ترفل
فما العاندون وما أثلوا * وما الحاسدون وما قولوا
هم يطلبون فمن أدركوا * وهم يكذبون فمن يقبل
وهم يتمنون ما يشتهون * ومن دونه جدك المقبل

وهذه الأبيات قد اشتملت على معان بديعة وكفى المتنبي فضلا أن يأتي بمثلها وهذا مقام يظهر في مثله براعة الناظم والناثر (وقرأت في كتاب الروضة) لأبي العباس المبرد وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبي نواس ثم بمن كان في زمانه واستصعب على دبله فبان فيما أورده من شعره وله معنى لم يسبق إليه بالإجماع وهو قوله

تدار علينا الراح في عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها * مها تدريها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها * وللماء ما دارت عليه القلانس

وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه إنه معنى مبتدع (ويحكى عن الجاحظ) أنه قال ما زال الشعراء يتناقلون المعاني قديما وحديثا إلا هذا المعنى فإن أبا نواس انفرد بابداعه وما أعلم أنا ما أقول لها ولا لي سوى أن أقول قد تجاوز بهم حد الاكبار ومن الأمثال السائرة بدون هذا يباع الحمار وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى فإنه لا كبير كلفة فيه لأن أبا نواس رأى

كأسامن الذهب ذات تصاوير حكاها فى شعره والذى عندى فى هذا أنه من المعانى المشاهدة فان هذه الخمر تحمل الماء يسيرا وكانت تستغرق صور هذا الكاس الى مكان حبوبها وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رؤسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر وكذلك ورد قوله فى الخمر أيضا

يا شقيق النفس من حكم * نمت عن ليلى ولم تنم
فاسقنى الخمر التى اختمرت * بخمار الشيب فى الرحم

وهذا معنى مخترع لم يسبق اليه وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصور (وبلغنى) أنه اختلف فى هذا المعنى بحضرة الرشيد هرون رحمه الله فقيل انه يريد بخمار الشيب فى الرحم أن الخمر تكون فى حواشيها ذات زبد أبيض على وجهها فقال الاصمعى ان أبانواس ألطف خاطرا من هذا وأسد غرضا فاسألوه فأحضر وسئل فقال ان الكرم أول ما يجرى فيه الماء يخرج شبيها بالقطنة وهى أصل العنقود فقال الاصمعى ألم أقل لكم ان الرجل ألطف خاطرا وأسد غرضا وقد جاء لابن حمديس الصقلى فى الهلال لآخر الشهر ما لم يأت به غيره وهو من الحسن واللطافة فى الغاية القصوى وذلك قوله

كأنما أدهم الظلماء حين عجا * من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر الا أنه أبدع فى التشبيه وأمثال هذا كثيرة فى أقوال المجيدين من الشعراء (وجملة الامر فى ذلك) أن الشاعر أو الكاتب ينظر الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعانى كما فعل النابغة فى مدح النعمان وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يوفدهم فلما وفدهم جعل عطاء ذلك الميت على قبره حتى جاء أهله وأخذوه فقال النابغة فى ذلك حباك فوق أحجاره * وما كان يحيى قبره واقد

وهذا بيت من جملة أبيات فانظر كيف فعل النابغة فى هذا المعنى (وكذلك) ورد قول أخت جساس زوجة كليب فانه لما قتل جساس كليبا اجتمع النساء اليها ونهضن تحدث بعضهن الى بعض وقلن هذه ليست بثاكلة وانما هى شامتة فان أخاها هو القاتل فنمى ذلك اليها فقالت

يا ابنة الاقوام ان شئت فلا * تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى * يوجب اللوم فلومى واعذلى

ان أحتال الامرئ ليت على * شفق منها عليه فافعلي
حل عندي فعل حساس فوا * حسرتا ءان عجلت أو تحلي
فعل حساس على وحدته * قاطع ظهري ومدن أجلي
لو بعيني فقئت عين سوى * أختها فانفقأت لم أحفل
ياقتيلا قوض الدهر به * سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته * وانثنى في هدم بيتي الاول
يشتفي المدرك بالثار وفي * دركي ثاري ثكل مثكلي
انى فاتلة مقتولة * ولعل الله أن يرتاح لى

وهذه الابيات لو نطق بها الفحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت فكيف امرأة وهي حزينة في شرح تلك الحال المشار اليها (واعلم) أنه قد يستخرج من المعنى الذي ليس بمبتدع معنى مبتدع (فمن ذلك) قول الشاعر المعروف بابن السراج في الفهد

تناهس الليل فيه والنهار معا * فقمصاه بجلباب من المقل

وليس هذا من المعاني الغريبة ولكنه تشبيه حسن واقع في موقعه وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن منير فاستخرج من هذا البيت معنى غريبا فقال

وفطنة حراكي بسالمها * على الما ايامعاح الرمل بالحدق

وهذا معنى غريب لم أسمع مثله في مقصده الذي قصده من أجله وقليلا ما يقع في هذا الكلام المنظوم والمنثور وهو موضع ينبغي أن توضع اليد عليه وينبه له وكذلك فليتمكن سياقه ما جرى هذا المجرى (وقد جاءني شيء من ذلك) في الكلام المنثور (فمن ذلك) ما ذكرته في وصف نساء حسان وهو أقبلت ربات الكناس في محضر الناس وقيل انما يخترن الحضرة من الالوان ليصح تشبيههن بالاغصان وهذا معنى غريب وربما يكون قد سبقت اليه الا أنه لم يلمعني بل ابتدعته ابتداعا (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن مبارلة بلد فذكرت القتال بالمنجنيق وهو فنزلنا عراه منه ومسمع واستدرنا به استدارة الخاتم بالاصبع ونصبت المنجنيقات فأنشأت سحابا صبغة القتاد مختصة بالرعا دون الوهاد فلم تزل تمد السور بوبل من جلودها وتفجؤه برعودها قبل بروقها وبروق السحب قبل رعودها حتى غادرت الحرب منه سهلا والعامر بلقعا

محلى وفى هذا معنيان غريبان أحدهما أن هذه السحب تخص الربا دون الوهاد والآخر أن رعودها قبل بروقها وكل ذلك يتفطن له بالمشاهدة (ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب فقلت اذا تعلق المرء بعلائق البأس والندى لم يخف عرضه دنسا كما أن الماء اذا بلغ قلتين لم يحمل خبثا وهذا المعنى مبتدع لى وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا (ومن ذلك) ماذكرته فى وصف مغارة فقلت مغارة لا توطأ بأجفان ساهر ولا تقتل باقتحام جائر ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت بقتال جائر (ومن ذلك) ماذكرته فى كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه وكان ذلك فى زمن الشتاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصورا فقلت وقد غادره قتال البروق قبل البوارق وأحاط به الثلج فصار خنادق تحول بينه وبين الخنادق والشتاء قد لقى عسكره من البرد بعسكره والسماء قد قابلته بأصغر وجهها لا بأخضره والارض كأنها قرصة النقى وعسى أن تكون أرض محشره والمعنى المخترع من هذا الكلام قولى والارض كأنها قرصة النقى وعسى أن تكون أرض محشره وهو مستخرج من الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم انكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقى يريد الخبزة البيضاء ولما كان الثلج على الارض مماثلا لذلك ومشابها له استنبطت أنا هذا المعنى المخترع منها كما تراه وهو من المعانى التى يدل عليها شاهد الحال (وأحسن من هذا كله) ماكتبته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة ببغداد فقلت ودولته هى الضاحكة وان كان نسبها الى العباس وهى خير دولة أخرجت للناس كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يحمل شعارها من لون الشباب الا لانها لا تهرم وأنها لا تزال محفوفة من أبكار السعادة بالحب الذى لا يسلى والوصل الذى لا يصرم وهذا معنى استنبطه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لم تخط به الاقلام فى خطها ولا أجالته الخواطر فى أفكارها وغرابة هذا المعنى ظاهرة ولم يأت بها أحد قبلى (ويلحق) من المعانى المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب المسجد الاقصى بالبيت المقدس وبنى الحجاج بابا الى جانبه فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذى بناه عبد الملك فتطير لذلك وشق عليه فبلغ ذلك الحجاج فكتب اليه كتابا بلغنى كذا وكذا فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه وما مثلى ومثله الا كابنى آدم

ادقرباقربانافتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر فلما وقف عبد الملك على كتابه سرى عنه وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم وهو من المعانى المناسبة لما ذكرت فيه ويكفى الحجاج من فطانته المفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك (وأما المعانى) التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة فانها أصعب منالا مما يستخرج بشاهد الحال ولامر ما كان لابكارها سر لا يهجم على مكامنه الاحسان الشهم ولا يفوز بمحاسنه الامن دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم وللهجوم على عذارى المعانى المحجبة تحجب الخواطر أيسر من الهجوم على عذارى المعانى المحجبة بحجب الخواطر وماذلك مما يلقيه اليك الاستاذ وليس يقوم به الا الفذ ولا أقول الافذاذ وأين الذى يمشى فيحسن فيها الانشاء ويبرزها صورا يركبها كيف يشاء ومن نظر الى هذا الموضع حق النظر وأخذ فيه بالعين دون الاثر علم أنه مقام يزلق بمعارف الاوهام فكيف بمواقف الاقدام وليست المعانى فيه الا كالارواح ولا الالفاظ الا كالاجسام فمن شاء أن يخلق حلقاس الكلام فليأت به على صورة الاناسى لا على صورة الانعام فان من القول العاية التى هى أحسن من العاية ومنه البهيمة التى لا تشبه الا بالسائبة (فما جاء فى هذا الباب) قول أبي نواس

شرابك فى السراب اذا عطشنا * وخبزك عند منقطع التراب
وما روحتنا لتذب عنا * ولكن خفت مرزئة الذباب

فالبيت الثانى من هذين البيتين هو المشار اليه بانه معنى مبتدع ويحكى عن الرشيد هرون رحمه الله أنه قال لم يهج بادولا حاضر بمثل هذا الهجاء (ومن هذا الباب) قول مسلم بن الوليد

تسال بالردى ماتعيا الرجال به * كالموت مستعجلا يأتى على مهل

(ومن هذا الباب) قول على بن جبلة

ذكره كل ساكن الدنيا جد * فقد أصبحت له الدنيا عيالا
كأن أباه آدم كان أوصى * اليه أن يعولهم فعالا

وهذا معنى دخل حوله الشعراء وفاز على بن جبلة بالافصاح عنه وقد قيل ان أباتمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت مايزيد على عشرين معنى وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك وماهذا من

مثل أبي تمام بكثير فاني أنا عددت معاني المبتدعة التي وردت في مكاتباتي فوجدتها أكثر من هذه العدة وهي مما لا أنازع فيه ولا أدافع عنه فاما ما ورد لابي تمام من ذلك قوله

يا أيها الملك النائي برؤيته * وجوده لمراعي جوده كثب

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا * ان السماء ترجى حين تحتجب

(وكذلك قوله) رأينا الجود فيك وما عرضنا * لسهل منه بعد ولا ذنوب

ولكن دارة القمر استتمت * فدل تماما على مطر قريب

(وكذلك) قوله في الهجاء

وأنت تدير قطب رحا عليا * ولم ير للرحا العلياء قطما

ترى قطرا بكل صراع قرن * اذا ما كنت أسفل منه جسما

(وكذلك قوله) واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود

(وكذلك قوله) لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

(وكذلك قوله)

لا تنكري عطل الكريم من الغنى * فالسيل حرب للمكان العالي

(وكذلك قوله في الشيب)

شعلة في المفارق استودعتني * في صميم الفؤاد ثكلا صميما

يستثير الهموم ما اكتن منها * صعدا وهي تستثير الهموما

فالبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تمثله فيه جعله مثله من مسائل الدو وهذا من اعراب أبي تمام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فانا نستقصيها هنا (ومن هذا الباب) قول ابن الرومي

كل امرئ مدح امرأ لنواله * وأطال فيه فقد أساء هجاه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى * عند الورود لما أطال رشاه

(وكذلك قوله)

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب

فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

وكذلك

(وكذلك قوله) لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانه * لأوسع مما كان فيه وأرغد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه * بما هو لاق من أذاها يهدد
(وكذلك قوله) رددت على مدحى بعد مطل * وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيرى * ومن ذا يقبل المدح الرديدا
وهل للحى فى أكفان ميت * لبوس بعدما امتلأت صديدا
(وقد ورد لابى الطيب المتنبى) من ذلك كقوله
أجزنى اذا أنشدت مدحا فانما * بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت بعد صوتى فانى * أنا الصائح المحكى والآخر الصدى
فالبيت الاول قد توارد على معناه الشعراء قديما وحديثا لكن البيت الثانى
فى التمثيل الذى مثله ليس لاحد الا له وكذلك قوله
تجر سيوفك أغمادها * تمنى الطلى أن يكون الغمودا
الى الهام تصدر عن مثله * ترى صدرا عن ورود ورودا
(وكذلك قوله) فى بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض
قصدت من شرقها ومغربها * حتى اشتكتك الركاب والسبل
لم تبق الا قليل عافية * قد وفدت تجتديكها العلل
(وقد وقفت) على ماشاء الله من أشعار الفحول من الشعراء قديما وحديثا فلم أجد
لاحد منهم فى ذكر المرض ما يعتد معنى مخترعا الا انى لم أجد من أقوالهم شيأ مرضيا
ماعدا المتنبى فانه ذكر المرض فى عدة مواضع من شعره وأجاد وهذا البيت الثانى
من هذين البيتين معنى مخترع له وقد أحسن فيه كل الاحسان (ومما ابتدعه)
باجماع قوله فى مدح عضد الدولة فى قصيدته النونية التى مطلعها
مغانى الشعب طيبا فى المغانى * فقال عند ذكره
فعاشا عيشة القمرين يحيا * بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الاعادى * ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه * له يائى حروف أنيسيان
أى جعل الله ابنى عدو كاثراه يعنى ابنى عضد الدولة كيائى حروف تصغير انسان
فان ذلك زيادة وهو نقص فى المقدار الا أن سلك هذا البيت قد شوهه وأذهب

تلاوة المعنى المدرج تحته (ومن معايبه) المبتدعة قوله

فإن تفق الأنام وأنت منهم * فإن المسك بعض دم الغزال

وأحسن من ذلك قوله

صدمتهم بخميس أنت غرته * وسمهريته في وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم * يسقطن حولك والأرواح تنهزم

وهذا من أعاجيب أبي الطيب التي برز بها على الشعراء (ومن الاحسان) في هذا الباب قول بعضهم

وقد أشق الحجاب الصعب ماديه * دوني وآبى ولو جابيته أن طرقا

كالطيف يأبى دخول الحصن ممتنعا * وليس يدخله الا اذا انطبقا

(ورأيت ابن حمدون) البغدادي صاحب كتاب التذكرة قد أوردها تين البيتين في كتابه وقال قد أغرب هذا الشاعر ولكنه غلط وجرى على عادة الشعراء لأن الطيف لا يدخل الحصن وإنما يخيل الى النفس وهذا كلام من لم يطلع من شعره الفصاحة والبلاغة وليس مثله الا كما يحكى عن ملك الروم اذ أنشد عنده بيت المتنبي الذي هو

كأن العيس كانت فوق جفني * مناخات فلما ثرن سالا

فسأل عن المعنى ففسر له فقال ما سمعت بأكذب من هذا الشاعر أرأيت من أباح الجمل على عينه لا يهلكه (ومن محاسن هذا القسم) قول بعضهم

تخيره الله من آدم * فما زال مجدا يرتقي

(وكذلك قول الآخر)

بأبي غزال غازلته مقلتي * بين العذيب وبين شطي بارق

عاطيته والليل يسحب ذيله * صهباء كالمسك الفتيق لناشق

وضممته ضم الكمي لسيفه * وذؤابتاه حمائل في عاتقي

حتى اذا مالت به سنة الكرى * زحزحته شيأ وكان معانقي

أبعدته عن أضلع تشتاقه * كي لا ينام على وساد خافق

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الاقصى ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصا والبيت الاخير منه هو الموصوف بالابداع وبه وبأمثاله أقرت الابصار بفضل الاسماع (ومن هذا الضرب) قول بعض المصريين بنحو

انشد نابقال لما ان طلل احترقت داره

انظر الى الايام كيف تسوقنا * طوعا الى الاقرار بالأقدار
ماأوقد ابن طليل قط بداره * نارا وكان هلاكها بالنار

(وكذلك) ورد قول ابن قلاقس من شعراء مصر

رد رحمة ان قيل أشعص وانخمص ان قيل أثرى
كالغصن يدنو ما اكتسى * ثمرا وينأى ما تعرى

وهذا من المعانى الدقيقة (ومن هذا الاسلوب) قول الشاعر المعروف بالحائط فى تشبيه النهار وهو

عيون تبركاً عاسرقت * سواد أحداقها من الغسق
فان دحا ليلها بظلمته * صعمن من خوفها على السرق

وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله وهو من اللطافة على مالا خفاء به (ومن هذا القسم) قول بعض المتأخرين من أهل زماننا

لاتضع من عظيم قدر وان كنت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف العظيم ينقص قدرا * بالتعدى على الشريف العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمر بتنجيسها وبالتحريم

(ومن غريب ما سمعته فى هذا الباب) قول بعض الشعراء المغاربة يرثى قتيلا

غدرت به زرق الاسنة بعدما * قد كن طوع يمينه وشماله
فليجدر البدر المنير بحومه * اذ بان غدر هلالها بمثاله

(وكذلك) جاء قول بعض المغاربة فى الخمر وكاساتها

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا * حتى اذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت * وكذا الجسوم تخف بالارواح

وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرا ويروق كما رقت لطفا ويفوح كما فاحت نشرا (وكذلك) ورد قول ابن حمديس الصقلى

يا سالبا قمر السماء جماله * ألبستنى للعرى ثوب سمائه
أضرمت قلبى فارتمى بشرارة * وقعت بخدك فانطفت من مائه

وهذا المعنى دقيق جدا (وقد سمعت فى الحال) ماشاء الله أن أسمع ولم أجد مثل هذا وقد جاءنى فى الكلام المنثور من هذا الضرب شئ وسأذكر ههنا منه نبذة

(فمن ذلك) ما ذكرته في وصف صورة مليحة فقلت ألبس من الحسن أنضر لباس
وخلق من طينة غير طينة الناس وكلما ازداد حسنا فكذلك ازداد ظمأ واتفقت
فيه الأهواء حتى صار إلى كل قلب حبيبا ولو صافح الورد لتعطرت أوراقه أو مر
على النيلوفر ليلا لتفتحت أحداقه (والمعنى) الغريب ههنا أن الشمس إذا طلعت
على النيلوفر تفتح أوراقه وإذا غربت عنه انضم ثم إني سمعت هذا في شعر الفرس
لبعض شعرائهم فحصل عندي منه تعجب (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم الشيب فقلت
الشيب إعدام للأبصار وظلام للأنوار وهو الموت الأول الذي يصلى نارا من الهم
أشد وقودا من النار ولئن قال قوم إنه جلالة فإنهم دقوا به وما جلوا وأفتوا في
وصفه بغير علم فضلوا وأضلوا وما أراه إلا عمرانا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار
قوم إلا ذلوا ومن عجيب شأنه أنه المملول الذي يشفق من بعده والخلق الذي يكره
نزع برده ولما فقد الشباب كان منه عوضا ولا عوض منه في فقده (والمعنى)
المخترع ههنا في قولي وما أراه إلا عمرانا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا
وهو مستنبط من الحديث النبوي وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى آلة
حرث فقال ما دخلت هذه دار قوم إلا ذلوا فأخذت أنا هذا ونقلته إلى الشيب
فجاء كما تراه في أعلى درجات الحسن وذلك لما بينه وبين الشيب من المناسبة الشبيهة
لأن الشيب يفعل في البدن ما يفعله الحراث في الأرض وإذا نزل بالإنسان أحدث
عنده ذلا (ومن هذا الباب) ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الناس أعتب به
فقلت وإذا كتبت مثالبه في كتاب اجتمع عليه بنات وردان وحرم علي أن أبدأ
فيه بالبسملة لإبهام القرآن وهذا معنى لطيف في غاية اللطافة وهو مخترع لي
(وكذلك) كتبت إلى بعض الناس كتابا من هذا الجنس أهزل معه فقلت في فصل منه
ما أذكره وهو ينبغي له أن يشكرني على ومنه هجائي دون امتداحي فإني لم أسمه
إلا لتحرم به الأضحية في يوم الأضاحي ولا شك أن سيدنا معدود في جملة الأنعام
غير أنه من ذوات القرون والقرن عدوه عند الخصام وهذا معنى ابتدعته ابتداعا
ولم أسمعه لأحد من قبلي (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن هزيمة الكفار
وذلك فصل منه فقلت وكانت الوقعة يوم الأحد منتصف شهر كذا وكذا وهذا هو
اليوم الذي تعظمه الكفار من أيام الأسبوع ويسمونه موسم الشرع كفرهم المشروع
فحصل ارتباطهم به إذ نصر الإسلام مزيدا وقالوا هذا يوم قد أسلم ولا نجعله لنا

عبدا وقد أفصح لهم لسانه لو كانوا يعلمون بأن الدين عند الله هو الاسلام
وأن أولياءه هم المسلمون وهذا معنى انفردت بابتداعه ولم يأت به أحد من
تقدمني (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى ديوان الخلافة ببغداد وهو
في وصف القلم فقلت وقلم الديوان العزيز هو الذي يخفض ويرفع ويعطي ويمنع
وهو المطاع لجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الامر بطاعة الحبشي الاجدع
ومن أحسن صفاته أن شعاره من شعار مولاه فهو يخلع على عبيده من الكرامة
ما يخلع في هذه الاوصاف معان حسنة لطيفة ومنها معنى غريب لم أسبق اليه
وهو قولي انه المطاع لجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الامر بطاعة الحبشي
الاجدع فان هذا مما ابتكرته وهو مستخرج من الحديث النبوي في ذكر
الطاعة والجماعة فقال صلى الله عليه وسلم أطع ولو عبدا حبشيا مجدعا ما أقام
عليك كتاب الله فاستخرجت أنا للقلم معنى من ذلك وهو أن القلم يجدع ويقط
لباس السواد فصار حبشيا أجدع وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس
الطائي في قصيدته السينية فانه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم وأنا
استخرجت المعنى من الخبر النبوي كما أريتك وهذا المعنى المشار اليه في وصف
القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه آخر ونبهت عليه في كتاب الوشي المرقوم
في حل المنظوم وهذا كتاب ألفته في صناعة حل الشعر وغيره (وبعد هذا)
فاني أقول لك في هذا الموضع قولا لم يقله أحد غيري وهو أن المعاني المبتدعة
شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة فكما أنك اذا وردت عليك
مسئلة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهرا لبطن وتنظر الى أوائلها وأواخرها
وتعتبر أطرافها وأوساطها وعند ذلك تخرج بك الفكرة الى معلوم فكذلك
اذا ورد عليك معنى من المعاني ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات
الحسابية الا أن هذا لا يقع في كل معنى فان أكثر المعاني قد طرق وسبق اليه
والابتداع انما يقع في معنى غريب لم يطرق ولا يكون ذلك الا في أمر غريب لم يأت
مثله وحينئذ اذا كتب فيه كتاب أو نظم فيه شعر فان الكاتب والشاعر يقتدران
على مظنة الابتداع فيه وقد لابست ذلك في مواضع كثيرة وسأوردها ما يحذو
حذوه لمن استطاع اليه سبيلا (ومن ذلك) ما كتبته عن نفسي الى بعض ملوك
الشام وأهديت اليه رطبا وهو خلد الله دولة مولانا وعمرها مجدا واحسانا

وحولها السعادة عطاء حسابا وأسأل الليالى لخدمتها عربا أترابا وأبقى شبيبتها بقاء لا يستحدث معه حصابا ولا جعل لها فى محاسن الدول السابقة أشباها ولا أضرابا وألقى البأس بين أعدائها وحسادها حتى بعث لهم فى الارض غرابا اذا أراد العبيد أن يهدوا الموالبهم قصرت بهم يد وجدهم وعلموا أن كل ما عندهم من عندهم لكن فى الاشياء المستطرفة ما يهدى وان كان قدره خفيفا ولولا اختلاف البلاد فيما يوجد بها لما كان شئ من الاشياء طريفا وقد أهدى المملوك من الرطب ما يتحلى فى صفة الوارس ويرهى بحسنه حتى كأنه لم يدنس بدلامس وما سمى رطبا الا لاشتقاقه من الرطب الذى هو ضد اليابس وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ثناء جما وفضل شجرته على الشجر بأن سماها أما ولئن عدم عرفا لديدا فانه لم يعدم مفطرا لديدا ولا طعما وله أوصاف أخرى هى لفضله عزلة الشهود فمنها أنه أول غذاء يفطر عليه الصائم وأول غذاء يدخل بطن المولود وأحسن من ذلك أنه معدود من الحلوا وان كان من ذوات الغراس ولا فرق بينهما سوى أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس واذا أنصف واصفه قال ما من ثمرة الا وهى عنه قاصرة ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لفاخرت أرض العراق به فاخرة وها قد سار الى باب مولانا وهو مجنى الثمار سار الى مجنى الكرم وملك الفاكهة وفد على ملك الشيم ولما استقلت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أربا ومامنها الا من قال يا ليتنى كنت رطبا ولئن كان من الثمرات التى تختلف فى الصور والاسماء ويفضل بعضها على بعض ويسقى بشرب واحد من الماء فكذلك تلك الشيم العريقة تجد فى عنصرها وهى مختلفة الوتيرة ومن أفضلها سمة السماح التى تمثل القليل من عبيدها وتسمح لهم بالعطايا الكثيرة وقد ضرب لها المملوك مثالا فقال هى كجنة بربوة بل ضرب لها ما ضرب للمثل السوى وهى نخلة بكبوة ولا يختم كتابه بأحسن من هذا القول الذى طاب سمعا ورق أصلا وفرعا وتصرف فى أساليب البلاغة عجائبه وتراوشعا والسلام (وهذا كتاب غريب) فى معناه وقد اشتمل على معان كثيرة فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذى هو ضد اليابس ومن جملتها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى النخلة أما فقال أكرموا النخلة ومن جملتها أنه كان صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات فان لم يجد فتمرات ومن جملتها أنه كان يلوك التمرة ويحنك بها المولود عند ميلاده ولما ولد عبد الله بن

الزبير جاءت به أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه ووضعته في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاك تمرة ووضعها في فيه ومن جملتها أنه والملوا شيء واحد الا أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس ومن جملتها أن العباس رضي الله عنه قال يا رسول الله ان قريشا تذاكرت أحسابها فصيروا لك مثلا نخلة بكبوة وكل هذه المعاني حسنة واردة في موضعها ومن كتب في معنى من المعاني فليكتبه هكذا أو فليدع (ومن ذلك) رقعة كتبتها الى بعض أصحاب السلطان في حاجة عرضت لي وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم وهي

ما من صديق وان صحت صداقته * يوما بأنجح في الحاجات من طبق
اذا تلثم بالمنديل منطلقا * لم يخش نبوة بواب ولا غلق

الهدية مشتقة من الهدى غير أنها تزف الى القلب لا الى اليد وصهارتها أنفع من الصهارة وكلما ترددت كانت بكرا فهي لا تنفك عن البكارة ومن خصائصها أنها تمسك بمعروف أمن من السراح واذا رامت فتح باب لا تفتقر في علاجه الى مفتاح وقد قيل انها الحسناء المأنقة في عمارة بيتها التي توصف بأن القنديل يضيء من زينتها وقد أرسلتها الى المولى وهي تتهادى في أعطافها وتدل بكثرة دراهمها وثيابها وتقول أنا الكريمة في قومها الشريفة في أنسابها وأحسن ما فيها أنها جاءت سرا لم تعلم بها اليد اليمنى من اليسرى فخذها يا مولاي واكشف نقابها وأمط عنها جلبابها وقد كانت مدخرة وهي الان في حيز الملكة ومن السنة في مثلها أن تؤخذ بالناصية ويدعى بالبركة والسائر بها فلان وهو في الجهل بها حامل أسفار وناقل لها من دار الى دار ولو عاد نطق لسان حالها الذي هو أفصح من نطق اللسان وأذكرت بحاجة مرسلها وحاشى فطانة الكريم من النسيان وليس المطلوب الا فضلة من الجاه تسفر بين السائل والمسؤول وتنقل البعيد الى درجة القريب والممنوع الى درجة المبذول فاذا فعل المولى ذلك كان له منة السفارة ومنة الانعام وان جمع بأن سعيا واحدا فاز بشكرين اثنين في مثل هذا المقام ومن الناس من يقول ليس على جانب السلطان تقل في صنعه وهل هي الا كلمات تقال والكلام ماعون لا رخصة في منعه ولم يدر أن ملاطفة الخطاب ضرب من الاحتيال وأن ثقل الخطوات فيه أثقل من حمل الجبال وأن صاحب الحاجة يحظى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى

حرارة السؤال وهذا بقوله الخادم ايجابا بالاحسان المولى الذى هو احسان شامل ولا يعلمه الا عالم بفضله ولا يجهله الا جاهل والله تعالى يجعل الحاجات معدوقة ببابه حتى لا تنفك فى الدنيا من امداد شكره وفى الآخرة من امداد ثوابه والسلام فتأمل أيها الناظر فى كتابى هذا الى ما اشتملت عليه هذه الرقعة من المعانى حتى تعلم كيف تصنع بذلك فيما تكتبه (ومن ذلك) رقعة أخرى كتبتها فى هذا المعنى المتقدم ذكره وأرسلت معها هدية من المسك وهى الهدية رسول يخاطب عن مرسله بغير لسان ويدخل على القلوب من غير استئذان وقد قيل أحب السحر فى ملاطفة قصدها غير أنها لا تحتاج الى نفثها ولا الى عقدها ومامن قلب الا وصورتها تجلى عليه فى سرقة ولولا شرف مكانها لما حلت للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة ولها صفات غير هذه كريمة الاخطار حسنة لدى الاسماع والابصار ومن أحسنها أنها تحذوذا وتجعل قربا مكان بعدا وتقول لنار الاحنة يا نار كونى بردا ولهذا قيل تهادوا تحابوا ولا شك أنها وصلة بين المودات فاذا تواصل الناس تقاربوا وقد أرسل الخادم منها شيأ اذا كتمه داع واذا حربه صاع وقد شبه به الجليس الصالح بعدد أسباب الانتفاع وبما راد مرتبة على مرتبة أنه وشيم المولى توأمان غير أن شيمته تنتمى الى كرم محتدها وهو ينتمى الى سرر الغزلان فاذا ورد على مجلسه قيل هذا عطر ورد على حوبة عطار وعرف له حق المشاركة فان أدنى الشرك فى الشيم جوار وقد نطق الخبر السوى بانه أحد الثلاثة التى لا ترد على من أهداها واذا نظر الى محصول بقائها وفائدتها وجد أطولها عمرا وأحداها وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم فى ارساله واذا سأل غيره فى قبول هدية كفاه ص الحرمونة سؤاله والسلام وهذه الرقعة أحسن من التى قبلها (فما اشتملت عليه من المعانى) قولى ومامن قلب الا وصورتها تجلى عليه فى سرقة ولولا شرف مكانها لما حلت للنبى صلى الله عليه وسلم مع تحريم الصدقة وهذان المعنيان مستخرجان من خبرين نبويين أحدهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال جاءنى جبريل عليه السلام ومعه سرقة من حرير يعنى حريرة بيضاء وفيها صورة عائشة رضى الله تعالى عنها وقال هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة والخبر الآخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حرمت على الصدقة وأحلت لى الهدية (ومما اشتملت عليه أيضا) قولى وقد أرسل الخادم منها

شيأ اذا كتمه داع واذا حرته صاع وهذه مغالطة حسنة لان المسك اذا كتم ذاعت رائحته واذا حرك صاع أى فاح ويقال صاع الشئ اذا ذهب فالمغالطة ههنا فى الجمع بين الضدين (وكذلك) قولى وقد شبهته بالجليس الصالح وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضا وذلك أنه قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح مثل حامل المسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد منه عرفا طيبا ومثل جليس السوء مثل نافخ الكير اما أن يحرق ثوبك واما أن تجد منه رائحة كريهة (ومما اشتملت عليه) من المعانى أيضا قولى انه أحد الثلاثة التى لا ترد على من اهداها وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضا وهو قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد الطيب والريحان والدهن (ومن ذلك) رقعة كتبها بعض أصدقائى املاء على وهى رقعة من عاشق الى معشوق وهى

واذا قيل من تحب تحطا * لسانى وأنت فى القلب ذا كا

يامن لا أسميه ولا أكنيه وأذكر غيره وهو الذى أعنيه لا تكن ممن أوتى ملكا فلم ينظر فى زواله وعرف مكانه من القلوب فجار فى ادلاله ولا تغتر بقول من رأى الحسن للاساءة ماحيا واعلم أن اللاحى يقول كفى بالتدلل لاحيا وكثيرا ما يزول العشق بحمايات الصدود والزيادة فى الحد نقصان فى المحدود وقد قيل ان الحسن عليه زكاة كزكاة المال وليست زكاته عند علماء المحبة الا عمارة عن الوصال وهذه صدقة تقسم على أربابها ولا ينتظر أن يحول الحول فى ايجابها وهى مستمرة على تجدد الايام والمستحقون لها قسم واحد ولا يقال انهم ثمانية أقسام وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب ورقبة العشق أشد أسرا من رقبة تحرز بالكتاب فأخرج يا مولاى من هذا الحق الواجب والافتات لطالب منى ومطالب ولا تقل هذا غريم أكثر عدد الليالى فى مطله وأعده والمواعيد زاد لمثله فهذه سلعة قد عاملتنى بها مرة ساحرا ومرة ساخرا ومن الاقوال السائرة أن العز تجعله التجربة ماهرا ولعمرى ان ممارسة الحب تجدد لصاحبه علما وتبصره وان كان كما يقال أعمى وقد كذب القائل

عرضن للذى تحب بحب * ثم دعه يروضه ابليس

فان كانت الرياضة كما قيل لابليس فما أراه صنعا فى الذى صنع وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنت جذع ولا شك أنك تهدم ما يشيده من

الثناء أو أنك مستثنى في جملة من دخل في حكم الاستثناء وأنا الآن له عاتب وعليه عاتب فأين نفثاته التي هي أخدع من الحبائل وأين قوله لأتينهم عن الايمان والشمائل وأين جنوده المسترقة ما في السما التي تجري من بني آدم مجرى الدما وكل هذا قد بطل عندي خبره كما بطل عندي أثره فإن أدركته النخوة بأني أستهزئ بتصديق أفعاله فليحتل معقول حاجتي هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عقاله والا فليحك راسه وليمح وسواسه وان كان له عرش على البحر فليقوض من عرشه وليعلم أن السحر ليس في عقده ونفثه ولكنه في الاصفر ونقشه وها أنا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولا والود ممدولا وما أقول الا اني بعثت معشوقا الى معشوق وكلاهما محله القلب بل القلب من جملة مخلوق وما أكرمه وهو وسيلة الى مثله وحسبه من حسبه وان لم يكن شكله من شكله وما وصفه واصف الا كان ما رآه منه فوق ما رواه ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم يرد ذو وجهين وجيها سواه لا جرم أنه اذا أسفر في أمر تلطف في فتح أبوابه وتناول وعره فبدله بسهله وبعده فبدله باقترابه ولو بعثت غيره لخفت أن لا يكون في سفارته صادقا أو أنه كان يمضي سفيرا ويعود عاشقا فليس على الحسن أمانة ومن مثله تعذر الخيانة ولا لوم على العقول اذا نسيت هنالك عزيمة رشدها ورأت ما لا يحتمله كاهل جهدها ومن الذي يقوى درعه على تلك السهام أو يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام وهذا الذي منعني أن أرسل الا كيسا وكانا فأحدهما يكون في السفارة والآخر على السر حجابا والسلام ان شاء الله تعالى (وفي هذه الرقعة) من المعاني الغريبة ما أذكره فالاول ما ذكرته في قسم الصدقات وفك الرقاب والثاني ما ذكرته في وصف الدينار وهو أنه وجيه ذو وجهين وقال النبي صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون وجيها وهذا معنى لم يسبقني أحد اليه وقد وصف الحريري الدينار في مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا المعنى ولا جاء من الاوصاف التي ذكرها عنه والثالث أني بعثت معشوقا الى معشوق (ومن ذلك ما كتبته) وكان توفيت زوجة بعض الملوك وتوفي معها ولد لها وهو طفل صغير وكان بينهما يومان وتلك المرأة بنت ملك من الملوك أيضا فكتب اليه من الاطراف المجاورة يعزونه وحضر عندي بعض الادباء ممن يحب أن يكون كاتبا وعرض علي نسخة ما كتب به ذلك الملك في التعزية بزوجته وولدها

ووجدتها

فوجدتها كتبا باردة غثة لا تعرب عن الحادثة ولا تبين عنها وبينها بعد المشرقين ومن شرط الكتابة أن يكون الكتاب مضمنا خاص المعنى المقصود والتعازي مختلفة الأنحاء فتعازي النساء غير تعازي الرجال وهي من مستصعبات فن الكتابة والشعر وتعازي الرجال أيضا تختلف فلا يعزى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق وهكذا يجري الحكم في المعاني جميعها وهذا شيء لا يتنبه له إلا الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم وسألني ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار إليها في المرأة وولدها الصغير وقال أحب أن أعلم كيف تكون فأمليت عليه ثلاثة كتب كل كتاب يتضمن معنى لا يتضمنه الكتاب الآخر (فمما جاء منها) كتاب أنا أذكره ههنا وهو أشجى التعازي ما أتبع فيه المفقود بمفقود لا سيما إذا جمع بين سعد الأخبية وسعد السعود وكل منهما يعظم قربا كما يعظم مكانا وهذا يحسر عن الوجوه خمرا وهذا يلقي عن الرؤوس تيجانا ولم يؤتهما حقهما من بكى ولا من ندب ولا من شعر ولا من كتب وليت فدى أحدهما بصاحبه وعاش دونهما المفدى بالذهب

ولو كان خطبا واحدا لاحتملته * ولكنه خطب أعيد على خطب

وقد أصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه أن يخرج في ثوب من الحداد وأن يغرق أذيال كلمه والكتاب عنوان الفؤاد وغاية ما يقول أحسن الله عزاء المجلس السامي الملكي الأجلي السيدي على أن هذا الدعاء قد شهدت الحال بحجمه وكيف يملك قلمه عزاء وقد أوثقه الهم في سجنه وصار له ولدا دون ولده وجدا دون جده لكن يدعى له بامتداد البقاء وأن تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الإبقاء ثم يشفع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور وجعلته في بطون القبور ولمن فاجأته الأيام غضة فقصفته ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته فواها لهما وقد نزلا بمنزل عديم الإيناس وإن كان مأهولا بأكثر الناس فهو القريب دارا البعيد مزارا الذي يحجب من اليأس بأمنع حجاب ويذهب عن الوجوه المنعمة لذل التراب فمن كان معدا للقياس فليأخذ بقوله الجزع لا بعزيمة الاصطبار وليقل هذا حادث بان فيه تخاذل الأقدار وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الأبصار فالأسوة الآتية معدودة من الإحسان والسلوة الآتية داخلة في حيز الإمكان والخادم أولى من لقي المجلس فيه بالإسعاد وقام

يجب من قضاء حق الوداد وفعل ما يفعله القريب الحاضر وان كان على شقة من البعاد وقد أرسل من ينوب عنه فى التعزية وان لم يكف فيها المناب وكما رخص العذر فى قصر الصلاة فكذلك رخص فى الاقتصار على الرسول والكتاب وقد ود لو حضر بنفسه فاستسقى لذلك الضريح سحابا وعقر عنده ركابا وسأل الله له مغفرة وثوابا والسلام (فى هذا الكتاب معنى غريب) وهو قولى سعد الاخبية كناية عن المرأة وسعد السعود كناية عن ولدها لان سعد الاخبية اسم منزلة من منازل القمر والاخبية جمع خباء ومن شأن المرأة أن تحتجب فى الاخبية فهى سعدها وهذا من المعانى الغريبة فى مثل هذا المقصد وقد اتفق سعد الاخبية وسعد السعود معا وهذا أيضا غريب (ومن ذلك) أنى كتبت كتابا عن الملك الافضل على بن يوسف الى أخيه الملك الظاهر غازى بن يوسف صاحب حلب فى أمر شخص كان أبوه صاحب مدينة تكريت وهذه تكريت كان يتولاها قديما الامير أيوب جد الملك الافضل والملك الظاهر وولد بها ولده صلاح الدين يوسف أباهما وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لامر طرأ لهم وجاء الى الموصل ثم الى الشام وبها سعدوا وكانت السعادة على يد صلاح الدين يوسف فلما أردت أن أكتب هذا الكتاب علمت أنه مظنة المعانى المبتدعة لان الامر المكتوب فيه غريب لم يقع مثله فحينئذ كتبت هذا الكتاب وهو رفع الله شأن مولانا الملك الظاهر ولا زال الدهر فاخرا بآثر سلطانه ناظما مناقبه فى جيده ومحامده فى لسانه ناسخا بمساعى دولته ما تقدم من مساعى آل بويه وآل حمدان كتاب الخادم هذا وارد من يد الامير شمس الدين ابن صاحب تكريت وهى أول أرض مس جلد الوالد ترابها ورقم بها السعادة على جبينه كتابها ومنها ظهر نور البيت الايوبى مشرقا وأشام فدرج معرقا وكفاه بذلك وسيلة يكرمها الاحسان والارعاء ويكفى صاحبها أن يقول لا أسقى حتى يصدر الرعاء وقد قرنها بوسيلة قصد الخدمة التى توجب لقاصدها ذماما وتقول له سلاما اذا قال سلاما ثم ثلث هاتين الوسيلتين بكتاب الخادم آخذا بالسنة النبوية فى الدعاء وعدده وتفاؤلا بتثليث النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده ولا قدح فى كرم الكريم اذا استكثر طالبه من الاسباب فان الله على كرمه قد استكثر اليه من أعمال الثواب وكتاب الخادم على انفراده كاف لحامله ومكثر من حقوق وسائله وقد صدر مخاطبا عن

تحوى ضميره فاعا تحق السفارة اذا فعد بكل طالب سعى سعيه وهو مع ذلك حقيقة صفته وسيرة محبته واذا وجد لذى مولانا معولا فليس عليه أن يرد مطولا اذ التعويل على نجح مصدره لا على كثرة أسطره (فانظر) أيها المتأمل الى هذا الكتاب وأعطه حقه من التأمل حتى ترى ما اشتمل عليه من المعانى وانظر كيف ذكرت الاول ثم الثانى ثم الثالث أما المعنى الاول فانه يختص بذكر سعادة البيت الايوبى ومنشئها وأنها ولدت بتكريت وهذا الرجل يدعى أن يرعى نسبها اذ كان أبوه صاحبها وأما المعنى الثانى فانه قصد الخدمة الظاهرية وهذا وسيلة ثانية توجب له ذماما وأما المعنى الثالث فانه حرمة الكتاب الصادر على يده ثم انى مثلت ذلك بالدعاء النبوى وتثليث النجوم فان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دعا دعا ثلاثا وانما مثلت ذلك بالدعاء لامرين أحدهما أنه موضع سؤال وضراعة والآخر أن الكتاب وسيلة ثالثة والدعاء ثلاث مرار وأما تثليث النجوم فان التثليث سعد والتربيع نحس وأحسن المعانى الثلاثة التى تضمنها هذا الكتاب هو الاول والثالث وأما الثانى فانه متداول فتأمل ما أشرت اليه واذا شئت أن تكتب كتابا فافعل كما فعلت فى هذا الكتاب ان كان الامر الذى تكتب فيه غريب الوقوع (واعلم) أنه قد يقع المعنى المبتدع فى غير أمر غريب الوقوع وذلك يكون قليلا بالنسبة الى الوقائع الغريبة التى هى مظنة المعانى المبتدعة (ومن هذا الباب) ما أوردته فى حلة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحامليها وهو فاذا تناولوها فى أيديهم قيل أهلة طالعة من أكف أقمار واذا مثل ء اؤها اوهم قيل منايا مسوقة بأيدى أقدار وتلك قسى وضعت للعب لا للنضال ولردى الاطيار لا لردى الرجال واذا نعتها ناعت قال انها جمعت بين وصفى اللين والصلابة وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة فهى مركبة من حيوان ونبات مؤلفة منهما على بعد الشتات فهذا من سكان البحر وسواحله وهذا من سكان البر ومجاهله ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش الا حين تشد ولا تنطلق فى شأنها الا حين تعطف وترد ولها نشار أحكم تصويرها وصحح تدويرها فهى فى لونها صندلية الاهاب وكانما صيغت لقوتها من حجر لا من تراب فاذا قدمتها الى الاطيار قيل ويصعد من الارض من جبال فيها من برد ولا يرى حينئذ الا القتيل ولكن بالمثقل الذى

لا عجب في مثله قود فهي كاوله من تلك الاطيار بقصص نفوسها منزلة لها من جو السماء على أم رؤسها (هذا الفصل) يشتمل على معان غريبة فمنها قولي انها لا تتمكن من العطش الا حين تشتد ولا تنطلق في شأنها الا حين تعطف وترتد ومنها قولي ويصعد من الارض من حال فيها من رد وكل هذا من المعاني التي تبتدع بالنظر الى المقصد المكتوب به فان الكاتب اذا أفكر فيما اليه وتأمله وكان قادرا على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه الا أن القادر على ذلك من أقدره الله عليه فما كل خاطر بحكيم ولا كل من أوحي اليه بكليم وفي الاقلام هاشم لمن ماواه وفيها هشيم (وسأسه في هذا الموضع) على طريق يسلك الى شيء من المعاني المخترعة وهو ما استخرجته وانفردت باستخراجه دون غيري فان المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالاشارة الى طريق يسلك فيها الا ان ذلك مما لا يمكن ومن فهنا أضرب علماء البيان عنه ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره وكيف تتقيد المعاني المخترعة بقيد أو يفتح اليها طريق تسلك وهي تأتي من فيض الهي بغير تعليم ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض والذي يختص بها يكون فذا واحدا يوجد في الزمن المتطاول ولما مارست أنا هذا الفن أعني فن الكتابة وقلبته ظهرا لبطن ونقبت عن دفائنه وخباياه وأكثرت من تحصيل موادة والاسباب الموصلة الى الغاية منه سنح لي في شيء من المعاني المخترعة طريق سلكته وهو يستخرج من كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه صلوات الله عليه وسلامه وقد تقدم لي منه أمثلة في هذا الكتاب وذلك أنه ترد الآية من كتاب الله أو الحديث النبوي والمراد بهما معنى من المعاني فآخذ أنا ذلك وأنقله الى معنى آخر فيصير مخترعا لي وسأورد ههنا منه نبذة يسيرة يعلم منها كيف فعلت حتى يسلك اليها في الطريق الذي سلكته (فمن ذلك) قصة أصحاب الكهف والرقيم فاني أخذت ذلك ونقلته الى الاحسان والشكر ألا ترى أن الاحسان يستعار له كهف وكنف وظل وأشباه ذلك والشكر كلمات تقال في التنويه بذكر المحسن واحسانه والرقيم هو الكتاب المكتوب فهو والشكر متماثلان والذي أتيت به قد أوردته وهو فصل من كتاب الى بعض المنعمين الخادم يشكر احسان المولى الذي طال عنده مقيما وغدا ظله رعيا وأصبح يتوالى اليه مغرما كما أصبح له غريما ولما تمثل في الاشتمال

عليه كما صار شكره فيه رقيبا فانظر كيف فعلت في هذا الموضع لتعلم أني قد فتحت لك فيه طريقا تسلكه (وأما الحديث النبوي) فاني أخذت قصة قتلى بدر كأبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم ونقلتها الى القلم وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على القليب الذي ألقاهم فيه وناداهم بأسمائهم فقال يا عتبة يا شيبة يا أبا جهل يا فلان يا فلان والحديث مشهور فلا حاجة الى استقصائه والذي أتيت به في وصف القلم هو أني قلت ولقد مرح القلم في يدي وحق له أن يمرح وأبدع فيما أتى به وكل اناء بالذي فيه ينضح ومن شأنه أن يستقل على أعواد المنبر فلا ينتهي من خطبتها الى فصلها ويقف على جانب القليب الا أنه لا ينادي من المعاني أبا جهلها فالدواة قليب والقلم يقف عليه والمعاني التي ينشئها من باب العلم لا من باب الجهل فتأمل هذه الكلمات التي ذكرتها فانها الطيبة جدا وهي مخترعة لي وهذا القدر كاف في طريق التعليم فليحتذ حذوه ان أمكن والله الموفق للصواب (وأما الضرب الآخر) من المعاني وهو الذي يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق فذلك جل ما يستعمله أرباب هذه الصناعة ولذلك قال عنترة * هل غادر الشعراء من متردم * الا أنه لا ينبغي أن يرسخ هذا القول في الأذهان لئلا ييأس من الترقي الى درجة الاختراع بل يعول على القول المطمع في ذلك وهو قول أبي تمام

لا زلت من شكري في حلة * لابسها ذو سلب فاخر
يقول من تقرع أسماعه * كم ترك الأول للآخر

وعلى الحقيقة فان في زوايا الأفكار خبايا وفي أبكار الخواطر سبايا لكن قد تقاصرت الهمم ونكصت العزائم وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيرا فاحشا (ووقفت على كتاب) يقال له مقدمة ابن أفلح البغدادي قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشورا لا لباب تحتها الا أن غاية ما عند الرجل أن يقول وأما الفصاحة فانها كقول النابغة مثلا أو كقول الأعشى أو غيرهما ثم يذكر بيتا من الشعر أو أبياتا وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى اذا وردت في كلام عرفنا أنه فصيح عارفين بما من حقيقتها الموجودة فيه وكذلك يقول في غير الفصاحة (ومن أعجب) ما وجدته في كتابه

قوله في حلة في الديوان في نعمة اه

أنه قال أما المعانى المبتدعة فليس للعرب منها شئ وانما اختص بها المحدثون ثم ذكر للمحدثين معانى وقال هذا المعنى لفلان وهو غريب وهذا القول لفلان وهو غريب وتلك الاقوال التى حصر قائلها بأنهم ابتدعوها قد سبقوا اليها فاما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب واما أنه لم يقف على أقوال الماضين والآثرين ولا تحريها حتى عرف ما قاله المتقدم مما قاله المتأخر وأما قوله انه ليس للعرب معنى مبتدع وانما هو للمحدثين فياليت شعرى من السابق الى المعانى من تقدم زمانه أم من تأخر زمانه (وأنا أورد هنا) ما يستدل به على بطلان ما ذكره وذلك أنه قد ورد من المعانى أن صور المنازل تمثلت فى القلوب فاذا عفت آثارها لم تعف صورها من القلوب وأول من أتى بذلك العرب فقال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة

انى وان عيروا اعذاقمى * عند الجمار يؤودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها * سفلا وأصبح سفلها يعلو
لعرفت مغناها بما احتملت * منى الضلوع لأهلها قبل

ثم جاء المحدثون من بعده فاستمروا على ذلك وحذوا حذوه فقال أبو تمام

وقفت واحشائى منازل للاسى * به وهو قفر قد تعفت منازله

(وقال البحترى)

عفت الرسوم وما عفت أحشاؤه * من عهد شوق ما تحول وتذهب

وقال المتنبى لك يا منازل فى القلوب منازل * أقفرت أنت وهن منك أواهل

وهذا المعنى قد تداوله الشعراء حتى انه ما من شاعر الا ويأتى به فى شعره (وكذلك) ورد لبعضهم من شعراء الحماسة

أباح اللوم وسط بنى رماح * مطيته وأقسم لا يريم
كذلك كل ذى سفر اذا ما * تناهى عند غايته يقيم

وهذان البيتان من أبيات المعانى المبتدعة وعلى اثرهما مشى الشعراء (وكذلك) ورد لبعضهم فى شعر الحماسة

تركت ضأنى تود الذئب راعيها * وأنها لا ترانى آخر الابد
الذئب يطرقها فى الدهر واحدة * وكل يوم ترانى مدية بيدى

(وكذلك) ورد قول الآخر

قوم اذا ما جاحابيهم وا أمنوا * للؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وكم للعرب من هذه المعانى التى سبقوا اليها (ومن أدلّ الدليل) على فساد ماذهب اليه من أنّ المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى أن أوّل من بكى على الديار فى شعره رجل يقال له ابن حرام وكان هو المبتدى لهذا المعنى أولا وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره فقال

عوجا على الطلل المحيل لعلنا * نبكى الديار كما بكى ابن حرام

وقد أجمع هل الاشعار أنّ لامرئ القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يسبق اليها ولا قيلت مرّة له ويكفى من هذا كله ماقدمت القول فيه وهو أنّ العرب السابقون بالشعر وزمانهم هو الاوّل فكيف يقال ان المتأخرين هم السابقون الى المعانى وفى هذه الامثلة التى أوردتها كفاية فى نقض ماذكره ولو قال انّ المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى وألطف مأخذا وأدق نظرا لكان قوله صوابا لانّ المحدثين عظم الملك الاسلامى فى زمانهم ورأوا مالم يره المتقدمون وقد قيل ان الليها تفتح اللها وهو كذلك فانّ نفاق السوق جلاب (وقد رأيت جماعة) من متحلى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصورا على الالفاظ التى لاطائل وراءها ولا كبير معنى تحتها واذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أىّ وجه كان من الغثاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ولا يشك فى أنه صار كاتبا مفلقا واذا نظر الى كتاب زمانا وجدوا كذلك فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الاغمار ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار ولو أنه لا يتطاول اليه الا أهله لبان الفاضل من الناقص على أنه كالرمح الذى اذا اعتقله حامله بين الصفين بان به المقدم من الناكص وقد أصبح اليوم فى يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب الى التعليم وقد قيل انّ الجهل بالجهل داء لا ينتهى اليه سقم السقيم وهؤلاء لا ذنب لهم لانهم لو لم يستخدموا فى الدول ويستكتبوا والا ماظهرت جهالتهم وفى أمثال العوام لا تعر الاحمق شيأ فيطمع له وكذلك يجرى الامر مع هؤلاء فانهم استكتبوا فى الدول فظنوا أنّ الكتابة قد صارت لهم بأمر حق واجب (ومن أعجب الاشياء) أنى لا أرى الا طامعا فى هذا الفن مدعيا له على خلوه عن تحصيل آلاته واسبابه ولا أرى أحدا يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه هذا وهو بحر لا ساحل له يحتاج صاحبه الى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهى اليه

ويحتوي عليه فسبحان الله هل يدّعي بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها فاذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذي يمكن تحصيله في سنة أو سنتين من الزمان لا يدّعيه أحد من هؤلاء فكيف يجيء الى فن الكتابة وهو ما لا تحصل معرفته الا في سنين كثيرة فيدّعيه وهو جاهل به (ومما رأيته من المدّعين) لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور وقصروا معرفتهم على الالفاظ المسجوعة الغثة التي لا طائل وراءها أنهم اذا أنكرت هذه الحال عليهم وقيل لهم انّ الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطئ الفقر على حرف واحد فقط اذ لو كان عبارة عن هذا وحده لامكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة وانما هو أمر وراء هذا وله شروط متعددة فاذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوّهم عن معرفته ثم لو عرفوه وأتوا به على الوجه الحسن من اختيار الالفاظ المسجوعة لاحتاجوا الى شرط آخر قد نبهت عليه في باب السجع واذا أنكر عليهم الاقتصار على الالفاظ المسجوعة وهدوا الى طريق المعاني يقولون لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة فانهم انما عنوا بالالفاظ ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءكم بها فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادّعوا الاسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين (ولنذكر ههنا) في الردّ عليهم ما اذا تأمّله الناظر في كتابنا عرف منه ما يونقه ويذهب به الاستحسان كل مذهب (فنقول) اعلم أنّ العرب كما كانت تعتني بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فانّ المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا في نفوسها فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقها الى اظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس وأذهب بها في الدلالة على القصد ألا ترى أنّ الكلام اذا كان مسجوعا لذّ لسامعه فحفظه واذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها ورقّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظنّ أنّ العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ فقط بل هي خدمة منهم للمعاني ونظير ذلك ابراز صورة الحسناء في الحلل الموشية والاثواب المحبرة فانا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوّه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه (فان قيل) انا نرى من ألفاظ العرب ما قد حسّنوه وزخرفوه ولسنا

يرى تحته مع ذلك معنى شريفا فمما جاء منه قول بعضهم

ولما قضينا من منى كل حاجة * ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * وسالت بأعناق المطي الأباطح

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ وصقالته وتدبيج أجزائه ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقاربا فإنه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ خسيسة المعاني (فالجواب عن ذلك) أنا نقول هذا الموضع قد سبق إلى التشبث به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما أراه القوم وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وعدم معرفته وهو أن في قول هذا الشاعر كل حاجة مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والمقة ما لا يستفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة فمنها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي للاجتماع إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به فكأن الشاعر صانع عن هذا الموضع الذي أومأ إليه وعقد غرضه عليه بقوله في آخر البيت ومسح بالأركان من هو ماسح أي إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجار في القربة من الله مجراه أي لم نتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح وأما البيت الثاني فإن فيه أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وفي هذا ما أذكره لتتعجب منه وتعجب ممن عجب منه ووضع من معناه وذلك أنه لو قال أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب فإنه قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والجدل بجمع شمل المتواصلين ألا ترى إلى قول بعضهم

وحدثتني يا سعد عنها فزدتني * جنونا فزدني من حديثك يا سعد

وقول الآخر

وحديثها السحر الحلال لو أنه * لم يجن قتل المسلم المتحرز

فإذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قيده بقوله أخذنا بأطراف الأحاديث فإن في ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا وإن كان الأمر كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم

وأشدّ تفقدها في نفوسهم من لفظها وان عذب ولذ مستمعه ثم في قول الشاعر وسالت بأعناق المطيّ الاباطح من لطافة المعنى وحسنه ما لا خفاء به وبيانه على ذلك فأقول ان هؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن امساك الازمة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من يشره وتغلبه الشهوة في أمر من الامور ولما كان الامر كذلك وارتخت الازمة عن الايدي أسرعت المطايا في المسير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الارض في سرعته وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه والذي لا ينعم نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى فالعرب انما تحسن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها فالالفاظ اذا خدم المعاني والمخدوم لا شك أشرف من الخادم فاعرف ذلك وقس عليه (النوع الاول في الاستعارة) ولنقدّم قبل الكلام في هذا الموضع قولا جامعا فنقول اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافا خاصة وأوصافا عامّة فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع الى اللفظ وكالمطابقة فيما يرجع الى المعنى وأمّا العامّة فكالسجع فيما يرجع الى اللفظ وكالاستعارة فيما يرجع الى المعنى وهذا الموضع الذي نحن بصدد ذكره وهو الاستعارة كثير الاشكال غامض الخفاء * وسأورد في كتابي هذا ما استخرجته ولم أسمع فيه قولا لغيري وكنت قدّمت القول في الفصل السابع من مقدّمة الكتاب فيما يختص باثبات المجاز والردّ على من ذهب الى أنّ الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وأقمت الدليل على ذلك ولا حاجة الى اعادته ههنا بل الذي أذكره ههنا هو ما يختص بالاستعارة التي هي جزء من المجاز ولم سميت بهذا الاسم وكشفت عن حقيقتها وميزتها عن التشبيه المضمر الاداة والكلام في هذا يحتاج الى اعادة ذكر المجاز وادخاله فيه ليتقرر ويتبين والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أنّ المجاز ينقسم قسمين توسع في الكلام وتشبيه والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف فالتشبيه التام أن يذكر المشبه والمشبه به والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام والا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ويجوز أن يطلق عليه اسم الاستعارة لاشتراكهما في المعنى وأمّا التوسع فانه يذكر للتصرّف في اللغة لا لفائدة أخرى وان شئت قلت انّ المجاز ينقسم الى توسع في الكلام وتشبيه

واستعارة ولا يخرج عن أحد هذه الاقسام الثلاثة فأيها وجد كان مجازا (فان قيل) ان التوسع شامل لهذه الاقسام الثلاثة لان الخروج من الحقيقة الى المجاز اتساع في الاستعمال (قلت في الجواب) ان التوسع في التشبيه والاستعارة جاء ضمنا وتبعا وان لم يكن هو السبب الموجب لاستعمالها وأما القسم الآخر الذي هو لا تشبيه ولا استعارة فان السبب في استعماله هو طلب التوسع لا غير وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرع عن الحقيقة وأن الحقيقة هي الاصل وانما يعدل عن الاصل الى الفرع لسبب اقتضاه وذلك السبب الذي يعدل به عن الحقيقة الى المجاز اما أن يكون لمشاركة بين المنقول والمنقول اليه في وصف من الاوصاف واما أن يكون لغير مشاركة فان كان لمشاركة فاما أن يذكر المنقول والمنقول اليه معا واما أن يذكر المنقول اليه دون المنقول فان ذكر المنقول والمنقول اليه معا كان ذلك تشبيها والتشبيه تشبيهان تشبيه مظهر الاداة كقولنا زيد كالاسد وتشبيه مضمر الاداة كقولنا زيد أسد وهذا التشبيه المضمر الاداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما وذلك خطأ محض * وسأوضح وجه الخطأ فيه وأحقق القول في الفرق بينهما تحقيقا جليا (وأقول) أما التشبيه المظهر الاداة فلا حاجة بنا الى ذكره ههنا لانه معلوم لا خلاف فيه لكن ذكر التشبيه المضمر الاداة الذي وقع فيه الخلاف فنقول اذا ذكر المنقول والمنقول اليه على أنه تشبيه مضمر الاداة قيل فيه زيد أسد أي كالاسد فأداة التشبيه فيه مضمرة واذا أظهرت حسن ظهورها ولم يقدح في الكلام الذي أظهرت فيه ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول اليه دون المنقول فانه لا يحسن فيه ظهور اداة التشبيه ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفا به من حسن فصاحة وبلاغة وهذا هو الاستعارة ولنضرب لذلك مثالا يوضحه فنقول قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

وهذا قد ذكر فيه المنقول اليه دون المنقول لان تقديره عجل قد كالقضيب وابطأ ردف كالدعص وبين ايراده على هذا التقدير وبين ايراده على هيئته في البيت بون بعيد في الحسن والملاحة والفرق اذا بين التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن ذلك فيها وعلى هذا فان الاستعارة

لاتكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليه ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول (فان قيل) لانسلم أن الفرق بين التشبيه وبين الاستعارة ماذهبت اليه بل الفرق بينهما أن التشبيه انما يكون بأداته كالكاف وكأن وماجرى مجراهما فمالم يظهر فيه أداة التشبيه لايكون تشبيها وانما يكون استعارة فاذا قلنا زيد اسد كان ذلك استعارة واذا قلنا زيد كالاسد كان ذلك تشبيها (قلت فى الجواب) عن ذلك اذا لم نجعل قولنا زيد أسد تشبيها مضمر الاداة استحال المعنى لان زيدا ليس أسدا وانما هو كالاسد فى شجاعته فأداة التشبيه تقدر ههنا ضرورة كى لايستحيل المعنى (فان قيل) وكذلك أيضا اذالم تقدر أداة التشبيه فى الاستعارة استحال المعنى لانا اذا قلنا عض القضيب وأبطأ الدعص فمالم تقدر فيه أداة التشبيه والا استحال المعنى (قلت فى الجواب) عن ذلك تقدير أداة التشبيه لابد منه فى الموضعين لكن يحسن اظهارها فى التشبيه دون الاستعارة وجلية الامر أنا نرى أداة التشبيه يحسن اظهارها فى موضع دون موضع فعلمنا أن الموضع الذى يحسن اظهارها فيه غير الموضع الذى لايحسن اظهارها فيه فسمينا الموضع الذى يحسن اظهارها فيه تشبيها مضمر الاداة والذى لايحسن اظهارها فيه استعارة وانما فعلنا ذلك لان تسمية مايحسن اظهار أداة التشبيه فيه بالتشبيه أليق وتسمية مالايحسن اظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة أليق فاذا قلنا زيد أسد حسن اظهار أداة التشبيه فيه بأن نقول زيد كالاسد واذا قلنا كما قال الشاعر

ورعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وابطأ الدعص

لايحسن اظهار أداة التشبيه فيه على ما تقدم من ذكر ذلك أولا (فان قيل) اذا أجزت اضمار أداة التشبيه وقدرت اظهارها فى قولك زيد أسد أى كالاسد فنحن نضمر أيضا المستعار له ونقدر اظهاره فانه لما قال الشاعر عجل القضيب وأبطأ الدعص أضمر المستعار له وهو القد والردف واذا ظهر قيل عجل قد كالقضيب وابطأ ردف كالدعص ولا فرق بين الاضمارين وكما يسعك اضمار أداة التشبيه فى قولك زيد أسد فكذلك يسعنا نحن اضمار المستعار له فى قول الشاعر (فالجواب عن ذلك) أنى أقول نحن فى هذا المقام واقفون مع الاستحسان لامع الجواز ولو تأملت ما أورده فى أول كلامى بالعين الصحيحة لما أوردت على هذا

الاعتراض ههنا فانى قلت التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن اظهار أداة التشبيه فيها ولو قلت يجوز أولا يجوز لورد على هذا الاعتراض الذى ذكرته وقد علم وتحقق أن من الواجب فى حكم الفصاحة والبلاغة أن لا يظهر المستعار له واذا أظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق (ألا ترى) أنا اذا أوردنا هذا البيت الذى هو

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

وجد عليه من الحسن والرونق مالا خفاء به وهو من باب الاستعارة فاذا أظهرنا المستعار له صرنا الى كلام غث وذلك أنا نقول فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسقت خدا كالورد وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد وفرق بين هذين الكلامين للمتأمل واسع وهكذا يجرى الحكم فى البيت المتقدم ذكره الذى هو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

فان هذا البيت لا خفاء بما عليه من الحسن واذا اظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه لا بل تبدل بضده وليس كذلك التشبيه المضمر الاداة فانا اذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء اذ لا فرق بين قولنا زيد أسد وبين قولنا زيد كالاسد وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة فضلا عن عالم والمعول عليه فى تأليف الكلام من المنثور والمنظوم انما هو حسنه وطلاوته فاذا ذهب ذلك عنه فليس بشئ ونحن فى الذى نورده فى هذا الكتاب وأمثاله انما نتكلم مع الحسن لا مع الجواز ثم لو تنزلنا معك أيها المعترض عن درجة الحسن الى درجة الجواز لما استقام لك ما ذكرته وذلك أن اضمار أداة التشبيه ظاهر فى قولنا زيد أسد أى كالاسد وهو مضمر واحد وأما قول الشاعر فرعاء ان نهضت لحاجتها فانه لا يضمر فيه أداة التشبيه الا بعد أن يظهر المستعار له وحينئذ يكون فيه اضماران أحدهما المستعار له والآخر أداة التشبيه واضمار واحد أيسر من اضمارين أحدهما معلق على الآخر واذا كان الامر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من أن الاستعارة لا تكون الا فيما يطوى ذكر المستعار له فتأمل ما أشرت اليه وتدبره حتى تعلم أنى ذكرت مالم يذكره أحد غيرى على هذا الوجه (واعلم أن هذا القسم) من الكلام

استعارة لان الاصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شيأ من الاشياء ولا يقع ذلك الامن شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضى استعارة أحدهما من الآخر شيأ واذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيأ اذلا يعرفه حتى يستعير منه وهذا الحكم جار فى استعارة الالفاظ بعضها من بعض فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما الى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشئ المستعار من أحدهما الى الآخر (واعلم) أنه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الاداة معا باختلاف القرينة وذلك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره فينقل عن ذلك الى غيره ويرتجل ارتجالا (فمما جاء منه) قول البحترى

اذا سفرت أضاءت شمس دجن * ومالت فى التعطف غصن بان

فلما قال أضاءت شمس دجن نصب الشمس كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله اضاءت كأنه قال أضاءت هى وهذا تشبيه لان المشبه مذكور وهو الضمير فى أضاءت الذى بات عنه التاء ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال أضاءت شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير حينئذ الى من تقدم ذكره وانما يكون الكلام مرتجلا ويكون البيت

اذا سفرت أضاءت شمس دجن * ومال من التعطف غصن بان

وهذا الموضع فيه دقة غموض وحرف التشبيه يحسن فى الاول دون الثانى (وأما القسم) الذى يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول اليه فذلك لا يكون الا لطلب التوسع فى الكلام وهو سبب صالح اذ التوسع فى الكلام مطلوب (وهو ضربان أحدهما) يرد على وجه الاضافة واستعماله قبيح لبعد ما بين المضاف والمضاف اليه وذلك لانه يلتحق بالتشبيه المضمر الاداة واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع الا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أوساه غافل يذهب به خاطره الى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن كقول أبى نواس

بح صوت المال مما * منك يشكو ويصيح

فقوله بح صوت المال من الكلام النازل بالمرة ومراده من ذلك أن المال يبط

من اهانتك اياه بالتمزيق فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى

تظلم المال والاعداء من يده * لا زال للمال والاعداء ظلاما

(وكذلك) ورد قول أبي نواس أيضا

ما لرجل المال أمست * تشتكي منك الكلالا

فاضافة الرجل الى المال أقبح من اضافة الصوت (ومن هذا الضرب) قول أبي تمام وكم أحرزت منكم على قبح قدها * صروف النوى من مرهف حسن القد فاضافة القد الى النوى من التشبيه البعيد البعيد وانما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد وهذا دأب الرجل في تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى حتى انه ليخرج الى ما يعاب به أقبح عيب وأفحشه (وكذلك) ورد قوله

بلونك أما كعب عرضك في العلا * فعال وأما خد مالك أسهل

فقوله كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل الا أنه عبر عنه أقبح تعبير وأبو تمام يقع في مثل ذلك كثيرا (وأما الضرب الآخر من التوسع) فانه يرد على غير وجه الاضافة وهو حسن لا عيب فيه وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فنسبة القول الى السماء والارض من باب التوسع لانهما جماد والنطق انما هو للانسان لا للجماد ولا مشاركة بينهما بين المقول والمقول اليه وكذلك قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين وعليه ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم فانه نظر الى أحد يوما فقال هذا جبل يحبنا ونحبه فاضافة المحبة الى الجبل من باب التوسع اذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد (وعلى هذا) ورد مخاطبة الطلول ومساءلة الاحجار كقول أبي تمام

أميدان لهوي من أتاح لك البلى * فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

وكقول أبي الطيب المتنبي أثلث فانا أيها الطلل * نبكي وترزم تحتنا الابل وأبو تمام سائل ربوعا عافية وأحجارا دارسة ولا وجه لها ههنا الا مساءلة الاهل كالذي في قوله تعالى واسئل القرية أي أهل القرية وكل هذا توسع في العبارة اذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب وكذلك قال

قوله وكم أحرزت في الديوان وكم ملكت اهـ

أبو الطيب المتنبي في أمره الطلل بأن يكون ثالثهما أي الركب والابل وهذا واضح لا نزاع فيه فاذ قد تبين وتحقق ما أشرت اليه من هذا الموضع فالمجاز لا يخرج عن هذه الاقسام الثلاثة اما توسع أو تشبيه أو استعارة واذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمرا قياسيا في حمل فرع على أصل لمناسبة بينهما وان كانا يفترقان بحدهما وحقيقتهما (فأما حد الاستعارة) فقيل انه نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وهذا الحد فاسد لأن التشبيه يشارك الاستعارة فيه ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد أي كأنه أسد وهذا نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما لانا نقلنا حقيقة الاسد الى زيد فصار مجازا وانما نقلناه لمشاركة بين زيد وبين الاسد في وصف الشجاعة والذي عندي من ذلك أن يقال حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه لانه اذا احترز فيه هذا الاحتراز اختص بالاستعارة وكان حدا لها دون التشبيه وطريقه أنك تريد تشبيه الشيء بالشيء مظهرا ومضمرا وتجيء الى المشبه فتعيره اسم المشبه به وتجريه عليه مثال ذلك أن تقول رأيت أسدا وهذا كالبيت الشعر المقدم ذكره وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

فان هذا الشاعر أراد تشبيه القد بالقضيب والردف بالدعص الذي هو كثيب الرمل فترك ذكر التشبيه مظهرا ومضمرا وجاء الى المشبه وهو القد فأعاره المشبه به وهو القضيب والدعص وأجراه عليه الا أن هذا الموضع لا بد له من قرينة تفهم من فحوى اللفظ لانه اذا قال القائل رأيت أسدا وهو يريد رجلا شجاعا فان هذا القول لا يفهم منه ما أراد وانما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالاسد لكن اذا اقترن بقوله هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلا شجاعا اختص الكلام بما أراد ألا ترى الى قول الشاعر عجل القضيب وأبطأ الدعص فانه دل عليه من نفس البيت لان قوله فرعاء ان نهضت دليل على أن المراد هو القد والردف لان القضيب والدعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها وكذلك كل ما يجيء على هذا الاسلوب لان المستعار له وهو المنقول اليه مطوي الذكر (وكنت صنفت) كتاب الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني فوجدته قد ذكر في المجاز شيئا يطرق اليه النظر وذلك أنه قال لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز الا لمعان ثلاثة

وهي الاتساع والتشبيه والتوكيد فان عدمت الثلاثة كانت الحقيقة البتة (فمن ذلك) قوله تعالى وأدخلناه في رحمتنا وهذا مجاز وفيه الثلاثة المذكورة أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما وهو الرحمة وأما التشبيه فانه شبه الرحمة وان لم يصح دخولها بما يصح دخوله وأما التوكيد فهو أنه أخبر عما لا يدرك بالحاسة بما يدرك بالحاسة تعاليا بالمخبر عنه وتفخيما له اذا صير بمنزلة ما يشاهد ويعاين هذا مجموع قول أبي الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص (والنظر يتطرق اليه من ثلاثة أوجه الاول) أنه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز بل وجود واحد منها سبب لوجوده ألا ترى أنه اذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازا واذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازا ثم ان كان وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز كان عدم واحد منها سببا لعدمه ألا ترى أنا اذا قلنا لا يوجد الانسان الا أن يكون حيوانا ناطقا فالحيوانية والنطق سبب لوجود الانسان واذا عدم واحد منهما بطل أن يكون انسانا وكذلك كل صفات تكون متقدمة لوجود الشيء فان وجودها يوجوده وعدم واحد منها يوجب عدمه (وأما الوجه الثاني) فانه ذكر التوكيد والتشبيه وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره لانه لما شبهت الرحمة وهي معنى لا يدرك بالبصر بمكان يدخل وهو صورة تدرك بالبصر دخل تحته التوكيد الذي هو اخبار عما لا يدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة على أن التوكيد ههنا على وجه ما أورده في تمثيله لا أعلم ما الذي أراد به لانه لا يؤتى به في اللغة العربية الا لمعنيين أحدهما أنه يرد أبدا فيما استقرى بألفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله وما أضيف اليها مما استقرى وهو مذكور في كتب النحاة وقد كفيت مؤنته الآخر أنه يرد على وجه التكرير نحو قام زيد قام زيد كرر اللفظ في ذلك تحقيقا للمعنى المقصود أي توكيدا والذي ذكره أبو الفتح رحمه الله تعالى لا يدل على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار اليهما ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في ابراز المعنى الموهوم الى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره واذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ولا حاجة الى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه (وأما الوجه الثالث) فانه قال أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال كذا وكذا وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب لانه ينبغي على قياسه

أن يكون جناح الذل في قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل زيادة في أسماء الطيور وذلك أنه زاد في أسماء الطيور اسما هو الذل وهكذا يجري الحكم في الاقوال الشعرية كقول أبي تمام

لست سواء أقواما فكانوا * كما أغنى التيمم بالصعيد

فزاد في أسماء الناس اسما هو الآدمي وهذا مما يضحك منه نعوذ بالله من الخطل والاتساع في المحال لا يقال فيه كذا وانما يقال هو أن تجري صفة من الصفات على موصوف ليس أهلا لان تجري عليه اذ ما بينه وبينها كقول أبي الطيب المتنبي

اثلث فانا أيها الطلل * نبكي وترزم تحتنا الابل

فانه أجرى الكلام على ذلك وانما يستعمل طلبا للاتساع في أساليب الكلام لا لمناسبة بين الصفة والموصوف اذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا وانما كان ضربا من القياس في حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله وحينئذ يكون ذلك تشبيها أو استعارة على ما أشرت اليه من قبل (وكنت اطلعت) في كتاب من مصنفات أبي حامد الغزالي رحمه الله ألفه في أصول الفقه ووجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز وقسم المجاز الى أربعة عشر قسما وتلك الاربعة عشر ترجع الى الثلاثة التي أشرت اليها وهي التوسع والتشبيه والاستعارة ولا تخرج عنها والتقسيم لا يصح في شيء من الاشياء الا اذا اختص كل قسم من الاقسام بصفة لا يختص بها غيره والا كان التقسيم لغوا لا فائدة فيه * وسأورد ما ذكره وأبين فساده (فالقسم الاول) من الاقسام التي ذكرها هو ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصة كقولهم للشجاع أسد وللبليد حمار وهذا القسم داخل في الاستعارة ان ذكر المنقول وحده مثل أن يقول القائل رأيت أسدا ومراده رجلا شجاعا أو رأيت حمارا ومراده رجلا بليدا وداخل في التشبيه المضمر الاداة ان ذكر المنقول والمنقول اليه معا كقول القائل زيد أسد أي كالاسد أو حمار أي كالحمار (القسم الثاني) تسمية الشيء باسم ما يؤول اليه كقوله تعالى اني أراني أعصر خمرا وانما كان يعصر عنبا وهذا القسم داخل في القسم الاول لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول اليه وهو من باب الاستعارة لا بل أوغل في المشابهة من ذلك لان الخمر من العنب وليس الاسد من الرجل ولا الرجل من الاسد (القسم الثالث) تسمية الشيء باسم فرعه كقول الشاعر

وما

وما العيش الا نومة وتشوق * وتمر على رأس النخيل وماء

يسمى الرطب تمرا وهذا القسم والقسم الذى قبله سواء لان هناك سمى العنب خمرا وههنا سمى الرطب تمرا فالعنب أصل والخمر فرع وكذلك الرطب أصل والتمر فرع وكلا هذين القسمين داخل فى القسم الاول وهب أن الغزالى لم يحقق أمر المجاز وانقسامه الى تلك الاقسام الثلاثة التى أشرت اليها ألم ينظر الى هذين القسمين اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم أنهما شىء واحد لافرق بينهما (القسم الرابع) تسمية الشىء باسم أصله كقولهم للآدمى مضغة وهذا ضد القسم الذى قبله لان ذاك جعل الاصل فيه فرعا وهذا جعل الفرع فيه أصلا وهو داخل فى القسم الاول أيضا (القسم الخامس) تسمية الشىء بدواعيه كتسميتهم الاعتقاد قولا كقولهم هذا يقول بقول الشافعى رحمه الله أى يعتقد اعتقاده وهذا القسم داخل فى القسم الاول لان بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب أو الباطن والظاهر (القسم السادس) تسمية الشىء باسم مكانه كقولهم للمطر سماء لانه ينزل منها وهذا القسم داخل فى الاول لصحة المناسبة بين المنقول والمنقول اليه وهو النزول من عال وكل ما علاك فأظلك فهو سماء على أن الاغلب على ظنى أن هذا القسم من الاسماء المشتركة وتسمية المطر بالسماء حقيقة فيه وليس من المجاز فى شىء (القسم السابع) تسمية الشىء باسم مجاوره كقولهم للمزادة راوية وانما الراوية الجمل الذى يحملها وهذا القسم من باب التوسع لامن باب التشبيه ولامن باب الاستعارة لان على قياسه ينبغى أن يسمى الجمل مزادة لانه يحملها (القسم الثامن) تسمية الشىء باسم جزئه كقولك لمن تبغضه أبعد الله وجهه عنى وانما تريد سائر جثته وهذا القسم داخل فى القسم الاول وهو شبيه بتسمية الشىء باسم فرعه (القسم التاسع) تسمية الشىء باسم ضده كقولهم للاسود والابيض جون وهذا القسم ليس من المجاز فى شىء البتة وانما هو حقيقة فى هذين المسميين معا لانه من الاسماء المشتركة كقولهم شمت السيف اذا سللته وشمته اذا أغمدته فيدل الشيم على الضدين معا بالوضع الحقيقى وفى اللغة من هذا شىء كثير وكيف يجعل هذا القسم من المجاز ولاشك أن الغزالى نظر الى أن الضدين لايجتمعان فى محل واحد فقاس الاسم على الذات وظن أن الذاتين لايجتمعان فى اسم واحد

كما أنهما لا يجتمعان في محل واحد (فإن قيل) لا نسلم أن اللفظ المشترك حقيقة
بالوضع في المعنيين معا لأن ذلك يخل بفائدة الوضع الذي هو البيان وإنما هو حقيقة
في أحدهما فيه مجاز في الآخر (فالجواب عن ذلك) أن هذا الموضع تقدم
الكلام عليه في الفصل الثاني من مقدمة الكتاب وهو الفصل الذي يشتمل على
آلات علم البيان وأدواته وليؤخذ من هناك فإني قد أشبعت القول فيه إشباعا
لا مزيد عليه (القسم العاشر) تسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر مسكرا وهذا
القسم داخل في القسم الأول وأي مشاركة أقرب من هذه المشاركة فإن
الإسكار صفة لازمة للخمر وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد لأنه يمكن أن يكون
زيد ولا شجاعة ولا يمكن أن يكون خمر ولا إسكار ألا ترى أنها لم تسم خمرا إلا
لإسكارها فإنها تخمر العقل أي تستره (القسم الحادي عشر) تسمية الشيء بكله
كقولك في جواب ما فعل زيد القيام والقيام جنس يتناول جميع أنواعه وهذا
القسم لا ينبغي أن يوصل بأقسام المجاز لأن القيام لزيد حقيقة (فإن قيل) إن
القيام يشمل جميع أنواع القيام من الماضي والحاضر والمستقبل (قلت) وهذا
من أقرب أقسام المجاز مناسبة لأنه إقامة للمصدر مقام الفعل الماضي والمصدر
أصل الفعل وعلى هذا فإن هذا داخل في القسم الأول (القسم الثاني عشر)
الزيادة في الكلام لغير فائدة كقوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم فما ههنا
زائدة لا معنى لها أي فبرحمة من الله لنت لهم وهذا القول لا أراه صوابا
وفيه نظر من وجهين أحدهما أن هذا القسم ليس من المجاز لأن المجاز هو دلالة
اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة وهذا غير موجود في الآية وإنما هي دالة
على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة الوجه الآخر أني لو سلمت أن ذلك
من المجاز لا نكرت أن لفظة ما زائدة لا معنى لها ولكنها وردت تفخيما لأمر
النعمة التي لان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وهي محض الفصاحة ولو
عري الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة وقد ورد مثلها في كلام العرب كالذي
يحكى عن الزباء وذاك أن الوضاح الذي هو جذيمة الأبرش تزوجها والحكاية
في ذلك مشهورة فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت الشعر
من فوقه ضفيرتين وقالت أذات عروس ترى أما إنه ليس ذلك من عوز المواسي
ولا من قلة الأواسي ولكنه شيمة ما أناس فمعنى الكلام ولكنه شيمة أناس

واعاجات لفظة ما فيهما تعجب بالشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لامره ولو أسقطت لما كان للكلام هذه الفخامة والجزالة ولا يعرف ذلك الا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة وأما العزالى رحمه الله تعالى فانه معذور وعندى فى أن لا يعرف ذلك لانه ليس منه ومن ذهب الى أن فى القرآن لفظا زائدا لا معنى له فاما أن يكون جاهلا بهذا القول واما أن يكون متسمحا فى دينه واعتقاده وقول النحاة ان ما فى هذه الآية زائدة فانما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمونها فى موضع آخر كافة أى أنها تكف الحرف العامل عن عمله كقولك انما زيد قائم فما قد كفت ان عن العمل فى زيد وفى الآية لم تمنع عن العمل ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل فى خفض الرحمة (القسم الثالث عشر) تسمية الشئ بحكمه كقوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها فسمى النكاح هبة وهذا القسم داخل فى القسم الاول لان النكاح هو تمكين الزوج من الوطء على عوض على هيئة مخصوصة والهبة تمكينه من الشئ الموهوب على غير عوض فشاركت الهبة النكاح فى نفس التمكين من الوطء وان اختلفا فى الصورة (القسم الرابع عشر) النقصان الذى لا يبطل به المعنى كحذف الموصوف واقامة الصفة مقامه قال الله تعالى ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا أى شخصا بريئا وكحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه قال الله تعالى واسئل القرية أى أهل القرية وهذا القسم داخل فى القسم الاول أما حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه فلان الصفة لازمة للموصوف وأما حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه فلانه دل بالمسكون على الساكن وتلك مقاربة قريبة فهذه أقسام المجاز التى ذكرها العزالى رحمه الله تعالى وقد بينت فساد التقسيم فيها وأنها ترجع الى ثلاثة أقسام هى التوسع والتشبيه والاستعارة (وحيث انتهى بى الكلام الى ههنا) وفرغت مما أردت تحقيقه وبينت ما أردت بيانه فانى أتبع ذلك بضرب الامثلة للاستعارة التى يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة (فما جاء من ذلك فى القرآن الكريم) قوله تعالى فى أول سورة ابراهيم صلوات الله عليه الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان أو للضلال والهدى والمستعار له مطوى الذكر

كأنه قال لتخرج الناس من الكفر الذى هو كالظلمة الى الايمان الذى هو كالنور وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضا وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال والقراءة برفع لتزول منه الجبال ليست من باب الاستعارة ولكنها فى نصب تزول واللام لام كى والجبال فهما استعارة طوى فيها ذكر المستعار له وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات والمعجزات أى أنهم مكروا مكرهم لكى تزول منه هذه الآيات والمعجزات التى هى فى ثباتها واستقرارها كالجبال وعلى هذا ورد قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون فاستعار الاودية للفنون والاغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها وانما خص الاودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لان معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض فكان استعارة الاودية لها أشبه وأليق والاستعارة فى القرآن قليلة لكن التشبيه المضمر الاداة كثير وكذلك هى فى فصيح الكلام من الرسائل والخطب والاشعار لان طى المستعار له لا يتيسر فى كل كلام وأما التشبيه المضمر الاداة فكثير سهل لمكان اظهار المشبه والمشبه به معا (ومما ورد من الاستعارة فى الاخبار النبوية) قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تستضيؤا بنار المشركين فاستعار النار للرأى والمشورة أى لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوما مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكثرون فقال أما انكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى وهادم اللذات أراد به الموت وهو مطوى الذكر (وبلغنى عن العرب) أنهم يقولون عند رؤية الهلال لا مرحبا باللجين مقرب أجل ومحل وهذا من باب الاستعارة فى طى ذكر المستعار له (وكذلك بلغنى عن الحجاج بن يوسف) أنه خطب خطبة عند قدومه العراق فى أول ولايته اياه والخطبة مشهورة من جملتها أنه قال ان أمير المؤمنين نثل كنانته وعجمها عودا عودا فرأى أصلبها نجارا وأقومها عودا وأبعدها نصلا فقوله نثل كنانته وعجمها عودا عودا يريد أنه عرض رجاله واختبرهم واحدا واحدا ثم اختاره فرأى أشدهم وأمضاهم وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة (وقد

جاءني من الاستعارة في رسائلي) ما أذكر شيأ منه ولو مثالا واحدا وذلك أنه سألني بعض الاصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كان يهواهما وكان أحدهما يلبس قباء أحمر والآخر قباء أسود فقلت اذا تشعبت أسباب الهوى كانت لسرته أظهر وأصبحت أمراضه خطرا كلها ولا يقال في أحدها هذا أخطر وقد هويت بدرين على غصنين ولا طاقة للقلب بهوى واحد فكيف اذا حمل هوى اثنين ومما شجاني أنهما يتلونان في أصباغ الثياب كما يتلونان في فنون التجرم والعتاب وقد استجدا الآن زيا لا مزيد على حسنهما في حسنه فهذا يخرج في ثوب من حمرة خده وهذا في ثوب من سواد حسنه وما أدري من دلهما على هذا العجيب غير أنه ليس على فتنة الحب أهدى من حبيب وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فكقول مسكين الدارمي من شعراء الحماسة

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته * ولم يلهني عنه غزال مقنع

أحدثه ان الحديث من القرى * وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

فالغزال المقنع ههنا استعاره للمرأة الحسناء (وكذا ورد) قول رجل من بني يسار في كتاب الحماسة أيضا

أقول لنفسي حين خق رؤالها * رويدك لما تشفقي حين مشفق

رويدك حتى تنظري عم تنجلي * عمامة هذا العارض المتألق

فالعارض المتألق استعارة للحرب أو الذي أظل عسكروهم كالبارق المتألق (ويحكى) أن امرأة وقفت لعبد الملك بن مروان وهو سائر الى قتال مصعب بن الزبير فقالت يا أمير المؤمنين فقال رويدك حتى تنظري عم تنجلي وأنشد البيت (ومن هذا الباب) قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن

لما نظرت الي عن حدق المها * وبسمت عن متفتح النوار

وعقدت بين قضيب بان أهيف * وكثيب رمل عقدة الزنار

عفرت خدي في الثرى لك طائعا * وعزمت فيك على دخول النار

وهذه الابيات لا تجد لها في الحسن شريكا ولأن يسمى قائلها شحرورا أولى من أن يسمى ديكا وكذلك ورد قوله

لا ومكان الصليب في النحر منـ * ـك ومجرى الزنار في الخصر

والخال في الخد اذ أشبهه * وردة مسك على ثرى تبر
وحاجب مد خطه قلم الحسن بحبر البهاء لا الحبر
والقحوان نضيد منتظم * على شبيه من رائق الخمر

فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة والمستعار له هو الشعر والريق (ومما ورد لأبي تمام) في هذا المعنى قوله

لما عدا مطلع الاحشاء من أشر * أسكنت جانحتيه كوكبا يقد

فالكوكب استعارة للرمح (وكذلك ورد قوله) في الاعتذار

أسرى طريدا للحياء من التي * زعموا وليس لرهبة تطريد
وعدانى بين ما ارتاءه ساحتي * لو قد نفضت تهائمي ونجودي

والتهائم والنجود هما استعارتهما استعارة من باطن أمره وظاهره وكذلك ورد قوله كم أحرزت قضب الهندي مصلتة * تهتز من قضب تهتز في كثب

فالقضب والكثب استعارة للقدود والارداف وكذلك ورد في هذه القصيدة أيضا عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عمورية فقال

ان يعد من حرها عدو الظليم فقد * أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

فالحطب استعارة للقتلى وقبل هذا البيت ما يدل عليه لانه قال

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى * يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلا بيفاع الارض يشرفها * من خفة الخوف لا من خفة الطرب

ان يعد من حرها عدو الظليم البيت وأحسن من هذا كله قوله

تطل الطلول الدمع في كل موقف * وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها * ولا مر في اغفالها وهو غافل
يعفين من زاد العفاة اذا انتحى * على الحي صرف الازمة المتحامل

فقوله زاد العفاة استعارة طوى فيها ذكر المستعار له وهو أهل الديار كأنه قال يعفين من قوم هم زاد العفاة (وله في الغزل) من الاستعارة ما بلغ به غاية اللطافة والرقة وذلك في قصيدته التي مطلعها * ان عهدا لو تعلمان ذميما * فقال

قد مررنا بالدار وهي خلاء * وبكينا طلولها والرسوما
وسألنا ربوعها فانصرفنا * بسقام وما سألنا حكيما
كنت أرعى النجوم حتى اذا ما * فارقوني أمسيت أرعى النجوما

والبيت

قوله أسرى التثنيتين تهامة ا ه

والبيت الثالث هو المخصوص بالاستعارة وعلى هذا المنهاج ورد قول البحترى

وأغر فى الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغر محجل

والاغر المحجل الاول هو الممدوح والاغر المحجل الثانى هو الفرس الذى أعطاه اياه (وكذلك) ورد قوله

وصاعقة فى كفه تنكفى بها * على أرؤس الاعداء خمس سحائب

وهذا من النمط العالى الذى شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر الى استعارته والمراد بالسحائب الخمس الاصابع (وكذلك) ورد فى أبيات الحماسة

دلف طود الكفر دكا * صاعق من وقع سيفك

أرسلته خمس سحب * نشأت من بحر كفك

(وكذلك) ورد قوله فى أبيات يصف فيها السيف

حملت حمائله القديمة بقلة * من عهد عاد غضة لم تذبل

وهذا من الحسن على مايشهد لنفسه كأنه قال حملت حمائله سيفا أخضر الحديد كالبقلة (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبى الطيب المتنبى

فى الخد ان عزم الخليط رحيلا * مطر تزيد به الخدود محولا

وكذلك ورد قوله يقتيد به فى المفاصة صيم وأحسن من هذا قوله فى قصيدته التى مطلعها * عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم

وأصبحت بقرى هنزيط جائلة * ترعى الظبى فى خصيب نبته اللمم

فما تركن بها خلدا له بصر * تحت التراب ولا بازا له قدم

ولا هزبرا له من درعه لبد * ولا مهاة لها من شبهها حشم

وهذا من المليح النادر فالخلد استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفا والباز استعارة لمن طار هاربا والهزبر والمهاة استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا (ومن هذا الباب قوله)

كل جريح ترجى سلامته * الا جريحا دهته عيناها

تبل خدى كلما ابتسمت * من مطر برقه ثناياها

والبيت الثانى من الابيات الحسان التى تتواصف وقد حسن الاستعارة التى فيه أنه جاء ذكر المطر مع البرق (وبلغنى عن أبى الفتح بن جنى) رحمه الله أنه شرح ذلك فى كتابه الموسوم بالفسر الذى ألفه فى شرح شعر أبى الطيب فقال انها كانت

تبرق في وجهه وظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فيها ويقع على وجهه فشبهه بالمطر وما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره واذا كان هذا قول امام من أئمة العربية تشد اليه الرحال فما يقال في غيره لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب (وكذلك) ورد قول الشريف الرضي

اذا أنت أفنيت العرانين والذرى * رمتك الليالي من يد الخامل الغمر
وهل تتقي السهم من حيث يتقي * فمن لبد ترميك من حيث لا تدري

فالعرانين والذرى هما عظماء الناس وأشرافهم كأنه قال اذا أفنيت عظماء الناس رميت من يد الخامل (واذ قد بينت) أن الاستعارة لا تكون الا حيث يطوى ذكر المستعار له فانها لا تجيء الا ملائمة مناسبة ولا يوجد فيها منافية ولا تباعد لانها لا بد كر مطوية الا اذا كان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها ولم يبن المراد منها (ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي) رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الاداة ولم يفرق بينهما وتأسى في ذلك بغيره من علماء البيان كأبي هلال العسكري والغانمي وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي على أن أبا القاسم بن بشر الآمدي كان أثبت القوم قدما في فن الفصاحة والبلاغة وكتابه المسمى بالموازنة بين شعر الطائيين يشهد له بذلك وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة (ومما أورده ابن سنان) في كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل

وهذا البيت من التشبيه المضمر الاداة لان المستعار له مذكور وهو الليل وعلى الخطا في خلطه بالاستعارة فان ابن سنان أخطأ في الرد على الآمدي ولم يوفق للصواب وأنا أتكلم على ما ذكره ولا أصانعه في الاستعارة والتشبيه بل أنزل معه على ما رآه من أنه استعارة ثم أبين فساد ما ذهب اليه وذلك أن الآمدي قال في كتاب الموازنة ان امرأ القيس وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره وترادف أعجازه فلما جعل له وسطا ممتدا وصدرا ثقيلا وأعجازا رادفة لوسطه استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده

واسم الكلكل وجعله نائباً للساقلة واسم العجز من أجل نهوضه فقال ابن سنان الخفاجي معترضاً عليه ان هذا الذى ذكره الآمدى ليس بمرضى غاية الرضا وان بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا الرديئة بل هو وسط فان الآمدى قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل الليل وسطاً ممتداً استعار له اسم الصلب وجعله متمطياً من أجل امتداده وحيث جعل له آخراً وأولاً استعار له عجزاً وكلكلاً وهذا كله انما يحسن بعضه مع بعض وذكر الصلب انما يحسن من أجل العجز والوسط والتمطى من أجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى هذا حكاية كلامه فى الاعتراض على الآمدى (وفيه نظر من وجهين الاول) أنه قال هذا بيت من الاستعارة الوسطى التى ليست بجيدة ولا رديئة ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة اخرى وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أبعد الاستعارات وذلك أنه قسم الاستعارة الى قسمين قريب مختار وبعيد مطرح فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح والبعيد المطرح اما أن يكون لبعده مما استعير له فى الاصل أولانه استعارة مبنية على استعارة أخرى فيضعف لذلك هذا ما ذكره ابن سنان الخفاجى فى تقسيم الاستعارة واذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة مطرحة فكيف جعلها وسطاً هذا تناقض فى القول (الوجه الثانى) أنه لم يأخذ على الآمدى فى موضع الاخذ لانه لم يختر الا ما حسن اختياره وذلك أن حد الاستعارة على ما رآه الآمدى وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وان كان المذهب الصحيح فى حد الاستعارة غير ذلك على ما تقدم الكلام عليه ولكنى فى هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجه الكلام على الحكم بينهما فى بيت امرئ القيس واذا حددنا الاستعارة بهذا الحد فانه يفرق على رأى ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة فاذا وجدنا الاستعارة فى كلام ثم عرضناها على هذا الحد فاوجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول اليه حكمنا له بالجودة وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة وبيت امرئ القيس من الاستعارات المرضية لانه لو لم يكن لليل صدر أعنى أولا ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة ولما كان الامر كذلك استعار

لوسطه صلبا وجعله متمطيا واستعار لصدره المتثاقل أعني أوله كلكلا وجعله ناءما
واستعار لآخره عجزا وجعله رادفا لوسطه وكل ذلك من الاستعارات المناسبة
وأما قول ابن سنان الخفاجي ان الاستعارة المبنية على استعارة أخرى بعيدة
مطرحة فان في هذا القول نظرا وذلك أنه قد ثبت لنا أصل يقيس عليه في الفرق
بين الاستعارة المرضية والمطرحة كما أريناك ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة
مبنية على استعارة أخرى ونوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة
المرضية فانه قد ورد في القرآن الكريم ما هو من هذا الجنس وهو قوله تعالى
وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف فهذه ثلاث استعارات
ينبني بعضها على بعض فالأولى استعارة القرية للأهل والثانية استعارة الذوق
للباس والثالثة استعارة اللباس للجوع والخوف وهذه الاستعارات الثلاث
من التناسب على ما لا خفاء به فكيف يذم ابن سنان الخفاجي الاستعارة المبنية
على استعارة أخرى وما أقول ان ذلك شذ عنه الا لأنه لم ينظر الى الاصل
المقيس عليه وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول اليه بل نظر الى التقسيم
الذي هو قسمه في القرب أو البعد ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى
تكون بعيدة فحكم عليها بالاطراح واذا كان الاصل انما هو التناسب فلا فرق
بين أن يوجد في استعارة واحدة أو في استعارة مبنية على استعارة ولهذا أشباه
ونظائر في غير الاستعارة ألا ترى أن المنطقي يقول في المقدمة والنتيجة كل
انسان حيوان وكل حيوان نام فكل انسان نام وكذلك يقول المهندس
في بعض الاشكال الهندسية اذا كان خط اب مثل خط بج وخط بج مثل خط جد
فخط اب مثل خط جد وهكذا أقول أنا في الاستعارة اذا كانت الاستعارة
الأولى مناسبة ثم بني عليها استعارة ثانية وكانت أيضا مناسبة فالجميع متناسب
وهذا أمر برهاني لا يتصور انكاره وهذا الكلام الذي أوردته ههنا هو اعتراض
على ما ذكره ابن سنان الخفاجي في الاستعارة ولا تظن أني موافقه في الاصل وانما
وافقته قصد التبيين وجه الخطا في كلامه وكيف يسوغ لي موافقته وقد ثبت
عندي بالدليل أن الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له وفيما قدمته
من الكلام كفاية (النوع الثاني في التشبيه) وجدت علماء البيان قد فرقوا

بين التشبيه والتمثيل وجعلوا لهذا بابا مفردا ولهذا بابا مفردا وهما شيء واحد
لا فرق بينهما في أصل الوضع يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال مثلته به
وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه وكنت قدمت
القول في باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها ولا حاجة الى اعادته ههنا
مرة ثانية (والتشبيه ينقسم قسمين) مظهرا ومضمرا وفي المضمر اشكال في تقدير
أداة التشبيه فيه في بعض المواضع (وهو ينقسم أقساما خمسة فالاول) يقع
موقع المبتدا والخبر مفردين (والثاني) يقع موقع المبتدا المفرد وخبره جملة
مركبة من مضاف ومضاف اليه (والثالث) يقع موقع المبتدا والخبر جملتين
(والرابع) يرد على وجه الفعل والفاعل (والخامس) يرد على وجه المثل المضروب
وهذان القسمان الاخيران هما أشكل الاقسام الخمسة في تقدير أداة التشبيه
(أما الاول) فكقولنا زيد أسد فهذا مبتدأ وخبره واذا قدرت أداة التشبيه فيه
كان ذلك بديهة النظر على الفور فقيل زيد كالاسد (وأما القسم الثاني والثالث)
فانهما متوسطان في تقدير أداة التشبيه فيهما فالثاني كقول النبي صلى الله عليه
وسلم الكمأة جدري الارض وهذا يتنوع نوعين فاذا كان المضاف اليه معرفة
كهذا الخبر النبوي لا يحتاج في تقدير أداة التشبيه الى تقديم المضاف اليه بل ان
شئنا قدمناه وان شئنا أخرناه فقلنا الكمأة للارض كالجدري أو الكمأة
كالجدري للارض واذا كان المضاف اليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة
التشبيه فمن ذلك قول البحتري

غمام سماح لا يغب له حيا * ومسعر حرب لا يضيع له وتر

فاذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا سماح كالغمام ولا يقدر الا هكذا والمبتدأ
في هذا البيت محذوف وهو الاشارة الى الممدوح كأنه قال هو غمام سماح
(ومن هذا النوع) ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن
كقول أبي تمام

أي مرعى عين ووادي نسيب * لحبته الايام في ملحوب

ومراد أبي تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسنا ثم زال عنه حسنه فقال
بأن العين كانت تلتذ بالنظر اليه كالتذاذ السائمة بالمرعى فانه كان يشبب به
في الاشعار لحسنه وطيبه واذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا كأنه كان للعين مرعى
وللنسيب منزلا ومألفا واذا جاء شيء من الابيات الشعرية على هذا الاسلوب

أو ما يجري مجراه فإنه يحتاج إلى عارف بوضع أداة التشبيه فيه (وأما الثالث) فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم كأنه قال كلام الألسنة كحصائد المناجل وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكورا فيه بل تذكر صفته ألا ترى أن المنجل لم يذكر ههنا وإنما ذكرت صفته وهي الحصد وكل ما يجيء من هذا القسم فإنه لا يرد إلا كذلك (وأما القسم الرابع والخامس) اللذان هما أشكل الأقسام المذكورة في تقدير أداة التشبيه فيهما فإنهما لا يتفطن لهما أنهما تشبيه (فمما جاء من القسم الرابع) قوله تعالى والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم وتقدير أداة التشبيه في هذا الموضع أن يقال هم في إيمانهم كالمتبوئ دارا أي أنهم قد اتخذوا الإيمان مسكنا يسكنونه يصف بذلك تمكنهم منه (وعلى هذا) ورد قول أبي تمام

نطقت مقلة الفتى الملهوف * فتشكت بفيض دمع ذروف

وإذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه ههنا قلنا دمع العين كنطق اللسان أو قلنا العين الباكية كأنها تنطق بما في الضمير (وأما ما جاء من القسم الخامس) فكقول الفرزدق يهجو جريرا

ما ضر تغلب وائل أهجوتها * أم بلت حيث تناطح البحران

فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله في مجمع البحرين فكما أن البول في مجمع البحرين لا يؤثر شيئا فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئا وهذا البيت من الأبيات التي أقر له الناس بالحسن وكذلك ورد قوله أيضا

قوارص تأتيني وتحتقرونها * وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

فإنه شبه القوارص التي تأتيه محتقرة بالقطر الذي يملأ الإناء على صغر مقداره يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمر كبيرا وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان ويخلطونه بالاستعارة كقول البحتري في التعريض بولد

تعرفاك السيف يمضي وإن وهت * حمائله عنه وخلاه قائمه

وهذا ليس من التشبيه وإنما هو استعارة لأن المستعار له مطوي الذكر وهو المعرّى كأنه قال تعرفاك كالسيف الذي يمضي وإن وهت حمائله وخلاه قائمه (فإن قيل) إنك قدمت القول في باب الاستعارة بأن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيها وجعلت ذلك هو الفرق

بين التشبيه المضمر الاداة وبين الاستعارة وقررت ذلك تقريرا طويلا عريضا ثم تراك قد نقضته ههنا بقولك ان من التشبيه المضمر الاداة ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه وانه يحتاج في تقديرها الى تطريق كهذين البيتين المذكورين للفرزدق وما يجري مجراهما (فالجواب) عن ذلك أني أقول هذا الذي ذكرته لا ينقض علي شيأ مما قدمت القول فيه في باب الاستعارة لاني قلت ان التشبيه المضمر الاداة يحسن تقدير الاداة فيه أي لا يتغير بتقديرها فيه عن صفته التي اتصف بها من فصاحة وبلاغة وليس كذلك الاستعارة فانها اذا قدرت أداة التشبيه فيها تغيرت عن صفتها التي اتصفت بها من فصاحة وبلاغة وأما الذي ورد ههنا من بيتي الفرزدق وما يجري مجراهما من التشبيه المضمر الاداة فان أداة التشبيه لا تتقدر فيه وهو على حالته من النظم حتى تتبين هل تغيرت صفته التي اتصف بها من فصاحة وبلاغة أم لا وانما تتقدر أداة التشبيه فيه على وجه آخر وهذا لا ينقض ما أشرت اليه في باب الاستعارة (واذ اثبتت هذه الاقسام الاربعة فأقول) ان التشبيه المضمر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير واسطة أداة فيكون هو اياه فانك اذا قلت زيد أسد كنت قد جعلته أسدا من غير اظهار أداة التشبيه وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه وعلى هذا فان القسمين من المظهر والمضمر كليهما في فضيلة البيان سواء فان الغرض المقصود من قولنا زيد أسد أن يتبين حال زيد في اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الاقدام وغير ذلك مما يجري مجراه الا أنا لم نجد شيأ ندل به عليه سوى أن جعلناه شبيها بالاسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوي البطش جريء الجنان وأشباه ذلك لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به أعني الاسد وأما زيد الذي هو المشبه فليس معروفا بها وان كانت موجودة فيه وكلا هذين القسمين أيضا يختص بفضيلة الايجاز وان كان المضمر أوجز من المظهر لان قولنا زيد أسد أو كالاسد يسد مسد قولنا زيد من حاله كيت وكيت وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا مما يطول ذكره فالتشبيه اذا يجمع صفات ثلاثة هي المبالغة والبيان والايجاز كما أريتك الا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب وهو مقتل من مقاتل البلاغة وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة اما صورة واما معنى يعز

صوابه وتعسر الاجادة فيه وقلما أكثر منه أحد الا عثر كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق وابن وكيع من أدباء مصر فانهما أكثرا من ذلك لا سيما في وصف الرياض والاشجار والازهار والثمار لا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذي لا يثبت على محك الصواب فعليك أن تتوقى ما أشرت اليه (وأما فائدة التشبيه من الكلام) فهي أنك اذا مثلت الشيء بالشيء فانما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ألا ترى أنك اذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو الى الترغيب فيها وكذلك اذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو الى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه ولنضرب له مثالا يوضحه فنقول قد ورد عن ابن الرومي في مدح العسل وذمه بيت من الشعر وهو

تقول هذا مجاج النحل تمدحه * وان تعب قلت ذا قيء الزنابير

ألا ترى كيف مدح وذم الشيء الواحد بتصريف التشبيه المجازي المضمر الاداة الذي خيل به الى السامع خيالا يحسن الشيء عنده تارة ويقبحه أخرى ولولا التوصل بطريق التشبيه على هذا الوجه لما أمكنه ذلك وهذا المثال كاف فيما أردناه (واعلم أن محاسن التشبيه) أن يجيء مصدريا كقولنا اقدم اقدام الاسد وفاض فيض البحر وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه كقول أبي نواس في وصف الخمر

واذا ما مزجوها * وثبت وثب الجراد * واذا ما شربوها * أخذت أخذ الرقاد

وقيل ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ومن ههنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له فقال هامة عليها من الغمامة عمامة وانملة خضبها الاصيل فكان الهلال منها قلامة وهذا الكاتب حط شيأ وغابت عنه أشياء فانه أخطأ في قوله انملة وأي مقدار للانملة بالنسبة الى تشبيه حصن على رأس جبل وأصاب في المناسبة بين ذكر الانملة والقلامة وتشبيهها بالهلال (فان قيل) ان هذا الكاتب تأسى فيما ذكره بكلام الله تعالى حيث قال الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح فمثل نوره بمشكاة فيها ذبالة وقال الله تعالى والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فمثل الهلال بأصل عذق النخلة (فالجواب) عن ذلك أني

أقول أما تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح فان هذا مثال ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه أنه قال توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية واذا نظرت الى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا عجيبا وذاك أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقي فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشفافة كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها واضاءتها وأما الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربية فانها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم لانه من أرض الحجاز التي لا تميل الى الشرق ولا الى الغرب وأما زيت هذه الزجاجة فانه مضيء من غير أن تمسه نار والمراد بذلك أن فطرته فطرة صافية من الاكدار منيرة من قبل مصافحة الانوار فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية (وأما الآية الاخرى) فانه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم وذلك في هيئة نحوله واستدارته لا في مقداره فان مقدار الهلال عظيم ولا نسبة للعرجون اليه لكنه في مرأى النظر كالعرجون هيئة لا مقدارا وأما هذا الكاتب فان تشبيهه ليس على هذا النسق لانه شبه صورة الحصن بأنملة في المقدار لا في الهيئة والشكل وهذا غير حسن ولا مناسب وانما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقلامة مع ذكر الانملة فأخطأ من جهة وأصاب من جهة لكن خطؤه غطى على صوابه (والقول السديد) في بلاغة التشبيه هو ما أذكره وهو أن اطلاق من أطلق قوله في ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الاصغر بالاكبر غير سديد فان هذا قول غير حاصر للغرض المقصود لان التشبيه يأتي تارة في معرض المدح وتارة في معرض الذم وتارة في غير معرض مدح ولا ذم وانما يأتي قصد البلاغة والايضاح ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب اليه من ذهب بل القول الجامع في ذلك أن يقال ان التشبيه لا يعمد اليه الا لضرب من المبالغة فاما أن يكون مدحا أو ذما أو بيانا وايضاحا ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة واذا كان الامر كذلك فلا بد فيه من تقدير لفظة أفعل فان لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ألا ترى أنا نقول في التشبيه المضمر الاداة زيد أسد فقد شبهنا زيدا بالاسد الذي هو أشجع منه فان لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذي هو المشبه والا كان التشبيه ناقصا اذ لا مبالغة فيه (وأما التشبيه المظهر الاداة) فكقوله تعالى وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه لان خلق السفن الجرية

كبير وخلق الجبال أكبر منه وكذلك اذا شبه شئ حسن بشئ حسن فانه اذا لم يشبه بما هو أحسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة وان شبه قبيح بقبيح وهكذا ينبغي أن يكون المشبه به أقبح وان قصد البيان والايضاح فينبغي أن يكون المشبه به أبين وأوضح فتقدير لطيفة أفعل لابد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه والا كان التشبيه ناقصا فاعلم ذلك وقس عليه (واعلم) انه لا يخلو تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر من أربعة أقسام اما تشبيه معنى بمعنى كالذي تقدم ذكره من قولنا زيد كالاسد واما تشبيه صورة بصورة كقوله تعالى وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون واما تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة وهذا القسم أبلغ الاقسام الاربعة لتمثيله المعاني الموهومة بالصور المشاهدة واما تشبيه صورة بمعنى كقول أبي تمام

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا * فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبالعدا وذلك صورة مرئية بفتك الصبابة وهو فتك معنوي وهذا القسم ألطف الاقسام الاربعة لانه نقل صورة الى غير صورة وكل واحد من هذه الاقسام الاربعة المشار اليها لا يخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضا اما تشبيه مفرد بمفرد واما تشبيه مركب بمركب واما تشبيه مفرد بمركب واما تشبيه مركب بمفرد والمراد بقولنا مفرد ومركب أن المفرد يكون تشبيه شئ واحد بشئ واحد والمركب تشبيه شيئين اثنين بشيئين اثنين وكذلك المفرد بالمركب والمركب بالمفرد فان أحدهما يكون تشبيه شئ واحد بشيئين والآخر يكون تشبيه شيئين بشئ واحد ولست أعني بقولي تشبيه شيئين بشيئين أنه لا يكون الا كذلك بل أردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما كقول بعضهم في الخمر

وكأنها وكأن حامل كأسها * اذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها * بدر الدجى بكواكب الجوزاء

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فانه شبه الساقي بالبدر وشبه الخمر بالشمس وشبه الحبب الذي فوقها بالكواكب (واذ ثبت) أن التشبيه ينقسم الى تلك الاقسام الاربعة فاني أقول ان التشبيه المضمر الاداة قد قدمت القول في أنه ينقسم الى خمسة أقسام فالقسم الاول لا يرد الا في تشبيه مفرد بمفرد والقسم الثاني لا يرد الا في تشبيه مفرد بمركب والقسم الثالث لا يرد الا في تشبيه مركب بمركب

والقسم الرابع والخامس لا يرد ان الا في تشبيه مركب بمركب ألا ترى أنا اذا قلنا في القسم الاول زيد أسد كان ذلك تشبيه مفرد بمفرد واذا قلنا في القسم الثاني ما مثلنا به من الخبر النبوي "وهو الكمأة جدري الارض" كان ذلك تشبيه مفرد بمركب وكذلك بيت البحتري وبيت أبي تمام المشار اليهما فيما تقدم واذا قلنا في القسم الثالث ما أشرنا اليه من الخبر النبوي أيضا الذي هو وهل يكب "الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم كان ذلك تشبيه مركب بمركب واذا قلنا في القسم الرابع والخامس ما مثلنا به من بيتي الفرزدق والبحتري كان ذلك تشبيه مركب بمركب واذا كان الامر كذلك وجاءك شيء من التشبيه المضمر الاداة وهو من القسم الاول فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد واذا جاءك شيء من القسم الثاني فاعلم أنه تشبيه مفرد بمركب واذا جاءك شيء من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب وكذلك اذا جاءك شيء من القسم الرابع والقسم الخامس فانهما من باب تشبيه المركب بالمركب ولنرجع الى ذكر ما أشرنا اليه أولا في تقسيم التشبيه الى الاربعة الاقسام الاخرى التي هي تشبيه مفرد بمفرد وتشبيه مركب بمركب وتشبيه مفرد بمركب وتشبيه مركب بمفرد (فالقسم الاول منها) كقوله تعالى في المضمر الاداة وجعلنا الليل لباسا فشبه الليل باللباس وذلك انه يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربا من عدو أو بياتا لعدو أو اخفاء ما لا يحب "الاطلاع عليه من أمره وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها الا القرآن الكريم فان تشبيه الليل باللباس مما اختص به دون غيره من الكلام المنثور والمنظوم وكذلك قوله تعالى هن لباس لكم وأنتم لباس لهن فشبه المرأة باللباس للرجل وشبه الرجل باللباس للمرأة (ومن محاسن التشبيهات) قوله تعالى نساؤكم حرث لكم وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز الى الحقيقة والحرث هو الارض التي تحرث للزرع وكذلك الرحم يزدرع فيه الولد ازدراعا كما يزدرع البذر في الارض (ومن هذا الاسلوب) قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فشبه تبرأ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ وذلك انه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليهما اسم السلخ وكان ذلك أولى من أن لو قيل يخرج لان السلخ أدل على الالتحام من الاخراج وهذا تشبيه في غاية المناسبة (وكذلك) ورد قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا فشبه انتشار

الشيب باشتعال النار ولما كان الشيب يأخذ فى الرأس ويسعى فيه شيأ فشيأ حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الجسم وتسرى فيه حتى تحيله الى غير حاله الاولى وأحسن من هذا أن يقال انه شبه انتشار الشيب باشتعال النار فى سرعة التهابه وتعذر تلافيه وفى عظم الالم فى القلب به وأنه لم يبق بعده الا الخمود فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به وذلك فى الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم (وقد ورد فى الامثال) الليل جنة الهارب وهذا تشبيه حسن وكذلك من التشبيه المضمر الاداة ومما ورد منه شعرا قول أبى الطيب المتنبى

واذا اهتز للندى كان بحرا * واذا اهتز للوغى كان نصلا

واذا الارض أظلمت كان شمسا * واذا الارض أمحلت كان وبلا

حرف التشبيه ههنا مضمر وتقديره كان كأنه بحر وكان كأنه نصل وكذلك يقال فى البيت الثانى كان كأنه شمس وكان كأنه وبل وهذا تشبيه صورة بصورة وهو حسن فى معناه وكذلك ورد قول أبى نواس وهو فى تشبيه الحبب

فاذا ما اعترضته العين من حيث استدارا

خلته فى جنبات الكأس واوات صغارا

وهذا تشبيه صورة بصورة أيضا وقد أبرز هذا المعنى فى لباس آخر فقال

واذا علاها الماء ألبسها * حبا شبيه جلاجل الحجل

حتى اذا سكنت جوانحها * كتبت بمثل أكارع النمل

(ومن هذا) قول البحترى

تبسم وقطوب فى ندى ووغى * كالرعد والبرق تحت العارض البرد

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه الا أن فيه اخلالا من جهة الصنعة وهى ترتيب التفسير فان الاولى أن كان قدم تفسير التبسم على تفسير القطوب بأن كان قال كالبرق والرعد فانظر أيها المتأمل الى هذا الفن كيف ذهب على البحترى مثل هذا الموضع على قربه مع تقدمه فى صناعة الشعر وليس فى ذلك كبير أمر سوى ان كان قدم ما أخر لا غير واعا يعذر الشاعر فى مثل هذا المقام اذا حكم عليه الوزن والقافية واضطر الى ترك ما يجب عليه وأما اذا كانت الحال كالتى ذكرها البحترى فحينئذ لا عذر له وسيأتى لذلك باب مفرد فى موضعه من هذا الكتاب

ان

ان شاء الله تعالى وهو باب ترتيب التفسير وكذلك ورد قول البحترى

فى معرك ضنك تخال به القنا * بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا

(ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول أبى الطيب المتنبى)

خرجن من النقع فى عارض * ومن عرق الركض فى وابل

فلما نشفن لقين السياط * بمثل صفا البلد الماحل

وقد حوى هذا البيان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ

(وأما القسم الثانى) وهو تشبيه المركب بالمركب فمما جاء منه مضمر الاداة ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث يرويه معاذ بن جبل رضى الله عنه وهو حديث طويل يشتمل على فضائل أعمال متعددة ولاحاجة الى ايراده ههنا على نصه بل نذكر الغرض منه وهو أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك هذا وأشار الى لسانه فقال معاذ أونحن مؤاخذون عما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الاحصائد ألسنتهم فقوله حصائد ألسنتهم من تشبيه المركب بالمركب فانه شبه الالسنة وما تمضى فيه من الاحاديث التى يؤاخذ بها بالمناجل التى تحصد النبات من الارض وهذا التشبيه بليغ عجيب لم نسمع الامن النبى صلى الله عليه وسلم (ومما ورد منه شعرا قول أبى تمام

معشر أصبحوا حصون المعالى * ودروع الاحساب والاعراض

فقوله حصون المعالى من التشبيه المركب وذلك أنه شبههم فى منعهم المعالى أن ينالها أحد سواهم بالحصون فى منعها من بها وحمايته وكذلك قوله دروع الاحساب (وأما المظهر الاداة) فمما جاء منه قوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس فشبهت حال الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض فى جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الارض وذلك التشبيه صورة بصورة وهو من أبدع ما يجىء فى بابه (ومن ذلك أيضا) قوله تعالى فى وصف حال المنافقين مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم

فى ظلمات لا يبصرون تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد نارا فى ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله فاتقى ما يخاف وأمن فيما هو كذلك اذ طفئت ناره فبقى مظلما خائفا وكذلك المنافق اذا أظهر كلمة الايمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده فاذا مات عاد الى الخوف وبقى فى العذاب والنقمة (ومما ورد منه فى الاخبار النبوية) قول النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الايمان والقراءة بالاترجة وهى ذات وصفين هما الطعم والريح وكذلك يجرى الحكم فى المؤمن غير القارئ وفى المنافق القارئ والمنافق غير القارئ (وقد جاءنى شئ من ذلك) أوردته فى فصل من كتاب أصف فيه الحج والمسير فقلت ولم أزل أصل الرميل بالرميل وألف الضحى بالاصيل والارض كالبحر فى سعة صدره والمطايا كالجوارى راكدة على ظهره فكان الركب منها كسكانها من الاكوار ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الادوار (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فكقول البحترى

خلق منهمو تردد فيهم * وليته عصابة عن عصابه
كالحسام الجراز يبقى على الدهر ويفنى فى كل حين قرابه

وكذلك ورد قول ابن الرومى

ادرك ثقاتك انهم وقعوا * فى نرجس معه ابنة العنب
فهمو بحال لو بصرت بها * سبحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر * وشرابهم درر على ذهب

وهذا تشبيه صحيح الا أن تشبيه البحترى أصنع وذلك أن هذا التشبيه صدر عن صورة مشاهدة وذاك انما استنبطه استنباطا من خاطره واذا شئت أن تفرق بين صناعة التشبيه فانظر الى ما أشرت اليه ههنا فان كان أحد التشبيهين عن صورة مشاهدة والآخر عن صورة غير مشاهدة فاعلم أن الذى هو عن صورة غير

مشاهدة أصنع ولعمري ان التشبيهين كليهما لابد فيهما من صورة تحكى لكن
أحدهما شوهدت الصورة فيه فحكيت والآخر استنبطت له صورة لم تشاهد
في تلك الحال وانما الفكر استنبطها ألا ترى أن ابن الرومي نظر الى النرجس
والى الجمر وشبهه وأما البحتري فانه مدح قوما بأن خلق السماح باق فيهم ينتقل
عن الاول الى الآخر ثم استنبط لذلك تشبيها فأداه فكره الى السيف وقربه التي
تفنى في كل حين وهو باق لا يفنى بفنائها ومن أجل ذلك كان البحتري أصنع
في تشبيهه (وسأورد ههنا من كلامي نبذة يسيرة من ذلك) ما كتبته من جملة
كتاب الى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر عكا في سنة خمس
وثمانين وخمسمائة فقلت وأحاط بها العدو احاطة الشفاه بالثغور ونزل عليها
نزول الظلماء على النور وهذا من التشبيهات المناسبة ثم لما انتهيت الى ذكر
قتال المسلمين اياه وازالته عن جانب الثغر قلت وقد اصطدم من الاسلام
والكفر ابنا شمام والتقى من عجاجتهما ظلام وعند ذلك أخذ العدو في التحيز
الى جانب وكان كحاجب على عين فصار كعين في حاجب واذ تزعزع البناء فقد
هوى واذا قص من طرف البساط فقد انطوى وهذا التشبيه في مناسبته
كالاول بل أحسن (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان
فقلت وما شبهت كتابه في وروده وانقباضه الا بطيف الحبيب في اقباله واعراضه
وكلا الامرين كالسهم في ألم وقعه وألم نزعه والمشوق من استوت صبابته
في حالتي وصله وقطعه وما أزال على وجل من ارسال كتبه واحجامها واشتباه
لمها بالمامها (ومما جاء من هذا القسم) في الشعر قول بكر بن النطاح

تراهم ينظرون الى المعالي * كما نظرت الى الشيب الملاح
يحدون العيون الي شزرا * كأن في عيونهم السماح

وهذا بديع في حسنه بليغ في تشبيهه (وعلى هذا النهج) ورد قول أبي تمام

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا * كالحسن شيب لمغرم بدلال

وهذا من غريب ما يأتي في هذا الباب وقد تغالت شيعة أبي تمام في وصف هذا
البيت وهو لعمري كذلك ومن هذا القسم أيضا قوله

كم نعمة لله كانت عنده * فكأنها في غربة واسار
كسيت سبائب لومه فتضاءلت * كتضاؤل الحسناء في الاطمار

(وكذلك قوله)

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه * عنى وعاوده ظنى فلم يخب
كالغيث ان جئته وافاك ريقه * وان ترحلت عنه لج فى الطلب

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول على بن جبلة

اذا ماتردى لأمة الحرب أرعدت * حشا الارض واستدمى الرماح السوارع
وأسفر تحت النقع حتى كأنه * صباح مشى فى ظلمة الليل طالع

وقد أحسن على بن جبلة فى تشبيهه هذا كل الاحسان وكذلك فى الحسن قوله أيضا فى تشبيه الحبب فوق الخمر

ترى فوقها نمشا للمزاج * تبادر لا يتصل اتصالا
كوجه العروس اذا خططت * على كل ناحية منه خالا

(ومن هذا القسم) قول مسلم بن الوليد

تاقى المنية فى أمثال عدتها * كالسيل يقذف جلمودا بجلمود

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول العباس بن الاحنف

لا جزى الله دمع عينى خيرا * وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيأ * ووجدت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى * فاستدلوا عليه بالعنوان

وهذا من اللطيف البديع (ويروى أن أبانواس) لما دخل مصر مادحا للخصيب جلس يوما فى رهط من الادباء وتذكروا ماساره ببغداد فأنشد مرتجلا

ذكر الكرخ نازح الاوطان * فصبا صبوة ولات أوان

ثم أتم ذلك قصيدا مدح به الخصيب فلما عاد الى بغداد دخل عليه العباس بن الاحنف وقال أنشدنى شيأ من شعرك بمصر فأنشده ذكر الكرخ نازح الاوطان فلما استتم الابيات قال له لقد طلت من ناوأك وتخلف عنك من جاراك وحرام على أحد يتفوه بقول الشعر بعدك فقال له أبو نواس وأنت أيضا يا أبا الفضل تقول هذا ألست القائل لا جزى الله دمع عينى خيرا وأنشد الابيات ثم قال ومن الذى يحسن أن يقول مثل هذا (ومن تشبيه المركب بالمركب) قول البحترى

حدق يذود النحل عن أطرافها * كالحرب يمنع ملجه عن مائه

وهذا من محاسن التشبيهات وكذلك ورد قوله

قوله ولم أره مدحا صالحا فى الديوان فلم أره مدحا ودونه أن عصك لبت ان رحلت

وتراه في ظلم الوغى فتخاله * قمراً يكر على الرجال بكوكب

وفي هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فانه شبه العجاج بالظلمة والممدوح بالقمر والسنان بالكوكب وهذا من الحسن النادر وكذلك ورد قوله

يمشون في زغف كأن متونها * في كل معركة متون نهاء

بيض تسيل على الكماة فضولها * سيل السراب بقفرة بيداء

فاذا الاسنة خالطتها خلتها * فيها خيال كواكب في ماء

فالبيتان الاخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب وانما ضممنا البيت الاول سياقة الى معناهما وهو من التشبيه الذي أحسن فيه البحتري وأغرب (ومن هذا الباب) ما ورد لبعض الشعراء في وصف الخمر فقال

كانت سراج أناس يهتدون بها * في سالف الدهر قبل النار والنور

تهتز في الكأس من ضعف ومن هرم * كأنها قبس في كف مقرور

وقد يندر للناظم أو الناثر شيء من كلامه يبلغ الغاية التي لا أمد فوقها وهذان البيتان من هذا القبيل (ومن أغرب ما سمعته في هذا الباب) قول الحسين بن مطير في معن بن زائدة

فتى عيش في معروفه بعد موته * كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(القسم الثالث) في تشبيه المفرد بالمركب (فمما ورد) منه قوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية وكذلك قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن استنجاداً فقلت وهو اذا استصرخ أصرخ بعزم كالشهاب في رجمه وهم كالقوس المملي تسرع سهمه ويرى أن صريخه لم يجب وأنه اذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب فهو مغري جواده وحسامه ويسمع العدو صرير رمحه قبل قعقعة لجامه (وكذلك) أيضاً ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان أدم العراق فقلت والعراق شيء لا كالاشياء وصاحبه ميت لا كالاموات وحي لا كالاحياء وما أراه الا كنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وما يجعل صاحبها في مصباح منها الا تواتر الكتب التي تقيه بعض الوقاء وتقوم له وان لم يسق مقام الاسقاء

(وأما ما ورد منه في الشعر) فكقول أبي نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق

(وكذلك) قول أبي تمام يصف قصيدة له

حذاها مثقفة القوافي ربها * لسوابغ النعماء غير كنود
كالدر والمرجان ألف نظمه * بالشذر في عنق الفتاة الرود

وكذلك ورد قول البحتري وهو من جملة قصيدته المشهورة التي وصف فيها الفرس والسيف وأولها * أهلا بذلكم الخيال المقبل * فقال فيها من أبيات تضمنت وصف السيف بيتا أجاد في تشبيهه

وكأنما سود النمال وحمرها * دبت بأيد في قراه وأرجل

فشبه فرند السيف بدبيب النمل سودها وحمرها وذلك من التشبيه الحسن (وأما ما ورد منه مضمر الاداة) فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن العزل فقال هو الوأد الخفي وهذا تشبيه بليغ والوأد هو ما كانت العرب تفعله في دفن البنات أحياء فجعل العزل في الجماع كالوأد الا أنه خفي وذلك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هربا منهن وهكذا من يعزل في الجماع فانما يفعل ذلك هربا من الولد (وكذلك) قال النبي صلى الله عليه وسلم هو الوأدة الصغرى وهذا من الحسن الى غاية تقصر لها العيون طرفها ولا ينتهي الوصف اليها ويكون ترك وصفها كوصفها (ومما جاءني من ذلك) فصل من جملة كتاب ضمنته وصف القلم فقلت جدع أنفه فصار في الكيد قصيرا وأرهف صدره فصار في المضاء قصيرا وقمص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب ونكس رأسه وهي صورة الادلال فاحتال في مشيه من الاعجاب وأوحى اليه بنجوى الخواطر وهو الاصم فاصغى بما سمعه الى الكتاب وهذه الاوصاف غريبة جدا ومن أغربها ذكر قصير عند جدع الانف (وأما القسم الرابع) وهو تشبيه المركب بالمفرد فانه قليل الاستعمال بالنسبة الى الاقسام الثلاثة وليس ذلك الا لعدم النظير بين المشبه والمشبه به وعلى كثرة ما حفظته من الاشعار لم أجد ما أمثل به هذا القسم الا مثالا واحدا وهو قول أبي تمام في وصف الربيع

يا صاحبي تقصيا نظريكما * تريا وجوه الارض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه * زهر الربا فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الابيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع في موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة (ولربما اعترض في هذا الموضع معترض) وقال انك أوردت هذا القسم من التشبيه وذكرت أنه قليل وليس كذلك فان تشبيه شيئين بشئ واحد كثير كقول أبي الطيب المتنبي

تشرق أعراضهم وأوجههم * كأنها في نفوسهم شيم

فشبه اشراق الاعراض والوجوه باشراق الشيم (الجواب عن ذلك) اني أقول هذا البيت المعترض به على ما ذكرته ليس كالذي ذكرته فاني أردت أن يشبه شيآن هما كشئ واحد في الاشتراك بشئ واحد ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر وهما شيآن مشتركان قد شبها بضوء القمر وأما هذا البيت الذي لأبي الطيب المتنبي فانه تشبيه شيئين كل واحد منهما مفرد برأسه بشئ واحد لانه شبه اشراق الاعراض واشراق الوجوه باشراق الشيم وهذا غير ما أردته أنا لكن ينبغي أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين أحدهما تشبيه شيئين مشتركين بشئ واحد كالذي أوردته لأبي تمام وهو قليل الاستعمال والآخر تشبيه شيئين منفردين بشئ واحد كالذي ذكرته أنت لابي الطيب المتنبي وهو كثير الاستعمال (واذ ذكرنا أقسام التشبيه) وبينا المحمود منها الذي ينبغي اقتفاء أثره واتباع مذهبه فلنتبعه بضده مما ينبغي اجتنابه والاضراب عنه على أنه قد قدمنا القول بأن حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به فاذا لم يكن بهذه الصفة أو كان بين المشبه والمشبه به بعد فذلك الذي يطرح ولا يستعمل والذي يرد منه مضمر الاداة لا يكون الا في القسم الواحد من أقسام المجاز وهو التوسع وقد قدمت القول في ذلك في أول باب الاستعارة وضربت له أمثلة منها قول أبي نواس

ما لرجل المال أمست * تشتكي منك الكلالا

فجعل للمال رجلا وذلك تشبيه بعيد ولا حاجة الى اعادة ذلك الكلام ههنا جملته لكن قد أشرت اليه اشارة خفيفة (ومن أقبح ما سمعته من ذلك) قول أبي تمام

وتقاسم الناس السخاء مجزأ * وذهبت أنت برأسه وسنامه

وتركت للناس الاهاب وما بقي * من فرثه وعروقه وعظامه

قوله وتقاسم في الديوان وتقسم اهـ

والقبح الفاحش في البيت الثاني وكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة حول معنى ليس بطائل فان غرضه أن يقول ذهب بالاعلى وترك للناس الادنى أو ذهبت بالجيد وتركت للناس الردي. وقد عيب عليه قوله

لا تسقني ماء الملام فانني * صب قد استعذبت ماء بكائي

وقيل انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد وما بهذا التشبيه عندي من باس بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم وهو قريب من وجه بعيد من وجه أما سبب قربه فهو أن الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لامر جناه وذلك مختص بالسمع فنقله أبو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق كأنه قال لا تذقني الملام ولو تم له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيها حسنا لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيأ ولما كان السمع يتجرع الملام أولا أولا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به وهو تشبيه معنى بصورة وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مستلذ والملام مستكره فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه فهذا التشبيه أن بعد من وجه فقد قرب من وجه فيغفر هذا بهذا ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم (وقد روى) وهو رواية ضعيفة أن بعض أهل المجانة أرسل الى أبي تمام قارورة وقال ابعث لي في هذه شيأ من ماء الملام فأرسل اليه أبو تمام وقال اذا بعثت الي ريشة من جناح الذل بعثت اليك شيأ من ماء الملام وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين فانه ليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام فان الجناح للذل مناسب وذلك أن الطائر اذا وهن أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الارض وللانسان أيضا جناح فان يديه جناحاه واذا اخضع واستكان طأطأ من رأسه وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصار تشبيها مناسبا وأما الماء للملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه (وأما التشبيه المضمر الاداة) من هذا الباب فقد أوردت له أمثلة يستدل بها على أشباهه وأمثاله فان لذكر المثال فائدة لا تكون لذكر الحد وحده (فمن ذلك) قول بعضهم

فلاح حبيك الشيب حتى كأنه * قطا جرت منها سنيح وبارح

(وكذلك) قول الآخر يصف السهام

كساها رطيب الريش فاعتدلت له * قداح كأعناق الظباء الفوارق

فانه شبه السهام بأعناق الظماء وذلك من أبعد التشبيهات وعلى نحو منه قول الفرزدق

يمشون في حلق الحديد كما مشت * جرب الجمال بها الكحيل المشعل

شبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب وهذا من التشبيه البعيد لانه ان أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون لان لون الحديد أبيض ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ومع ذلك يكون هذا التشبيه بعيدا فانه تشبيه معيب (ومن التشبيهات الباردة) قول أبي الطيب المتنبي

وجرى على الورق النجيع القانى * فكانه النارنج في الاغصان

وهذا التشبيه يسكره أهل الصميم واذا قسمت التشبيهات بعد البعد والبرد كان طرفي ذلك التقسيم وأبشع من هذا قول أبي نواس في الخمر

كان بواسارروا كدحولها * وورق سماير تدير عيونها

(والعجب) أنه يقول مثل هذا العبث الذي لاملاءمة بينه وبين ماشبه به ويقرنه بالبديع البارد الذي أحسن فيه وأبدع وهو

كأنما حلول بين أكناف روضة * اذا ما سلبناها مع الليل طيبها

فانظر كيف قرن بين ورده وسعدانه لابل بين بعره ومرجانه وقد أكثر في تشبيه الخمر فأحسن في موضع وأساء في موضع ومن اساءته قوله أيضا في أبيات لامية

واذا ما الماء واقعها * أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها * كانحدار الذر من جبل

شبه الحبب في انحداره بنمل صغار ينحدر من جبل وهذا من البعد على غاية لايحتاج الى بيان وايضاح (واعلم) أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس وهو أن يجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الاصول ولاتجد شيأ من ذلك الا والغرض به المبالغة (فمما جاء من ذلك) قول ذي الرمة

ورمل كارداف العذارى قطعته * اذا ألبسته المظلمات الحنادس

ألاترى الى ذي الرمة كيف جعل الاصل فرعا والفرع أصلا وذلك أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الانقاء وهو مطرد في بابه فعكس ذو الرمة القضية في ذلك فشبه كثبان الانقاء بأعجاز النساء وانما فعل ذلك مبالغة أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لاعجاز النساء وصار كأنه الاصل حتى شبهت

قوله كأن بواسارر كذا في النسخ ولم أره في الديوان ولم يظهر

بالكثبان الانقاء وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى

في طلعة البدر شيء من محاسنها * وللقضيب نصيب من تثنيها

وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز في قصيدته المشهورة التي أولها

سقى المطيرة ذات الظل والشجر * فقال في تشبيه الهلال

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا * مثل القلامة قد قدت من الظفر

ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه هو الاصل وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جنى في كتاب الخصائص وأورده هكذا مهملا (ولما نظرت أنا في ذلك) وأنعمت نظرى فيه تبين لى ما أذكره وهو أنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفعل أى يشبه بما هو أبين وأوضح أو بما هو أحسن منه أو أقبح وكذلك تشبيه الاقل بالاكثر والادنى بالاعلى وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة لان الذى قدمنا ذكره مطرد في بابه وعليه مدار الاستعمال وهذا غير مطرد وانما يحسن في عكس المعنى المتعارف وذاك أن تجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به ولا يحسن في غير ذلك مما ليس بمتعارف ألا ترى أن من العادة والعرف أن تشبه الاعجاز بالكثبان فلما عكس ذو الرمة هذه القضية في شعره جاء حسنا لائقا وكذلك فعل البحترى فان من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقد الحسن بالقضيب فلما عكس البحترى القضية في ذلك جاء أيضا حسنا لائقا ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الاعجاز لما حسن ذلك وهكذا لو شبه البحترى طلعة البدر بغير طلعة الحسناء والقضيب بغير قدها لما حسن ذلك أيضا وهكذا القول في تشبيه عبد الله بن المعتز صورة الهلال بالقلامة لان من العادة أن تشبه القلامة بالهلال فلما صار ذلك مشهورا متعارفا حسن عكس القضية فيه

(النوع الثالث في التجريد) وهذا اسم كنت سمعته فقال القائل التجريد في الكلام حسن ثم سكت فسألته عن حقيقته فقال كذا سمعت ولم يرد شيأ فأنعمت حينئذ نظرى في هذا النوع من الكلام فألقى في روعى أنه ينبغي أن يكون كذا وكذا وكان الذى وقع لى صوابا ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ووصل الى ما ذكره أبو على الفارسى رحمه الله تعالى وقد أورده هو لما ذكرت ما أتيت به

من ذات خاطري من زيادة لم يذكرها وستقف أيها المتأمل على كلامه وكلامي (وأما حد التجريد) فإنه إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه لأن أصله في وضع اللغة من جردت السيف إذا نزعته من غمده وجردت فلانا إذا نزعت ثيابه ومن ههنا قال صلى الله عليه وسلم لا مد ولا تجريد وذلك في النهي عند إقامة الحد أن يمد صاحبه على الأرض وأن تجرد عنه ثيابه وقد نقل هذا المعنى إلى نوع من أنواع علم البيان (وقد تأملته فوجدت له فائدتين) إحداهما أبلغ من الأخرى (فالأولى) طلب التوسع في الكلام فإنه إذا كان ظاهره خطابا لغيرك وباطنه خطابا لنفسك فإن ذلك من باب التوسع وأظن أنه شيء اختصت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات (والفائدة الثانية) وهي الأبلغ وذلك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه إذ يكون مخاطبا بها غيره ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه (وعلى هذا فإن التجريد ينقسم قسمين) أحدهما تجريد محض والآخر تجريد غير محض (فالأول) وهو المحض أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالحيص بيص في مطلع قصيدة له

إلام يراك المجد في زي شاعر * وقد نحلت شوقا فروع المنابر
كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة * ببعضهما ينقاد صعب المفاخر
أما وأبيك الخير إنك فارس الـ * ـمقال ومحيي الدارسات الغوابر
وإنك أعييت المسامع والنهى * بقولك عما في بطون الدفاتر

فهذا من محاسن التجريد ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه كي يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة وعد ما عدده من الفضائل التائهة وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المحض (وأما ما قصد به التوسع خاصة) فكقول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة

حننت إلى ريا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعباكما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا * وتجزع أن داعي الصبابة أسمعا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع لأنه قال

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني * على كبدي من خشية أن تصدعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا * وما أحسن المصطاف والمتربعا

فانتقل من الخطاب التجريدي الى خطاب النفس ولو استمرّ على الحالة الاولى لما قضي عليه بالتوسع وانما كان يقضى عليه بالتجريد المليح الذي هو الطرف الآخر ويتأول له بأن غرضه من خطاب غيره أن ينفي عن نفسه سمعة الهوى ومعرّة العشق لما في ذلك من الشهرة والفضاحة لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد أولا الى خطاب النفس (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبي الطيب المتنبي

لا خيل عندك تهديها ولا مال * فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

واجز الامير الذي نعماه فاجئة * بغير قول ونعمى القوم أقوال

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الاخشيدي بمصر وكان وصله بصلة سنية من نفقة وكسوة قبل أن يمدحه ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة وهي من غرر شعره وقد بنى مطلعها على المعنى المشار اليه من ابتداء فاتك اياه بالصلة قبل المديح وليس في التجريد المذكور في هذين البيتين ما يدل على وصف النفس ولا على تركيبها بالمديح كما ورد في الابيات الرائية المتقدم ذكرها وانما هو توسع لا غير (وأما القسم الثاني) وهو غير المحض فانه خطاب لنفسك لا لغيرك ولئن كان بين النفس والبدن فرق الا أنهما كأنهما شيء واحد لعلاقة أحدهما بالآخر وبين هذا القسم والذي قبله فرق ظاهر وذلك أولى بأن يسمى تجريدا الا ان التجريد لائق به وهذا هو نصف تجريد لانك لم تجرّد به عن نفسك شيأ وانما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهي منك (فمما جاء منه) قول عمرو بن الاطنابة

أقول لها وقد جشأت وجاشت * رويدك تحمدي أو تستريحي

وكذلك قول الآخر

أقول للنفس تأساء وتعزية * احدى يدي أصابتني ولم ترد

وليس في هذا ما يصلح أن يكون خطابا لغيرك كالاول وانما المخاطب هو المخاطب بعينه وليس ثم شيء خارج عنه (وأما الذي ذكره أبو علي الفارسي رحمه الله) فانه قال ان العرب تعتقد أن في الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى الى ألفاظها مجردا من الانسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر وهو عينه الاسد والبحر لا أن هناك شيأ منفصلا عنه أو متميزا منه ثم قال وعلى

قوله ونعمى القوم في الديوان ونعمى الناس اه

هذا اللفظ كون الانسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الاعشى
وهل تطيق وداعا أيها الرجل * وهو الرجل نفسه لا غيره هذا خلاصة ما ذكره
أبو علي رحمه الله (والذي عندي فيه) أنه أصاب في الثاني ولم يصب في الاول لأنّ
الثاني هو التجريد ألا ترى أنّ الاعشى جرّد الخطاب عن نفسه وهو يريدها وأما
الاوّل وهو قوله لئن لقيت فلانا لتلقينّ به الاسد ولئن سألته لتسألنّ منه البحر
فانّ هذا تشبيه مضمر الاداة اذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه وبيان ذلك أنك
تقول لئن لقيت فلانا لتلقينّ منه كالاسد ولئن سألته لتسألنّ منه كالبحر وليس
هذا تجريد لانّ حقيقة التجريد غير موجودة فيه وانما هو تشبيه مضمر الاداة
ألا ترى أنّ المذكور هو كالاسد وهو كالبحر وليس ثمّ شئ مجرّد عنه كما تقدم في
الابيات الشعرية ويبطل على أبي عليّ قوله أيضا من وجه آخر وذاك أنه قال
انّ العرب تعتقد أنّ في الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج
ذلك المعنى الى ألفاظها مجرّدا من الانسان كأنه غيره وهو هو كالمثال الذي مثله
في تشبيهه بالاسد وتشبيهه بالبحر وهذا ينتقض بقولنا لئن رأيت الاسد لترينّ
منه غصة ولئن لقيته لتلقينّ منه الموت فانّ الصورة التي أوردها في الانسان
وزعم أنّ العرب تعتقد أنّ ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها في الاسد فتخصيصه
ذلك بالانسان باطل وكلا الصورتين ليس بتجريد وانما هو تشبيه مضمر الاداة
وقد سبق القول بأنّ التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد
وانما المراد نفسك وهذا لا يوجد في هذا المثال المضمر الاداة بل المخاطب هو هو
لا غيره فلا يطلق عليه اذا اسم التجريد لانه خارج عن حقيقته ومناف لموضوعه
فاذا قال القائل لئن لقيته لتلقينّ به كالاسد ولئن سألته لتسألنّ منه كالبحر لم يجرّد
عن المقول عنه شيأ وانما شبهه تارة بالاسد في شجاعته وتارة بالبحر في سخائه وما
أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبي علي رحمه الله حتى خلطه بالتجريد وأجراه مجراه
وأما قوله انّ العرب تعتقد أنّ في الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله
فأقول وغير العرب أيضا تعتقد ذلك فان عنى بالمعنى الكامن معنى الانسانية
الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع فهذا ليس الشئ الغريب الخفيّ الذي
علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه أبو علي رحمه الله وان عنى بالمعنى
الكامن ما فيه من الاخلاق كالشجاعة والسخاء في المثال الذي ذكره حتى يشبه

بالاسد تارة وبالنمر أخرى فليس الانسان مختصا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات بل الاسد فيه من معنى الشجاعة ما ليس فى الانسان ولهذا اذا بولغ فى وصف الانسان بالشجاعة شبه بالاسد وكذلك فى بعض الحيوانات من السخاء ما ليس فى الانسان ومن الامثال أكرم من ديك لانه اذا ظفر بحبة من الحنطة أخذها فى منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها فى منقار واحدة منهن فالاخلاق اذا مشتركة بين الانسان وبين غيره من الحيوانات غير أن الانسان يجتمع فيه ما تفرق فى كثير منها وما أعلم ما أراد أبو على رحمه الله بقوله ان فى الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله الا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت اليهما على أن القسم الواحد الذى هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الاخلاق ليس عبارة عن حقيقة الانسان اذ لا يقال فى حده حيوان شجاع ولا سخى بل يقال حيوان ناطق فالنطق الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الانسان فبطل اذا قول أبى على رحمه الله فى تمثيله حقيقة الانسان بالشجاعة والسخاء فالخطأ توجه فى كلامه من وجهين أحدهما أنه جعل حقيقة الانسان عبارة عن خلقه والآخر أنه أدخل فى التجريد ما ليس منه وهذا القدر كاف فى هذا الموضع فليتأمل

قوله على أن الخ هذا الفرق ساقط فكان اه

(النوع الرابع فى الالتفات) وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التى حولها يدندن واليها تستند البلاغة وعنها يعنعن وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لانه ينتقل فيه عن صيغة الى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب أو من خطاب غائب الى حاضر أو من فعل ماض الى مستقبل أو من مستقبل الى ماض أو غير ذلك مما يأتى ذكره مفصلا ويسمى أيضا شجاعة العربية وانما سمى بذلك لان الشجاعة هى الاقدام وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورده سواه وكذلك هذا الالتفات فى الكلام فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات (وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام القسم الاول فى الرجوع من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة) اعلم أن عامة المنتمين الى هذا الفن اذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة الى الخطاب

الالتفات

وعن الخطاب الى الغيبة قالوا وكذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال ونحن انما نسأل عن السبب الذى قصدت العرب ذلك من أجله وقال الزمخشرى رحمه الله ان الرجوع من الغيبة الى الخطاب انما يستعمل للتفنن فى الكلام والانتقال من أسلوب الى أسلوب تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه وليس الامر كما ذكره لان الانتقال فى الكلام من أسلوب الى أسلوب اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا للاستماع وهذا قدح فى الكلام لا وصف له لانه لو كان حسنا لما مل ولو سلمنا الى الزمخشرى ما ذهب اليه لكان انما يوجد ذلك فى الكلام المطول ونحن نرى الامر بخلاف ذلك لانه قد ورد الانتقال من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب الى أسلوب انما يستعمل قصد المخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه لا قصدا لاستعمال الاحسن وعلى هذا فاذا وجدنا كلاما قد استعمل فيه جميعه الايجاز ولم ينتقل عنه أو استعمل فيه جميعه الاطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعا فى موقعه قلنا هذا ليس بحسن اذ لم ينتقل فيه من أسلوب الى أسلوب وهذا قول فيه ما فيه وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة (والذى عندى فى ذلك) أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب الى أسلوب غير أنها لا تحد بحد ولا تضبط بضابط لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الاول قد استعمل فى الانتقال من الخطاب الى الغيبة فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة واحدة وانما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر وانما يؤتى بها على حسب الموضع الذى ترد فيه وسأوضح ذلك فى ضرب من الامثلة الآتى ذكرها فأما الرجوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة الحمد لله رب

العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط
المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم هذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ومما
يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله إياك نعبد وإياك نستعين بعد قوله الحمد لله
رب العالمين فانه انما عدل فيه من الغيبة الى الخطاب لان الحمد دون العبادة
ألا ترى انك تحمد نظيرك ولا تعبده فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد
لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال الحمد لله ولم يقل الحمد لك ولما صار الى العبادة
التي هي أقصى الطاعات قال إياك نعبد فخاطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز
اسمه بالانتهاء الى محدود منها وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال صراط
الذين أنعمت عليهم فاصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم قال غير المغضوب عليهم
عطفا على الاول لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه فلما صار الى ذكر
الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب فاسند النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ
الغضب تحننا ولطفا فانظر الى هذا الموضع وتناسب هذه المعاني الشريفة التي
الاقدام لا تكاد تطؤها والافهام مع قربها صافحة عنها وهذه السورة قد انتقل
في أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل في آخرها من
الخطاب الى الغيبة لتلك العلة بعينها وهي تعظيم شان المخاطب أيضا لان مخاطبة
الرب تبارك وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه وكذلك ترك مخاطبته
باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من
الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها (ومن هذا
الضرب) قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا وانما قيل لقد
جئتم وهو خطاب للحاضر بعد قوله وقالوا وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهي
زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على
عظم ما قالوه كانه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا عليهم وموبخا لهم
(ومما جاء من الالتفات) مرارا على قصر متنه وتقارب طرفيه قوله تعالى أول
سورة بني اسرائيل سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير فقال أولا سبحان
الذي أسرى بلفظ الواحد ثم قال الذي باركنا بلفظ الجمع ثم قال انه هو السميع
البصير وهو خطاب غائب ولو جاء الكلام على مساق الاول لكان سبحان الذي

أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من
آياتنا إنه هو السميع البصير وهذا جميعه يكون معطوفا على أسرى فلما خولف
بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعا
وتفننا في أساليب الكلام ولمقصد آخر معنوي هو أعلى وأبلغ (وسأذكر ما سنح
لي فيه فأقول) لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذي أسرى إذ لا يجوز أن
يقال الذي أسرينا فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء وهو أولى بخطاب
العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع استدرك الأول بالثاني فقال باركنا ثم قال
لنريه من آياتنا فجاء بذلك على نسق باركنا ثم قال إنه هو عطفا على أسرى وذلك
موضع متوسط الصفة لأن السميع والبصير صفتان يشاركه فيهما غيره وتلك حال
متوسطة فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب غائب فانظر إلى هذه
الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعان اختصت بها يعرفها
من يعرفها ويجهلها من يجهلها (ومما يندرج في هذا السلك) الرجوع من خطاب
الغيبة إلى خطاب النفس كقوله تعالى ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال
لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين
وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز
العليم وهذا رجوع من الغيبة إلى خطاب النفس فإنه قال وزينا بعد قوله ثم
استوى وقوله فقضاهن وأوحى والفائدة في ذلك أن طائفة من الناس غير
المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا وأنها ليست حفظا ولا رجوما
فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس لأنه مهم
من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه وفي خلاف
هذا الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الغيبة (ومما يندرج في هذا السلك
أيضا) الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة كقوله تعالى وما لي لا أعبد
الذي فطرني وإليه ترجعون وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم
لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم
ويداريهم لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه
وقد وضع قوله وما لي لا أعبد الذي فطرني مكان قوله وما لكم لا تعبدون الذي
فطركم ألا ترى إلى قوله وإليه ترجعون ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني

واليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال انى آمنت بربكم فاسمعون (فانظر) أيها المتأمل الى هذه النكت الدقيقة التى تمر عليها فى آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها وعلى هذا الاسلوب يجرى الحكم فى الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الواحد كقوله تعالى حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم والفائدة ههنا فى الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الواحد تخصيص النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر والاشارة بأن انزال الكتاب انما هو اليه وان لم يكن ذلك صريحا لكن مفهوم الكلام يدل عليه واذا تأملت مطاوى القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة وانما اقتصرنا على هذه الامثلة المختصرة ليقاس عليها ما يجرى على أسلوبها وقد ورد فى فصيح الشعر شئ من ذلك كقول أبى تمام

وركب يساقون الركاب زجاجة * من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى * وصارت لهم أشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جذيل مشارق * اذا آبه هم عذيق مغارب
يرى بالكعاب الرود طلعة ثائر * وبالعرمس الوجناء غرة آيب
كأن بها صغوا على كل جانب * من الارض أوشوقا الى كل جانب
اذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد * تقطع ما بينى وبين النوائب
هنالك تلقى الجود من حيث قطعت * تمائمه والمجد مرخى الذوائب

ألا ترى أنه قال فى الاول يصرف مسراها مخاطبة للغائب ثم قال بعد ذلك اذا العيس لاقت بى مخاطبا نفسه وفى هذا من الفائدة أنه لما صار الى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشرا لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب ثم جاء بالبيت الذى يليه معدولا به عن خطاب نفسه الى خطاب غيره وهو أيضا خطاب لحاضر فقال هنالك تلقى الجود والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه اشادة بذكره وتنويها باسمه وحثا لغيره على قصده وفى صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البديعة وفى قوله حيث قطعت تمائمه ما يقتضى له الرجوع الى خطاب الحاضر والمراد

قوله وصارت لهم فى نسخة من الديوان وصارت لها أشباحهم وفى أخرى وصارت لهم أشباحا انتهى مصححه

بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه وقد يراد به معنى آخر وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المن والمطل والاعتذار وغير ذلك اذ التمائم لا تقطع الا عن أمنت عليه المخاوف وعلى هذا النهج ورد قول أبي الطيب المتنبي في قصيدة يمدح بها ابن العميد في النوروز ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم وقال في آخر القصيدة

كثر الفكر كيف نهدي كما أهـ * ـدت الى ربها الرئيس عباده

والذي عنده تأمن المال والخيـ * ـل فنهدي سماءه وبلاده

فبعثنا بأربعين مهارا * كل مهر ميدانه انشاده

عدد عشته يرى الجسم فيه * أربا لا يراه فيما يزاده

فارتبطها فان قلبا نماها * مربط تسبق الجياد جياده

وهذا من احسان أبي الطيب المعروف وهو رجوع عن خطاب الغائب الى الحاضر واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالاربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة وهي أنه جعلها كعدد السنين التي يرى الانسان فيها من القوة والشباب وقضاء الاوطار ما لا يراه في الزيادة عليها فاعتذر بألطف اعتذار في أنه لم يرد القصيد على هذه العدة وهذا حسن غريب (وأما الرجوع من الخطاب الى الغيبة) فكقوله تعالى هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فانه انما صرف الكلام ههنا من الخطاب الى الغيبة لفائدة وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الانكار عليهم ولو قال حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها وساق الخطاب معهم الى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام (ومما يندرج في هذا السلك) قوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون الاصل في تقطعوا تقطعتم عطفا على الاول الا أنه صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه الى قوم آخرين ويقبح عندهم ما فعلوه ويقول ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى فجعلوا أمر دينهم

فيما بينهم قطعا أو ذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن
هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوا (ومما يجري هذا
المجرى) قوله تعالى يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات
والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن
بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون فإنه إنما قال فآمنوا بالله ورسوله ولم يقل
فآمنوا بالله وبي عطفا على قوله إني رسول الله إليكم لكي تجري عليه الصفات
التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص
الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وبكلماته كائنا من كان أنا أو غيري
إظهارا للنصفة وبعدا من التعصب لنفسه فقدر أولا في صدر الآية إني رسول
الله إلى الناس ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين
الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه والثاني الخروج من تهمة التعصب لنفسه
(القسم الثاني في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل
الماضي إلى فعل الأمر) وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من
صيغة إلى صيغة طلبا للتوسع في أساليب الكلام فقط بل لأمر وراء ذلك وإنما
يقصد إليه تعظيما لحال من أجري عليه الفعل المستقبل وتفخيما لأمره وبالضد
من ذلك فيمن أجري عليه فعل الأمر (فمما جاء منه) قوله تعالى يا هود ما جئتنا ببينة
وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك
بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون فإنه إنما
قال أشهد الله واشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه لأن إشهاده
الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم
ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف
ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد
علي أني أحبك تهكما به واستهانة بحاله وكذلك يرجع عن الفعل الماضي إلى فعل
الأمر إلا أنه ليس كالأول بل إنما يفعل ذلك توكيدا لما أجري عليه فعل الأمر
لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند
كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين الآية وكان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط
وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده

في نفوسهم فان الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم اتبعها بالاخلاص الذي هو عمل القلب اذ عمل الجوارح لا يصح الا باخلاص النية ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات (واعلم) أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الالفاظ الى صيغة أخرى لا يكون الا لنوع خصوصية اقتضت ذلك وهو لا يتوخاه في كلامه الا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما وفتش عن دفائنهما ولا تجد ذلك في كل كلام فانه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا (القسم الثالث في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي) فالاول الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضي اعلم أن الفعل المستقبل اذا أتى به في حالة الاخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي و ذلك لان الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كان السامع شاهدها وليس كذلك الفعل الماضي وربما أدخل في هذا الموضع ما ليس منه جهلا بمكانه فانه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض يجاز هذا المجرى وسأبين ذلك فأقول عطف المستقبل على الماضي ينقسم الى ضربين أحدهما بلاغي وهو اخبار عن ماض بمستقبل وهو الذي أنا بصدد ذكره في كتابي هذا الذي هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة والآخر غير بلاغي وليس اخبارا بمستقبل عن ماض وانما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض * فالضرب الاول كقوله تعالى والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور فانه انما قال فتثير مستقبلا وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذي أشرنا اليه وهو حكاية الحال التي يقع فيها اثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك وعلى هذا الاسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه في غزوة بدر فانه قال لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لأمة كاملة لا يرى منه الا عيناه وهو يقول أنا أبو ذات الكرش وفي يدي عنزة فأطعن بها في عينه فوقع وأطأ برجلي على خده حتى خرجت العنزة متعقفة فقوله فاطعن بها في عينه وطأ برجلي

معدول به عن لفظ الماضي الى المستقبل ليمثل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الاقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم ألا ترى أنه قال أولا لقيت عبيدة بلفظ الماضي ثم قال بعد ذلك فأطعن بها في عينه ولو عطف كلامه على أوله لقال فطعنت بها في عينه وعلى هذا ورد قول تأبط شرا

بأني قد لقيت الغول تهوي * بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت * صريعا لليدين وللجران

فانه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يبصرهم اياها مشاهدة للتعجب من جراءته على ذلك الهول ولو قال فضربتها عطفا على الاول لزالت هذه الفائدة المذكورة (فان قيل) ان الفعل الماضي أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل (قلت في الجواب) ان التخيل يقع في الفعلين معا لكنه في أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشد تخيلا لانه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر الى فاعلها في حال وجود الفعل منه ألا ترى أنه لما قال فأضربها بلا دهش تخيل للسامع أنه مباشر للفعل وأنه قائم بإزاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها وهذا لا يوجد في الفعل الماضي لانه لا يتخيل السامع منه الا فعلا قد مضى من غير احضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه وهذا لا خلاف فيه وهكذا يجري الحكم في جميع الآيات المذكورة وفي الاثر عن الزبير رضي الله عنه وفي الابيات الشعرية وعليه ورد قوله تعالى أيضا وهو ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق فقال أولا خر من السماء بلفظ الماضي ثم عطف عليه المستقبل الذي هو فتخطفه وتهوي وانما عدل في ذلك الى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير اياه وهوي الريح به والفائدة في ذلك ما أشرت اليه فيما تقدم وكثيرا ما يراعى أمثال هذا في القرآن * وأما الضرب الذي هو مستقبل فكقوله تعالى ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله فانه انما عطف المستقبل على الماضي لان كفرهم كان ووجد ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا وصدهم متجدد على الايام لم يمض كونه وانما هو مستمر يستأنف في كل حين وكذلك ورد قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة

ان الله لطيف خبير ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا الى المستقبل فقال فتصبح الارض مخضرة ولم يقل فأصبحت عطفا على أنزل وذلك لافادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان فانزال الماء مضى وجوده واخضرار الارض باق لم يمض وهذا كما تقول أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع لانه يدل على ماض قد كان وانقضى وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل (واما الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل) فهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته أن الفعل الماضي اذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وايجاده لان الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المستقبل من الاشياء العظيمة التي يستعظم وجودها والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على ايجاد الفعل الذي لم يوجد بعد فمن أمثلة الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض فانه انما قال ففزع بلفظ الماضي بعد قوله ينفخ وهو مستقبل للاشعار بتحقيق الفزع وأنه كائن لا محالة لان الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به وكذلك جاء قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وانما قال وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الاحوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك لان الحشر هو المهم لان من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي (ومما يجري هذا المجرى) الاخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل وانما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي وقد سبق الكلام عليه (فمن ذلك) قوله تعالى ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود فانه انما آثر اسم المفعول الذي هو مجموع على الفعل المستقبل الذي هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذه الصفة وان شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع فانك تعثر على صحة ما قلت (النوع الخامس في توكيد الضميرين)

في توكيد الضميرين

(فإن قيل) في هذا الموضع إن الضمائر مذكورة في كتب النحو فأي حاجة إلى ذكرها ههنا ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته (قلت) إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة وأولئك لا يتعرضون إليه وإنما يذكرون عدد الضمائر وأن المنفصل منها كذا والمتصل كذا ولا يتجاوزون ذلك وأما أنا فإني أوردت في هذا النوع أمرا خارجا عن الأمر النحوي وأعني بقولي توكيد الضميرين أن يؤكد المتصل بالمنفصل كقولك إنك أنت أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله كقولك أنت أنت أو يؤكد المتصل بمتصل مثله كقولك إنك إنك لعالم أو إنك إنك لجواد وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة وهو من أسرار علم البيان (والمقدم في ذلك قولا يحصره ويجمع أطرافه فنقول) إذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتا في النفوس فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر وإذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالأولى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه لتقرره وتثبته (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا إما أن تلقي وإما أن نلقي لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم وإما أن نكون نحن الملقين استدل بهذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله (وأما توكيد المتصل بالمتصل) فكقوله تعالى في سورة الكهف فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا وهذا بخلاف قصة السفينة فإنه قال فيها ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى فقال في الأولى ألم أقل إنك وقال في الثانية ألم أقل لك إنك وإنما جيء بذلك للزيادة في مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة والوسم بعدم الصبر وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهيته عنه فلمته وعنفته ثم أتى ذلك مرة ثانية أليس إنك تزيد في لومه وتعنيفه وكذلك فعل ههنا فإنه قيل في الملامة أولا ألم أقل ثم قيل ثانيا ألم أقل لك إنك وهذا موضع يدق عن العثور عليه بادرة النظر

مالم يعط التأمل فيه حقه (وأما توكيد المتصل بالمنفصل) فنحو قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى فتوكيد الضميرين ههنا في قوله انك أنت الاعلى أنفى للخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه للغلبة والقهر ولو قال لا تخف انك الاعلى أو فأنت الاعلى لم يكن له من التقرير والاثبات لنفي الخوف ما لقوله انك أنت الاعلى (وفي هذه الكلمات الثلاث) وهي قوله انك أنت الاعلى ست فوائد (الاولى) ان المشددة التي من شأنها الاثبات لما يأتي بعدها كقولك زيد قائم ثم تقول ان زيدا قائم ففي قولك ان زيدا قائم من الاثبات لقيام زيد ما ليس في قولك زيد قائم (الثانية) تكرير الضمير في قوله انك أنت ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة في التقرير لغلبة موسى والاثبات لقهره (الثالثة) لام التعريف في قوله الاعلى ولم يقل أعلى ولا عال لانه لو قال ذلك لكان قد نكره وكان صالحا لكل واحد من جنسه كقولك رجل فانه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال واذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علما فيهم وكذلك جاء قوله تعالى انك أنت الاعلى أي دون غيرك (الرابعة) لفظ أفعل الذي من شأنه التفضيل ولم يقل العالي (الخامسة) اثبات الغلبة له من العلو لان الغرض من قوله الاعلى أي الاغلب الا أن في الاعلى زيادة وهي الغلبة من عال (السادسة) الاستئناف وهو قوله تعالى لا تخف انك أنت الاعلى ولم يقل لانك أنت الاعلى لانه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا وانما نفى الخوف عنه أولا بقوله لا تخف ثم استأنف الكلام فقال انك أنت الاعلى فكان ذلك أبلغ في ايقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء وأثبت لذلك في نفسه (وربما وقع لبعض الاغمار أن يعترض على ما ذكرناه) في توكيد أحد الضميرين بالآخر فيقول لو كان توكيدهما أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله عز اسمه قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير ولم يقل انك أنت على كل شئ قدير فما الموجب لذلك ان كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار على

أحدهما (الجواب عن ذلك) أما نقول قد قدمنا القول في أول هذا النوع انه اذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتا فصاحب الكلام مخير في توكيد أحد الضميرين بالآخر فان أكده فقد أتى بفضل بيان وان لم يؤكده فلان ذلك المعنى ثابت لا يفتقر في تقريره الى زيادة تأكيد كهذه الآية المشار اليها وهي قوله تعالى قل اللهم مالك الملك فان العلم بأن الله على كل شيء قدير لا يفتقر الى تأكيد يقرره وقد ورد ما يجري مجرى هذه الآية مؤكدا كقوله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب فوكد في هذه الآية ولم يؤكد في الآية الاخرى ونفذ في تلك الطريق في ذلك وأما اذا كان المعنى المقصود غير معلوم وهو مما يشك فيه فالاولى أن يؤكد بالضميرين في الدلالة عليه كقوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى فان موسى لم يكن متيقنا أنه غالب للسحرة فلذلك وكد خطابه بالضميرين ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه (وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله) فكقول أبي تمام

لا أنت أنت ولا الديار ديار * خف الهوى وتولت الاوطار

فقوله لا أنت أنت ولا الديار ديار من المليح النادر في هذا الموضع لانه هو هو والديار الديار وانما البواعث التي كانت تبعث على قضاء الاوطار زالت فبقي ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ولا الديار في عينه من الحسن تلك الديار وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي

قبيل أنت أنت وأنت منهم * وجدك بشر الملك الهمام

فقوله أنت أنت من توكيد الضميرين المشار اليهما وفائدته المبالغة في مدحه ولو مدحه ما شاء الله لما سد مسد قوله أنت أنت أي أنك المشار اليه بالفضل دون غيرك وأما قوله وأنت منهم فخارج عن هذا الباب وهو كلام مستأنف لا يتعلق بتوكيد الضميرين كأنه قال أنت الموصوف بكذا وكذا وأنت من هذا القبيل يريد بذلك مدح قبيله به وهذا البيت لم أمثل به اختيارا له واستجادة وانما مثلت به ليعلم مكان توكيد المتصل بالمتصل والا فالبيت ليس من المرضي لان سبكه سبك نازل من الحسن وفيه تقديم وتأخير (وقرأت في كتاب الاغاني) لابي الفرج

ان عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة يا خير الفتيان اردد علىّ ما أخذته من ابلى فردّها عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل الى الابل فصرعه عمرو فقال له زياد لو صرعتم يا بنى شيبان الرجال كما تصرعون الابل لكنتم أنتم أنتم فقال عمرو له انك أعطيت قليلا وسمت جليلا وجررت على نفسك ويلا طويلا فقوله لكنتم أنتم أنتم أى أنتم الاشداء أو الشجعان أو ذوو النجدة والبأس أو ما جرى هذا المجرى الا أن فى أنتم الثانية تخصيصا لهم بهذه الصفة دون غيرهم كأنه قال لكنتم أنتم الشجعان دون غيركم ولو مدحهم بأى شئ مدحهم به من وصف البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الكلمة أعنى أنتم الثانية وهذا موضع من علم البيان تكثر محاسنه فاعرفه (النوع السادس فى عطف المظهر على مضمره والايضاح به بعده) وهذا انما يعمد اليه لفائدة وهى تعظيم شأن الامر الذى أظهر عنده الاسم المضمر أولا ومثال ذلك قول القائل ولما تلاقينا وبنو تميم أقبلوا نحو نار كمون فرأيناهم أسودا شكلا تسابق الاسنة الى الورود ولا ترتد على أعقابها اذا ارتدت أمثالها من الاسود وتباعد بنو تميم علينا حملة فلذنا بالفرار واستقنا الى تولية الادبار فانه انما قيل وتباعد بنو تميم مصرحا باسمهم ولم يقل وتباعدوا كما قال أقبلوا للدلالة على التعجب من اقدامهم عند الحملة وثباتهم عند الصدمة لا سيما وقد أردف ذلك بقوله لذنا بالفرار واستقنا الى تولية الادبار كأنه قال وتباعد أولئك الفرسان المشاهير والكماة المناكير وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين (ومما جاء من ذلك) قوله تعالى أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى فى قوله ثم الله ينشئ النشأة الآخرة مع ايقاعه مبتدأ فى قوله كيف يبدئ الله الخلق وقد كان القياس أن يقول كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة والفائدة فى ذلك أنه لما كانت الاعادة عندهم من الامور العظيمة وكان صدر الكلام واقعا معهم فى الابداء وقررهم أن ذلك من الله احتج عليهم بأن الاعادة انشاء مثل الابداء واذا كان الله الذى لا يعجزه شئ هو الذى لا يعجزه الابداء وجب أن لا يعجزه الاعادة فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الامر الذى هو الاعادة أبرز اسمه تعالى وأوقعه مبتدأ ثانيا وعلى

عطف المظهر على مضمره

هذا ورد قوله تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم
شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته
على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء
الكافرين ألا ترى أنه قال أولا ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فذكر مضمرا
تقدم الكلام فيه ثم عطف المظهر الذى هو له وهو قوله ثم أنزل الله سكينته على
رسوله وعلى المؤمنين وكان العطف لو أضمر كما أضمر الاول لقيل ثم أنزل الله
سكينته عليكم وأنزل جنودا لم تروها وفائدة الاظهار ههنا للمعطوف بعد
اضماره أولا التنويه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر المؤمنين أولان
الامر عظيم وهو الانتصار بعد الفرار وأى الامرين قدر كان لاظهار المعطوف
مناسبا وهكذا يكون عطف المظهر على مضمره فانه يستند الى فائدة يتم ذكرها
فان لم يكن هناك مثل هذه الفائدة فالاولى عكس الاظهار بعد الاضمار وكذلك
جاء قوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم
عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق
لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين فانه انما قال وقال الذين كفروا ولم يقل وقالوا
كالذى قبله للدلالة على صدور ذلك من انكار عظيم وغضب شديد وتعجب
من كفرهم بليغ لاسيما وقد انضاف اليه قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم
وما فيه من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى ذلك من المبادهة كأنه قال
وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المبين
قبل أن يتدبروه ان هذا الا سحر مبين وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى ص
والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن
فنادوا ولات حين مناص وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا
ساحر كذاب وكان القياس أن يقال وقالوا هذا ساحر كذاب عطفا على عجبوا
وانما أتى باسم الكافرين مظهرا بعد اضماره للاشعار بتعظيم ما اجترؤا عليه
من القول فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أولان هذا القول كان أهم
عندهم وأدخل فى نفوسهم فصرح باسم قائله دلالة على ما كان فى أنفسهم منه

التفسير بعد الابهام

(النوع السابع فى التفسير بعد الابهام) اعلم أن هذا النوع لا يعمد الى استعماله
الا لضرب من المبالغة فاذا جىء به فى كلام فانما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم

واعظامه

واعظامه لانه هو الذي يطرق السمع أولا فيذهب بالسامع كل مذهب كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ففسر ذلك الامر بقوله أنّ دابر هؤلاء مقطوع وفى ابهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للامر وتعظيم لشأنه فانه لو قال وقضينا اليه أنّ دابر هؤلاء مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة فان الابهام أولا يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه وتشوّف الى معرفته والاطلاع على كنهه وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ولقد مننا عليك مرّة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمّ ففسر مايوحى بقوله أن اقذفيه وهذا كالاول فى ابهامه أولا وتفسيره ثانيا ومثل هذا ورد قوله تعالى فى سورة أمّ الكتاب اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم فانه انما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما فى الاول من التنبيه والاشعار بأنّ الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ثم تقول فلان فيكون ذلك أبلغ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الاكرم الافضل لانك ثنيت ذكره مجملا ومفصلا فجعلته علما فى الكرم والفضل كأنك قلت من أراد رجلا جامعا للخصلتين جميعا فعليه بفلان (فان قيل) فما الفرق بين عطف المظهر على مضمره وبين التفسير بعد الابهام فان المضمر كالمبهم (فالجواب عن ذلك) أنى أقول ان كان سؤالك عن فائدتهما فانهما فى الفائدة سواء وذلك أنهما انما يراد ان لتعظيم الحال والاعلام بفخامة شأنهما وان كان سؤالك عن الفرق بينهما فى العبارة فانى أقول المضمر يأتى بعده مظهر تقدم ذكره أولا ثم يعطف المظهر على مضمره أى على ضميره نفسه كالمثال الذى ضربناه فى نعم وأمّا التفسير بعد الابهام فانّ المبهم يتقدم أولا وهو أن يذكر شئ يقع عليه محتملات كثيرة ثم يفسر بايقاعه على واحد منها وليس كذلك عطف المظهر على مضمره (ومما جاء من التفسير بعد الابهام) قوله تعالى وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وانّ الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ألاترى كيف قال

أحدكم سبيل الرشاد فأبهم سبيل الرشاد ولم يبن أى سبيل هو ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليسط عما يتلف وينشط لما يزلف كأنه قال سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة فى الآخرة والامتناع من الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة الى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها وكذلك ورد قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل فانه انما قال القواعد من البيت ولم يقل قواعد البيت لما فى ابهام القواعد أولا وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبين ما ليس فى الاضافة (ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى فانه لما أراد تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات أبهمها أولا ثم فسرها ثانيا ولانه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة اليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوف اليه نفس هامان ثم أوضحه بعد ذلك (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله تعالى قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد فانه قال أولا أعظكم بواحدة فأبهم الواحدة ثم فسرها بقوله أن تقوموا لله مثنى وفرادى وأن تتفكروا وهذا فى القرآن الكريم كثير الاستعمال (وأما الابهام من غير تفسير) فكثير شائع فى القرآن الكريم أيضا كقوله تعالى وفعلت فعلتك التى فعلت وكذلك ورد قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم أى للطريقة أو الحالة أو الملة التى هى أقومها وأسدها وأى ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة التى تجده مع الابهام وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب وايقاعه على محملات كثيرة وهذا كقول القائل لو رأيت عليا بين الصفين فانه لو وصفه مهما وصف من نجدة وشجاعة وثبات واقدام وأطال القول فى ذلك لم يكن غاية ما يترامى اليه الوهم مع الابهام وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم وأبلغ من ذلك قوله تعالى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فانه قال فى تلك الآية فغشيهم من اليم

ما غشيهم وذكر اليم وهو البحر فصار الذي غشيهم إنما هو منه خاصة وقال في هذه الآية فغشاها ما غشى فأبهم الأمر الذي غشاها به وجعله عاما وذلك أبلغ لأن السامع يذهب وهمه فيه كل مذهب وأما ما جاء من ذلك شعرا فكقول البحتري

بعيد محل الصدر لا يقبل التي * يحاولها منه الأريب المخادع

فقوله التي يحاولها من الإبهام المقدم ذكره في الآية (ومما ينتظم بذلك) قول الشاعر في أبيات الحماسة

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فلما علاه قال للباطل ابعد

فقوله صبا ما صبا من الإبهام الذي لو قدرت ما قدرت في تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الإبهام (وعليه ورد) قول أبي نواس

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم * وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه * فإذا عصارة كل ذاك أثام

فقوله وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه من هذا النمط المشار إليه وهو من المليح النادر (ومما يجري على هذا النهج) قول الآخر في وصف الخمر

مضى بها ما مضى من عقل شاربها * وفي الزجاجة باق يطلب الباقي

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذي قبله (ومما ورد) قول بعض المتأخرين فؤاد فيه ما فيه وعلى هذا ورد قولي في فصل من تقليد لبعض الوزراء فقلت وأنت مؤهل لواحدة تتعلق إليها غرر الجياد وتتنادى بها العلياء بلسان الآحاد وتعثر بها أسمر الأقلام على سمر الصعاد فاستطيلك لأحد كانها واسمع لطيب ذكرها بعد سعيك في طلابها واعلم أن الخطاب إليها كثير لكنها صدت بك عن خطابها ولقد مضى عليها زمن وهي تتورع حتى استقادها الآن تأبيك ولم تسمح الأقدار بإسعاد إلا لتكون سليمانها وهي بلقيسك وهذا الوزير كان اسمه سليمان فسبقت المعنى إليه فجاء كما تراه من الحسن واللطافة وأما قولي وأنت مؤهل لواحدة فإنه من الإبهام من غير تفسير وذلك بخلاف ما ورد في الآية المتقدم ذكرها لأن تلك من التفسير بعد الإبهام (ومما ينتظم في هذا السلك) الاستثناء العددي وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر العقد من العدد فيكبر موقع ذلك عنده وهو شبيه بما ذكرناه من الإبهام أولا ثم التفسير بعده ثانيا وذلك كقول القائل

أعطيته مائة الا عشرة أو أعطيته ألفا الا مائة فان ذلك أبلغ من أن لو قال أعطيته تسعين أو تسعمائة (وعليه ورد) قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما والفائدة حسنة وهي ذكر ما ابتلي به نوح من أمته وما كابده من طول المصابرة ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمته وتثبيتاله فان ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه (النوع الثامن في استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات) اعلم أنه اذا كان الشيئان أحدهما خاصا والآخر عاما فان استعمال العام في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الاثبات وكذلك استعمال الخاص في حالة الاثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي (ومثال ذلك) الانسانية والحيوانية فان اثبات الانسانية يوجب اثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية وكذلك نفي الحيوانية يوجب نفي الانسانية ولا يوجب اثباتها اثبات الانسانية (ومما ينتظم بذلك) الاسماء المفردة الواقعة على الجنس التي يكون بينها وبين واحدها تاء التأنيث فانه متى أريد النفي كان استعمال واحدها أبلغ ومتى أريد الاثبات كان استعمالها أبلغ (وكذلك يتصل بهذا النوع) الصفتان الواردتان على شيء واحد فانه اذا لزم من وجود احداهما وجود الاخرى اكتفي بها في الذكر ولم يحتج الى ذكر الاخرى لانه يجيء ضمنا وتبعا أو أن يبدأ بها في الذكر أولا ثم تجيء الاخرى بعدها وأما الصفات المتعددة فانه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالادنى مرتبة ثم بعدها بما هو أعلى منها الى أن ينتهى الى آخرها هذا في مقام المدح فان كان في مقام الذم عكست القضية فالاول وهو الخاص والعام نحو قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ولم يقل ذهب بضوئهم موازنا لقوله فلما أضاءت لان ذكر النور في حالة النفي أبلغ من حيث ان الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطى ذهاب تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نورا لان الاضاءة هي فرط الانارة قال الله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا فكل ضوء نور وليس كل نور ضوءا فالغرض من قوله تعالى ذهب الله بنورهم انما هو ازالة النور عنهم أصلا فهو اذا ازاله فقد أزال الضوء

وكذلك أيضا قوله تعالى ذهب الله بنورهم ولم يقل أذهب نورهم لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه وليس كل من أذهب شيئاً فقد ذهب به لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضي به وفي ذلك نوع اختصار للمذهوب به وامساك له عن الرجوع الى حالته والعود الى مكانه وليس كذلك الاذهاب للشيء لزوال معنى الاختصار عنه (ومما يحمل على ذلك) الاوصاف الخاصة اذا وقعت على شيئين وكان يلزم من وصف أحدهما وصف الآخر ولا يلزم عكس ذلك ومثاله قوله تعالى سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض فانه انما خص العرض بالذكر دون الطول للمعنى الذي أشرنا اليه والمراد بذلك انه اذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها وهذا في حالة الاثبات ولو أريد النفي لكان له أسلوب غير ما ذكرناه وهو أنه كان يخص به الطول دون العرض (وأما الاسماء المفردة الواقعة على الجنس) فنحو قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين فانه انما قال ليس بي ضلالة ولم يقل ليس بي ضلال كما قالوا لأن نفي الضلالة أبلغ من نفي الضلال عنه كما لو قيل ألك تمر فقلت في الجواب مالي تمرة وذلك أنفى للتمر ولو قلت مالي تمر لما كان يؤدي من المعنى ما أداه القول الاول وفي هذا الموضع دقة تحتاج الى فضل تأمل فينبغي لصاحب هذه الصناعة مراعاته والعناية به (فان قيل) لافرق بين الضلالة والضلال وكلاهما مصدر قولنا ضل يضل ضلالا وضل يضل ضلالة كما يقال لذ يلذ لذاذة (فالجواب) عن ذلك أن الضلالة تكون مصدرا كما قلت وتكون عبارة عن المرة الواحدة تقول ضل يضل ضلالة أي مرة واحدة كما تقول ضرب يضرب ضربة وقام يقوم قومة وأكل يأكل أكلة والمراد بالضلالة في هذه الآية انما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال فقد نفى ما فوقها من المرات والمرار الكثيرة (وأما الصفتان الواردتان على شيء واحد) فكقول الاشتر النخعي

حلفت ودي وانحرفت عن العلى * ولقيت أضيافي بوجه عبوس

ان لم أشن على ابن حرب غارة * لم تخل يوما من نهاب نفوس

خيلا كأمثال السعالي شزبا * تعدو ببيض في الكريهة شوس

حمي الحديد عليهم فكأنه * لمعان برق أو شعاع شموس

ألا ترى أنه رقى فى التشبيه من الادنى الى الاعلى فقال لمعان برق أو شعاع شموس لان لمعان البرق دون شعاع الشموس (ومما ورد من ذلك فى القرآن الكريم) قوله تعالى مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فان وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة وعلى القياس المشار اليه أولا ينبغى أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة لانه اذا لم يغادر صغيرة فالاولى أن لا يغادر كبيرة وأما اذا لم يغادر كبيرة فانه يجوز أن يغادر صغيرة لانه اذا لم يعف عن الصغيرة فيقتضى القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة واذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة غير أن القرآن الكريم أحق أن يتبع وأجدر بأن يقاس عليه لا على غيره والذى ورد فيه من هذه الآية ناقض لما تقدم ذكره (وكذلك ورد قوله تعالى) ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما لان التأفيف أدنى درجة وقد تقدم قولى فى أول هذا النوع انه اذا جاءت صفتان يلزم من وجود احداهما وجود الاخرى أن يكتفى بذكرها دون الاخرى لان الاخرى تجىء ضمنا وتبعا وأن يبدأ بها فى الذكر ثم تجىء الاخرى بعدها وعلى هذا فيقال أولا فلا تنهرهما ولا تقل لهما أف لكن اذا لم يقل لهما أف امتنع أن ينهرهما وقد كان هذا هو المذهب عندى حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه وحينئذ عدت عما كنت أراه وأقول به (وأما الصفات المتعددة الواردة على شئ واحد) فكقول أبى عبادة البحترى فى وصف نحول الركاب

يترقرقن كالسراب وقد خضـ * ـن غمارا من السراب الجارى
كالقسى المعطفات بل الاسـ * ـهم مبرية بل الاوتار

ألا ترى أنه رقى فى تشبيه نحولها من الادنى الى الاعلى فشبهها أولا بالقسى ثم بالاسهم المبرية وتلك أبلغ فى النحول ثم بالاوتار وهى أبلغ فى النحول من الاسهم وكذلك ينبغى أن يكون الاستعمال فى مثل هذا الباب وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك فمن جملتهم أبو الطيب المتنبى فى قوله

يابدر يابحر ياغمامة يا * ليث الشرى ياحمام يارجل

وينبغى أن يبدأ فيه بالادنى فالادنى فانه اذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل الى محل أعلى منه واذا خالفه كان كالمنخفض من محل الى محل أدنى منه فأما قوله يابدر فانه اسم الممدوح والابتداء به أولى ثم بعده فيجب أن يقول يارجل ياليث

يا غمامة يا بحر يا حمام لان الليث أعظم من الرجل والبحر أعظم من الغمامة والحمام أعظم من البحر وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة الى منزلة حتى ينتهي الى المنزلة العليا آخرا ولو كان مقام ذم لعكست القضية وعلى مثله ورد قول أبي تمام يفتخر

سمابي أوس في الفخار وحاتم * وزيد القنا والاثرمان ورافع

نجوم طوالع جبال فوارع * غيوث هوامع سيول دوافع

فان السيول دون الغيوث والجبال دون النجوم ولو قدم ما أخر لما احتمل النظم أن قال

سيول دوافع غيوث هوامع * جبال فوارع نجوم طوالع

وهذا عندي أشد ملامة من المتنبي لان المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها وأبو تمام متمكن من ذلك وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع معرفته بالمعاني (النوع التاسع في التقديم والتأخير) وهذا باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة منها ما استخرجته أنا ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان وسأورد ذلك مبينا (وهو ضربان) الاول يختص بدلالة الالفاظ على المعاني ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغير المعنى (فأما الضرب الاول فانه ينقسم الى قسمين) أحدهما يكون التقديم فيه هو الابلغ والآخر يكون التأخير فيه هو الابلغ (فأما القسم الذي يكون التقديم فيه هو الابلغ) فكتقديم المفعول على الفعل وتقديم الخبر على المبتدا وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل كقولك زيدا ضربت وضربت زيدا فان في قولك زيدا ضربت تخصيصا له بالضرب دون غيره وذلك بخلاف قولك ضربت زيدا لانك اذا قدمت الفعل كنت بالخيار في ايقاعه على أي مفعول شئت بأن تقول ضربت خالدا أو بكرا او غيرهما واذا أخرته لزم الاختصاص للمفعول وكذلك تقديم خبر المبتدا عليه كقولك زيد قائم وقائم زيد فقولك قائم زيد قد أثبت له القيام دون غيره وقولك زيد قائم أنت بالخيار في اثبات القيام له ونفيه عنه بأن تقول ضارب أو جالس أو غير ذلك وهكذا يجري الحكم في تقديم الظرف كقولك ان الي مصير هذا الامر وقولك ان مصير هذا الامر الي فان تقديم الظرف دل على أن مصير الامر ليس الا اليك وذلك

التقديم والتأخير

بخلاف قولك ان مصير هذا الامر الى اذ يحتمل ايقاع الكلام بعد الظرف
على غيرك فيقال الى زيد أو عمرو أو غيرهما وكذلك يجري الامر في الحال
والاستثناء وقال علماء البيان ومنهم الزمخشري رحمه الله ان تقديم هذه
الصورة المذكورة انما هو للاختصاص وليس كذلك والذي عندي فيه
أنه يستعمل على وجهين أحدهما الاختصاص والآخر مراعاة نظم الكلام
وذاك أن يكون نظمه لا يحسن الا بالتقديم واذا أخر المقدم ذهب ذلك الحسن
وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص فأما الاول الذي هو الاختصاص
فنحو قوله تعالى قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي اليك
والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله
فاعبد وكن من الشاكرين فانه انما قيل بل الله فاعبد ولم يقل بل اعبد الله لانه
اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ولو قال بل اعبد لجاز ايقاع
الفعل على أي مفعول شاء وأما الوجه الثاني الذي يختص بنظم الكلام
فنحو قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أن التقديم
في هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فانه لم يقدم المفعول فيه على
الفعل للاختصاص وانما قدم لمكان نظم الكلام لانه لو قال نعبدك ونستعينك
لم يكن له من الحسن ما لقوله اياك نعبد واياك نستعين ألا ترى أنه تقدم قوله
تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فجاء بعد ذلك قوله اياك
نعبد واياك نستعين وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون
ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن وهذا غير
خاف على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان وعلى نحو منه ورد قوله
تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى وتقدير
الكلام فأوجس موسى في نفسه خيفة وانما قدم المفعول على الفاعل وفصل بين
الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصد التحسين النظم وعلى هذا فليس كل
تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص فبطل اذا ما ذهب اليه الزمخشري
وغيره (ومما ورد من هذا الباب) قوله تعالى خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه فان
تقديم الجحيم على التصلية وان كان فيه تقديم المفعول على الفعل الا أنه لم يكن
ههنا للاختصاص وانما هو للفصيلة السجعية ولا مراء في أن هذا النظم على هذه

الصورة

الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم (فان قيل) انما قدمت الجحيم للاختصاص لانها نار عظيمة ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها كما يقال ضربت زيدا او زيدا اضربت وقد تقدم الكلام على ذلك (فالجواب) عن ذلك أن الدرك الاسفل أعظم من الجحيم فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم على ماذهب اليه لانه أعظم وهذا لا يذهب اليه الا من هو بنحوه عن رموز الفصاحة والبلاغة وانما لفظة الجحيم ههنا فى هذه الآية أولى بالاستعمال من غيرها لانها جاءت ملائمة لنظم الكلام ألاترى أن من أسماء النار السعير ولظى وجهنم ولو وضع بعض هذه الاسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن مالجحيم والمقصود بذكر الجحيم انما هو النار اى صلوه النار وهكذا يقال فى ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه فانه لم يقدم السلسلة على السلك للاختصاص وانما قدمت لمكان نظم الكلام ولاشك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل ثم اسلكوه فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا والكلام على هذا كالكلام على الذى قبله وله فى القرآن نظائر كثيرة ألاترى الى قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فقوله والقمر قدرناه منازل ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص وانما هو من باب مراعاة نظم الكلام فانه قال والليل نسلخ منه النهار ثم قال والشمس تجرى فاقتضى حسن النظم أن يقول والقمر قدرناه ليكون الجميع على نسق واحد فى النظم ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة فى الحسن وعليه ورد قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وانما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعى (وأما تقديم خبر المبتدا عليه) فقد تقدمت صورته كقولك زيد قائم وقائم زيد فمما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فانه انما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لان فى تقديم الخبر الذى هو مانعتهم على المبتدا الذى هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم فى حصانتها وزيادة وثوقهم بمنعها اياهم وفى تصويب ضميرهم اسما لان واسناد الجملة اليه دليل على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عزة وامتناع لا يبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض

وليس شيء من ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله (ومن تقديم
خبر المبتدا) قوله تعالى قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم فانه انما قدم خبر
المبتدا عليه في قوله أراغب أنت ولم يقل أأنت راغب لانه كان أهم عندهم
وهو به شديد العناية وفي ذلك ضرب من التعجب والانكار لرغبة ابراهيم عن
آلهته وان آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف ما لو قال أأنت راغب
عن آلهتي (ومن غامض هذا الموضع) قوله تعالى واقترب الوعد الحق فاذا هي
شاخصة أبصار الذين كفروا فانه انما قال ذلك ولم يقل فاذا أبصار الذين
كفروا شاخصة لامرين أحدهما تخصيص الابصار بالشخوص دون غيرها
أما الاول فلو قال فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع
شاخصة غيره فيقول حائرة أو مطموسة أو غير ذلك فلما قدم الضمير اختص
الشخوص بالابصار دون غيرها وأما الثاني فانه لما أراد أن الشخوص
خاص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولا ثم بصاحبه ثانيا كأنه
قال فاذا هم شاخصون دون غيرهم ولولا أنه أراد هذين الامرين المشار اليهما
لقال فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لانه أخصر بحذف الضمير من الكلام
(ومن هذا النوع) قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر فقال
هو الطهور ماؤه الحل ميتته وتقدير الكلام هو الذي ماؤه طهور وميتته حل
لان الالف واللام ههنا بمعنى الذي (وأما تقديم الظرف) فانه اذا كان الكلام
مقصودا به الاثبات فان تقديمه أولى من تأخيره وفائدته اسناد الكلام الواقع
بعده الى صاحب الظرف دون غيره فاذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه
تقديم الظرف وتأخيره وكلا هذين الامرين له موضع يختص به فاما تقديمه
في النفي فانه يقصد به تفضيل المنفي عنه على غيره وأما تأخيره فانه يقصد به النفي
أصلا من غير تفضيل فأما الاول وهو تقديم الظرف في الاثبات فكقولك
في الصورة المتقدمة ان الي مصير هذا الامر ولو أخرت الظرف فقلت ان مصير
هذا الامر الي لم يعط من المعنى ما أعطاه الاول وذلك أن الاول دل على أن مصير
الامر ليس الا اليك وذلك بخلاف الثاني اذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف
على غيرك فيقال الى زيد او عمرو أو غيرهما وعلى نحو منه جاء قوله تعالى ان الينا
ايابهم ثم ان علينا حسابهم وكذلك جاء قوله تعالى يسبح لله ما في السموات

وما

وما في الارض له الملك وله الحمد فانه انما قدم الظرفين ههنا في قوله له الملك وله الحمد ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره (وقد استعمل تقديم الظرف في القرآن كثيرا) كقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة أي تنظر الى ربها دون غيره وتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص وانما هو كالذي أشرت اليه في تقديم المفعول وأنه لم يقدم للاختصاص وانما قدم من أجل نظم الكلام لأن قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة أحسن من أن لو قيل وجوه يومئذ ناضرة ناظرة الى ربها والفرق بين النظمين ظاهر وكذلك قوله تعالى والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق فان هذا روعي فيه حسن النظم لا الاختصاص في تقديم الظرف وفي القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك فمنها قوله تعالى الى ربك يومئذ المستقر وقوله تعالى ألا الى الله تصير الامور وله الحكم واليه ترجعون وعليه توكلت واليه أنيب فان هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص وانما قدمت لمراعاة الحسن في نظم الكلام فاعرف ذلك (وأما الثاني وهو تأخير الظرف وتقديمه في النفي) نحو قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه وقوله تعالى لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون فانه انما أخر الظرف في الاول لان القصد في ايلاء حرف النفي الريب نفي الريب عنه واثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه ولو أولاه الظرف لقصد أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه كما قصد في قوله تعالى لا فيها غول فتأخير الظرف يقتضي النفي أصلا من غير تفصيل وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا أي ليس فيها ما في غيرها من الغول وهذا مثل قولنا لا عيب في الدار وقولنا لا فيها عيب فالاول نفي للعيب عن الدار فقط والثاني تفضيل لها على غيرها أي ليس فيها ما في غيرها من العيب فاعرف ذلك فانه من دقائق هذا الباب (وأما تقديم الحال) فكقولك جاء راكبا زيد وهو بخلاف قولك جاء زيد راكبا اذ يحتمل أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غير ذلك (وأما الاستثناء) فجار هذا المجرى نحو قولك ما قام الا زيدا أحد وما قام أحد الا زيدا والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق (وأما القسم الثاني) فهو أن يقدم ما الاولى به

قوله وتقديم الظرف الخ لا يتفرع على ما قبله

التأخير لان المعنى يحتمل بذلك ويضطرب وهذا هو المعاظلة المعنوية وقد قدمنا القول فى المقالة الاولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين أحدهما لفظى والآخر معنوى أما اللفظى فذكرناه فى بابه وأما المعنوى فهذا بابه وموضعه وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول وغير ذلك مما يرد بيانه (من هذا القسم) قول بعضهم

فقد والشك بين لى عناء * بوشك فراقهم صرد يصيح

فانه قدم قوله بوشك فراقهم وهو معمول يصيح ويصيح صفة لصرد على صرد وذلك قبيح ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم وانما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل وكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها ومن هذا النحو قول الآخر

فأصبحت بعد خط بهجتها * كأن قفرا رسومها قلما

فانه قدم خبر كان عليها وهو قوله خط وهذا وامثاله مما لا يجوز قياس عليه والاصل فى هذا البيت فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها الا أنه على تلك الحالة الأولى فى الشعر محتمل مضطرب والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لان معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا (ومما يجرى هذا المجرى) قول الفرزدق

الى ملك ما أمه من محارب * أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وهو يريد الى ملك أبوه ما أمه من محارب وهذا أقبح من الاول وأكثر اختلالا (وكذلك جاء قوله أيضا)

وليست خراسان التى كان خالد * بها أسد اذ كان سيفا أميرها

وحديث هذا البيت طريف وذاك أنه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسرى ويهجو أسدا وكان أسد وليها بعد خالد وكأنه قال وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا اذ كان أسد أميرها وعلى هذا التقدير ففى كان الثانية ضمير الشأن والحديث والجملة بعدها خبرها وقد قدم بعض ما اذ مضافة اليه وهو أسد عليها وفى تقديم المضاف اليه أو شئ منه على المضاف من القبح ما لا خفاء به وأيضا فان أسدا أحد جزئى الجملة المفسرة للضمير والضمير لا يكون تفسيره الا من

بعده ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج الى تفسير ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول وعلى هذا النحو ورد قول الفرزدق أيضا

وما مثله في الناس الا مملكا * أبو أمه حي أبوه يقاربه

ومعنى هذا البيت وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه وعلى هذا المثال المصوغ في الشعر قد جاء مشوها كما تراه وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يجيء الا متكلفا مقصودا والا فاذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجري على سجيتها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا الضرب المشار اليه اذ المقصود من الكلام انما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما واعلم أن هذا الضرب من الكلام هو ضد الفصاحة لأن الفصاحة هي الظهور والبيان وهذا عار عن هذا الوصف (وأما الضرب الثاني) الذي يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك فانه مما لا يحصره حد ولا ينتهي اليه شرح وقد أشرنا الى نبذة منه في هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها (فمن ذلك تقديم السبب على المسبب) كقوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين فانه انما قدم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة انجح لحصول الطلب وأسرع لوقوع الاجابة ولو قال اياك نستعين واياك نعبد لكان حائز الا أنه لا يسد ذلك المسد ولا يقع ذلك الموقع وهذا لا يخفى على المنصفين من أرباب هذه الصناعة وعلى نحو منه جاء قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا فقدم حياة الارض واسقاء الانعام على اسقاء الناس وان كانوا أشرف محلا لأن حياة الارض هي سبب لحياة الانعام والناس فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر ولما كانت الانعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم (ومن هذا الضرب تقديم الاكثر على الاقل) كقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق

بالخيرات وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه ثم أتى
بعده بالمقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إليه ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل
أعني من المقتصدين فقدم الأكثر وبعده الأوسط ثم ذكر الأقل آخرا ولو عكست
القضية لكان المعنى أيضا واقعا في موقعه لأنه يكون قد روعي فيه تقديم الأفضل
فالأفضل (ولنوضح لك في هذا وأمثاله طريقا تقتفيه فنقول) اعلم أنه إذا كان
الشيئان كل واحد منهما مختصا بصفة فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر
كهذه الآية فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل والظالم لنفسه مختص
بصفة الكثرة فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله (ومن هذا الجنس)
قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي
على رجلين ومنهم من يمشي على أربع فإنه إنما قدم الماشي على بطنه لأنه أدل على
القدرة من الماشي على رجلين إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي ثم ذكر
الماشي على رجلين وقدمه على الماشي على أربع لأنه أدل على القدرة أيضا حيث
كثرت آلات المشي في الأربع وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب (فإن قيل)
قد ورد في القرآن الكريم في مواضع منه ما يخالف هذا الذي ذكرته كقوله
تعالى في سورة هود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه
فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار ثم قال وأما الذين سعدوا ففي الجنة
فقدم أهل النار في الذكر على أهل الجنة وهذا مخالف للأصل الذي أصلته في هذا
الموضع (فالجواب عن ذلك) أن هذا الذي أشرت إليه في سورة هود وما أشبهه له
أسرار تحتاج إلى فضل تأمل وإمعان نظر حتى تفهم أما هذا الموضع فإنه لما كان
الكلام مسوقا في ذكر التخويف والتحذير وجاء على عقب قصص الأولين وما فعل
الله بهم من التعذيب والتدمير كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى
وهو ذكر أهل النار فمن أجل ذلك قدموا في الذكر على أهل الجنة وإذا رأيت
في القرآن شيئا من هذا القبيل وما يجري مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين
لك مكان الصواب منه واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني
ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسبا
لمطلع الكلام فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت لأنك إن قدمت الأفضل فهو
في موضعه من التقديم وإن قدمت المفضول فلأن مطلع الكلام يناسبه وذكر

الشيء مع ما يناسبه أيضا وارد في موضعه (فمن ذلك) قوله تعالى وإنا إذا أذقنا
الانسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور
لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء
الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير فإنه إنما
قدم الاناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لانه ذكر البلاء في آخر الآية الاولى
وكفران الانسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ثم عقب ذلك بذكر ملكه
ومشيئته وذكر قسمة الاولاد فقدم الاناث لان سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء
لا ما يشاؤه الانسان فكان ذكر الاناث اللاتي هن من جملة ما لا يشاؤه الانسان
ولا يختاره أهم والاهم واجب التقديم وليلي الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء
ذكر البلاء ولما أخر ذكر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك ذلك بتعريفه اياهم
لان التعريف تنويه بالذكر كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الاعلام
المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من
التقديم والتأخير وعرف أن تقديم الاناث لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر
فقال ذكرانا وإناثا وهذه دقائق لطيفة قل من يتنبه لها أو يعثر على رموزها
(ومن هذا الباب) قوله تعالى وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن
ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من
مثقال ذرة في الارض ولا في السماء فإنه إنما قدم الارض في الذكر على السماء
ومن حقها التأخير لانه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الارض وأحوالهم
ووصل ذلك بقوله وما يعزب لاءم بينهما ليلي المعنى المعنى (فإن قيل) قد جاء
تقديم الارض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن (قلنا) إذا
جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لتقدمها من سبب اقتضاه وإن خفي ذلك السبب
وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض (النوع العاشر في الحروف العاطفة
والجارة) وهذا موضع لطيف المأخذ دقيق المغزى وما رأيت أحدا من علماء
هذه الصناعة تعرض له ولا ذكره وما أقول إنهم لم يعرفوه فإن هذا النوع من
الكلام أشهر من أن يخفى لانه مذكور في كتب العربية جميعها ولست أعني
بذلك ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف عليه
في الاعراب ولا أن الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمرا وراء ذلك وإن كان

الحروف العاطفة والجارة

المرجع فيه الى الاصل النحوى (فأقول) ان أكثر الناس يضعون هذه الحروف فى غير مواضعها فيجعلون ما ينبغى أن يقدم بعد ما ينبغى أن يؤخر وبالعكس وفى حروف العطف التى فى هذه الاشياء دقائق أذكرها فاللذ أمّا حروف العطف فنحو قوله تعالى والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين فالاول عطفه بالواو التى هى للجمع وتقديم الاطعام على الاسقاء والاسقاء على الاطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ثم عطف الثانى بالفاء لان الشفاء يتعقب المرض بلا زمان حال من أحدهما ثم عطف الثالث بثم لان الاحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جىء فى عطفه بثم التى هى للتراخى ولو قال قائل فى موضع هذه الآية الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين لكان للكلام معنى تام الا أنه لا يكون كمعنى الآية اذ كل شئ منها قد عطف بما يناسبه ووقع موقع السداد منه (ومما جاء من هذا الباب) قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره ألا ترى أنه لما قال من نطفة خلقه كيف قال فقدره ولم يقل ثم قدره لان التقدير لما كان تابعا للخلقة وملازما لها عطفه عليها بالفاء وذلك بخلاف قوله ثم السبيل يسره لان بين خلقته وتقديره فى بطن أمه وبين اخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانا فلذلك عطفه بثم وعلى هذا جاء قوله تعالى ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره لان بين اخراجه من بطن أمه وبين موته تراخيا وفسحة وكذلك بين موته ونشوره أيضا ولذلك عطفهما بثم ولما لم يكن بين موت الانسان واقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء وهذا موضع من علم البيان شريف وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغى (ومما جاء من ذلك أيضا) قوله تعالى فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا وفى هذه الآية دليل على أن حملها به ووضعها اياه كانا متقاربين لانه عطف الحمل والانتباذ الى المكان الذى مضت اليه والمخاض الذى هو الطلق بالفاء وهى للفور ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التى هى للتراخى والمهلة ألا ترى أنه قد جاء فى الاخرى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره فلما كان بين تقديره فى البطن واخراجه منه مدة متراخية عطف ذلك بثم وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام فانها

عطفت

عطفت بالفاء وقد اختلف الناس في مدة حملها فقيل انه كان كحمل غيرها من النساء وقيل لا بل كان مدة ثلاثة أيام وقيل أقل وقيل أكثر وهذه الآية صريحة للخلاف لاجهادات صريحة على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل أحد اجتهادات عليه الآية (ومما ورد من هذا الاسلوب) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر وفي الآية المتقدم ذكرها قال من نطفة خلقه فقدره فعطف التقدير على الخلق بالفاء لانه تابع له ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق وفي هذه الآية ذكر تفاصيل حاله في تنقله فبدأ بالخلق الاول وهو خلق آدم من طين ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو خلق النسل عطفه بثم لما بينهما من التراخي وحيث صار الى التقدير الذي يتبع بعضه بعضا من غير تراخ عطفه بالفاء ولما انتهى الى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخلق عطفه بثم (فان قيل) انه قد عطف المضغة على العلقة في هذه الآية بالفاء وفي أخرى بثم وهي قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة (فالجواب عن ذلك) ...

(واعلم) أن في حروف العطف موضعا يلتبس الفاء بالواو وهو موضع يحتاج فيه الى فضل تأمل وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه الا بالفاء دون الواو وقد يجيء من الافعال ما يلتبس بفعل المطاوعة ويعطى ظاهره أنه كذلك الا أن معناه يكون مخالفا لمعنى فعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو ولا بالفاء كقوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فقوله أغفلنا قلبه ههنا بمعنى صادفناه غافلا وليس منقولا عن غفل حتى يكون معناه صددناه لانه لو كان كذلك لكان معطوفا عليه بالفاء وقيل فاتبع هواه وذلك أنه يكون مطاوعا وفعل المطاوعة لا يعطف الا بالفاء كقولك أعطيته فأخذ ودعوته فأجاب ولا تقول أعطيته وأخذ ولا دعوته وأجاب كما لا يقال كسرته وانكسر وكذلك لو كان معنى أغفلنا في الآية صددناه ومنعناه لكان معطوفا عليه بالفاء وكان يقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه فلما لم يكن كذلك وكان

باض بالاصل

العطف عليه بالواو وطريقه أنه لما قال أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه أن يكون معناه وجدناه غافلا وقد غفل لا محالة فكأنه قال ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه أي لا تطع من فعل كذا وكذا يعتد أفعاله التي توجب ترك طاعته فاعرف ذلك (وأما حروف الجر) فان الصواب يشذ عن وضعها في مواضعها وقد علم أن في للوعاء وعلى للاستعلاء كقولهم زيد في الدار وعمرو على الفرس لكن اذا أريد استعمال ذلك في غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الاولى (فما ورد منه) قوله تعالى قل من يرزقكم من السموات والارض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين الا ترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر ههنا فانه انما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لان صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يدري أين يتوجه وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله في الكلام وكثيرا ما سمعت اذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الامور فيقول له أنت على ضلالك القديم كما أعهدك فيأتي بعلى في موضع في وان كان هذا جائزا الا أن استعمال في ههنا أولى لما أشرنا اليه ألا ترى الى قوله تعالى في سورة يوسف قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم (ومن هذا النوع قوله تعالى) انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فانه انما عدل عن اللام الى في في الثلاثة الاخيرة للايذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لان في للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء وأن يجعلوا مظنة لها وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخلص وتكرير في في قوله وفي سبيل الله دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين وسياق الكلام أن يقال وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل فلما جيء بفي مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه وهذه لطائف ودقائق لا توجد الا في هذا الكلام الشريف فاعرفها وقس عليها (النوع الحادي عشر في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما) ولم أذكر هذا الموضع لان يجري الامر فيه

قوله في الكلام فيه شيء ا ه

الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما

على ما يجرى مجراه فقط بل لان يقاس عليه مواضع أخرى مما يماثله وتشابهه ولو كان شبهاً بعيداً وانما يعدل عن أحد الخطابين الى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة (فمن ذلك قولنا) قام زيد وان زيداً قائم وقولنا قام زيد معناه الاخبار عن زيد بالقيام وقولنا ان زيداً قائم معناه الاخبار عن زيد بالقيام أيضاً الا ان في الثاني زيادة ليست في الاول وهي توكيده بان المشددة التي من شأنها الاثبات لما يأتي بعدها واذا زيد في خبرها اللام وقيل ان زيداً لقائم كان ذلك أكثر توكيداً في الاخبار بقيامه وهذا مثال يبنى عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم فانهم انما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بان المشددة لانهم في مخاطبة اخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط فكان ذلك متقبلاً منهم ورائجاً عند اخوانهم وأما الذي خاطبوا به المؤمنين فانما قالوه تكلفاً واظهاراً للايمان خوفاً ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين الا رواجاً ظاهراً لا باطناً ولانهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به اخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين آمنا وفي خطاب اخوانهم انا معكم وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة (ومما يجرى هذا المجرى) ورود لام التوكيد في الكلام ولا يجيء ذلك الا لضرب من المبالغة وفائدته أنه اذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه جيء باللام تحقيقاً لذلك (فمما جاء منه) قوله تعالى في أول سورة المنافقين اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فانظر الى هذه اللامات الثلاث الواردة في خبر ان وقد ولى وردت في قول المنافقين وانما وردت مؤكدة لانهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتمسوا له وبالغوا في النطق وفي باطنهم خلافه وأما ما ورد في الثانية والثالثة فصحيح لرسالته واللام في الثانية لتصديق رسالته وفي الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه

من التصديق الذين هم على خلافه (وكذلك) ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون فإنه إنما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد في إظهار المحبة ليوسف عليه السلام والاشفاق عليه ليبلغوا الغرض من أبيهم في السماحة بإرساله معهم (ومن هذا الباب) قوله تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ثم قال أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ألا ترى كيف أدخلت اللام في آية المطعوم دون آية المشروب وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب وكثيرا ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحا إلى زيادة تأكيد فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق وأما المطعوم فإن جعله حطاما من الأشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير إيجاده (ومما يتصل بذلك) قوله تعالى وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون فاللام في لنحن هي اللام المشار إليها (وكذلك) ورد قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا فإن هذه اللام في قوله ليستخلفنهم وليمكنن وليبدلنهم إنما جاءت لتحقيق الأمر وإثباته في نفوس المؤمنين وأنه كائن لا محالة (ومما يجري هذا المجرى في التوكيد) لام الابتداء المحققة لما يأتي بعدها كقوله تعالى إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا فاللام في ليوسف لام الابتداء وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها أي أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لا مراء فيه (ومن هذا النوع قول بعضهم)

والشيب إن يظهر فإن وراءه * عمرا يكون خلاله متنفس
لم ينتقص مني المشيب قلامة * ولما بقي مني ألب وأكيس

فقوله ولما بقي مني تقديره وما بقي مني وإنما أدخل على ما هذه اللام قصد التأكيد

المعنى لانه موضع يحتاج الى التأكيد ألا ترى أن قوة العمر فى الشباب ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب وليس مما يوصف وانما يذم أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة وكذلك ورد قول الشاعر من أبيات الحماسة

انا لنصفح عن مجاهل قومنا * ونقيم سالفة العدو الاصيد

ومتى نخف يوما فساد عشيرة * نصلح وان نر صالحا لا نفسد

وهذا كثير سائغ فى الكلام الا أنه لا يأتى لمكان العناية بتابعيه عنه ألا ترى الى قول الشاعر انا لنصفح عن مجاهل قومنا فانه لما كان الصفح مما يشق على الناس فعله لانه مقابلة الشر بالخير والاساءة بالاحسان أكده باللام تحقيقا له فان عرى الموضع الذى يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار اليها وما يجرى مجراها فاتت ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه وأكثر ما تستعمل هذه اللام فى جواب القسم لتحقيق الأمر المقسم عليه وذلك فى الايجاب دون النفى لانها لا تستعمل فى النفى ألا ترى أنه لا يقال والله للاقمت وانما يقال والله لاقمت لكن فى الايجاب تستعمل ويكون استعمالها حسنا كقولك والله لاقوم فان أضيف اليها النونان الخفيفة والثقيلة كان ذلك أبلغ فى التأكيد كقولك والله لاقومن وعلى ذلك وردت الآية المقدم ذكرها وهى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات وان لم يكن جوابا للقسم فالنون الواردة بعد اللام زيادة فى التأكيد وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فاذا استعملت فى موضع فانما يقصد بها التأكيد (فما جاء منها) قول البحترى فى معاتبة الفتح بن خاقان

هل تجلبن الى عطفك موقف * ثبت لديك أقول فيه وتسمع

مازال لى من حسن رأيك موئل * آوى اليه من الخطوب ومفزع

فعلام أنكرت الصديق وأقبلت * نحوى جناب الكاشحين تطلع

وأقام يطمع فى تهضم جانبى * من لم يكن من قبل فيه يطمع

الا يكن ذنب فعدلك واسع * أو كان لى ذنب فعفوك أوسع

وهذه أبيات حسنة مليحة فى بابها يجرى بها حذو الصدور ويستمال بها صعر الخدود وانما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها والبيت الاول هو المراد ألا ترى أنه قال هل تجلبن الى عطفك موقف فالنون جاءت قصدا للتأكيد وشرفى هذا المقام

متى أحب أن يؤكد هذه الأمنية وكل ما يجيء من هذا الباب فإنه واقع هذا الموقع وإذا استعمل عبثا لغير فائدة تقتضيه فإنه لا يكون استعماله إلا من جاهل بالأسرار المعنوية وأما ما يمثل به النحاة في قول القائل والله لا قومن فإنه مثال نحوي يضرب للجواز والإفادة فإذا قال القائل والله لا قومن وأكده كان ذلك لغوا لأنه ليس في قيامه من الأمر العزيز ولا من الأمر العسير ما يحتاج معه إلى التأكيد بل لو قال والله لأقومن إلى الليل مهتدا به لكان ذلك واقعا في موقعه فافهم هذا وقس عليه (النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى) هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا ولا نبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه (فأقول) اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا لأن الألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا لا نزاع فيه لبيانه وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة (فمن ذلك) قولهم خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فعل وافعوعل وكذلك قولهم أعشب المكان فإذا رأوا كثرة العشب قالوا اعشوشب (ومما ينتظم بهذا السلك) قدر واقتدر فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر قال الله تعالى فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر فمقتدر ههنا أبلغ من قادر وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب أو للدلالة على بسطة القدرة فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر وذلك أن مقتدرا اسم فاعل من اقتدر وقادرا اسم فاعل من قدر ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل وعلى هذا ورد قول أبي نواس

فعفوت عني عفو مقتدر * حلت له نقم فألغاها

أي عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لا يرده شيء عن إمضاء قدرته وأمثال هذا كثيرة وكذلك ورد قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا فإن غفارا أبلغ في المغفرة من غافر لأن فعالا يدل على كثرة صدور الفعل وفاعلا لا يدل على الكثرة وعليه ورد قوله تعالى إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة وهو

فعّال وذلك أبلغ من الفاعل الذي هو فاعل فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب فهو تائب أي صدرت منه التوبة مرة واحدة فاذا قيل تواب كان صدور التوبة منه مرارا كثيرة وهذا وما يجري مجراه انما يعمد اليه ضربا من التأكيد ولا يوجد ذلك الا فيما فيه معنى الفعلية كاسم الفاعل والمفعول وكالفعل نفسه نحو قوله تعالى فكبكبوا فيها هم والغاوون فان معنى كبكبوا من الكب وهو القلب الا أنه مكرر المعنى وانما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب لانه موضع يقتضي ذلك ولم ينظر بعض الجهال في هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال انها زيادة ولكنها زيادة نقص لانه يزاد في اللفظ حرف كقولهم في الثلاثي في رجل رجيل وفي الرباعي في قنديل قنيديل فزيادة وردت فيهما فنقصت من معنى هاتين اللفظتين وهذا ليس من الباب الذي نحن بصدد ذكره لانه عار عن معنى الفعلية والزيادة في الالفاظ لا توجب زيادة في المعاني الا اذا تضمنت معنى الفعلية لان الاسماء التي لا معنى للفعل فيها اذا زيدت استحال معناها ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عذب وهي ثلاثية الى الرباعي فقلنا عذيب على وزن جعفر لاستحال معناها ولم يكن لها معنى وكذلك لو نقلنا لفظة عسجد وهي رباعية الى الخماسي فقلنا عسجدد على وزن جحمرش لم يكن لها معنى وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية كقادر ومقتدر فان قادرا اسم فاعل من قدر وهو ثلاثي ومقتدر اسم فاعل من اقتدر وهو رباعي فلذلك كان معنى المقدرة في اقتدر أشد من معنى القدرة في قدر وهذا لا نزاع فيه وهذا الباب بجملته يقصد به المبالغة في ايراد المعاني وقد يستعمل في مقام المبالغة فيعكس المعنى فيه الى ضده كما جاء لابي كرام التميمي من شعراء الحماسة وهو قوله

لله تيم أي رمح طراد * لاقى الحمام وأي نصل جلاد

ومحش حرب مقدم متعرض * للموت غير معرد حياد

فلفظة حياد قد وردت فيهما واورد هذا الشاعر وقصد بها المبالغة في وصف شجاعة هذا الرجل فعكس عليه المقصد الذي قصده لان حيادا من حاد فهو حائد أي وجدت منه الحيدودة مرارا كما يقال قتل فهو قتال أي وجد منه القتل مرارا لكن هذا الرجل غير حائد اذ كان حائدا أي وجدت منه الحيدودة مرة واحدة واذا وجدت منه مرة كان ذلك جبنا ولم يكن شجاعة والاولى أن كان

قال غير مكذب جائز (وينبغي) أن يعلم أنه اذا وردت لفظة من الالفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذى هو طريق المبالغة وحملها على غيره أن ينظر فيها فان اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه (فمن ذلك) قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها منى النفس فى أسماء لو تستطيعها * وهى قصيدة يمدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله وذكر فيها حديث الصلح بين بنى تغلب فمما جاء فيها قوله

رفعت بضبعى تغلب ابنة وائل * وقد يئست أن يستقل صريعها
فكنت أمين الله مولى حياتها * ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها
تألفتهم من بعد ما شردت بهم * حفائظ أخلاق بطىء رجوعها
وأقصر غاويها المجهد فاهتدى * وأقصر عاليها ودانى شسوعها

فقوله تألفتهم من بعد ما شردت بهم يجوز أن تخفف لفظة شردت ويجوز أن تثقل والتثقيل هو الوجه لانه فى مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا وتباينت قلوبهم وآراؤهم وكل ما يجىء من الالفاظ على هذا النحو ينبغى أن يجرى هذا المجرى (وههنا نكتة لا بد من التنبيه عليها) وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم الا فى نقل صيغة الى صيغة أكثر منها كنقل الثلاثى الى الرباعى والا فاذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فانه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى الى مثل تلك الصيغة ألا ترى أنه اذا قيل فى الثلاثى قتل ثم نقل الى الرباعى فقيل قتّل بتشديد التاء فان الفائدة من هذا النقل هى التكثير أى أن القتل وجد منه كثيرا وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما فان كلم على وزن قتل ولم يرد به التكثير بل أريد به أنه خاطبه سواء كان خطابه اياه طويلا أو قصيرا قليلا أو كثيرا وهذه اللفظة رباعية وليس لها ثلاثى نقلت عنه الى الرباعى لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثى ورباعى فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى وذاك أن تكون كلم من الجرح أى جرّح ولها ثلاثى وهو كلم مخففا أى جرح فاذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة واذا وردت مثقلة دلت على التكثير (وكذلك) ورد قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا فان لفظة رتل على وزن لفظة قتل ومع هذا فليست دالة على كثرة القراءة وانما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثى لها حتى تنقل عنه الى

رباعى

رباعي وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة وعلى هذا
فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى الا بالنقل من وزن الى وزن أعلى
منه فاعرف ذلك (ومن ههنا) شذ الصواب عمن شذ عنه في عالم وعليم فان
جمهور علماء العربية يذهبون الى أن عليما أبلغ في معنى العلم من عالم وقد
تأملت ذلك وأنعمت نظري فيه فحصل عندي شك في الذي ذهبوا اليه والذي
أوجب ذلك الشك هو أن عالما وعليما على عدة واحدة اذ كل منهما أربعة
أحرف وليس بينهما زيادة ينقل فيها الادنى الى الاعلى والذي يوجبه النظر أن
يكون الامر على عكس ما ذكروه وذلك أن يكون عالم أبلغ من عليم وسببه أن
عالما اسم فاعل من علم وهو متعد وان عليما اسم فاعل من علم الا أنه أشبه وزن
الفعل القاصر نحو شرف فهو شريف وكرم فهو كريم وعظم فهو عظيم فهذا
الوزن لا يكون الا في الفعل القاصر فلما أشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذي هو
متعد ألا ترى أن فعل بفتح الفاء وكسر العين يكون متعديا نحو علم وحمد ويكون
قاصرا غير متعد نحو عجب وشبع وأما فعل بفتح الفاء وضم العين فانه لا يكون
الا قاصرا غير متعد ولما كان فعل بفتح الفاء وكسر العين مترددا بين المتعدي
والقاصر وكان فعل بفتح الفاء وضم العين قاصرا غير متعد صار القاصر
أضعف مترددا بين المتعدي والقاصر وحيث كان الامر كذلك وأشبه
وزن المتعدي وزن القاصر حط ذلك من درجته وجعله في الرتبة دون المتعدي
الذي ليس بقاصر هذا هو الذي أوجب لي التشكيك فيما ذهب اليه غيري من
علماء العربية ولو عكس كان ما ذهبوا اليه لا مرية فيه عندي ولم أطلع عليه
(النوع الثالث عشر في عكس الظاهر) وهو نفي الشيء باثباته وهو من مستطرفات
علم البيان وذاك أنك تذكر كلاما يدل ظاهره أنه نفي لصفة موصوف وهو نفي
للموصوف أصلا (فمما جاء منه) قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف
مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنثى فلتاته أي لا تذاع سقطاته فظاهر هذا
اللفظ أنه كان ثم فلتات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم
فلتات فتنثى وهذا من أغرب ما توسعت فيه اللغة العربية وقد ورد في الشعر كقول
بعضهم * ولا ترى الضب بها ينجحر * فان ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك
ضب ولكنه غير منجحر وليس كذلك بل المعنى أنه لم يكن هناك ضب أصلا وهذا

النوع من الكلام قليل الاستعمال وسبب ذلك أن الفهم يكاد يأباه ولا يقبله الا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه وما كان عاريا عن قرينة فانه لا يفهم منه ما أراد قائله وسأوضح ذلك فأقول أما قول اعرابي مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تثنى فلتاته فان مفهوم هذا اللفظ انه كان هناك فلتات الا أنها تطوى ولا تنشر وتكتم ولا تذاع ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات الا بقرينة خارجة عن اللفظ وهي أنه قد ثبت في النفوس وتقرر عند العقول أن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم منزه عن فلتات تكون به وهو أكرم من ذلك وأوقر فلما قال انه لا تثنى فلتاته فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلا وأما قول القائل * ولا ترى الضب بها ينجحر * فانه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه ما فهم من الاول بل المفهوم أنه كان هناك ضب ولكنه غير منجحر ولقد مكثت زمانا أطوف على أقوال الشعراء قصدا للظفر بأمثلة من الشعر جارية هذا المجرى فلم أجد الا بيتا لامرئ القيس وهو

على لاحب لا يهتدى لمناره * اذا سافه العود الديافي جرجرا

فقوله لا يهتدى لمناره أي أن له منارا الا أنه لا يهتدى به وليس المراد ذلك بل المراد أنه لا منار له يهتدى به ولي أبيات هذا بيت من الشعر وهو

أدنين جلباب الحياء فلن يرى * لذيولهن على الطريق غبار

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يمشين هونا لحيائهن فلا يظهر لذيولهن غبار على الطريق وليس المراد ذلك بل المراد أنهن لا يمشين على الطريق أصلا أي أنهن مخدرات لا يخرجن من بيوتهن فلا يكون اذا لذيولهن على الطريق غبار وهذا حسن رائق وهو أظهر بيانا من قوله * ولا ترى الضب بها ينجحر * فمن استعمل هذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا والا فليدع على أن الاكثار من استعماله عسر لانه لا يظهر المعنى فيه (النوع الرابع عشر في الاستدراج) وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى وهو مخادعات الاقوال التي تقوم مقام مخادعات الافعال والكلام فيه وان تضمن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم الى الاذعان والتسليم واذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه لانه لا انتفاع بايراد الالفاظ المليحة الرائقة ولا

المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستملة لنوع عرض المخاطب بها والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيراً في خلابه لا قصيراً في خطابه فإذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده وإلا فليس بكاتب ولا شبيه له إلا صاحب الجدل فكما أن ذاك يتصرف في المغالطات القياسية فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية وقد ذكرت في هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذه الطريق (فمن ذلك) قوله تعالى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال لم يخل هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعداه أو يكون صادقاً فيصبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول إنما قال يصبكم بعض الذي يعدكم وقد علم أنه نبي صادق وأن كل ما يعدهم به لا بد أن يصيبهم لا بعضه لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول ويأتيهم من جهة المناصحة ليكون أدعى إلى سكونهم إليه فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم إياه فقال وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعده لكنه أردف قوله يصبكم بعض الذي يعدكم ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلاً من أن يتعصب له وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه برطلهم في صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه وكذلك قوله في آخر الآية إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب أي هو على الهدى ولو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوة ولا عضده بالبينات وفي هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به وقد تضمن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حق التأمل أعطيته حقه من الوصف (ومما يجري على هذا الأسلوب) قوله تعالى واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت إني قد جاءني من

العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا هذا كلام يبهر أعطاف السامعين وفيه من الفوائد ما أذكره وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل رتب الكلام معه في أحسن نظام مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الجميل والخلق الحسن مستنصحا في ذلك نصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولا العلة في خطئه طلب منبه على تماديه موقظ من غفلته لأن المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا مقتدرا على الثواب والعقاب إلا أنه بعض الخلق يستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبيين فكيف بمن جعل المعبود جمادا لا يسمع ولا يبصر يعني به الصنم ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترفقا به فلم يسم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال إن معي لطائفة من العلم وشيأ منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بهداية الطريق دونك فاتبعني أنجك من أن تضل ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال إن الشيطان الذي استعصى على ربك وهو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذي ورطك في هذه الورطة وألقاك في هذه الضلالة وإنما ألغى إبراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته في نصيحة أبيه لأنه لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص بالله وهي عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته ثم ربع ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة ولم يصرح بأن العقاب لاحق به ولكنه قال إني أخاف أن يمسك عذاب فنكر العذاب ملاطفة لأبيه وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله يا أبت توسلا إليه واستعطافا وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه فإنه قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم فأقبل عليه بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بني وقدم الخبر على المبتدأ في قوله أراغب أنت لأنه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس لا سيما في مخاطبات الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار والرد عليهم وفي هذين المثالين المذكورين ههنا كفاية ومقنع

جواب معاوية للحسين حين فاوضه في أمر يزيد

(وبلغني حديث) مفاوضة الحسين بن علي رضي الله عنهما ومعاوية بن أبي سفيان في أمر ولده يزيد وذلك أن معاوية قال للحسين أما أمك فاطمة فإنها خير من أمه وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب وأما حبي يزيد فإني لو أعطيت به مثلك ملء الغوطة لما رضيت وأما أبوك وأبوه فإنهما تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك وهذا كلام من معاوية كلما أمررته بفكري عجبت من سداده وفضله عن بلاغته وفصاحته فإن معاوية علم ما لعلي رضي الله عنه من السبق إلى الإسلام والأثر فيه وما عنده من فضيلة العلم فلم يتعرض في المفاخرة إلى شيء من ذلك ولم يقل أيضا إن الله أعطاني الدنيا ونزعها منكم لأن هذا لا فضل فيه إذ الدنيا ينالها البر والفاجر واعاصابع عن ذلك كله بقوله إن أباك وأباه تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك وهذا قول إقناعي يوهم شبهة من الحق وإذا شاء من شاء أن يقارعه ويستدرجه إلى الصمت عن الجواب فليقل هكذا

الإيجاز

(النوع الخامس عشر في الإيجاز) وهو حذف زيادات الألفاظ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة من سبق إلى غايتها وما صلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانه وتعذر إمكانه والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم الفاتحة أم الكتاب وإذا نظرنا إلى مجموعها وجدناها يسيرا وليست من الكثرة إلى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرهما من السور الطوال فعلمنا حينئذ أن ذلك لأمر يرجع إلى معانيها (والكلام في هذا الموضع) يخرج بنا إلى غير ما نحن بصدده لأنه يحتاج فيه إلى ذكر المراد بالقرآن الكريم وما اشتمل عليه سوره وآياته إلى حصر أقسام معانيه لكنا نشير في ذلك إشارة خفيفة (فنقول) المراد بالقرآن هو دعوة العباد إلى الله تعالى وإذ ذلك انحصرت سوره وآياته في ستة أقسام ثلاثة منها هي الأصول وثلاثة هي الفروع (أما الأصول) فالأول منها تعريف المدعو إليه وهو الله تعالى ويشتمل هذا الأصل

على ذكر ذاته وصفاته وأفعاله والاصل الثانى تعريف الصراط المستقيم الذى يجب ملازمته فى السلوك الى الله تعالى ويشتمل هذا الاصل على التبتل بعبادة الله بأفعال القلب وأفعال الجوارح والاصل الثالث تعريف الحال بعد الوصول الى الله تعالى أعنى بعد الموت ويشتمل هذا الاصل على تفصيل أحوال الدار الآخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب وأشباه ذلك فهذه الاصول الثلاثة (وأما الفروع) فالاول منها تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله بهم من النصرة والاذالة وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمحادين لها وكيفية صنع الله فى التدمير عليهم والتنكيل بهم والفرع الثانى ذكر مجادلة الخصوم ومحاجتهم وحملهم بالمجادلة والمحاجة على طريق الحق وهؤلاء هم اليهود والنصارى ومن يجرى مجراهم من أرباب الشرائع والفلاسفة والملحدة من غير أرباب الشرائع والفرع الثالث تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والاهبة للاستعداد وذلك بقياس الشريعة وتبيين الحكمة فى أوامرها التى تتعلق بأفعال أهل التكاليف فهذه الاقسام الستة المشار اليها هى التى يدور معانى القرآن عليها ولا يتعداها وههنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه ولا حاجة الى ذكره واذا نظرنا الى سورة الفاتحة وتأملنا ما فيها من المعانى وجدناها مشتملة على أربعة أقسام من الستة المذكورة ولذلك سماها النبى صلى الله عليه وسلم أم الكتاب كما أنه قال ان سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن واذا نظرنا فى الاقسام الستة وجدنا سورة الاخلاص بمنزلة ثلث القرآن وكذلك قال صلى الله عليه وسلم آية الكرسى سيدة آى القرآن ويروى أنه سأل أبى ابن كعب رضى الله عنه فقال أى آية معك فى كتاب الله أعظم فقال الله لا اله الا هو الحى القيوم فضرب فى صدره وقال ليهنك العلم أبا المنذر وكل هذا يرجع الى المعانى لا الى الالفاظ فاعرف ذلك وتنبه لرموزه وأسراره (واعلم) أن جماعة من مدعى علم البيان ذهبوا الى أن الكلام ينقسم قسمين فمنه ما يحسن فيه الايجاز كالاشعار والمكاتبات ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التى تقرأ فى ملأ من عوام الناس فان الكلام اذا طال فى مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم ولو اقتصر فيه على الايجاز والاشارة لم يقع لاكثرهم حتى يقال فى ذكر الحرب التقى الجمعان وتطاعن الفريقان واشتد القتال وحمى النصال

وما جرى هذا المجرى والمذهب عندي في ذلك ما أذكره وهو أن فهم العامة ليس شرطا معتبرا في اختيار الكلام لانه لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل في الكلام الالفاظ العامية المتبذلة عندهم ليكون ذلك أقرب الى فهمهم لان العلة في اجتناب تطويل الكلام اذا كانت فهم العامة اياه فكذلك تجعل تلك العلة بعينها في اجتناب المتبذل من الكلام فانه لا خلاف في أن العامة الى فهمه أقرب من فهم ما يقل تداولهم اياه وهذا شيء مدفوع وانما الذي يجب توخيه واعتماده فهو ما ذكرته من المذهب القويم في تركيب الالفاظ على المعاني بحيث لا تزيد عليه مع الايضاح والابانة وليس على مستعمل ذلك أن يفهم العامة كلامه فان نور الشمس اذا لم يره الاعمى لم يكن ذلك نقصا في استنارته وانما النقص في بصر الاعمى حيث لم يستطع النظر اليه

على نحت القوافي من معادنها * وما على اذا لم تفهم البقر

(وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع) فلنرجع الى ما كنا بصدده من الكلام على الايجاز وحده وأقسامه وتوضيح ذلك بضرب الامثلة والله الموفق للصواب فنقول حد التطويل هو زيادة اللفظ على المعنى من غير ان يزيد عليه والتطويل هو ضد ذلك وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه كقول البحتري للاولى من أبيات حماسية

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق * الى غاية من يبتدرها يقدم

صدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة اليه وغيره من محاسن الكلام المتواصفة وموضع التطويل من صدره أنه قال طلوع الثنايا بالمطايا فقوله بالمطايا فضلة لا حاجة اليها وبيان ذلك أنه لا يخلو الامر فيها من وجهين اما أن يريد انه سابق الهمة الى معالي الامور كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * أي أنا الرجل المشهور السابق الى معالي الامور فان أراد البحتري بقوله طلوع الثنايا ما أشرت اليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى لان معالي الامور لا يرقى اليها بالمطايا وان أراد الوجه الآخر وهو أنه كثير الاسفار وخصائصه الثنايا ذكر دون الارض من المفاوز وغيرها فالافضل فيه وعلى كلا الوجهين فان ذكر المطايا فضلة لا حاجة اليه وهو تطويل بارد غث فقس على هذا المثال ما يجري مجراه من التطويلات التي اذا أسقطت من الكلام بقي على حاله لم

بتغير شيء وكذلك يجري الأمر في ألفاظ يوصل بها الكلام فتارة تجيء لفائدة وذلك قليل وتارة تجيء لغير فائدة وذلك كثير وأكثر ما ترد في الأشعار ليوزن بها الأبيات الشعرية وذلك نحو قولهم لعمري ولعمرك ونحو أصبح وأمسى وظل وأضحى وبات وأشباه ذلك ونحو يا صاحبي ويا خليلي وما يجري هذا المجرى (فمما جاء منه) قول أبي تمام

أقروا لعمري لحكم السيوف * وكانت أحق بفصل القضاء

فإن قوله لعمري زيادة لا حاجة للمعنى إليها وهي حشو في هذا البيت لا فائدة فيه إلا إصلاح الوزن لا غير ألا ترى أنها من باب القسم وإنما يرد القسم في موضع يؤكد به المعنى المراد إما لأنه مما يشك فيه أو مما يعز وجوده أو ما جرى هذا المجرى وهذا البيت الشعري لا يفتقر معناه إلى توكيد قسمي إذ لا شك في أن السيوف حاكمة وأن كل أحد يقر لحكمها ويذعن لطاعتها وكذلك قوله أيضا

إذا أنا لم ألم عثرات دهر * بليت به الغداة فمن ألوم

فقوله الغداة زيادة لا حاجة للمعنى إليها لأنه يتم بدونها لأن عثرات الدهر لم تله الغداة ولا العشي وإنما بالتنبيه وبليتها إياه لا بد وأن يقع في زمن من الأزمنة كائنا ما كان ولا حاجة إلى تعيينه بالذكر (وعلى هذا) ورد قول البحتري

ما أحسن الأيام إلا أنها * يا صاحبي إذا مضت لم ترجع

فقوله يا صاحبي زيادة لا حاجة بالمعنى إليها إلا أنها وردت لتصحيح الوزن لا غير وهذه الألفاظ التي ترد في الأبيات الشعرية لتصحيح الوزن لا عيب فيها إلا أنا لو عبناها على الشعراء لتحجرنا عليهم وضيقنا والوزن يضطر في بعض الأحوال إلى مثل ذلك لكن إذا وردت في الكلام المنثور فإنها إن وردت حشوا ولم ترد لفائدة كانت عيبا وقد ترد في الأبيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الأحسن كقول البحتري

قوم أهانوا الوفر حتى أصبحوا * أولى الأنام بكل عرض وافر

فقوله أصبحوا بمعنى صاروا أي أنهم صاروا أولى الناس بالأعراض الوافرة وهذه اللفظة لم ترد في هذا البيت حشوا كما وردت في بيتي أبي تمام المقدم ذكرهما (وسأزيد هذا الموضع بيانا) بمثال أضربه للتطويل حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه والمثال الذي أضربه هو حكاية أوردت بحضرمي وذلك أنه جلس إلي في بعض الأيام جماعة من الإخوان وأخذوا في مفاوضة الأحاديث وانساق ذلك إلى ذكر

حكاية وقعت بحضرة المؤلف حكاها شاهدا للتطويل

غرائب الوقائع التى تقع فى العالم فذكر كل من الجماعة شيأ فقال شخص منهم انى
كنت بالجزيرة العمرية فى زمن الملك فلان وكنت اذ ذاك صبيا صغيرا فاجتمعت أنا
وغير من الصبيان فى الحارة الفلانية وصعدنا الى سطح طاحون لبنى فلان وأخذنا
نلعب على السطح فوقع صبى منا الى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال
الطاحون فخفنا أن يكون أذاه فأسرعنا النزول اليه فوجدناه قد وطئه البغل
فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها فقال له
شخص من الحاضرين والله ان هذا لعىّ فاحش وتطويل كثير لا حاجة اليه فانك
بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبى
منكم الى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ولا فرق
بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو فى بلد لا نعرفه ولو كانت بأقصى المشرق
أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قادحا فى غرابتها وأمّا أن تذكر أنها كانت بالجزيرة
العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان وكان زمن الملك فلان فان مثل
هذا كله تطويل لا حاجة اليه والمعنى المقصود يفهم بدونه (فاعلم) أيها الناظر
فى كتابى هذا أنّ التطويل هو زيادات الالفاظ فى الدلالة على المعانى ومهما أمكنك
حذف شئ من اللفظ فى الدلالة على معنى من المعانى فان ذلك اللفظ هو التطويل
بعينه (وأمّا الايجاز) فقد عرّفتك أنه دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه
(وهو ينقسم قسمين أحدهما) الايجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة
لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون الا فيما زاد معناه على لفظه (والقسم
الآخر) ما لا يحذف منه شئ وهو ضربان أحدهما ما ساوى لفظه معناه ويسمى
التقدير والآخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر (واعلم أنّ القسم الاوّل)
الذى هو الايجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفة فى استخراجه لمكان المحذوف
منه (وأمّا القسم الثانى) فانّ التنبه له عسر لانه يحتاج الى فضل تأمّل وطول فكرة
لخفاء ما يستدل عليه ولا يستنبط ذلك الا من رسخت قدمه فى ممارسة علم البيان
وصار له خليقة وملكة ولم أجد أحدا من علماء هذين القسمين بعلامة ولا قيدهما
بقيد وقد أشرت الى ذلك فيما يأتى من هذا الباب عند تفصيل أمثلتهما فليؤخذ
من هنالك (فان قيل) انّ هذا التقسيم الذى قسمته فى المحذوف وغير المحذوف ليس
بصحيح لانّ المعانى ليست أجساما كالالفاظ حتى يصح التقدير بينهما ثم لو سلّم

جوار التقدير في المساواة لم أسلم جوار الزيادة فليس لقائل أن يقول هذا المعنى رائد على هذا اللفظ لانه ان قال ذلك قيل من أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ وقد علم أن الالفاظ اعا وضعت للدلالة على افهام المعاني فان قال انها فهمت من شيء خارج عن اللفظ قيل له فتلك الزيادة باراء ذلك الشيء الخارج عن اللفظ والباقي مساو للفظ وان قال انها فهمت من اللفظ قيل فكيف تفهم منه وهي رائدة عليه فان قال انها فهمت من تركيبه لان التركيب أمر رائد على اللفظ قيل الالفاظ تدل بانفرادها على معنى وبتركيبها على معنى آخر واللفظ المركب يدل على معنى مركب واللفظ المفرد يدل على معنى مفرد وتلك الزيادة ان أريد بها زيادة معنى المركب على المركب ولا يخلو اما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها أو من دلالة شيء خارج فان كانت مفهومة من دلالته عليها لم تكن رائدة عليه اذ لو كانت رائدة عليه لما دل عليها وان كانت مفهومة من دلالة الشيء الخارج عنه فهي باراء ذلك الشيء الخارج والباقي مساو للباقي (فالجواب عن ذلك) أن نقول هذا الذي ذكره كلام شبيه بالسفسطة وهو باطل من وجهين أحدهما أن المعاني اذا كانت لا تزيد على الالفاظ فيلزم من ذلك أن الالفاظ لا تزيد أيضا على المعاني لانهما مثلا رمان على قياسك ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ فاذا أسقط من تلك الالفاظ شيء لا ينقص ذلك المعنى بل يبقى على حاله والوجه الآخر أن الايجاز بالحذف أقوى دليلا على زيادة المعاني على الالفاظ لانا نرى اللفظ يدل على معنى لم يتضمنه ونفهم ذلك المعنى ضرورة لا بتضمنه فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الرائد على اللفظ مفهوم من دلالة عليه (فان قيل) ان المعنى الرائد على اللفظ المحذوف لا بد له من تقدير لفظ آخر يدل عليه وتلك الزيادة باراء ذلك اللفظ المقدر (قلت في الجواب عن ذلك) هذا لا ينقض ما ذهبت اليه من زيادة المعنى على اللفظ لان المعنى الرائد ظاهر واللفظ الدال عليه مضمر واذا كان مضمرا فلا ينطق به واذا لم ينطق به فكأنه لم يكن وحينئذ يبقى المعنى موجودا واللفظ الدال عليه غير موجود وكذلك كل ما يعلم من المعاني بمفهوم الخطاب ألا ترى أنك اذا قلت لمن دخل عليك أهلا وسهلا علم أن الاهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وجدت أهلا ولقيت سهلا الا أن لفظتي وجدت ولقيت محذوفتان والمعنى الذي دلا عليه باق

وصار المعنى حينئذ معه ومع حذفه ما هو زائد لا محالة وكذلك جميع المحذوفات على اختلافها وتشعب مقاصدها وهذا الانواع فيه اسبابه ووجوهه (وقد سنح لى فى زيادة المعنى على اللفظ فى غير المحذوفات دليل أنا ذاكره) وهو انا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة واللفظ واحد والمعانى التى تحته متعددة فأما الذى يدل على معنيين فالكنايات جميعها كالذى ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم أنهم كانوا اذا خرجوا من عنده لا يتفرقون الا عن ذواق وهذا يدل على معنيين أحدهما اطعام الطعام أى أنهم لا يخرجون من عنده حتى يطعموا الآخر أنهم لا يتفرقون الا عن استفادة علم وأدب يقوم لانفسهم مقام الطعام لاجسامهم وأما الذى يدل على ثلاثة معان فكقول أبى الطيب المتنبى

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب

فهذا يدل على ثلاثة معان الاول أنه يحسد من أنعم عليه الثانى ضد الاول الثالث أنه يحسد كل رب نعمة كائنا من كان أى يحسد من بات فى نعماء نفسه يتقلب وهذا وأمثاله من أدل الدليل على زيادة المعنى على اللفظ وهو شئ استخرجته ولم يكن لاحد فيه قول سابق (وحيث فرغنا من الكلام) على هذا الموضع فلنذكر أقسام الايجاز المشار اليها أولا وما ينصرف اليه (فنقول) أما الايجاز بالحذف فانه عجيب الامر شبيه بالسحر وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الافادة أزيد للافادة وتجدك انطق ما تكون اذا لم تنطق وأتم ما تكون مبينا اذا لم تبين وهذه جملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر والاصل فى المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون فى الكلام ما يدل على المحذوف فان لم يكن هناك دليل على المحذوف فانه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب ومن شرط المحذوف فى حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام الى شئ غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن وقد يظهر المحذوف بالاعراب كقولنا أهلا وسهلا فان نصب الاهل والسهل يدل على ناصب محذوف وليس لهذا من الحسن ما للذى لا يظهر بالاعراب وانما يظهر بالنظر الى تمام المعنى كقولنا فلان يحل ويعقد فان ذلك لا يظهر المحذوف فيه بالاعراب وانما يظهر بالنظر الى تمام المعنى أى أنه

يحصل الامور وبعقدها والذى يظهر بالاعراب يقع فى المفردات من المحذوفات كثيرا والذى لا يظهر بالاعراب يقع فى الجمل من المحذوفات كثيرا (وسأذكر فى كتابى هذا ما وصل الىّ علمه وهو ينقسم قسمين) أحدهما حذف الجمل والآخر حذف المفردات وقد يرد كلام فى بعض المواضع ويكون مشتملا على القسمين معا (فأما القسم الاول) وهو الذى تحذف منه الجمل فانه ينقسم الى قسمين أيضا (أحدهما) حذف الجمل المفيدة التى تستقل بنفسها كلاما وهذا أحسن المحذوفات جميعها وأدلها على الاختصار ولا تكاد تجده الا فى كتاب الله تعالى (والقسم الآخر) حذف الجمل غير المفيدة وقد ورد اهما مختلطين (وجملتهما أربعة أضرب الضرب الاول) حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف (ويأتى على وجهين الوجه الاول) اعادة الاسماء والصفات وهذا يجىء تارة باعادة اسم من تقدم الحديث عنه كقولك أحسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان وتارة يجىء باعادة صفته كقولك أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك وهو أحسن من الاول وأبلغ لانطوائه على بيان الموجب للاحسان وتخصيصه (فمما ورد من ذلك) قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون والاستئناف واقع فى هذا الكلام على أولئك لانه لما قال الم ذلك الكتاب الى قوله وبالآخرة هم يوقنون اتجه لسائل أن يقول ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا (الوجه الثانى) الاستئناف بغير اعادة الاسماء والصفات وذلك كقوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيأ ولا ينقذون انى اذا لفى ضلال مبين انى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين مخرج هذا القول مخرج الاستئناف لان ذلك من مظان المسئلة عن حاله عند لقاء ربه وكأن قائلا قال كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخى لوجهه بروحه فقيل قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض الى المقول لا الى المقول له

مع كونه معلوماً وكذلك قوله تعالى يا ليت قومي يعلمون مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد ومن هذا النحو قوله عز وجل "يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب" والفرق بين إثبات الفاء في سوف كقوله تعالى قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل "عليه عذاب مقيم" وبين حذف الفاء منها في هذه الآية أن إثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وحذفها وصل خفي "تقديري" بالاستئناف الذي هو جواب السؤال فقدر كأنهم قالوا فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه إن شاء الله تعالى (الضرب الثاني) الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب (فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب) فكقوله تعالى وما كنت بجانب الغربي "إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر" كأنه قال وما كنت شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل "به" على المسبب الذي هو الوحي على عادة اختصارات القرآن لأن تقدير الكلام ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى موسى إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم العمر أي أمد انقطاع الوحي فاندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وعرفناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى فالمحذوف إذاً جملة "مفيدة" وهي جملة "مطولة" دل السبب فيها على المسبب وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضاً وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون فإن في هذا الكلام محذوفاً ولا بد منه لأنه قال وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك وهذا لا بد له من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام وتقديره ولكن عرفناك ذلك وأوحيناه إليك رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك فذكر الرحمة التي هي سبب إرساله إلى الناس ودل "بها" على المسبب الذي هو الإرسال وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام قالت أنى يكون لي

غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فقوله ولنجعله آية للناس تعليل معلله محذوف أي وأعناه فعلنا ذلك لنجعله آية للناس فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله وهو جعله آية للناس ودل به على المسبب الذي هو الفعل (ومما ورد من ذلك) في الأخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضي الله عنه والرجل الأنصاري الذي خاصمه في شراج الحرة التي يسقي منها النخل فلما حضرا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير اسق ثم أرسل الماء الى جارك فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر وفي هذا الكلام محذوف تقديره أن كان ابن عمتك حكمت له أو قضيت له أو ما جرى هذا المجرى فذكر السبب الذي هو كونه ابن عمته ودل به على المسبب الذي هو الحكم أو القضاء لدلالة الكلام عليه

ذكر مخاصمة الزبير مع الأنصاري في سقي النخل

(وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب) فكقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أي اذا أردت قراءة القرآن فاكتفى بالمسبب الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الارادة والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل القراءة والذي دلت عليه أنها بعد القراءة كقول القائل اذا ضربت زيدا فاجلس فان الجلوس انما يكون بعد الضرب لا قبله وهذا أولى من تأول من ذهب الى أنه أراد فاذا تعوذت فاقرأ فان ذلك قلب لا ضرورة تدعو اليه وأيضا فليس كل مستعيذ واجبة عليه القراءة (وعلى هذا ورد) قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم والوضوء انما يكون قبل الصلاة لا عند القيام اليها لأن القيام اليها هو مباشرة لأفعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك وهذا انما يكون بعد الوضوء وتأويل الآية اذا أردتم القيام الى الصلاة فاغسلوا فاكتفى بالمسبب عن السبب (وكذلك ورد) قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام أحدكم الى الصلاة فليتوضأ أي اذا أراد القيام الى الصلاة وانما عبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لأن الفعل مسبب عن الارادة وهو مع القصد اليه موجود فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة (ومن ذلك قوله تعالى) فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا أي فضرب فانفجرت منه فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار عن السبب الذي هو الضرب (الضرب الثالث) وهو الاضمار على شريطة التفسير

وهو

وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلاً على الأول (وهو ينقسم إلى ثلاثة أوجه الأول) أن يأتي على طريق الاستفهام فتذكر الجملة الأولى دون الثانية كقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين تقدير الآية أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه ويدل على المحذوف قوله فويل للقاسية قلوبهم (الوجه الثاني) يرد على حد النفي والإثبات كقوله تعالى لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا تقديره لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ويدل على المحذوف قوله أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا (الوجه الثالث) أن يرد على غير هذين الوجهين فلا يكون استفهاماً ولا نفياً وإثباتاً وذلك كقول أبي تمام

يتجنب الآثام ثم يخافها * فكأنما حسناته آثام

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه في إثباته فمنها ما يجيء فيه

يتجنب الايام خيفة غبها * فكأنما حسناته آثام

وليس بشيء لأن المعنى لا يصح به وكنت سئلت عن معناه وقيل كيف ينطبق عجز البيت على صدره وإذا تجنب الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاماً فأفكرت فيه وأعملت خاطري فسنح لي في القرآن الكريم آية مثله وهي قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة وفي صدر البيت إضمار فسر في عجزه وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام وهو على طباق الآية سواء (ومن الإضمار على شريطة التفسير) قول أبي نواس

سنة العشاق واحدة * فإذا أحببت فاستكن

حذف لفظ الاستكانة من الأول وذكره في الثاني أي سنة العشاق واحدة وهي الاستكانة فإذا أحببت فاستكن ومن الناس من يقول فإذا أحببت فاستبن وهذا لا معنى له لأنه إذا لم يبين سنة العشاق ما هي فبأي شيء يستبين المتبين منها لكنه ذكر السنة في صدر البيت من غير بيان ثم بينها في عجزه (الضرب الرابع) ما ليس بسبب ولا مسبب ولا إضمار على شريطة التفسير ولا استئناف (فأما ما حذف فيه من الجمل المفيدة) فكقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قال تزرعون

سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وقال الملك ائتوني به قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها فرجع الرسول إليهم وأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها أو فصدقوه عليها وقال الملك ائتوني به والمحذوف إذا كان كذلك دلت عليه الكلام دلالة ظاهرة لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه (وكذلك ورد) قوله تعالى في هذه السورة أيضا فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين قد حذف أيضا من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها ثم إنهم تجهزوا وساروا إلى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه (وقد ورد هذا الضرب في القرآن الكريم كثيرا) كقوله تعالى في سورة القصص وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ففي هذا محذوف وهو جواب الاستفهام لأنها لما قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم احتاج إلى جواب لينتظم بما بعده من رده إلى أمه والجواب فقالوا نعم فدلتهم على امرأة تجيء بها وهي أمه ولم يعلموا بمكانها فأرضعته وهذه الجملة الثانية أعني قوله تعالى فرددناه إلى أمه تدل على المحذوف لأن رده إلى أمه لم يكن إلا بعد رد الجواب على أخته ودلالتها إياهم على امرأة ترضعه ويكفي هذا الموضع وحده لمن ينظر في مواقع المحذوفات وكيفيتها (ومما يجري على هذا المنهج) قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام وقصة الهدهد في إرساله بالكتاب إلى بلقيس قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ففي هذا محذوف تقديره فأخذ الكتاب وذهب به فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت يا أيها الملأ (ومن حذف الجمل المفيدة) ما يعسر تقدير المحذوف منه بخلاف ما تقدم ألا ترى أن الآيات المذكورة كلها إذا تأملها المتأمل وجد معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التي حذفت منها ثم إذا قدرت تلك المحذوفات سهل

تقديرها بديهة النظر والذي أذكره الآن ليس كذلك بل اذا تأمله المتأمل وجده غير متصل المعنى واذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه (فمما جاء منه) قوله تعالى وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أوّاب فهذا الكلام اذا تأمله المتأمل لم يجده متصل المعنى ولم يتبين له مجيء ذكر داود عليه السلام بعد قوله تعالى اصبر على ما يقولون واذا أراد أن يقدرهما محذوفا يوصل به المعنى عسر عليه (وتقديره يحتمل وجهين أحدهما) أنه قال اصبر على ما يقولون وخوفهم أمر معصية الله وعظمها في عيونهم بذكر قصة داود الذي كان نبيا من الانبياء وقد آتاه الله ما آتاه من النبوة والملك العظيم ثم لما زل زلة قوبل بكذا وكذا فما الظن بكم أنتم مع كفركم (الوجه الآخر) أنه قال اصبر على ما يقولون واحفظ نفسك أن تزل فيما كلفتهم من مصابرتهم واحتمال أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة فلقي من توبيخ الله ما لقي فهذا الكلام كما تراه يحتاج الى تقدير حتى يتصل بعضه ببعض وهو من أغمض ما يأتي من المحذوفات وبه ينبه على مواضع أخرى غامضة (وأما ما ورد) من هذا الضرب في حذف الجمل التي ليست بمفيدة فنحو قوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها صدره وهو البشرى بالغلام وتقديرها ولما جاء الغلام ونشأ وترعرع قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة (وعلى هذا النهج ورد) قوله تعالى قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي وقد حذف من هذا الكلام جملة الا أنها غير مفيدة وتقديرها فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال

من عبادة العجل قال لا خيه هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني (وكذلك) ورد قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل قال أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون وفي هذا محذوف تقديره فلما جاء به قال نكروا لها عرشها لأن تنكيره لم يكن الا بعد أن جيء به اليه وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره وكان ذلك دليلا عليه (ومما ورد على ذلك شعرا) قول أبي الطيب المتنبي

لا أبغض العيس لكني وقيت بها * قلبي من الهم أو جسمي من السقم

وهذا البيت فيه محذوف تقديره لا أبغض العيس لانه اني اياها في الاسفار ولكني وقيت بها كذا وكذا فالثاني دليل على حذف الاول وهذا موضع يحتاج في استخراجه واستخراج أمثاله الى فكرة وتدقيق نظر (ومما يتصل بهذا الضرب) حذف ما يجيء بعد أفعل كقولنا الله أكبر فان هذا يحتاج الى تمام أي أكبر من كل كبير أو أكبر من كل شيء يتوهم كبيرا أو ما جرى هذا المجرى ومثله يرد قولهم زيد أحسن وجها وأكرم خلقا تقديره أحسن وجها من غيره وأكرم خلقا من غيره أو ما يسد هذا المسد من الكلام وعليه ورد قول البحتري

الله أعطاك المحبة في الورى * وحباك بالفضل الذي لا ينكر

ولأنت أملأ في العيون لديهم * وأجل قدرا في الصدور وأكبر

أي أنت أملأ في العيون من غيرك (وأما القسم الثاني) المشتمل على حذف المفردات فانه يتصرف على أربعة عشر ضربا (الاول) حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل كقول العرب أرسلت وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء ومنه قول حاتم

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يريد النفس ولم يجر لها ذكر (وعلى هذا ورد) قوله تعالى كلا اذا بلغت التراقي وقيل من راق والضمير في بلغت للنفس ولم يجر لها ذكر وقد نص عثمان

ابن جنى رحمه الله تعالى على عدم الجواز فى حذف الفاعل وهذه الآية وهذا البيت الشعرى "وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف ما ذهب اليه لأن حذف الفاعل لا يجوز على الاطلاق بل يجوز فيما هذا سبيله وذلك أنه لا يكون الا فيما دل" الكلام عليه ألا ترى أن التى تبلغ التراقى انما هى النفس وذلك عند الموت فعلم حينئذ أن النفس هى المرادة وان كان الكلام خاليا عن ذكرها وكذلك قول حاتم حشرجت فان الحشرجة انما تكون عند الموت (وأما قول العرب) أرسلت وهم يريدون أرسلت السماء فان هذا يقولونه نظرا الى الحال وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجىء المطر ولم ترد فى شىء من أشعارهم ولا فى كلامهم المنثور وانما يقولها بعضهم لبعض اذا جاء المطر فالفرق بينها وبين حشرجت وبين بلغت التراقى ظاهر وذلك أن حشرجت وبلغت التراقى يفهم منهما أن النفس التى حشرجت وأنها هى التى بلغت التراقى وأما أرسلت فلولا شاهد الحال والا لم يجز أن تكون دالة على مجىء المطر ولو قيل فى معرض الاستسقاء انا خرجنا نسأل الله فلم نزل حتى أرسلت لفهم من ذلك أن التى أرسلت هى السماء ولا بد فى الكلام من دليل على المحذوف والا كان لغوا لا يلتفت اليه (الضرب الثانى) حذف الفعل وجوابه (اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين أحدهما) يظهر بدلالة المفعول عليه كقولهم فى المثل أهلك والليل فنصب أهلك والليل يدل على محذوف ناصب تقديره الحق أهلك وبادر الليل وهذا مثل يضرب فى التحذير (وعليه ورد) قوله تعالى فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ومما ورد منه فى الاخبار النبوية أن جابرا تزوج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تزوجت قال ثيبا فقال له فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك يريد فهلا تزوجت جارية فحذف الفعل لدلالة الكلام عليه (ومما ورد منه شعرا) قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الكافية التى يمتدح بها عضد الدولة أبا شجاع بن بويه ومطلعها * فدى لك من يقصر عن مداكا * وسأذكر الموضع الذى حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الابيات بعضها ببعض وهى من محاسن ما يؤتى به فى معنى الوداع ولم يأت لغيره مثلها وهى

اذا التوديع أعرض قال قلبى * عليك الصمت لا صاحبت فاكا
ولولا أن أكثر ما تمنى * معاودة لقلت ولا مناكا
قد استشفيت من داء بداء * وأقتل ما أعلك ما شفاكا

فأكتم منك نجوانا وأخفي * همومًا قد أطلت لها العراكا
إذا عاصيتها كانت شدادًا * وإن طاوعتها كانت ركاكا
وكم دون الثوية من حزين * يقول له قدومي ذا بذاكا
ومن عذب الرضاب إذا أنخنا * يقبّل رحل تروك والوراكا
يحرّم أن يمس الطيب بعدي * وقد علق العبير به وصاكا
يحدّث مقلتيه النوم عني * فليت النوم حدّث عن نداكا
وما أرضى لمقلته بحلم * إذا انتبهت توهّمه ابتشاكا
ولا إلا بأن يصغي وأحكي * فليتك لا يتيّمه هواكا

فقوله ولا مناكا فيه محذوف تقديره ولا صاحبت مناكا وكذلك قوله ولا إلا بأن يصغي وأحكي فيه محذوف تقديره ولا أرضى إلا بأن يصغي وأحكي (وأما القسم الآخر) فإنه لا يظهر فيه قسم الفعل لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام (فمما جاء منه قوله تعالى) وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة فقوله لقد جئتمونا يحتاج إلى إضمار فعل أي فقيل لهم لقد جئتمونا أو فقلنا لهم وقد استعمل هذا في القرآن الكريم في غير موضع كقوله تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فقوله أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا يحتاج إلى تقدير الفعل المضمر وكذلك ورد قوله تعالى ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله وإن جاهداك لا بد له من إضمار القول أي وقلنا له إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (ومن هذا الضرب) إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما كقوله تعالى فأجمعوا أمركم وشركاءكم وهو لأمركم وحده وإنما المراد أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لأن معنى أجمعوا من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه وقد قرأ أبيّ رضي الله عنه فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم وهذا دليل على ما أشرت إليه وكذلك هو مثبت في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل) وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد كقوله تعالى فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب فقوله فضرب الرقاب أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه

وفي ذلك اختصار مع اعطاء معنى التوكيد المصدري (وأما حذف جواب الفعل) فانه لا يكون في الامر المحتوم كقوله تعالى فذرهم يخوضوا ويلعبوا فذرهم يخوضوا ويلعبوا لانهما جواب أمر فذرهم وحذف الجواب في هذا لا يدخل في باب الايجاز لانا اذا قلنا ذرهم أي اتركهم لا يحتاج ذلك الى جواب وكذلك ما يجري مجراه وانما يكون الجواب بالفاء في ماض كقولنا قلت له اذهب فذهب وحينئذ يظهر الجواب المحذوف كقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ألا ترى كيف حذف جواب الامر في هذه الآية فان تقديره فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا اليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا فذكر حاشيتي القصة أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها أعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (ومن هذا الضرب أيضا) قوله تعالى قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون قال اني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب فجواب الامر من هذا الكلام محذوف تقديره فأرسله معهم ويدلنا على ذلك ما جاء بعده من قوله فلما ذهبوا به كما حذف أيضا في قوله عز وجل وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة انا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان الآية فجواب الامر من هذا الموضع محذوف وتقديره فأرسلوه الى يوسف فأتاه فقال له يوسف أيها الصديق وكذلك قوله تعالى وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه الآية ففي هذا الكلام حذف واختصار استغنى عنه بدلالة الحال عليه وتقديره فرجع الرسول الى الملك برسالة يوسف فدعا الملك بالنسوة وقال لهن ما خطبكن (وهكذا ورد قوله تعالى) ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين وقد حذف جواب الامر ههنا وتقديره فأتوه به فلما كلمه وفي سورة يوسف عليه السلام محذوفات كثيرة من أولها الى آخرها فانظر أيها المتأمل الى هذه المحذوفات المذكورة ههنا

التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانه ودلالة الحال عليه وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون محذوفات الكلام (الضرب الثالث) حذف المفعول به وذلك مما نحن بصدده أخص فإن اللطائف فيه أكثر وأعجب كقولهم فلان يحل ويعقد ويبرم وينقض ويضر وينفع والأصل في ذلك على إثبات المعنى المقصود في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى هذا جاء قوله تعالى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا ومن بديع ذلك قوله عز وجل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير فإن في هاتين الآيتين قد حذف المفعول به في أربعة أماكن إذ المعنى وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم وامرأتين تذودان مواشيهما وقالتا لا نسقي مواشينا فسقى لهما مواشيهما لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقي ومن المرأتين ذود وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي فأما كون المسقي غنما أو إبلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض وقد ورد في الشعر من هذا النوع قول البعيث بن حريث من أبيات الحماسة

دعاني يزيد بعد ما ساء ظنه * وعبس وقد كانا على حد منكب

وقد علما أن العشيرة كلها * سوى محضري من خاذلين وغيب

فالمفعول الثاني من علما محذوف لأن قوله أن العشيرة في موضع مفعول علما الأول وتقدير الكلام قد علما أن العشيرة سوى محضري من خاذلين وغيب لا غناء عندهم أو سواء حضورهم وغيبتهم أو ما جرى هذا المجرى (ومن هذا الضرب أيضا) حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والإرادة كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم فمفعول شاء ههنا محذوف وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (ومما جاء على مثال ذلك شعرا قول البحتري)

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم * كرما ولم تهدم مآثر خالد

الأصل في ذلك لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه في الثاني وقد تقدم أن من الواجب في حكم البلاغة

أن لا تنطق بالمحذوف ولا تظهره الى اللفظ ولو أظهرت اصرت الى كلام غث ومجيء المشيئة بعد لو و بعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة الى شئ كثير شائع بين البلغاء ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد حتى انهم لا يكادون يبرزون المفعول الا في الشيء المستغرب كقوله تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء (وعلى هذا الاسلوب) جاء قول الشاعر

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته * عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

ولو كان على حد قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى لوجب أن يقول ولو شئت لبكيت دما ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل الى هذه لانه أليق في هذا الموضع وسبب ذلك أنه كان بدعا عجيبا أن يشاء الانسان أن يبكي دما فلما كان مفعول المشيئة مما يستعظم ويستغرب كان الاحسن أن يذكر ولا يضمر (الضرب الرابع) وهو حذف المضاف والمضاف اليه واقامة كل واحد منهما مقام الآخر وذلك باب عريض طويل شائع في كلام العرب وان كان أبو الحسن الاخفش رحمه الله لا يرى القياس عليه (فأما حذف المضاف) فكقوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فحذف المضاف الى يأجوج ومأجوج وهو سدهما كما حذف المضاف الى القرية في قوله تعالى واسئل القرية أي أهل القرية (ومن ذلك أيضا) قوله عز وجل ولكن البر من اتقى أي خصلة من اتقى وان شئت كان تقديره ولكن ذا البر من اتقى والاول أولى لان حذف المضاف ضرب من الاتساع والخبر أولى بذلك من المبتدا لان الاتساع بالاعجاز أولى منه بالصدور وقد حذف المضاف مكررا في قوله تعالى فقبضت قبضة من أثر الرسول أي من أثر حافر فرس الرسول وهذا الضرب أكثر اتساعا من غيره (ومما جاء منه شعرا) قول بعضهم من شعراء الحماسة

اذا لاقيت قومي فاسأليهم * كفى قوما بصاحبهم خبيرا
هل اعفو عن أصول الحق فيهم * اذا عسرت واقتطع الصدورا

أراد أنه يقتطع ما في الصدور من الضغائن والاوغام أي يزيل ذلك باحسانه من عفو وغيره فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (وأما حذف المضاف اليه) فانه قليل الاستعمال فمما جاء منه قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد

أى من قبل ذلك ومن بعده وربما أدخل فى هذا الموضع ماليس منه كقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة قيل أراد ظهر الارض فحذف المضاف اليه وليس كذلك فان الهاء والالف قائمة مقام الارض ألا ترى ان قوله ظهرها يريد به الارض لانه ضمير راجع اليها وكذلك ورد قول جرير

اذا أخذت قيس عليك وخندف * بأقطارها لم تدر من أين تسرح

وهذا الاسمى ايجازا وانما هو تعريض بالضمير عن الضمير (الضرب الخامس) وهو حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام الآخر ولا يكون اطراده فى كل موضع وأكثر مجيئه فى الشعر وانما كانت كثرته فى الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس فى اطراده (فمما جاء منه فى الشعر) قول البحترى من أبيات فى صفة ايوان كسرى فقال فى ذكر التصاوير التى فى الايوان وذلك أن الفرس كانت تحارب الروم فصوروا صورة مدينة انطاكية فى الايوان وحرب الروم والفرس عليها فمما ذكره فى ذلك قوله

واذا ما رأيت صورة انطا * كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشر * وان يزجى الصفوف تحت الدرس
فى اخضرار من اللباس على أصـ * ـفر يختال فى صبيغة ورس

فقوله على أصفر أى على فرس أصفر وهذا مفهوم من قرينة الحال لانه لما قال على أصفر علم بذلك أنه أراد فرسا أصفر والصفة تأتى فى الكلام على ضربين اما للتأكيد والتخصيص واما للمدح والذم وكلاهما من مقامات الاسهاب والتطويل لا من مقامات الايجاز والاختصار واذا كان الامر كذلك لم يلق الحذف به هذا مع ما ينضاف اليه من الالتباس وضد البيان ألا ترى أنك اذا قلت مررت بطويل لم يبن من هذا اللفظ الممرور به انسان هو ام رمح أم ثوب أم غير ذلك واذا كان الامر على هذا فحذف الموصوف انما هو شئ قام الدليل عليه أو شهدت به الحال واذا استبهم كان حذفه غير لائق ومما يؤكد عندك ضعف حذفه انك تجد من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه وذلك أن تكون الصفة جملة نحو مررت برجل قام أبوه ولقيت غلاما وجهه حسن ألا ترى انك لو قلت مررت بقام أبوه ولقيت وجهه حسن لم يجز (وقد ورد) حذف الموصوف

وإقامة الصفة مقامه في غير موضع من القرآن الكريم كقوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء وإنما يريد آية مبصرة فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ولقد تأملت حذف الموصوف في مواضع كثيرة فوجدت أكثر وقوعه في النداء وفي المصدر أما النداء فكقولهم يا أيها الظريف تقديره يا أيها الرجل الظريف وعليه ورد قوله تعالى يا أيها الساحر تقديره يا أيها الرجل الساحر وكذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا تقديره يا أيها القوم الذين آمنوا وأما المصدر فكقوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا تقديره ومن تاب وعمل عملا صالحا وقد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدا في قوله تعالى وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك أي قوم دون ذلك (وأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها) فإنه أقل وجودا من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ولا يكاد يقع في الكلام إلا نادرا لمكان استبهامه (فمن ذلك ما حكاه سيبويه رحمه الله) من قولهم سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل وإنما حذفت الصفة في هذا الموضع لما دل من الحال عليه وذلك أنه يحس في كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته وهو أن يكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول كان والله رجلا أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو ما جرى هذا المجرى من الصفات وكذلك تقول سألناه فوجدناه إنسانا أي إنسانا سمحا أو جوادا أو ما أشبهه فعلى هذا ونحوه تحذف الصفة فأما إن عريت عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ إلا في صفة تقدمها ما يدل عليها أو تأخرها أو فهم ذلك من شيء خارج عنها أما الصفة التي تقدمها ما يدل عليها فقوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا فحذف الصفة أي كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا ويدل على المحذوف قوله فأردت أن أعيبها فإن عيبه إياها لم يخرجها عن كونها سفينة وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب فحذفت الصفة هنا لأنه تقدمها ما يدل عليها وأما التي تأخرها ما يدل عليها فقول بعض شعراء الحماسة

كل امرئ ستئيم منه * العرس أو منها يئيم

فانه أراد كل امرئ متزوج اذ دل عليه ما بعده من قوله ستئيم منه أو منها يئيم اذ لا تئيم هي الا من زوج ولا يئيم هو الا من زوجة فجاء بعد الموصوف ما دل عليه ولولا ذلك لما صح معنى البيت اذ ليس كل امرئ يئيم من عرس ولا تئيم منه عرس الا اذا كان متزوجا وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شئ خارج عن الكلام فقول النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد فانه قد علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال وهذا شئ لم يعلم من نص اللفظ وانما علم من شئ خارج عنه (الضرب السادس) وهو حذف الشرط وجوابه (فأما حذف الشرط) فنحو قوله تعالى يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون فالفاء في قوله تعالى فاعبدون جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضي واسعة فان لم تخلصوا الى العبادة في أرض فاخلصوها في غيرها ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (ومن هذا الضرب) قوله تعالى فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية أي فحلق فعليه فدية وكذلك قولهم الناس مجزيون بأعمالهم ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا أي ان فعل المرء خيرا جزي خيرا وان فعل شرا جزي شرا وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر تقدير ذلك فأفطر فعدة من أيام أخر ولهذا ذهب داود الظاهري الى الاخذ بظاهر الآية ولم ينظر الى حذف الشرط فأوجب القضاء على المريض والمسافر سواء أفطر أو لم يفطر (ومن حذف الشرط) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون اعلم أن هذه الفاء التي في قول الشاعر فقد جئنا خراسانا وحقيقتها أنها في جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام كأنه قال ان صح ما قلتم ان خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك هذه الآية يقول ان كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث أي قد تبين بطلان قولكم (وأما حذف جواب الشرط) فكقوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله

لا يهدى القوم الظالمين فان جواب الشرط ههنا محذوف تقديره ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ويدل على المحذوف قوله تعالى ان الله لا يهدى القوم الظالمين (الضرب السابع) وهو حذف القسم وجوابه فأمّا حذف القسم فنحو قولك لأفعلن أى والله لأفعلن أو غير ذلك من الاقسام المحلوف بها وأمّا حذف جوابه فكقوله تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد فجواب القسم ههنا محذوف تقديره ليعذبن أو نحوه ويدل على ذلك ما بعده من قوله ألم تر كيف فعل ربك بعاد الى قوله سوط عذاب (ومما ينتظم فى هذا السلك) قوله تعالى ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب فان معناه ق والقرآن المجيد لتبعثن والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث فى قوله أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (وقد ورد هذا الضرب فى القرآن كثيرا) كقوله تعالى فى سورة النازعات والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة فجواب القسم ههنا محذوف تقديره لتبعثن أو لتحشرن ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة فى قوله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وكذلك الى آخر السورة (الضرب الثامن) وهو حذف لو وجوابها وذلك من ألطف ضروب الايجاز وأحسنها (فأمّا حذف لو) فكقوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض تقدير ذلك اذ لو كان معه آلهة لذهب كل اله بما خلق (وكذلك) ورد قوله تعالى وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون تقديره اذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون وهذا من أحسن المحذوفات (ومما جاء من ذلك شعرا قول بعضهم فى صدر الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذا لقام بنصرى معشر خشن * عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا

فلو فى البيت الثانى محذوفة لانها فى البيت الاول قد استوفت جوابها بقوله لم تستبح ابلى ثم حذفها فى الثانى وتقدير حذفها اذ لو كنت منهم لقام بنصرى

معشر خشن أو اذ لو كانوا قومي لقام بنصري معشر خشن (واما حذف جواب لو) فانه كثير شائع وذلك كقولك لو رأيتنا لو ألممت بنا معناه لأحسنا اليك أو لأكرمناك أوما جرى هذا المجرى (ومما ورد منه في القرآن الكريم) قوله تعالى ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب جواب لو ههنا محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة أو غير ذلك مما يجري مجراه (ومما جاء على نحو من هذا) قوله عز وجل ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون تقديره لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عليهم (ومما يجري على هذا النهج) قوله تعالى لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد فجواب لو في هذا الموضع محذوف كما حذف في قوله تعالى ولو أن قرآ نا سيرت به الجبال أي لو أن لي بكم قوة لدفعتكم أو منعتكم أوما أشبهه وكذلك قوله ولو أن قرآ نا سيرت به الجبال لكان هذا القرآن وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة وأوضحها لعلم المخاطب به لان قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد يتسارع الفهم الى ان الكلام يحتاج الى جواب (ومما جاء منه شعرا) قول أبي تمام في قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عمورية

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت * له العواقب بين السمر والقضب

فان هذا محذوف الجواب تقديره لو يعلم الكفر ذلك لأعد أهبة الحذار أو غير ذلك (واعلم) أن حذف هذا الجواب لا يسوغ في أي موضع كان من الكلام وانما يحذف مادل عليه مكان المحذوف ألا ترى أنه قد ورد في القرآن الكريم غير محذوف كقوله تعالى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون وهذا ليس كالذي تقدم من الآيات لان تلك علم مكان المحذوف منها وهذه الآية لو حذفت الجواب فيها لم يعلم مكانه لانه يحتمل وجوها منها أن يقال لما آمنوا أو لظلموا أوما وراء ذلك

وقد تقدم القول فى أوّل باب الايجاز أنه لابدّ من دلالة الكلام على المحذوف (الضرب التاسع) وهو حذف جواب لولا (فمن ذلك قوله تعالى) والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه [illegible] ادقين والخامسة أنّ لعنت الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها [illegible] ب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أنّ غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله توّاب حكيم فجواب لولا ههنا محذوف تقديره لما أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه (وكذلك ورد قوله تعالى) انّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله رؤف رحيم تقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب أو فعل بكم كذا وكذا (الضرب العاشر) وهو حذف جواب لما وجواب أمّا (فأمّا حذف جواب لما) فكقوله تعالى فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين فانّ جواب لما ههنا محذوف وتقديره فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه المحنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة وقوله انا كذلك نجزى المحسنين تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرح والسرور بعد تلك الشدّة العظيمة (وأمّا حذف جواب أمّا) فنحو قوله تعالى فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم (الضرب الحادى عشر) وهو حذف جواب اذا فمما جاء منه قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ألا ترى كيف حذف الجواب عن اذا فى هذا الكلام وهو مدلول عليه بقوله الا كانوا عنها معرضين كأنه قال واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ثم قال ودأبهم الاعراض عن كل آية وموعظة (الضرب الثانى عشر) حذف المبتدا والخبر أمّا حذف المبتدا فلا يكون الا مفردا والاحسن هو حذف الخبر لانّ منه ما يأتى جملة

كقوله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن وههنا قد حذف خبر المبتدا وهو جملة من مبتدا وخبر وتقديرها واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر (ومما ورد منه شعرا) قول أبي عبادة البحتري

كل عذر من كل ذنب ولكن * أعوز العذر من بياض العذار

وههنا قد حذف منه خبر المبتدا إلا أنه مفرد غير جملة وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول أو مسموع أو ما جرى هذا المجرى (الضرب الثالث عشر) وهو حذف لا من الكلام وهي مرادة وذلك كقوله تعالى قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف يريد به لا تفتؤ أي لا تزال فحذفت لا من الكلام وهي مرادة (وعلى هذا) جاء قول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا فحذفت لا في هذا الموضع وهي مرادة (ومما جاء منه) قول أبي محجن الثقفي لما نهاه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن شرب الخمر وهو إذ ذاك في قتال الفرس بالقادسية

رأيت الخمر صالحة وفيها * مناقب تهلك الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتي * ولا أسقي بها أبدا نديما

يريد لا أشربها فحذف لا من الكلام وهي مفهومة منه (الضرب الرابع عشر) وهو حذف الواو من الكلام وإثباتها وأحسن حذفها في المعطوف والمعطوف عليه وإذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وإيجازا كقول أنس بن مالك رضي الله عنه كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون ولا يتوضئون أو قال ثم يصلون لا يتوضئون فقوله لا يتوضئون بحذف الواو أبلغ في تحقيق عدم الوضوء من قوله ولا يتوضئون بإثباتها كأنه جعل ذلك حالة لهم لازمة أي أنها داخلة في الجملة وليست بجملة خارجة عن الأولى لأن واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه وإذا حذفت في مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جملة واحدة وقد جاء مثل ذلك في القرآن الكريم وذلك أنه يذكر جمل من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها ثم تسرد سردا بغير عاطف كقوله تعالى يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر تقدير هذا الكلام لا يألونكم خبالا وودّوا ما عنتم وقد بدت البغضاء من أفواههم فلما حذفت الواو جاء الكلام أوجز وأحسن طلاوة وأبلغ تأليفا ونظاما وأمثاله في القرآن الكريم كثير (واعلم) أنه قد حذفت الواو وأثبتت في مواضع فأما اثباتها فنحو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وأما حذفها فهو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو واثباتها في كل موضع وانما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين (ولنبين لك في ذلك رسما تتبعه فنقول اعلم) أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد الا يجوز اثبات الواو في خبره وحذفها كقولك ما رأيت رجلا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب بغير واو فان كان الذي يقع على النكرة ناقصا فلا يكون الا بحذف الواو نحو قولك ما أظن درهما الا هو كافيك ولا يجوز الا وهو كافيك بالواو لان الظن يحتاج الى شيئين فلا يعترض فيه بالواو لانه يصير كالمكتفي من الافعال باسم واحد وكذلك جواب ظننت وكان وان وأشباهها خطأ أن تقول ان رجلا وهو قائم ونحو ذلك ويجوز هذا في ليس خاصة تقول ليس أحد الا وهو قائم لان الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف نكرة ألا ترى أنك تقول ليس أحد وما من أحد فجاز فيها اثبات الواو ولم يجز في أظن لانك لا تقول ما أظن أحدا فأما أصبح وأمسى ورأى فان الواو فيهن أسهل لانهن تؤم في حال وكان وأظن ونحوهما بنين على النقص الا اذا كانت تامة وكذلك لا في التبرئة وغيرها نحو لا رجل وما من رجل فيجوز اثبات الواو فيها وحذفها (واعلم) أن العرب قد حذفت من أصل الالفاظ شيأ لا يجوز القياس عليه كقول بعضهم

كأن ابريقهم ظبي على شرف * مفدّم بسبا الكتان ملثوم

فقوله بسبا الكتان يريد بسبائب الكتان وكذلك قول الآخر

بدر بن عمد لحائر لحمو بها * فكأنما تذكى سنابكها الحبا

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن وان كانت العرب قد استعملته فانه لا يجوز لنا أن نستعمله (وأما القسم الثاني من الايجاز) فهو ما لا يحذف منه شئ (وذلك ضربان أحدهما) ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير (والآخر) ما زاد معناه

على لفظه ويسمى الايجاز بالقصر (فأما الايجاز بالتقدير) فانه الذي يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفي عدتها (وأما الايجاز بالقصر فانه ينقسم قسمين أحدهما) مادل لفظه على محتملات متعددة وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها (والآخر) مايدل لفظه على محتملات متعددة ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها الاول يستحيل ذلك (ولورد الآن الضرب الاول الذي هو الايجاز بالتقدير) فما جاء منه قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره كلا لما يقض ما أمره فقوله قتل الانسان دعاء عليه وقوله ما أكفره تعجب من افراطه في كفران نعمة الله عليه ولا ترى أسلوبا أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ولا أخشن مساو ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه ولا أجمع للائمة على قصر متنه ثم انه أخذ في صفة حاله من ابتداء حدوثه الى منتهى زمانه فقال من أي شئ خلقه ثم بين الشئ الذي خلق منه بقوله من نطفة خلقه فقدره أي هيأه لما يصلح له ثم السبيل يسره أي سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريق الخير والشر والاول أولى لانه تال لخلقه وتقديره ثم بعد ذلك يكون تيسير سبيله لما يختاره من طريق الخير والشر ثم أماته فأقبره أي جعله ذا قبر يوارى فيه ثم اذا شاء أنشره أي أحياه كلا ردع للانسان عما هو عليه لما يقض ما أمره أي لم يقض مع تطاول زمانه ما أمره الله به يعني أن انسانا لم يخل من تقصير قط ألا ترى الى هذا الكلام الذي لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك لانك كنت تذهب بجزء من معناه والايجاز هو أن لا يمكنك أن تسقط شيأ من ألفاظه (والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة) كقوله تعالى فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف فقوله فله ما سلف من جوامع الكلم ومعناه أن خطاياه الماضية قد غفرت له وتاب الله عليه فيها الا أن قوله فله ما سلف أبلغ أي أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه انما هو له وكذلك ورد قوله تعالى من كفر فعليه كفره كلمة جامعة تغني عن ذكر ضروب من العذاب لان من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون فهذه الآية من جوامع الآيات

الواردة فى القرآن الكريم وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها على
الوليد بن المغيرة فقال له يا ابن أخى أعد فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها
عليه فقال له ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق
وما هو بقول البشر (ومن هذا النحو) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم
ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين
وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وجاءت سكرة الموت
بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل
نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك
فبصرك اليوم حديد وهذه الآيات من قوارع القرآن المجيدة التى دلت على
تخويف وارهاب ترق له القلوب وتقشعر منه الجلود وهى مشتملة مع قصرها على
حال الانسان منذ خلقه الى حين حشره وحشر غيره من الناس وتصوير ذلك
الامر الفظيع فى أسهل لفظ وأقربه وما مررت عليها الا جددت لى موعظة
وأحدثت عندى ايقاظا (ومن هذا الضرب) ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم
فى دعائه لأبى سلمة عند موته فقال اللهم ارفع درجته فى المهديين واخلفه
فى عقبه فى الغابرين لنا وله يارب العالمين وهذا دعاء جامع بين الايجاز وبين
مناسبة الحال التى وقع فيها وأوله مفتتح بالمهم الذى يفتقر اليه المدعو له فى تلك
الحال وهو رفع درجته فى الآخرة وثانيه مردف بالمهم الذى يؤثره المدعو له من
صلاح حال عقبه من بعده فى الدنيا وثالثه مختتم بالجمع بين الداعى والمدعو له
وهذا من الايجاز البليغ الذى هو طباق ما قصد له وكلام النبى صلى الله عليه وسلم
كله هكذا كما قال أوتيت جوامع الكلم وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم
يوم بدر فانه قال هذا يوم له ما بعده وهو شبيه بقوله تعالى ولله ما سلف (ولما جرح
عمر بن الخطاب رضى الله عنه) الجراحة التى مات بها اجتمع اليه الناس فجاءه
شاب من الانصار وقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله
وقدم فى الاسلام ما علمت ووليت فعدلت ثم شهادة وهذا كلام سديد قد حوى
المعنى المقصود وأتى به فى أوجز لفظ وأحسنه ومع ما فيه من الايجاز فانه
مستغرب وسبب استغرابه أنه جعل المساءة بشرى وأخرجها مخرج المسرة
وتلطف فى ذلك فأبلغ ولو أراد الكاتب البليغ والخطيب المصقع أن يأتى بذلك

على هذا الوجه لأعوزه (ومن هذا النمط) ما كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون عند لقائه عيسى بن ماهان وهزمه اياه وقتله فكتب اليه كتابي الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه وخاتمه في يدي وعسكره مصرّف تحت أمري والسلام وهذا من الكتب المختصرة التي حوت الغرض المطوّل وما يكتب في هذا المقام مثله (ولما أرسل المهلب بن أبي صفرة) أبا الحسن المدايني الى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الازارقة كلمه كلاما موجزا كالذي نحن بصدد ذكره ههنا وذلك أنّ الحجاج سأله فقال كيف تركت المهلب فقال أدرك ما أمّل وأمن مما خاف فقال كيف هو لجنده قال والد رؤف قال كيف جنده له قال أولاد بررة قال كيف رضاهم عنه قال وسعهم بفضله وأغناهم بعدله قال كيف تصنعون اذا لقيتم العدوّ قال نلقاهم بجدّنا ويلقونا بجدّهم قال كذلك الجدّ اذا التقى الجدّ قال فأخبرني عن بني المهلب قال هم أحلاس القتال بالليل حماة السرح بالنهار قال أيهم أفضل قال هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها فقال الحجاج لجلسائه هذا والله هو الكلام الفصل الذي ليس بمصنوع (وقد ورد في الاخبار النبويه من هذا الضرب شيء كثير) وسأورد منه أمثلة يسيرة في ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات وهذا الحديث من أجمع الاحاديث للمعاني الكثيرة وذلك أنه يشتمل على حلّ الاحكام الشرعية فانّ الحلال والحرام امّا أن يكون الحكم فيهما بينا لا خلاف فيه بين العلماء واما أن يكون خافيا يتجاذبه وجوه التأويلات فكل منهم يذهب فيه مذهبا (وكذلك) جاء قوله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فانّ هذا الحديث أيضا من جوامع الاحاديث للاحكام الشرعية (ومن ذلك) قوله صلى الله عليه وسلم المضعف أمير الركب وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر فقال صلى الله عليه وسلم سيروا بسير أضعفكم الا أنّ الاوّل أحسن لانه أبلغ معنى فانّ الامير واجب الحكم فهو يتبع واذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم وهذا المعنى لا يوجد في قوله سيروا بسير أضعفكم (وأحسن من هذا كله) ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فقوله تعبد الله

كأنك تراه من جوامع الكلم لانه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال تعبد الله مخلصا فى نيتك واقفا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع آخذا أهبة الحذر وأشباه ذلك لان العبد اذا خدم مولاه ناظرا اليه استقصى فى آداب الخدمة بكل ما يجد اليه السبيل وما ينتهى اليه الطوق (ومما أطربنى من ذلك) حديث الحديبية وهو أنه جاء بديل بن ورقاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له انى تركت كعب بن لؤى بن عامر بن لؤى معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاؤا ماددناهم مدة ويدعوا بينى وبين الناس فان أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس والا كانوا قد جموا وان أبوا فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى هذه وليمضين الله أمره وهذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهى اليها وصف الواصف (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فقول النابغة

وانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وتخصيصه الليل دون النهار مما يسئل عنه وكذلك قوله

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أى الرجال المهذب

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول الاعشى فى اعتذاره الى أوس بن لام عن هجائه اياه

وانى على ما كان منى لنادم * وانى الى أوس بن لام لتائب

وانى الى أوس ليقبل عذرتى * ويصفح عنى ما حييت لراغب

فهب لى حياتى فالحياة لقائم * بشكرك فيها خير ما أنت واهب

سأمحو بمدح فيك اذ أنا صادق * كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

وهذا من المعانى الشريفة فى الالفاظ الخفيفة وهو من طبنات الاعشى المشهورة (وعلى نحو منه) جاء قول الفرزدق

ضربناهم ضرب الجياد كأنها * قطا هيجته يوم ريح أجادله

الى كل حى قد خطبنا بناتهم * بأرعن جرار كثير صواهله

اذا ما التقينا أنكحتنا رماحنا * من القوم أبكارا كراما عقائله

وانا لمساعون تحت لوائنا * حمانا اذا ما عاد بالسيف حامله

وهذا من محاسن ما يجىء فى هذا الباب (ومما يجرى هذا المجرى) قول جرير

تمنى رجال من تميم منيتي * وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلي
ولو شاء قومي كان حلمي فيهم * وكان على جهال أعدائهم مثلي

(وكذلك) ورد قوله متغزلا وهو من محاسن أقواله

سرت الهموم فبتن غير نيام * وأخو الهموم يروم كل مرام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الاقوام
ولقد أراك وأنت جامعة الهوى * أثنى بعهدك خير دار مقام
طرقتك صائدة القلوب فليس ذا * حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه * برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا * لوصلت ذاك فكان غير رمام
ولقد أراني والجديد الى بلى * في موكب طرف الحديث كرام
لولا مراقبة العيون أريننا * حدق المها وسوالف الآرام
واذا صرفن عيونهن بنظرة * بعدت نوافذها بغير سهام
هل ينهينك ان قتلن مرقشا * أوما فعلن بعروة بن حزام

وحلاوة هذا الكلام أحسن من ايجازه ولقد اعوز غيره أن يأتي بمثله حتى أقر باعوازه (ومن باب الايجاز الذي يسمى التقدير) قول علي بن جبلة

وما لامرئ حاولته عنك مهرب * ولو حملته في السماء المطالع
بلى هارب ما يهتدي لمكانه * ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

فهذا هو الكلام الذي ألفاظه وفاق معانيه فانه قد اشتمل على مدح رجل لشمول ملكه وعموم سلطانه وأنه لا مهرب عنه لمن يحاوله وان صعد السماء ثم ذكر جميع المهارب في المشارق والمغارب وأشار الى أنه يبلغ الظلام والضياء وذلك مما لم ترد عبارته على المعنى المدرج تحته ولا قصرت عنه ومن هذا الضرب قول أبي نواس وهو من نادر ما يأتي في هذا الموضع

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا * بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى * وأضغاث ريحان جني ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم * واني على أمثال تلك لحابس
تدار علينا الراح في عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها * مها تدريها بالقسي الفوارس

وللراح ما زرت عليه جيوبها * وللماء ما دارت عليه القلانس

(ومما انتهى الى من اخبار ابن المدبر) قال سمعت الجاحظ يقول لا أعرف شعرا يفضل هذه الابيات التى لابى نواس ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال والله يا أبا عثمان ان هذا لهو الشعر ولو نقر لطن فقلت له ويحك ما تفارق عمل الجرار والخزف ولعمرى ان الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذى ذكره هو الحق

(وعلى هذا الاسلوب) جاء قول أبى تمام

ان القوافى والمساعى لم تزل * مثل النظام اذا أصاب فريدا
هى جوهر نثر فان ألفته * بالشعر صار قلائدا وعقودا
فى كل معترك وكل مقامة * يأخذن منه ذمة وعهودا
فاذا القصائد لم تكن خفراءها * لم ترض منها مشهدا مشهودا
من أجل ذلك كانت العرب الأولى * يدعون هذا سوددا محدودا
وتند عندهم العلا الا علا * جعلت لها مرر القريض قيودا

(وأما الضرب الثانى) وهو الايجاز بالقصر فان القرآن الكريم ملآن منه وقد تقدم القول أنه قسمان أحدهما مايدل على محتملات متعددة فمن ذلك قوله تعالى ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وماهدى فقوله فغشيهم من اليم ماغشيهم من جوامع الكلم التى يستدل على قلتها بالمعانى الكثيرة أى غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كنهه الا الله ولا يحيط به غيره (ومن هذا الضرب) قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فجمع فى الآية جميع مكارم الاخلاق لان فى الامر بالمعروف صلة الرحم ومنع اللسان عن الغيبة وعن الكذب وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك وفى الاعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما (وقال بعض الاعراب) فى دعائه اللهم هب لى حقك وأرض عنى خلقك فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا هو البلاغة (ومن ذلك) قوله عز وجل أولئك لهم الامن فانه دخل تحت الامن جميع المحبوبات وذلك أنه نفى به أن يخافوا شيأ من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة وغير ذلك من أصناف المكاره وأشباه هذا فى القرآن الكريم كثيرة وهو يكثر فى بعض

الصور ويقل" في بعض قال النبي" صلى الله عليه وسلم من شاء يرتع في الرياض الانائق وعليه بآل حم (ومن ذلك) قول النبي" صلى الله عليه وسلم الخراج بالضمان وذلك أن رجلا اشترى عبدا وأقام عنده مدة ثم وجد به عيبا فخاصم البائع الى النبي" صلى الله عليه وسلم ورده عليه فقال يا رسول الله انه استغل" غلامي فقال الخراج بالضمان ومعنى قوله الخراج بالضمان أن الرجل اذا اشترى عبدا فاستغله ثم وجد به عيبا دلسه عليه البائع فله أن يرده ويسترجع الثمن جميعه ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان في مال المشترى وضمانه عليه واذا كان ضمانه عليه فخراجه له أي له ما تحصل من أجرة عمله (وأما ما ورد شعرا) فقول السموأل بن عاديا الغساني" من جملة أبياته اللامية المشهورة وذلك قوله منها

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل

فان هذا البيت قد اشتمل على مكارم الاخلاق جميعها من سماحة وشجاعة وعفة وتواضع وحلم وصبر وغير ذلك فان هذه الاخلاق كلها من ضيم النفس لانها تجد بحملها ضيما أي مشقة وعناء وقد تقدم القول أن الايجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات كثيرة وهذا البيت من ذلك القبيل ولا أعلم أن شاعرا قديما ولا حديثا أتى بمثله وقد أخذه أبو تمام فأحسن في أخذه وهو

وظلمت نفسك طالبا انصافها * فعجبت من مظلومة لم تظلم

وفاز في بيته هذا بالمقابلة بين الضدين في الظلم والانصاف ثم قال فعجبت من مظلومة لم تظلم وهذا أحسن من الاول ومعنى قوله ظلمت نفسك طالبا انصافها أي أنك أكرهتها على مشاق الامور واذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ثم انك مع ظلمك اياها قد أنصفتها لانك جلبت اليها أشياء حسنة تكسبها ذكرا جميلا ومجدا مؤثلا فأنت منصف لها في صورة ظالم وكذلك قوله فعجبت من مظلومة لم تظلم أي أنك ظلمتها وما ظلمتها لان ظلمك اياها أدى الى ما هو جميل حسن وهذا القدر في الامثلة كاف في هذا الباب (القسم الآخر من الضرب الثاني في الايجاز بالقصر) وهو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بالفاظ أخرى مثلها وفي عدتها وهو أعلى طبقات الايجاز مكانا وأعوزها امكانا واذا وجد في كلام بعض البلغاء فانما يوجد شاذا نادرا (فمن ذلك) ما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى ولكم في القصاص حياة فان قوله تعالى القصاص حياة

لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل فأوجب ذلك حياة للناس ولا يلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم القتل أنفى للقتل فإن من لا يعلم يظن أن هذا على وزن الآية وليس كذلك بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه (الأول) أن القصاص حياة لفظتان والقتل أنفى للقتل ثلاثة ألفاظ (الوجه الثاني) أن في قولهم القتل أنفى للقتل تكريرا ليس في الآية (الثالث) أنه ليس كل قتل نافيا للقتل إلا إذا كان على حكم القصاص وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بعض بيت من شعره فقال

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم * إن الدم المعتر يحرسه الدم

فقوله إن الدم المعتر يحرسه الدم أحسن مما ورد عن العرب من قولهم القتل أنفى للقتل (ويروى) عن معن بن زائدة أنه سأله أبو جعفر المنصور فقال له أيما أحب إليك دولتنا أو دولة بني أمية فقال ذاك إليك فقوله ذاك إليك من الإيجاز بالقصر الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة لأن معنى قوله ذاك إليك وهو لفظتان أنه إن زاد إحسانك على إحسان بني أمية فأنتم أحب إلي وهذه عشرة ألفاظ (فإن قيل) كيف لا يمكن التعبير عن ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها وفي المترادف من الألفاظ ما هو دليل على خلاف ذلك فإنه إذا قيل راح ثم قيل مدامة أو سلافة كان ذلك سواء وقامت هذه اللفظة مقام هذه اللفظة (قلت) في الجواب ليس كل الألفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض ألا ترى أن لفظة القصاص لا يمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ولما عبر عنها بالقتل في قول العرب القتل أنفى للقتل ظهر الفرق بين ذلك وبين الآية في قوله تعالى ولكم في القصاص حياة فالذي أردته أنا إنما هو الكلام الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها فإن كان كذلك وإلا فليس داخلا في هذا القسم المشار إليه (النوع السادس عشر في الإطناب) هذا النوع من الكلام أنعمت نظري فيه وفي التكرير وفي التطويل فكنت حيرة الشبه بينها طويلا وكنت في ذلك كعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الكلالة حيث قال قد أعياني أمر الكلالة وكنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيرا حتى ضرب في صدري وقال ألا يكفيك أنه الصنف وبعد أن أنعمت نظري في هذا النوع الذي هو الإطناب وجدت ضربا من ضروب التأكيد

قوله أنه الصنف كذا في الأصل ولعله الاطناب

التى يؤتى بها فى الكلام قصد المبالغة ألا ترى أنه ضرب منفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره لان من التأكيد ما يتعلق بالتقديم والتأخير كتقديم المفعول بالاعتراض كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين المعطوف والمعطوف عليه وأشباه ذلك وسيأتى الكلام عليه فى بابه وهذا الضرب الذى هو الاطناب ليس كذلك (ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه) فمنهم من ألحقه بالتطويل الذى هو ضد الايجاز وهو عنده قسم غيره فأخطأ من حيث لا يدرى كأبى هلال العسكرى والغانمى حتى انه قال ان كتب الفتوح وما جرى مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغى أن تكون مطولة مطنبا فيها وهذا القول فاسد لانه ان عنى بذلك أنها تكون ذات معان متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره فذلك مسلم وان عنى بذلك أنها تكون مكررة المعانى مطولة الالفاظ قصد الافهام العامة فهذا غير مسلم وهو مما لا يذهب اليه من عنده أدنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة ويكفى فى بطلانه كتاب الله تعالى فانه لم يجعل لخواص الناس فقط وانما جعل لعوامهم وخواصهم وأكثره لا ينال جميعه مفهوم الالفاظ للعوام الا كلمات معدودة وهى التى تسمى غريب القرآن وقد تقدم الكلام على ذلك فى المقالة الأولى المختصة بالالفاظ وعلى هذا فينبغى أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوام الناس وخواصهم ذات ألفاظ سهلة مفهومة وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير ذلك فانه بنجوة عن هذا الفن وعلى هذا فان الاطناب لا يختص به عوام الناس وانما هو للخواص كما هو للعوام وسأبين حقيقته فى كتابى هذا وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التى خبط أرباب علم البيان من أجلها وقالوا أقوالا لا تعرب عن فائدة (والذى عندى فيه) أنه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا لمسماه وهو فى أصل اللغة مأخوذ من أطنب فى الشئ اذا بالغ فيه ويقال أطنبت الريح اذا اشتدت فى هبوبها وأطنب فى السير اذا اشتد فيه وعلى هذا فان حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة فى ايراد المعانى وهذا لا يختص بنوع واحد من أنواع علم البيان وانما يوجد فيها جميعا اذ ما من نوع منها الا ويمكن المبالغة فيه واذا كان الامر كذلك فينبغى أن يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحقق افراده الا بذكر حده الدال على حقيقته (والذى يحد به أن يقال)

هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حده الذي يميزه عن التطويل اذ التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة وأمّا التكرير فانه دلالة اللفظ على المعنى مرددا كقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع فان المعنى مردد واللفظ واحد وسيرد بيان ذلك مفصلا في بابه بعد باب الاطناب لاني ذكرت الايجاز ثم الاطناب ثم التكرير وهي أبواب يتبع بعضها بعضا واذا كان التكرير هو ايراد المعنى مرددا فمنه ما يأتي لفائدة ومنه ما يأتي لغير فائدة وأمّا الذي يأتي لغير فائدة فانه جزء من الاطناب وهو أخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير يأتي لفائدة فهو اطناب وليس كل اطناب تكريرا يأتي لفائدة وأمّا الذي يأتي من التكرير لغير فائدة فانه جزء من التطويل وهو أخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير يأتي لغير فائدة تطويل وليس كل تطويل تكريرا يأتي لغير فائدة وكنت قدمت القول في باب الايجاز بان الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه واذا تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار اليها فان مثال الايجاز والاطناب والتطويل مثال مقصد يسلك اليه في ثلاثة طرق فالايجاز هو أقرب الطرق الثلاثة اليه والاطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد اليه الا أن طريق الاطناب تشتمل على منزهة من المنازه لا يوجد في طريق التطويل وسيأتي بيان ذلك بضرب الامثلة التي تسهل من معرفته (والاطناب يوجد) تارة في الجملة الواحدة من الكلام ويوجد تارة في الجمل المتعددة والذي يوجد في الجمل المتعددة أبلغ لاتساع المجال في ايراده (وعلى هذا فانه بجملته ينقسم قسمين القسم الاول) الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام (وهو يرد حقيقة ومجازا أمّا الحقيقة) فمثل قولهم رأيته بعيني وقبضته بيدي ووطئته بقدمي وذقته بفمي وكل هذا يظن الظان أنه زيادة لاحاجة اليها ويقول ان الرؤية لاتكون الا بالعين والقبض لايكون الا باليد والوطء لايكون الا بالقدم والذوق لايكون الا بالفم وليس الامر كذلك بل هذا يقال في كل شئ يعظم مناله ويعز الوصول اليه فيؤكد الامر فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه كقول أبي عبادة البحتري

تأمّل من خلال السجف وانظر * بعينك ما شربت ومن سقاني

تجد شمس الضحى تدنو بشمس * الىّ من الرحيق الخسرواني

ولما كان الحضور في هذا المجلس مما يعز وجوده وكان الساقي فيه على هذه

الصفة من الحسن قال انظر نعيك (وعلى هذا ورد) قوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم فان هذا القول لما كان فيه افتراء عظم الله تعالى على قائله ألا ترى الى قوله تعالى فى قصة الافك اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فصرح فى هذه الآية بما أشرت اليه من تعظيم الامر المقول وفى مساق الآية المشار اليها جاء قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ألا ترى أن مساق الكلام أن الانسان يقول لزوجته أنت على كظهر أمى و يقول لمملوكه يا بنى فضرب الله لذلك مثالا فقال كيف تكون الزوجة أما وكيف يكون المملوك ابنا والجمع بين الزوجية والامومة وبين العبودية والبنوة فى حالة واحدة كالجمع بين القلبين فى الجوف وهذا تعظيم لما قالوه وانكار له ولما كان الكلام فى حال الانكار والتعظيم أتى بذكر الجوف والا فقد علم أن القلب لا يكون الا فى الجوف والتمثيل يصح بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين وهو تام لكن فى ذكر الجوف فائدة وهى ما أشرت اليها وفيها أيضا زيادة تصوير للمعنى المقصود لانه اذا سمعه المخاطب به صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان ذلك أسرع الى انكاره (وعليه ورد) قوله تعالى فخر عليهم السقف من فوقهم فكما أن القلب لا يكون الا فى الجوف فكذلك السقف لا يكون الا من فوق وهذا المقام ترهيب وتخويف كما أن ذلك مقام انكار وتعظيم ألا ترى الى هذه الآية بكمالها وهى قوله تعالى قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ولذكر لفظة فوقهم فائدة لا توجد مع اسقاطها من هذا الكلام وأنت تحس هذا من نفسك فانك اذا تلوت هذه الآية تخيل اليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم وحصل فى نفسك من الرعب ما لا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة وفى القرآن الكريم من هذا النوع كثير كقوله تعالى فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وقوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وكل هذه الآيات انما أطنب فيها بالتأكيد لمعان اقتضتها فان النفخ فى الصور الذى تقوم به الاموات من القبور مهول

عظيم دل على القدرة الباهرة وكذلك حمل الارض والجبال فلما كان بهذه
الصفة قيل فيهما نفخة واحدة ودكة واحدة أى ان هذا الامر المهول العظيم
سهل يسير على الله تعالى يفعل ويقضى الامر فيه بنفخة واحدة ودكة
واحدة ولا يحتاج فيه الى طول مدة ولا كلفة مشقة فجئ بذكر الواحدة لتأكيد
الاعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه وهذه المواضع وأمثالها ترد فى القرآن
الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها وليس الامر كذلك
فان هذه الاسرار البلاغية لا تتنبه لها الا العارفون بها وهكذا يرد
ما يرد منها فى كلام العرب (وههنا نكتة لابد من الاشارة اليها) وذلك أنى نظرت
فى قوله تعالى نفخة واحدة ودكة واحدة وفى قوله تعالى ومناة الثالثة الاخرى
فوجدت ذلك غير مقيس على ما تقدم وسأبينه بيانا شافيا فأقول ان قوله تعالى
ومناة الثالثة الاخرى انما جئ به لتوازن الفقر التى نظمت السورة كلها عليها
وهى والنجم اذا هوى ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة ولم يقل الثالثة
الاخرى لكان الكلام عاريا عن الطلاوة والحسن وكذلك لو قيل ومناة الاخرى
من غير أن يقال الثالثة لانه نقص فى الفقرة الثانية عن الاولى وذلك قبيح
وقد تقدم الكلام عليه فى باب السجع لكن التأكيد فى هذه الآية جاء ضمنا
لتوازن الفقر وتبعا وأما نفخة واحدة ودكة واحدة فانما جئ بلفظ الواحدة
فيهما وقد علم أن النفخة هى واحدة والدكة هى واحدة لمكان نظم الكلام
لان السورة التى هى الحاقة جارية على هذا المنهاج فى توازنها السجعى ولو قيل
نفخة من غير واحدة ودكة من غير واحدة ثم قيل بعدهما فيومئذ وقعت الواقعة
لكان الكلام منثورا محتاجا الى تمام لكن التأكيد جاء فيهما ضمنا وتبعا
واذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى ما جعل
الله لرجل من قلبين فى جوفه ظاهر وذلك ان نفخة هى واحدة ومناة هى
الثالثة (وأما ما جاء منه على سبيل المجاز) فقوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن
تعمى القلوب التى فى الصدور ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تعورف وعلم أن
العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها
واستعماله فى القلب تشبيه ومثل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المتعارف من
نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا الامر الى زيادة

تصوير وتعريف استقر أن مكان العمى انما هو القلوب لا الابصار وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه وافرة لطائفه والمجاز فيه أحسن من الحقيقة لمكان زيادة التصوير في اثبات وصف الحقيقي للمجازي ونفيه عن الحقيقي (وأما القسم الثاني المختص بالجمل) فانه يشتمل على ضروب أربعة (الاول) منها أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة الا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر وذلك كقول أبي تمام

قطعت الى الزابيين هباته * التاث مأمور السحاب المسبل

من منة مشهورة وصنيعة * بكر واحسان أغر محجل

فقوله منة مشهورة وصنيعة بكر واحسان أغر محجل تداخلت معانيه اذ المنة والصنيعة والاحسان متقارب بعضه من بعض وليس ذلك بتكرير لانه لو اقتصر على قوله منة وصنيعة واحسان لجاز أن يكون تكريرا ولكنه وصف كل واحدة من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير فقال منة مشهورة فوصفها بالاشتهار لعظم شأنها وصنيعة بكر فوصفها بالبكارة أي انها لم يؤت بمثلها من قبل واحسان أغر محجل فوصفه بالغرة والتحجيل أي هو ذو محاسن متعددة فلما وصف هذه المعاني المتداخلة التي تدل على شيء واحد بأوصاف متباينة صار ذلك اطنابا ولم يكن تكريرا ولم أجد في ضروب الاطناب أحسن من هذا الموضع ولا ألطف وقد استعمله أبو تمام في شعره كثيرا بخلاف غيره من الشعراء كقوله

ركي سجاياه تضيف ضيوفه * ويرجى مرجيه ويسئل سائله

فان غرضه من هذا القول انما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء الا أنه وصفه بصفات متعددة فجعل ضيوفه تضيف وراجيه يرجى وسائله يسئل وليس هذا تكريرا لانه لا يلزم من كون ضيوفه تضيف أن يكون راجيه مرجوا ولا أن يكون سائله مسؤلا لان ضيفه يستصحب ضيفا طمعا في كرم مضيفه وسائله يسئل أي يعطي السائل عطاء كثيرا يصير به معطيا وراجيه يرجى أي أنه اذا تعلق به رجاء راج فقد أيقن بالفلاح والنجاح فهو حقيق بأن يرجى لمكان رجائه اياه وهذا أبلغ الاوصاف الثلاثة (الضرب الثاني) يسمى النفي والاثبات وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي ثم يذكر على سبيل الاثبات أو بالعكس ولا بد أن يكون في أحدهما زيادة ليست في الآخر والا كان

تكريرا والغرض به تأكيد ذلك المعنى المقصود (فمما جاء منه) قوله تعالى لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (واعلم) أن هذا الضرب من الاطناب فائدة كبيرة وهو من أوكد وجوهه ألا ترى أنه قال لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ثم قال انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر والمعنى في ذلك سواء الا أنه زاد في الثانية قوله وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير وهذا الموضع ينبغي أن يتأمل وينعم النظر فيه (وعليه ورد) قوله تعالى الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون فقوله يعلمون بعد قوله لا يعلمون من الباب الذي نحن بصدد ذكره ألا ترى أنه نفى العلم عن الناس بما خفي عنهم من تحقيق وعده ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا فكأنهم علموا وما علموا اذ العلم بظاهر الامور ليس بعلم وانما العلم هو ما كان بالباطن من الامور (الضرب الثالث) هو أن يذكر المعنى الواحد تاما لا يحتاج الى زيادة ثم يضرب له مثال من التشبيه كقول أبي عبادة البحتري

ذات حسن لو استزادت من الحسـ * ـن اليه لما أصابت مزيدا

فهي كالشمس بهجة والقضيب الـ * ـلدن قدا والريم طرفا وجيدا

ألا ترى أن الاول كاف في بلوغ الغاية في الحسن لانه لما قال لو استزادت لما أصابت مزيدا دخل تحته كل شيء من الاشياء الحسنة الا أن للتشبيه مزية أخرى تفيد السامع تصويرا وتخييلا لا يحصل له من الاول وهذا الضرب من أحسن ما يجيء في باب الاطناب (وكذلك) ورد قوله

تردد في خلقي سودد * سماحا مرجى وبأسا مهيبا

فكالسيف ان جئته صارخا * وكالبحر ان جئته مستثيبا

فالبيت الثاني يدل على معنى الاول لان البحر والسيف لا أنس المهيب الا أن

فى الثانى زيادة التشبيه التى تعيد تخيلا وتصويرا (الضرب الرابع) أن يستوفى معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة وهذا أصعب الضروب الاربعة طريقا وأضيقها بابا لانه يتفرع الى أساليب كثيرة من المعانى وأرباب النظم والنثر يتفاوتون فيه وليس الخاطر الذى يقذف بالدرر فى مثله الامعدوم الوجود ومثاله ومثال الايجاز مثال مجمل ومفصل (وقد تقدم) القول بأن الايجاز والاطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك اليه ثلاثة طرق وقد أوردت ههنا أمثلة لهذه الاساليب الثلاثة وجعلتها على هيئة المقصد الذى تسلك اليه الطرق الثلاثة (فمن ذلك) ما ذكرته فى وصف بستان ذات فواكه متعددة فاذا أريد وصفه على حكم الايجاز قيل فيه من كل فاكهة زوجان وهذا كلام الله تعالى وقد جمع جميع أنواع الفاكهة بأحسن لفظ وأحصره واذا أريد وصف ذلك البستان على حكم الاطناب قيل فيه ما أذكره وهو فصل من كتاب أنشأته وهو جنة علت أرضها أن تمسك ماء وغيبت ينبوعها أن تستجدى سماء وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ففيها المشمش الذى يسبق غيره بقدومه ويقذف أيدى الجانين بنجومه فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ولو نظم فى جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار وله زمن الربيع الذى هو أعدل الازمان وقد شبه بسن الصبا فى الانسان وفيها التفاح الذى رق جلده وعظم قده ونور خده وطابت أنفاسه فلا بان الوادى ولا رنده واذا نظر اليه وجد فيه حظ الشم والنظر ونسبته من شجر الغزلان أولى من نسبته الى منابت الشجر وفيها العنب الذى هو أكرم الثمار طينة وأكثرها ألوان زينة وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة فقطفه يملأ بكف قاطفه ويعرى بالوصف لسان واصفه وفيها الرمان الذى هو طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب ومن فضله أنه لا نوى له فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه وفيها التين الذى أقسم الله به تنويها بذكره واستتر آدم عليه السلام بورقه اذ كشفت المعصية من ستره وخص بطول الاعناق فبارى بها من ميل فيه ونشوة من سكره وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما وقيل هذا كثيف ملئ شهدا لا كثيف ملئ علما وفيها من ثمار النخيل ما يرهى بلونه وشكله ويشغل

بالمدة مسطرة عن لذة أكله وهو الذي يصل ذوات الامان بعرجونه ولا تماثل بينه وبين الحلواء فهذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسنا ولم ألم صاحبها على قوله لي تبيد هذه أبدا (فهذا الوصف) على هذه الصورة يسمى اطنابا لانه لم يعر عن فائدة وذلك الاول هو الايجاز لانه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة (وأما التطويل) فهو أن تعدد الاصناف المذكورة تعدادا من غير وصف لطيف ولا نعت رائق فيقال مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل وكذا وكذا وانظر أيها المتأمل الى ما أشرت اليه من هذه الاقسام الثلاثة في الايجاز والاطناب والتطويل وقس عليها ما يأتي منها (وسأزيد ذلك بيانا بمثال آخر فأقول) قد ورد في باب الايجاز كتاب كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون رحمه الله تعالى يخبره بهزيمة عيسى بن ماهان وقتله اياه وهو كتابي الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في يدي وعسكره مصرف تحت أمري والسلام وهذا كتاب جامع للمعنى شديد الاختصار واذا كتب ما هو في معناه على وجه الاطناب قيل فيه ما أذكره وهو ما أنشأته مثالا في هذا الموضع ليعلم به الفرق بين الايجاز والاطناب وهو أصدر كتابه هذا وقد نصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة وانقلب باليد الملأى والعين القريرة وكان انتصاره بجد أمير المؤمنين لا بحد نصله والجد أغنى من الجيش وان كثرت أمداد خيله ورجله وجيء برأس عيسى ابن ماهان وهو على جسد غير جسده وليس له قدم فيقال انه يسعى بقدمه ولا يد فيقال انه يبطش بيده ولقد طال وطوله مؤذن بقصر شأنه وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذي كان الامر يجري على نقش أسطره وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح تحت ختمه فحال ورود المنية دون مصدره وكذلك البغي مرتعه وبيل ومصرعه جليل وسيفه وان مضى فانه عند الضرب كليل وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك ورأسه وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء الا على أساسه والعساكر التي كانت على أمير المؤمنين حربا صارت له سلما وأعطته البيعة علما بفضله وليس من بايع

تقليدا كمن هو تابع عاما وهم الآن منصرفون تحت الاوامر متحصون بكشف السرائر مطيعون باللواء الذى خصه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر وكاسرت حطوات القلم فى أثناء هذا القرطاس فكذلك سرت طلائع الرعب قبل الطلائع فى قلوب الناس وليس فى البلاد ما يغلق بمشيئة الله بابا ولا يحسر نقابا وعلى الله اتمام النعم التى افتتحها واجابة أمير المؤمنين الى مقترحاته التى اقترحها والسلام وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى الا أنه فصل ذلك الاجمال (ولو كتبت على وجه التطويل) الذى لا فائدة فيه لقيل أصدر كتابه فى يوم كذا من شهر كذا والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر عدوه الباغى وتطاعن الفريقان وتراحف الجمعان وحمى القتال واشتد النزال وترادفت الكتائب وتلاحقت المقانب وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه وقطع ونزع الخاتم من يده وخلع وترك جسده طعاما للطيور والسباع والذئاب والضباع وانجلت الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره وخذلان عدوه وقهره والسلام فهذا الكتاب يشتمل على تطويل لا فائدة فيه لانه كرر فيه معانى يتم الغرض بدونها وذكر ما لا حاجة اليه فى الاعلام بالواقعة فانظر الى هذه الكتب الثلاثة وتأملها كما تأملت الذى تقدمها (وبعد ذلك انى أورد لك كتابا وتقليدا يوضحان لك فائدة الاطناب أما الكتاب) فانه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار وذلك فى معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه وكان الفتح فى السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوى وجعل أيام دولته أترابا ومناقب مجدها هضابا وزادها على مرور الايام شبابا وأوسعها توشية وادهابا اذا أوسع غيرها تلاشيا وذهابا ومنحها فى الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لا عطاء حسابا ومثل حدودها فى عيون الاعداء شهبا ثقابا وأراهم منها وراءهم فى اليقظة ارهابا وارعابا وفى المنام الا صعابا تقود خيلا عرابا لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخرا وفاز بسبق أوائلها وان جاء آخرا وليس ذلك الا لخطوته بالدولة الناصرية التى كستة حبرا وقلدته دررا ودونت له من المحامد سيرا وجعلت

في كل ناحية من وجهه شمسا وقمرا وقيض الله لها من الخادم وليا يوصل يومه
في طاعتها بأمسه ولا يرى الأمن منه في خدمتها رقيب على نفسه وطالما
سعى بين يديها بمساع تنص بأخبارها محافل القوم ويقال له فيها ما ضرك
ما صنعت بعد اليوم وقد سلفت منها آيات تتماثل في أشباهها وأضرابها
واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأم كتابها وهي فتح البيت المقدس الذي
تفتحت له أبواب السماء وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء واسترد حق
الإسلام وطالما سعت الهمم في طلبه بالزاد والماء ومن أحسن ما أتى به أنه
آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى وأطال منه كل ما قصرت به يد الكفر وكانت هي
الطولى وبه صح لهذا البيت معنى اسمه وانتقل إلى الطهارة وبراءتها من
الرجس ووصمه ولم يحزه الخادم حتى طوى ما حوله من البلاد المحدقة والعائرة
وكان مركز الدائرتها فغادره وهو طرف من أطراف الدائرة ولما شارفه نظر
منه إلى طلة من الطلال ورأى بلدا قد استقر على متن الجبل مثل الجمل
ويطيف به واد تستهزئ عصمته بنوب الدهر وقد انعطف على جوانبه انعطاف
الحنوة على الظهر والمسالك إليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج وهي ضيقة
متوعرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج فلما رآه قال هذا
أمنية لمن يرى وعلم حينئذ أن كل الصيد في جوف الفرا إلا أن لسان حاله
ناطقة وهو أفصح الخطاب وقال امدد يدك فليس دونها من حجاب وكان قد برز
من السلاح في لباس رائع من المنعة وأخرج من السواد الأعظم ما خدع
العيون والحرب خدعة وما يمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ولا يحمي بعوالي
الأسوار بل بعوالي الصعاد وفي يوم كذا وكذا خيم المسلمون في عقر داره
ونزلوا منه نزول الجار إلى جانب جاره ثم ارتادوا موقفا للقتال وإن لم يكن هنالك
موقف يقرب مناله ولا يتسع مجاله واتفق الرأي على لسان المنجنيق في خطبة
عقيلة أبلغ خطابا وأدنى من المطلوب طلابا وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر
انبجست عيون أهله دماء كما انبجست عيون الحجر ماء هذا والعزائم تنظر إلى هذا
الرأي نظر المستجهل وتستدعيه صدود المستعجل وتقول ما بارتياد السهل
تملك الصعاب ومن اتقى السيف صرحا لم ينأ عنه بلوغ الأسباب والحديد
لا يفلح إلا بالحديد والركن الشديد لا يصدم إلا بركن شديد فعندها صمم

الخادم أن يلقى البلد موانئها الامواربا وأن يجعل للزحف جانبا وللمجنيق جانبا ونوى أن يبدى صفحة وجهه أمام الناس وتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاتقاء به اذا اشتد الباس ولاشك أن قلوب الجيوش عزلة قلوبها وأن المعاد لا تسمه الرماح لا تكعوبها ولايشتفى من الوغى الامن كان طرفه أمام طرفه ومن وقف جانب حدوده فقد جعل عزائمها من خلفه ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا بعد أن قورع قراعا ثم هر هرة طوته بيمينها ونشرته بشمالها وأذاقته العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من نكالها وبدون ذلك تكون عزلة أديمه وعطف شكيمه ولم يكن قتاله بالسهام التى عاية بها أن تصف أجنحتها للمطار وتنال تكلومها من فوق الاسوار بل بالسيوف التى اذا جالدت بلدا أحدثت تكلمه وتوغلت فى هيمه وأعمت سرعة خطواتها اليه عن المحسون وانطاء هدمه والسيف ليس عرقوم من المعس التى تطل طائشة عند اقبالها جائشة عند استيعائها فالقلب توصف بأنها تحيش اذا كانت أعدادا والنفوس لاتحيش الا اذا كانت ثمادا وما يستوى وجوه الاقران فى اقدامها واحجامها فمنها المظلم اذا رانها الروع باشراقها ومنها المشرق اذا شابها الروع باظلامها وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بلباس الاشراق وأتم ابدارا والبدور لايكون تمامها فى المحاق فامنهم الامن عرض نفسه ليوم العرض ومشى الى جنة عرضها السموات والارض حتى اتسع المكر وضاق بأعداء الله المقر وحرقت أوعار الخنادق وصار الرجاء لمطقة السور كالنطاق ولم يستشهد منهم الا عدد يسير لاتدخله لام التعريف وكانت أجنحة الملائكة مطيفة بهم وأكرم بالمطاف به وبالمطيف وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التى هى الفوز الاكبر وقربها باد بالمصاحفهم من الارض المقدسة التى هى أرض المحشر فما يسرهم أن يعودوا الى الدنيا الا للاستزادة من ثواب الجهاد وأيسر ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة الى يوم المعاد ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار حوارا وأن ربهم قد انقلب حوارا أذعنت أيديهم باستسلامها وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها وبالبلد عن النفوس وحمامها فأبى السيف أن يترك رقابا بعدى ما كابا ويحل من عشقها على مداومه وصلها وأذكر الخادم أن سلف هؤلاء

انتزع هذا البلد قسرا وقتل من كان به من المسلمين غدرا وذلك بأن ادخره الله
لك حتى تحظى في الآخرة بثوابه وتتجمل في الدنيا برتبة أثوابه والمسلم
أخو المسلم يأخذ بدمه وان تطاولت أمداد السنين على قدمه وما بعد عهد
هذا الثأر من ثائره ويا طيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره ولما
تحقق العزم على ذلك أشار ذو الرأي بقبول الفدية المبذولة والا يحمل العدو
على ما ليست نفسه عليه محمولة فان العبد اذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار
واستضرى حتى يلتحق بالسباع الضوار وهؤلاء اذا رأوا عين القتل تجردوا
للقتال وركبوا الاهوال للنجاة من الاهوال ومن يدع الى خطة رشد فلا يقبلها
ومن أنشط له عقال الامور فلا يعقلها وعلى كل حال فان الفدية للمسلمين
أربح وأموال يتقوى بها على العدو خير من دماء تذهب هذا وبالبلد من
أسارى المسلمين من حياة أحدهم بحياة كل نفس ومن حرمته عند الله خير مما
طلعت عليه الشمس ولا يؤمن في أخذه عنوة أن يتعدى اليهم اضراره ولا شك
أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره فرأى الخادم عند ذلك أن الرأي
مشترك وأن له معتركا كما أن السيف له معترك وتقرر تسليم البلد ودموع
أهله قد خضبت أحداقها وأقرحت آماقها ولم تطب أنفسهم بفراق قمامة حتى
كادت الهام تفارق أعناقها وعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم وتسيل
نعامتهم ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار واستنصروه فلم يحظوا منه
بمعونة الانتصار وكيف يرجى النصر من معبود تقر شيعته بقتله أم كيف يدفع
عن غيره من كان هو مبتلى بمثله وهذه عقول سخيفة بعد بها كيد شيطانها
وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها ولقد كان يوم التسليم عريس العصار
زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار واشتق من اسمه معنى السلامة
للمسلمين والهلاك للكفار وزاده فخرا الى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة
المعراج النبوي الذي كان في تلك الارض موعده ومن صخرتها مصعده
وذلك هو الاسراء الذي ركب فيه ظهر البراق واستفتح له أبواب السبع
الطباق ولو رقى فيه الانبياء على اختلاف درجاتهم فظهر خير ملتقى بخير لاق
وبركة ذلك اليوم سرت الى هذا فأطالت من شهرته وضمنته نصرة الدين الحنيف
الذي لله عناية بنصره وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبي صلى الله عليه

وسلم بدار هجرته وادا أنصف واصفه قال انه لليوم السدرى في اقتراب السب
وانه العجيبة التى لم تحصل عنها الايام فى صفو واعا أجملت عنها فى رجب ما
أكثر المآثر فيه والمعون والمسرور والمحزون من حدرا كب ومن حد راحل
ومن عز قادم وذل راحل ولطالما جد الخادم فى السعى له وأنصار العدا
تراقه وألسنتهم تسابقه وما منهم الامن أكثر الشناعة أن دلك السعى
للاستكثار من البلاد والله يعلم أنه لم يكن الا للاستكثار من موارد الجهاد
لاجرم أن صدق النية كان له عقبى الدار وتلك الاقوال الكاذبة كان لها عقبى
البوار ويوم هدا الفتح بمتقر قبله الى أيام تجلو بياضه عن سوادها و يلقح
لها بطون المساعى حتى يكون هو نتيجة ميلادها ولما ظهر به الخادم لم يكن
لأهل الحجابة فيه قول يرد كدابه ولا يقبل صوابه والشهب الطالعة على
ادوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج على
أنهما وان اتفقا رجما فانهما يختلفان علما فعلم هذه يسأل عنه ثغر الاعناق
وعلم هذه يسأل عنه بطون الاوراق ولما دخل البلد وجد به أمما ولا أن
ضربت عليهم الدلة لادعوا المنايا مكاثرة وغالوا السيوف مصابرة وهم
طوائف مختلفو الالسنة والالوان وان قيل انهم أناسى فان صورهم صور الجان
ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها وخصت الشعر عن أوساط رؤسها
وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها ولما رأوا
طلعة الاسلام داخلة عليهم أعلنوا بالجؤار واضطرحوا جميعا كما يضطرحون
غدا فى النار وزادهم غيظا الى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمه وقد صار
الناقوس أذانا وكلمة الكفر ايمانا وأقيمت الجمعة وهى أول جمعة حظى
الاقصى بشهودها وحضرتها الائمة الاسلامية بأحمرها وأسودها فمن باك دمعة
سروره البارده ومن مجيل ناظره فى نعمة الله الواردة ومن شاكر للزمن الذى
أبقاه الى يومه هذا الذى كل الايام له حاسدة من كان مولده تقدم قبله أو بعده
وكأنه لم يولد وكانت هذه الجمعة فى رابع شعبان وهو الشهر الذى جعله الله
طليعة لشهر الصيام وليلة نصفه هى الليلة المعروفة باحياء قيامها الى حين وفاة
شخص الظلام والتى يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوى الذنوب
والآثام وجىء باللواء الاسود فركز من المنبر فى أعلاه ونطق لسان حاله فقال

من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه فانا مولاه ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه غير أن هذا بر هي بلاغ موعظة وهذا بر هي عز سلطانه ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذي ملأ المسجد بحجيجه وسبق الكرام الكاتبون برفعه الى السماء وشجيجه وكان اليوم فصلا والموقف جللا وذلك الدعاء ورضا الاقلا ولا ينتهي الوصف الى ماشوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تستلفت العقلاء وتستجلب الاذهان وتستنطق الالسنة بالتسبيح لله الذي فطر الانسان ومن جملة ذلك ماشوهد في حسنه من البيع والصوامع ذوات الابنية الروائع التي زوقت بالزخارف ترويض الازهار ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحي اليها بالاسرار وماهيا الاما يقال انه ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا في توسيعها ضروب الاختيار وجعلوها أعاجيب للاسماع والابصار وقيل فيها هذه روضات جنان لا أبنية ديار هذا الى غيره مما وجد من معبودات القوم الموصفة بانها آلهة الصلبان اللاتي من ذوات الصلب وأكثر ذلك وجد في المسجد موضوعا وعلى قبته مرفوعا فأزلت على فروعها واستنشقت نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في طعن عيونها واستوطن المؤمن مكان الكفور وبدلت الظلمات بالنور وقالت الصخرة الان جمع بيني وبين الحجر الاسود خاطب الاسلام والجمع بين الاختين في هذا الامر من الحلال لامن الحرام وقال الاقصى سبحان الذي أسرى الى محمد كما أسرى بعبده وأعاد لي عهود الفتح الاول بهذا الفتح الذي أتى من بعده وعود الذاهب ارجاء لدوام أحدابه وخلود الانسان لا يكون الا في مأتيه وهذا هو الخطب الذي جدد للاسلام عهود ابن خطابه رضي الله عنه الا ان مستمد الطريقة أولى بها من صاحبها ولئن عصبتها يد عالية فقد جاء الله باليد التى عصبتها من عاصبها هذا ولم ينس قد قدها الخادم الا بانصاء سلاح أعقبته الوقعة الاولى التى استأصلت حماة البلاد واستباحت أعيالها بقتل الآساد فكانت لهذا الفتح عنوانا ولتقرير أصوله بيانا ولم يبق بها من طواعيت الكفر الاطاغية تزال من قاتل السيوف أسارته وبه وأده فلو من أوجالها وفي غيبه دهش من أهوالها وقد قرن الله هذا الفتح بشرى موته وكفى المسلمين مؤنة الاهتمام لدونه فمن

من الوقعة ولم ينج بذلك الفرار واعتصم بذات جداره فقتله الخوف من وراء الجدار ولا فرق بين قتيل خوف السمار وبين قتيل الشمار والقدر ين المكروه الى مثله لكنه انتقل من ميتة عزة الى ميتة ذله وكذلك آثار الخادم في أعداء الله فهم هلكى بسيفه في مواقف الطراد فان فروا فخوفه على جنوب الوساد وبعد هذه فهل يمترون في أن دماءهم قد استجابت لمراده وأن سواء لديه من أمكن منها في دنوه ومن امتنع منها في بعاده وكل ذلك مستمد من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التي من شأنها أن تجعل الرؤيا حقا وأحاديث الآمال صدقا وتقرب بعيدات الامور حتى تجعل الشرق غربا والعرب شرقا فهذا الفتح منسوب اليه اذ كان الخادم هو الساعي في تسهيله والمجاهد نفسه وماله في سبيله فعلى عطف دولته ترقم أعلامه وفي أيامها تؤرخ أيامه ولو أبيح للقلم الخيلاء في مقام المقال كما أبيح لصاحبه في مقام القتال لاختال مشيته في هذا الكتاب وقال وأسهب وليس الاكثار فيه من الاسهاب لكنه منعه من ذلك أن يكون ممن فخر بعمله وأدلّه وأرسل خطابه الى الديوان العزيز فلم يقصه بالادب حين أرسله وقد أنفذ من يلغ عنه مشاريح هذه الوقائع التي احتضرها ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه من المشاهدة قريبا كمكانها وهي عرائس المساعي فاحسن الناس بيانا أولى لابداع حسانها والسائر بها أولى وهو راوي أخبار نصرها التي صححها في تجريح الرجال وعوالي اسنادها مأخوذة من طرق العوال والايام والليالي ورواتها الطعن برواية الايام والليالي وستتلو هذه الاخبار الصادقة بمشيئة الله أخبار مثلها صادقة ومادامت السيوف ناطقة في يد الخادم فالالسنة عنها ناطقة وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى (وأما التقليد) فانه تقليد أنشأته لصاحب اليمن وهو (أما بعد) فقد جعل الله خلفاء المتمكين في أرضه أن يقام بحدوده وفرضه ونحن نسأله التوفيق لهذا الامر الذي ثقل حمله وعدم أهله فقد جئنا في زمن أصبح الناس فيه سدى وعاد الاسلام فيه غريبا كما بدا وهو الزمن الذي كثرت فيه أشراط اليوم الاخير وعزلت فيه الامة حتى لم يبق الا حثالة كحثالة التمر والشعير ومن أهم ما قدرنا وقدم عناه وأصلح به الزمن وأبناءه أن نعني أحكام الشريعة المطهرة على

ما قررته في تعريف ما عرفته وتنكير ما نكرته ومدار ذلك على النظر في أمر
الحسبة التي تتنزل منه منزلة السلك من العقد والكف من الزند وقد أخلصنا
النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ويصطفي لها ولا يصطفيها وهو أنت أيها
الشيخ الأجل فلان أحسن الله لك الأثر وصدق فيك النظر فتولاها غير
موكول اليها بل معانا عليها واعلم أن الناس قد أماتوا سننا وأحيوا بدعا
وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعا وأطلع منهم من أقرهم على أمرهم ولم
يأخذهم بقوارع زجرهم فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها وترك
النهي عنها كالأمر باتيانها ولم يأت نبي الله تعالى الا ليعبد الذين قائما على
أصوله صادعا بحكم الله فيه وحكم رسوله ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال
الناس في أمر دينهم الذي هو عصمة مآلهم وأمر معاشهم الذي يتميز به
حرامهم من حلالهم فابدأ أولا بالنظر في العقائد واهدهم الى سبيل الفرقة
الناجية الذي هو سبيل واحد وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا
مواطن الحق فأقاموا وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ومن عداهم شعب دانوا
أديانا وعبدوا من الأهواء أوثانا واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا ولو نشاء
لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم
فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ولا تقبل منه صرفا
ولا عدلا وليكن قتله على رؤس الاشهاد ما بين حاضر وباد فما تكدرت
الشرائع بمثل فلسفته ولا تدنست علومها بمثل أترحها الله والمنتمي اليها يعرف
بنكره ويستدل عليه بظلمة كفره وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار
وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار وما تجده من كتبها
التي هي سموم ناقعة لا علوم نافعة وأفاعي ملمعة لا أقوال مؤلفة
فاستأصل شأفتها بالتحريق وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ولا
يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها والكشف عن مكامن أسرارها
فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهارا وليُنكل به اشتهارا وليقل هذا جزاء
من استكبر استكبارا ولم يرج لله وقارا وأما من تحدث في القدر وقال فيه
بمخالفة نص الخبر فليس في شيء من فرق الاسلام وان تمسك بمداومة الصلاة
والصيام قال النبي صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الأمة والمراد

بذلك أنهم ما ثلوا بين الله والعبد والضياء والظلمة فعلاج هذه الطائفة أن تجرى
بأن تجرى فليقاتل جمعها بالتكسير واسمها بالتصغير وتنقل الى ثقل الحدود
عن خفة التعزير ومن كان منها ذا مكانة نابهة فليهبط أو شهادة قعادلة
فلتسقط وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم أو قال بحدوث
القرآن القديم ومن ملحدى القرآن فرقة فرقت بين المعنى واللفظ وفرقة
قالت فيه بالشكل والنقط وكل هؤلاء قوم خبثت سرائرهم وعميت بصائرهم
وعظمت عند الله جرائمهم فخذهم بالتوبة التى تطهر أهلها وتجب ما قبلها
وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان والقلب لاه فى قبضة النسيان بل
هى عبارة عن الندم على ما فات واستئناف الاخلاص فيما هو آت وقد
جعل الله التائب من أحبابه ووصفه فى مواضع كثيرة من كتابه ومن فضله أن
الملائكة يستغفرون لذنبه ويسعون له الى ربه فان أبت هذه الطوائف
الا اصرارا ولم يزدهم دعاؤك الا فرارا فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم
طبعا وألحقهم بالذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعا
فخذهم عند ذلك بحدّ الجلاد فان لم ينجع فبحد ذوات الحد فان هذه أمراض
عى لا ترجى لها الافاقة ولا تبرئ منها الا الدماء المراقة وأما الفرقة المدعوة
بالرافضة التى هى لما رفعه الله خافضة فانهم أناس ليس لهم من الدين الا اسمه
ولا من الاسلام الا رسمه واذا نقب عن مذهبهم وجد على العصبية موضوعا
ولغير ما شرعه الله ورسوله مشروعا ذبوا عن على رضى الله عنه فأسلموه
وأخروه اذ قدموه وهؤلاء وضعوا أحاديث فقلوها وأولوها على ما أولوها
وتبع الآخر منهم الاول على عمة وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وفيما
غير ما ذكرناه من عقائد محلولة ومذاهب غير منقولة ولا معقولة وبالهدى
يتبين طريق الضلال وبالصحة يظهر أثر الاعتلال ولا عقيدة الا عقيدة
السنة والكتاب ولا دين الا دين الحائر الماء والمحراب واذا فرغنا من الوصية
بالاصول التى هى للدين ملاك فلنتبعها بالفروع التى هى له مساك وأول ذلك
الصلاة وهى فى مبانى الاسلام الجس أوكد خمسه وآخر ما وصى به رسول الله
صلى الله عليه وسلم عند مفارقة نفسه ومن فضلها أنها العمل الذى ينهى عن
الفحشاء والمنكر ولا عذر فى تركها لأحد من الناس فيقال انه يعذر فاجمع

الناس اليها واجلهم عليها وامرهم بالاجتماع لها فى المساجد ونادبهم بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة الواحد وراقبهم عند أوقات الاذان فى الاسواق التى هى معركة الشيطان من شغل تثمير مكسبه ولهاعنها بالاقبال على لهوه ولعبه وحده بالآلة العصرية التى تصغ من قدره وتذيقه وبال أمره ولا يغفل عن ذى هيئة هيئته ولا عن ذى شيبة شيبته فانما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذى هو فى الايام بمنزلة الاعياد فى الاعوام وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب التى ما صادفها عبد الاظفر بالطلاب فمر الناس بابتداره فى المواكر والمورفيه بقربان البدنات الاخاير فانه اليوم الذى لم تطلع الشمس على مثله وبه فضل هذا الدين على أهل الكتاب من قبله فهو واسطة عقد الايام السبعة ولاشتماله على مجموع فضلها سمى يوم الجمعة وفى الاعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح فى شهر رمضان والرغائب فى أول جمعة من رجب وليلة النصف من شعبان فلتملا المساجد فى هذه المواسم التى تنشر فيها شهادات الاقلام فى كتب الطاعات ومحو الآثام ومن حضرها وليس همه الا أن يتزين بها طروقا ويواعد اليه أحدا به رفثا أو فسوقا فهؤلاء هم الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فابعث عليهم قوما يلبسوهم سلما ويوسعوهم ضربا ويملؤن عيونهم مهابة وقلوبهم رعبا فبيوت الله مطهرة من هذه الادناس ولم تعمر لشياطين الانس واتما عمرت للناس فلا يحضرها الا راكع وساجد أو ذاكر وحامد وههنا عظيمة عصيبة وفاحشة يعقلها من ليست نفسه فقيهة وهى الربا فانه قد كثر أكله وتظاهر به فاعله وقال فساق الفقهاء بتأويله وتوصلوا الى شبهة تحليله ولا يتسارع الى ذلك الامن أعمى الله قلبه ومحق كسبه قال النبى صلى الله عليه وسلم لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فحملوها وباعوها وأكلوا أثمانها ونحن نأمرك أن تشمر فى هذا الامر تشميرا برحمة الناس ولا تدع ربا حتى تضعه وأول ربا تضعه ربا العباس فتأديب الكبير فاض بتهذيب الصغير والاسوة بالرفيع خلاف الاسوة بالحقير وحل معاملة الربا تحرى فى سوق الصرف الذى تختلف به النقود وتفترض فيه العقود

ويخاض فى ماربيره الى النار ذات الوقود وبه قوم أوسعوا عيون الموازين عمرا وألسنتها همزا ولمزا وأصبح الدرهم والدينار عندهم بمنزلة الصنمين اللات والعزى ولا يرى منهم الامن الحرص مماص على ثيابه وقد جمع بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه وعدل ميل هؤلاء تعديلا وتحولهم على مرور الايام تحويلا واعلم أنك قد وليت من الكيل والميزان أمرين هلكت فيهما الامم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختيار والاختبار ولا تقل أهلهما عثرة فان الاقالة لاتنهى عن العثار وكل هؤلاء من سواد الناس ممن لم يرك غرسه ولا فقهت نفسه وليس فيه الا ورعه أو ضرسه فخذهم بآلة التعزير التى هى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى ومن آثارها أنها تريح أرض الرأس رجا وتفرج سماءه فرجا وتسلك بصاحبه هديا ونهجا وقد كثر فى الاسواق الخلابة والغش وتلقى الركبان وبيع الحاضر للبادى وتنفيق السلعة باليمين الكاذبة وكل هذه من المحظورات التى وردت الاخبار النبوية بذمها والنهى عن قرب مكانها فمن قارف شيأ منها جاهلا بتحريمه فقومه بالتعليم واهده الى الصراط المستقيم ومن عرف ما اقترف فأذقه حرّ التأديب قبل أن يذاق غدا حرّ التعذيب واعلمه أن الارزاق بيد الله تعالى لا ينقصها عجز القاعد ولا يزيدها حرص الكادح وقد ينقلب الجاهد فيها بصفقة الخاسر والوادع بصفقة الرابح ومن سعة الله تعالى أن يمحق الحلال وان كان يسيرا ويمحق الحرام وان كان كثيرا ومن الناس من آتاه الله مالا فبث فى الاسواق جنود ذهبه وورقه واحتكر ما حله الميزان من ذوات رطله ووسعه الكيل من ذوات وسقه فاصبح فقراء بلده فى ضيق من عدم الرزق ومدد الرزق فليمنع هؤلاء أن يجعلوا رزق الله محتكرا ومعاش عباده محتصرا وليؤمروا بأن يتراحموا ولا يتزاحموا وأن يأخذ الغنى منهم بقدر الكفاف ويترك للفقير ما يعينه على الاسعاف قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا حكرة فى سوقنا لا يعمد رجال بايديهم فضول من اذهاب الى رزق من أرزاق الله تعالى ينزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ولكن أيما جالب جلب على عمود كبده فذلك ضيف عمر فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله وأما التسعير فانه وأن آثره القاطنون وحكم به القاسطون وقيل ان فى ذلك للفقير تيسيرا العسير فليس

لاحد أن يكون يد الله فى حفظ ما رفع ونقل ما منع فقف أنت حيث أوقفك حكم الحق ودع ما يعن لك من مصلحة الخلق ولا تكن ممن تبع الرأى والنظر وترك الآية والخبر فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومما أمرك به أن تمحو الصغيرة كما تمحو الكبيرة فان لمم الذنوب كالقطر يصير بمجتمعه سيلا متدفقا وكان أوله قطرا متفرقا وقد استمرى الناس عوائدها وتوابا استمرارها ولم ينظروا الى ثقل أوزارها من ذلك لبس الذهب والحرير الذى لم يابسه الامن عدم عند الله خلاقا وان قيل انه شعار للغنى لم يرد صاحبه من الحسنات الا املاقا وللبس عباءة مع التقوى أحسن فى العيون شعارا وأعظم فى الصدور وقارا ويلتحق بهذه المعصية صوغ الذهب والفضة آنية يتبع منها حق الصدقات وهو حق يقاتل مانعه ويعصى فى استعمالها أمر الله وهو حد من حدوده يعاقب عاصيه ويثاب طائعه وكذلك يجرى الحكم فى الصور المرقومة فى البيوت والثياب وعلى الستور المعلقة على الابواب واخراجها فى ضروب أشكال الحيوان الملائمة للصديان وذلك مما يشابه خلق الله فى التقدير ولهذا يؤمر صانعه بنفخ الروح فيما صوره من التصوير ومما يغلظ نكيره اطالة الذيول للاحتزار والمباهاة لما فيها من نخوة التيه والاستكبار ولن يخرق صاحبها الارض باسحابه ولا يبلغ طول الجبال باطالة ثيابه قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء ومما هو أشد نكيرا أمر الحمامات فان الناس قد أصروا فيها على الاجهار وترك الاستتار والتهاون بأمر العورات التى اصابتها اللعنة ولمسوء الدار والنساء فى هذا المقام أشد فيها الكافر من الرجال وقد ابتذل أبعضهن حتى أفرطن فى فاحشة الابتذال ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الارفاه والاتراف وأهمل انكارها حتى سرت فى الاوساط والاطراف وقد احدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان فى حساب وذلك من لباس المشهورة الذى لا يستر منه اسبال المرط ولا ادناء الجلباب ومن جملتها أمور يقتصر عن عصائبه كامثال الاسنمة ويخرجن من جهارة أشكالها فى الصور المعلمة وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بها فيما ورد عنه من الاخبار وجعل صاحبها معدودا من زمرة أصحاب النار
ومما حدث فيه عن السنن قراءة القرآن بضروب الالحان وتلك قراءة تخرج
حروفها من غير مخرج وتبدو معوجة وهو قرآن عربي غير ذي عوج وقد
أمر الله بترتيله وايراده على هيئة تنزيله فمن قرأه بالترجيع والترديد وزلزل
حروفه بالتمطيط والتمديد فقد ألحقه بدرجات الاغانى وذهب بما فيه من
طلاوة الالفاظ والمعانى قال النبي صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن بلحون
العرب وأصواتها واياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجيء
بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة
قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم ويلتحق بذلك اقتناء القينات المغنيات اللاتى
يلهين بالعقول لعبهن بالاسماع ويعين الشيطان بغنائهن عن بث الجنود
والاشياع وقصارى النفس الامارة فى ذلك أن تقول هؤلاء اماء يحل نغمة سماعهن
كما يحل ما تحت قناعهن وقد علم أن لكل شيء إماما وقد ينقلب الحلال فيصير
حراما ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه قال النبي صلى الله عليه وسلم
لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن
وثمنهن حرام وفى مثل هذا نزلت ومن الناس من يشترى لهو الحديث
وكذلك يجرى الحكم فى المواشط اللاتى يجعلن الحسن موفورا والقبح
مستورا ويخدعن نظر الناظر حتى يجعلنه مسحورا فهن يبدين صدقها
من كذب وجدها من لعب وفعلهن هذا من الغش الذى نهى رسول الله
صلى الله عليه وسلم عنه وقال انه ليس منه وقد لعن الواصلة والمستوصلة
والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة ومن غش المنكرات أيضا
خضاب الشيب الذى يخالف فيه الظاهر الباطن ويتخلق صاحبه بخلق
الكاذب الخائن وهب أنه أخفى لون شعره وهل يخفى اخلاق لباسه واذا
استشن ملائم المرء فلا يغنيه سواد عارضه ولا سواد رأسه وقد جعل الله الشيب
من نعمه المبشرة بطول الاعمار وسماه نورا للونه وهدايته ولا تستوى الظلمات
والانوار قال النبي صلى الله عليه وسلم الشيب أن يشتغل بتغيير صبغة
الكتاب ويدأب فى محو سواد الخضاب ببياض الصواب وفى بقية عمره مندوحة
لادخار ما يحمد دخره وتبديل ما تقدم سطره ومما خولفت فيه السنة عقد

قوله أهل الفسق فى نسخة العشق والحزن بالفتح الشيء يغنى اهـ

مجالس

مجالس التعازي لحضور الناس واظهار شعار الاسود والازرق من اللباس والتشبه بالجاهلية في النوح والندب ومجاوزة دمع العين وخشوع القلب الى الاعلان باسخاط الرب وقد تواطأ النساء على ضرب الخيام على القبور وجعل الاعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور فصارت المآتم بينهم ولائم والمنادب عندهم مآدب وربما نشأ من ذلك ما يغض طرفا ويخدع أنفا ويوجب حدا وقذفا وهكذا أهمل أمر الاسلام في تشبه أهل الذمة بأهله وما كانوا ليشابهوه في زي عزته ويحالفوه في سلوك سبله ولا بد من الغيار بأن يشد النصراني عقدة زناره ويصفر اليهودي أعلى ازاره وليمنعوا من التظاهر بطغيان النعمة وعلو الهمة ويؤمروا بالوقوف عند ما حكم عليهم من الاحكام ويأخذوا أنفسهم بالاختفاء والاكتتام فخمورهم تستتر وشعائر دينهم لا تظهر وموتاهم تقبر بالخمول قبل أن تقبر ولا يوقد خلف ميتهم مصباح ولا يتبع بندب ولا صياح ومما عرف الناس منكره اثارة التحريش بين الحيوانات وهي ذوات اكباد رطبة وأخلاق صعبة ومنها ما لا يحل أكله ولا يحل قتله كالكبش والجمل والديك والسماني وما أشبهها وقد أكثر الناس من اقتنائها والمواظبة على اضرام شحنائها وربما نشأ من ذلك فتنة تؤول الى ضراب وشق ثياب واحداث شجاج واثارة عجاج وتجر الى أخطار كثيرة وأمواج ويتصل بهذه المنكرات المذكورة أشياء أخرى تجري مجراها في التقديم وتتنزل منزلتها في التحريم فاحكم فيها بحكمك وامض في شبهاتها دليل علمك ووسع ما في التذكير والتحذير والتعريف والتنكير حتى يتقوم الاود ويتضح الرشد ويمكث في الارض ما ينفع ويذهب الزبد وليكن عملك لله الذي يسمع ويرى وله ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى واعلم أن الامر بالمعروف عبادة يتعدى نفع صاحبها الى غيره وتستصحب خير المأمور بها الى خيره وهي الجهاد الاكبر الذي تتقاتل فيه عواصي النفوس وتضرب به رؤس الشهوات التي هي أمنع من معاقد الرؤس فقتيله يحيا بقتله وجريحه يوسى بجراحة نصله ومثل هذا الجهاد يستنزل امداد النعم مضعفة كما يستنزل امداد النصر مردفة فاقدم عليه بعزم باتر وطرف ساهر وقدم ثابت صابر حتى تظل لمعاقل الشيطان فاتحا وتكون ممن دعا الى الله وعمل صالحا واعلم أنك في صبيحة كل يوم

يتدرك الملك والشيطان وكل منهما يقول يا أيها الانسان فان أجبت نداء الملك
كنت في زمرة من مهد لجنبه وخاف مقام ربه وعرج بك الى الله طيبا نشره
مضاعفا أجره وان أجبت نداء الشيطان كنت في زمرة من أغواه وقرنك عن
أغفل الله قلبه واتبع هواه ثم نزل به الى الارض خبيثا محنثا وأقبل به على
اخوانه من الشياطين محدثا وهذا آخر ما عهدنا اليك من العهد الذي طوقت
اليوم بكتابه وستناقش غدا على حسابه وكما جعلناه لك في الدنيا ذكرا فاجعله
لك في الآخرة ذخرا ان شاء الله تعالى والسلام (وهذا الذي ذكرته في هذين) من
الكتاب والتقليد يتضمن اطنابا مستوفي الاقسام ولولا خوف الاطالة التي
لا حاجة اليها لأوردت قصائد من الشعر أيضا حتى لا يخلو الموضع من ضرب
أمثلة من المنظوم والمنثور لكن في الذي ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه
ونظائره (فان قيل) ان الاطناب في الكلام قد صغتموه اسما على غير مسمى فان
الكلام لا يخلو من حالين اما أن لا يزيد لفظه على معناه وهو الايجاز أو يزيد
لفظه على معناه وهو التطويل وليس ههنا قسم ثالث هنا الاطناب اذ (قلت)
في الجواب اعلم أن الايجاز هو ضد التطويل كما أن السواد ضد البياض غير أن
بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضدادا فالاطناب لا ايجاز هو ولا تطويل
كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضا ولا سوادا وقد قدمنا القول ان الاطناب
يأتي في الكلام مؤكدا كالذي يأتي بزيادة التصوير للمعنى المقصود اما حقيقة
واما مجازا والتطويل ليس كذلك فانه التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك
المعنى بدونه فاذا حذفت تلك الزيادة بقي المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شئ
وهذا بخلاف الاطناب فانه اذا حذف منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك
المعنى وزال ذلك التأكيد عنه وذهبت فائدة التصوير والتخييل التي تفيد السامع
ما لم يكن الا بها ألا ترى الى قوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب
التي في الصدور وهذا لا يسمى ايجازا لانه أتى فيه بزيادة لفظ وهو ذكر الصدور
وقد علم أن القلوب لا تكون الا في الصدور ولا يسمى تطويلا لان التطويل
لا فائدة فيه أصلا وهذا فيه فائدة وهي ما أشرنا اليه وكذلك باقي أقسام
الاطناب التي نبهنا عليها وهذا الابراز فيه (النوع السابع عشر في التكرير) قد
تقدم الكلام في صدر كتابي هذا على تكرار الحروف وما ذلك مما يختلط بهذا

النوع الذي هو تكرار المعاني والالفاظ (واعلم) أن هذا النوع من مقاتل علم البيان وهو دقيق المأخذ وحده هو دلالة اللفظ على المعنى مرددا وربما اشتبه على أكثر الناس بالاطناب مرة وبالتطويل أخرى وقد تقدم الكلام على الفرق بين هذه الانواع الثلاثة في باب الاطناب ولا حاجة الى اعادته ههنا وأما التكرير فقد عرفتك (وهو ينقسم قسمين أحدهما) يوجد في اللفظ والمعنى (والآخر) يوجد في المعنى دون اللفظ فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع ومنه قول أبي الطيب المتنبي

ولم أر مثل جيراني ومثلي * لمثلي عند مثلهم مقام

وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك أطعني ولا تعصني فان الامر بالطاعة نهي عن المعصية (وكل من هذين القسمين ينقسم الى مفيد وغير مفيد) ولا أعني بالمفيد ههنا ما يعنيه النحاة فانه عندهم عبارة عن اللفظ المركب اما من الاسم مع الاسم بشرط أن يكون للاول بالثاني علاقة معنى نحو مكافأ جهله واما من الاسم مع الفعل التام المتصرف على هذا الشرط أيضا واما من حرف النداء مع الاسم فهذا هو المفيد عند النحاة وأنا لم أقصد ذلك ههنا بل مقصودي من المفيد أن يأتي لمعنى وغير المفيد أن يأتي لغير معنى (واعلم) أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له وتشييدا من أمره وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك اما مبالغة في مدحه أو في ذمه أو غير ذلك ولا يأتي الا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر والوسط عار منه لان أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة اما بمدح أو ذم أو غيرهما والوسط ليس من شرط المبالغة وغير المفيد لا يأتي في الكلام الا عيا وخطلا من غير حاجة اليه (فأما الاول) وهو الذي يوجد في اللفظ والمعنى (فانه ينقسم الى ضربين) مفيد وغير مفيد (فالاول المفيد وهو فرعان الاول) اذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون هذا تكرير في اللفظ والمعنى وهو قوله يحق الحق وليحق الحق وانما جيء به ههنا لاختلاف المراد وذاك أن الاول تمييز بين الارادتين والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة

على غيرها وأنه ما نصرهم وخذل أولئك الا لهذا الغرض (ومن هذا الباب) قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه فكرر قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وقوله قل الله أعبد مخلصا له دينى والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والاخلاص فى دينه والثانى اخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة فى الثانى وأخره فى الاول لان الكلام أولا واقع فى الفعل نفسه وايجاده وثانيا فيمن يفعل الفعل من أجله ولذلك رتب عليه فاعبدوا ما شئتم من دونه وعليه ورد قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وظاهر الاول والثانى أنهما سواء فى المعنى وليس كذلك لان الثانى فيه تخصيص غير موجود فى الاول ألا ترى أنا اذا قلنا زيد الافضل وقلنا الافضل زيد كان فى الثانى تخصيص له بالفضل وهذا التخصيص لا يوجد فى القول الاول الذى هو زيد الافضل ويجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها فيقال زيد الاجل أو زيد الانقص واذا قلنا الافضل زيد وجب تخصيصه بالفضل ولم يمكن تغييره عنه وكذلك يجرى الحكم فى هذه الآية فان الله تعالى قال انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم قال لم يذهبوا حتى يستأذنوه فوصفهم بالامتناع عن الذهاب الا باذنه وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات كما قال تعالى فى موضع آخر انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فجاء بصفة غير تلك الصفة ولما قال ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وجب تخصيصهم بذلك الوصف دون غيره وهذا موضع حسن فى تكرير المعانى (ومما يعد من هذا الباب) قوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه وليس الامر كذلك فان معنى قوله لا أعبد يعنى فى المستقبل من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم

من عبادة الهى ولا أنا عابد ما عبدتم أى وما كنت عابدا قط فيما سلف ما عبدتم فيه
يعنى أنه لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فى وقت ما فكيف يرجى ذلك منى
فى الاسلام ولا أنتم عابدون فى الماضى فى وقت ما ما أنا على عبادته الآن
(ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فكرر الرحمن الرحيم مرتين والفائدة فى ذلك أن
الاول يتعلق بأمر الدنيا والثانى يتعلق بأمر الآخرة فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع
الى خلق العالمين فى كونه خلق كلا منهم على أكمل صفة وأعطاه جميع ما يحتاج
اليه حتى البقة والذباب وقد يرجع الى غير الخلق كادرار الارزاق وغيرها وأما
ما يتعلق بأمر الآخرة فهو اشارة الى الرحمة الثانية فى يوم القيامة الذى هو يوم
الدين وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره فان رأيت
شيأ منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر الى سوابقه ولواحقه
لتنكشف لك الفائدة منه (ومما ورد فى القرآن الكريم مكررا) قوله تعالى كذبت
قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا
الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله
وأطيعون ليؤكده عندهم ويقرره فى نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة
جعل علة الاول كونه أمينا فيما بينهم وجعل علة الثانى حسم طمعه عنهم وخلوه
من الاعراض فيما يدعوهم اليه (ومن هذا النحو) قوله تعالى كذبت قبلهم قوم
نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب
ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وانما كرر تكذيبهم ههنا لانه لم يأت به
على أسلوب واحد بل تنوع فيه بضروب من الصنعة فذكره أولا فى الجملة
الخبرية على وجه الابهام ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بأن كل واحد من
الاحزاب كذب جميع الرسل لانهم اذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم وفى
تكرير التكذيب وايضاحه بعد ابهامه والتنوع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا
وبالاستثنائية ثانيا وما فى الاستثناء من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص
المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه وهذا باب من تكرير
اللفظ والمعنى حسن غامض وبه يعرف مواقع التكرير والفرق بينه وبين
غيره فافهمه ان شاء الله تعالى (الفرع الثانى من الضرب الاول) اذا كان

التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر والتكرير دلالة التعجب من تقديره واصابته الغرض وهذا كما يقال قاتله الله ما أشجعه أو ما أشعره وعليه ورد قول الشاعر * ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي * وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد واثباته (وعليه ورد الحديث النبوي) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يطلق على ابنتي وينكح ابنتهم فقوله لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن من التكرير الذي هو أشد موقعا من الايجاز لانصباب العناية الى تأكيد القول في منع علي رضي الله عنه من التزويج بابنة أبي جهل بن هشام وهذا مثل قوله تعالى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ومن أجل ذلك نقول لا اله الا الله وحده لا شريك له لان قولنا لا اله الا الله مثل قولنا وحده لا شريك له وهما في المعنى سواء وانما كررنا القول فيه لتقرير المعنى واثباته وذلك لان من الناس من يخالف فيه كالنصارى والثنوية والتكرير في مثل هذا المقام أبلغ من الايجاز وأحسن وأشد موقعا (ومما جاء في مثل هذا) قوله تعالى والله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فقوله من قبله بعد قوله من قبل فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول فاستحكم يأسهم وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك (وعلى ذلك ورد) قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق فقوله لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يقوم مقام قوله ولا يدينون دين الحق لان من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يدين دين الحق وانما كرره الحث على الأمر بقتالهم والتسجيل عليهم بالذم ورجمهم بالعظائم ليكون ذلك أدعى لوجوب قتالهم وحربهم وقد قلنا ان التكرير انما يأتي لما أهم من الامر الذي تصرف العناية اليه ليثبت ويتقرر (وكذلك ورد) قوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في أعناقهم

وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون فتكرير لفظة أولئك من هذا الباب الذي أشرنا إليه لمكان شدة النكير وإغلاظ العذاب بسبب إنكارهم البعث (وعلى هذا ورد) قوله تعالى أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون فإنه إنما تكررت لفظة هم لأن الأبدان تتحقق الخسار والأصل فيها وهم في الآخرة الأخسرون لكن لما أريد تأكيد ذلك جيء بتكرير هذه اللفظة المشار إليها وكذلك قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وأمثال هذا في القرآن كثير (وكذلك ورد) قوله تعالى في سورة القصص فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فقوله تعالى فلما أن أراد أن يبطش تكرير أن مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى فلما أن أراد أن يبطش (وجرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة) في هذه الآية فقال إن أن الأولى زائدة ولو حذفت فقيل فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء ألا ترى إلى قوله تعالى فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه وقد اتفق النحاة على أن الواردة بعد لما وقبل الفعل زائدة فقلت له النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة ولا شك أنهم وجدوا أن ترد بعد لما وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت فقالوا هذه زائدة وليس الأمر كذلك بل إذا وردت لما وورد الفعل بعدها بإسقاط أن دل ذلك على الفور وإذا لم تسقط لم يدل ذلك على أن الفعل كان على الفور وإنما كان فيه تراخ وإبطاء (وبيان ذلك من وجهين أحدهما) أني أقول فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدلة على المعاني فإذا أوردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل هذه زائدة دخولها في الكلام كخروجها منه ولما نظرت أنا في هذه الآية وجدت لفظة أن الواردة بعد لما وقبل الفعل دالة على معنى وإذا كانت دالة على معنى فكيف يسوغ أن يقال إنها زائدة (فإن قيل) إنها إذا كانت دالة على معنى

يجوز أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت اليه (قلت في الجواب) اذا ثبت أنها دالة على معنى فالذي أشرت اليه معنى مناسب واقع في موقعه واذا كان مناسبا واقعا في موقعه فقد حصل المراد منه ودل الدليل حينئذ أنها ليست زائدة (الوجه الآخر) أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا في كلام الله تعالى وذاك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة اليها والمعنى يتم بدونها وحينئذ لا يكون كلامه معجزا اذ من شرط الاعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة اليه وان التطويل عيب في الكلام فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الاعجاز هذا محال (وأما قوله تعالى) فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فانه اذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع اخوته منذ ألقوه في الجب والى أن جاء البشير الى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم ابطاء بعيد وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بأن بعد لما وقبل الفعل بل كانت تكون الآية فلما جاء البشير ألقاه على وجهه وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لانها ليست من شأنهم (واعلم) أن من هذا النوع قسما يكون المعنى فيه مضافا الى نفسه مع اختلاف اللفظ وذلك يأتي في الالفاظ المترادفة وقد ورد في القرآن الكريم واستعمل في فصيح الكلام فمنه قوله تعالى والذين سعوا في آياتنا معجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم والرجز هو العذاب وعليه ورد قول أبي تمام

يهوين بثقل العبء مضطلع به * وان عظمت فيه الخطوب وجلت

والثقل هو العبء والعبء هو الثقل (وكذلك) ورد قول البحتري

ويوم تثنت للوداع وسلمت * بعينين موصول بلحظيهما السحر
توهمتها ألوى بأجفانها الكرى * كرى النوم أو مالت بأعطافها الخمر

فان الكرى هو النوم وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطي هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه وليس كذلك بل الفائدة فيه هي التأكيد للمعنى المقصود والمبالغة فيه أما الآية فالمراد بقوله تعالى عذاب من رجز أي عذاب مضاعف من عذاب وأما بيت أبي تمام فانه تضمن المبالغة في وصف الممدوح بحمله للاثقال وأما بيت البحتري فانه أراد أن يشبه طرفها الفتور بالنائم فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف اليه تأكيدا له وزيادة في بيانه وهذا

الموضع لم ينبه عليه أحد سواى ولا علمت أنه دخل فى التكرير من هذا النوع
ما ليس منه وهو موضع لم ينبه عليه أيضا أحد سواى (فمنه قوله تعالى) ثم ان
ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها
لغفور رحيم فلما تكررت ربك مرتين علم أن ذلك أدل على المغفرة وكذلك قوله
تعالى ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من
بعدها لغفور رحيم ومثل هذا قوله تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا
ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهذه الآيات
يظن أنها من باب التكرير وليست كذلك وقد أنعمت نظرى فيها فرأيتها
خارجة عن حكم التكرير وذلك أنه اذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر
الى تمام لا يفهم الا به فالاولى فى باب الفصاحة أن يعاد لفظ الاول مرة ثانية
ليكون مقارنا لتمام الفصل كى لا يجىء الكلام منثورا لا سيما فى ان وأخواتها
فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فاعادة ان
أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة كالذى تقدم من هذه الآيات وعليه ورد
قول بعضهم من شعراء الحماسة

أسرا وقيدا واشتياقا وغربة * ونأى حبيب ان ذا لعظيم
وان امرأ دامت مواثيق عهده * على مثل هذا انه لكريم

فانه لما طال الكلام بين اسم ان وخبرها أعيدت ان مرة ثانية لان تقدير
الكلام وان امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم لكن بين الاسم
والخبر مدى طويل فاذا لم تعد ان مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق
وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعا واما علما (وكذلك يجرى الامر) اذا
كان خبر ان عاملا فى معمول يطول ذكره فان اعادة الخبر ثانية هو الاحسن وعلى
هذا جاء قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام اذ قال يوسف لابيه يا أبت
انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين فلما قال انى
رأيت ثم طال الفصل كان الاحسن أن يعيد لفظ الرؤية فيقول رأيتهم لى
ساجدين وكذلك جاءت الآية المذكورة فيما قبل هذه وهى قوله تعالى
لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا فانه لما طال الفصل أعاد قوله فلا تحسبنهم بمفازة من
العذاب فاعلم ذلك وقس عليه وكذلك الآية التى قبلها وهى قوله تعالى ثم ان

ربك للذين عملوا السوء بجهالة وكذلك الآية الاخرى وهي ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا (ومن باب التكرير في اللفظ والمعنى) الدال على معنى واحد قوله عز وجل "وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار فانه انما كرر نداء قومه ههنا للزيادة التنبيه لهم والايقاظ عن سنة الغفلة ولانهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم من الضلال وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يتهموه فان سرورهم سروره وغمهم غمه وأن ينزلوا على نصيحته لهم وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الايجاز وأشد موقعا من الاختصار فاعرفه ان شاء الله تعالى (وعلى نحو منه) جاء قوله تعالى في سورة القمر فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فانه قد تكرر ذلك في السورة كثيرا وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الاولين ادكارا وايقاظا وان يستأنفوا تنبها واستيقاظا اذا سمعوا الحث على ذلك والبعث اليه وأن تقرع لهم العصا مرات لئلا يغلبهم السهو وتستولي عليهم الغفلة وهكذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن فباي آلاء ربكما تكذبان وذلك عند كل نعمة عددها على عباده وأمثال هذا في القرآن الكريم كثير (ومما ورد) من هذا النوع شعرا قول بعض شعراء الحماسة

الى معدن العز المؤثل والندى * هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله هناك هناك من التكرير الذي هو أبلغ من الايجاز لانه في معرض مدح فهو يقرر في نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الاوصاف المذكورة مشيرا اليها كأنه قال أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومعاده (وكذلك) ورد قول المساور بن هند

جزى الله عنا غالبا من عشيرة * اذا حدثان الدهر نابت نوائبه

فكم دافعوا من كربة قد تلاحمت * علي وموج قد علتني غواربه

فصدر البيت الثاني وعجزه يدلان على معنى واحد لان تلاحم الكرب عليه كتعالي الموج من فوقه وانما سوغ ذلك لانه مقام مدح واطراء ألا ترى أنه يصف احسان هؤلاء القوم عند حدثان دهره في التكرير وفي قد التبه لو كان القائل

هاجيا

هاجيا فان الهجاء في هذا كالمدح والتكرير انما يحسن في كلا الطرفين لا في الوسط (واعلم) أنه اذا وردت ان المكسورة المخففة بعد ما كانت بمعناها سواء ألا ترى الى قوله تعالى ان هم الا كالانعام فان وما بمعنى واحد واذا أوردت من بعد ما كانت من باب التكرير كقولنا ما ان يكون كذا وكذا أي ما ما يكون كذا وكذا واذا وردت في الكلام فانما ترد في مثل ما أشرنا اليه من التكرير فان استعملت في غير ما يكون منها الفائدة يمجها تكريرها كان استعمالها لغوا لا فائدة فيه وقد زعم قوم من مدعي هذه الصناعة أن أبا الطيب المتنبي أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به اليه وهو قوله

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـ * ـن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وليس في هذا البيت من تكرير فانه كقولك الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا أي انه عريق النسب في هذا الوصف (وقد ورد) في الحديث النبوي مثل ذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف يوسف الصديق عليه السلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (ولقد فاوضني في هذا البيت المشار اليه) بعض علماء الادب وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره فوقفته على مواضع الصواب منه وعرّفته أنه كالخبر النبوي من جهة المعنى سواء بسواء لكن لفظه ليس مرضيا على هذا الوجه الذي قد استعمل فيه فان الالفاظ اذا كانت حسانا في حال انفرادها فان استعمالها في حال التركيب يزيدها حسنا على حسنها أو يذهب ذلك الحسن عنها وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة الاولى من الصناعة اللفظية ولو تهيأ لابي الطيب المتنبي أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب أو ما يجري مجراها لكان أحسن وكذلك لفظة الهتن فانها ليست مرضية في هذا الموضع على هذا الوجه ولفظة العارض وان كانت قد وردت في القرآن وهي لفظة حسنة فالفرق بين ورودها في القرآن الكريم وورودها في هذا البيت الشعري ظاهر وقد تقدم الكلام على مثلها من آية وبيت لابي الطيب أيضا وهو في المقالة اللفظية عند الكلام على الالفاظ المفردة فليؤخذ من هنالك وكثيرا ما يقع الجهال في مثل هذه المواضع وهم الذين قيل فيهم وكذا كل أخي حذلقة * ما مشى في يابس الا زلق

فترى أحدهم قد حج نفسه وظن على جهله أنه عالم فيسرع في وصف كلام بالاعوار

قوله واعلم الخ وفيه من الركاكة ما لا يخفى والمعنى واضح اه

وكلام بالتطويل أولى بالتكرير وإذا طولب بأن يبدي سبب المبادر تكره لا يوجد عنده من القول شيء إلا تحكما محضا صادرا عن جهل محض (الضرب الثاني من التكرير في اللفظ والمعنى) وهو غير المفيد فمن ذلك قول مروان الاصغر

سقى الله نجدا والسلام على نجد * ويا حبذا نجد على النأي والبعد

نظرت إلى نجد وبغداد دونها * لعلي أرى نجدا وهيهات من نجد

وهذا من العي الضعيف فإنه كرر نجدا في البيت الاول ثلاثا وفي البيت الثاني ثلاثا ومراده في الاول الثناء على نجد وفي الثاني أنه تلفت اليها ناظرا من بغداد وذلك مرمى بعيد وهذا المعنى لا يحتاج الى مثل هذا التكرير أما البيت الاول فيحمل على الجائر من التكرير لانه مقام تشوق وتحرق وموجدة بفراق نجد ولما كان كذلك أغتفر فيه التكرير على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معا من غير أن يأتي بهذا التكرير المتتابع ست مرات (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبي نواس

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا * ويوما له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ويا عجبا له يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الابيات العجيبة الحسن التي تقدم ذكرها في باب الايجاز وهي * ودار ندامى عطلوها وأدلجوا * (ومن هذا الباب أيضا) ما أوردناه في صدر هذا النوع وهو قول أبي الطيب المتنبي

ولم أر مثل جيراني ومثلي * لمثلي عند مثلهم مقام

فهذا هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصا ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيراني في سوء الجوار ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم إلا أنه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين وعلى نحو من ذلك جاء قوله أيضا

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشى * قلاقل عيس كلهن قلاقل

(وأما القسم الثاني من التكرير) وهو الذي يوجد في المعنى دون اللفظ (فذلك ضربان) مفيد وغير مفيد (الضرب الاول المفيد وهو فرعان الاول) اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين مختلفين وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد (فمما جاء منه) حديث حاطب بن أبي بلتعة في غزوة الفتح وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر علي بن أبي طالب

والزبير والمقداد رضي الله عنهم وقال اذهبوا الى روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فأتوني به قال علي رضي الله عنه فخرجنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة واذا فيها الظعينة فأخذنا الكتاب من عقاصها وأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا هو من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما هذا يا حاطب فقال يا رسول الله لا تعجل علي اني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهليهم بمكة فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد صدقكم وقوله ما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام من التكرير الحسن وبعض الجهال يظنه تكريرا لا فائدة فيه فان الكفر والارتداد عن الدين سواء وكذلك الرضا بالكفر بعد الاسلام وليس كذلك والذي يدل عليه اللفظ هو أني لم أفعل ذلك وأنا كافر أي باق على الكفر ولا مرتدا أي اني كفرت بعد اسلامي ولا رضا بالكفر بعد الاسلام أي ولا ايثارا لجانب الكفار على جانب المسلمين وهذا حسن في مكانه واقع في موقعه وقد يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذي نحن بصدد ذكره ههنا وهو الذي يكون التكرير فيه يدل على معنى واحد وسيأتي بيانه في الفرع الثاني الذي يلي هذا الفرع الاول والذي يحوره أن هذا المقام هو مقام اعتذار وتنصل عما رمي به من تلك القارعة العظيمة التي هي نفاق وكفر فكرر المعنى في اعتذاره قصد التأكيد والتقرير لما نفى عنه ما رمي به (ومما ينتظم بهذا السلك) أنه اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فان الامر بالمعروف داخل تحت الدعاء الى الخير لان الامر بالمعروف خاص والخير عام فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمرا بالمعروف وذلك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الامر بالمعروف وفائدة التكرير ههنا أنه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله كقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وكقوله تعالى فيهما فاكهة ونخل ورمان وكقوله تعالى انا

عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال وابين أن يحملنها فان الجبال داخلة فى جملة الارض لكن لفظ الارض عام والجبال خاص وفائدته ههنا تعظيم شأن الامانة المشار اليها وتفخيم أمرها (وقد ورد) هذا فى القرآن الكريم كثيرا ومما ورد منه شعرا قول من أبيات الحماسة

وان الذى بينى وبين بنى أبى * وبين بنى عمى لمختلف جـــدا

اذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم * وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم * وان هم هووا غيى هويت لهم رشدا

وهذا من الخاص والعام فان كل لحم يؤكل للانسان فهو تضييع لغيبه وليس كل تضييع لغيبه أكلا للحمه ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلى عن النصرة والاعانة ومنه اهمال السعى فى كل ما يعود بالنفع كائنا ما كان وعلى هذا فان هذين البيتين من الخاص والعام المشار اليه فى الآية المقدم ذكرها وهو موضع يرد فى الكلام البليغ ويظن أنه لا فائدة فيه (الفرع الثانى) اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لا غير وقد سبق مثال ذلك فى أول هذا الباب كقولك أطعنى ولا تعصنى فان الامر بالطاعة نهى عن المعصية والفائدة فى ذلك تثبيت الطاعة فى نفس المخاطب والكلام فى هذا الموضع كالكلام فى الموضع الذى قبله من تكرير اللفظ والمعنى اذا كان الغرض به شيأ واحدا ولا تجد شيأ من ذلك يأتى فى الكلام الا لتأكيد الغرض المقصود به كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم فانه انما كرر العفو والصفح والمغفرة والجميع بمعنى واحد للزيادة فى تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته وهذا وأمثاله ينظر فى الغرض المقصود به وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز لمحة الايجاز وأولى بالاستعمال (وقد ورد) فى القرآن الكريم كثيرا كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون فان البث والحزن بمعنى واحد وانما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به وتكاثر سهامه النافذة فى قلبه وهذا المعنى كالذى قبله وكذلك ورد قوله تعالى تلك عشرة كاملة بعد ثلاثة وسبعة فيكون مثال قوله ثلاثة وسبعة مرتين لان عشرة هى ثلاثة وسبعة ثم قال كاملة

وذلك

وذلك توكيد ثالث والمراد به ايجاب صوم الايام السبعة عند الرجوع فى الطريق على الفور لا عند الوصول الى البلد كما ذهب اليه بعض الفقهاء وبيانه أنى أقول اذا صدر الامر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجرّدا من قرينة تخرجه عن وضعه ولم يكن موقتا بوقت معين كان ذلك حثا له على المبادرة الى امتثال الامر على الفور فانك اذا قلت لمن تأمره بالقيام قم قم قم فانما تريد بهذا اللفظ المكرّر أن يبادر الى القيام فى تلك الحال الحاضرة (فان قلت) الغرض بتكرير الامر أن يتقرّر فى نفس المأمور أنه مراد منه وليس الغرض الحث على المبادرة الى امتثال الامر (قلت فى الجواب) ان المرّة الواحدة كافية فى معرفة المأمور أن الذى أمر به مراد منه والزيادة على المرّة الواحدة لا تخلو اما أن تكون دالة على مادلت عليه المرّة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم تكن فى المرّة الواحدة فان كانت دالة على مادلت عليه المرّة الواحدة كان ذلك تطويلا فى الكلام لا حاجة اليه وقد ورد مثله فى القرآن الكريم كهذه الآية المشار اليها وغيرها من الآيات والتطويل فى الكلام عيب فاحش عند البلغاء والفصحاء والقرآن معجز ببلاغته وفصاحته فكيف يكون فيه تطويل لا حاجة اليه فبقى أن تكون تلك الزيادة دالة على معنى زائد على مادلت عليه المرّة الواحدة واذا ثبت هذا فتلك الزيادة هى الحث على المبادرة الى امتثال الامر فان سلمت لى ذلك والا فبين معنى تلك الزيادة ببيان غير ماذكرته أنا ولا أراك أن تستطيع ذلك (فان قلت) ان الواو فى قوله تعالى وسبعة اذا رجعتم لولا أن تؤكد بقوله تلك عشرة لظنّ أنها وردت بمعنى أو أى فثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجعتم فلما قيل تلك عشرة زال هذا الظنّ وتحققت الواو أنها عاطفة وليست بمعنى أو (قلت فى الجواب) هذا باطل من أربعة أوجه الوجه الاول أن الواو العاطفة لا تجعل بمعنى أو أين وردت من الكلام وانما تجعل بمعنى أو حال ضرورة ترجح جانبها على جانب جعلها عاطفة لان الاصل فيها أن تكون عاطفة فاذا عدل بها عن أصلها احتاج الى ترجيح ولا ترجيح ههنا الوجه الثانى بلا عىّ وذاك أن القرآن الكريم منتهى البلاغة والفصاحة لمكان اعجازه ولو كان معنى الواو فى هذه الآية بمعنى أو لقيل فثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ولم يحتج الى هذا التطويل فى قوله فثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة الوجه الثالث أن هذا الصوم حكم من

أحكام العادات والعبادات يجب فيها الاحتياط أن تؤدى على أكمل صوره لئلا يدخلها النقص واذا كان الامر على ذلك فكيف يظن أن الواو فى هذه الآية بمعنى أو الوجه الرابع أن السبعة ليست مماثلة للثلاثة حتى تجعل فى قبالتها لان معنى الآية اذا كانت الواو فيها بمعنى أو اما أن تصوموا ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجعتم (فان قلت) هذا تعبد لا يعقل معناه كغيره من التعددات التى لا يعقل معناها (قلت فى الجواب) ان لنا من التعددات ما لا يعقل معناه كعدد ركعات الصلوات وعدد الطواف والسعى وأشباه ذلك ولنا ما يعقل معناه كهذه الآية فانا نعقل التفاوت بين الصوم فى الحضر والسفر ونعقل التفاوت بين العدد الكثير والعدد القليل وعلى هذا فلا يخلو اما أن يكون صوم الايام السبعة عند الرجوع فى الطريق أو عند الوصول الى البلد فان كان فى الطريق فانه أشق من الصوم بمكة لان الصوم فى السفر أشق من الصوم فى الحضر فكيف يجعل صوم سبعة أيام فى السفر فى مقابلة صوم ثلاثة أيام بمكة وان كان الصوم عند الوصول الى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول الى البلد لان كليهما صوم فى المقام ببلد من البلاد لا تفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة أيام فى مقابلة سبعة أيام على غير مثال ولا تساو فعلى كلا التقديرين لا يجوز أن تكون الواو فى سبعة اذا رجعتم بمعنى أو فتحقق اذا أنها للعطف خاصة واذا كانت للعطف خاصة فأكدها بعشرة كاملة دليل على أن المراد وجوب صوم الايام السبعة فى الطريق قبل الوصول الى البلد (فان قلت) ان الصوم بمكة أشق من الصوم فى الطريق لان الواجب عليه الصوم بمكة فى نصب وتعب بتصريف زمانه فى السعى والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك (قلت فى الجواب) هذا لا يلزم اذ الواجب عليه سعى واحد وطواف واحد لا غير وما عدا ذلك نافلة لا يلزم ونحن فى هذا المقام ناظرون الى ما يجب لا الى النافلة والذى يجب أداؤه بمكة يفرغ منه فى ساعة واحدة فكيف تجعل الزيادة على ذلك دليلا يورد فى هذا المقام هذا غير وارد وهكذا ورد قوله تعالى فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير فقوله غير يسير بعد قوله عسير من هذا النوع المشار اليه والا فقد علم أن العسير لا يكون يسيرا وانما ذكرهما على هذا الوجه لتعظيم شأن ذلك اليوم فى عسره وشدته على الكافرين وكذلك ورد قوله تعالى قد كانت لكم اسوة

حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده فان البغضاء والعداوة بمعنى واحد وانما حسن ايرادهما معا فى معرض واحد لتأكيد البراءة بين ابراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده وللمبالغة فى اظهار القطيعة والمصارمة وورد مثل ذلك فى مثل هذا الموضع كالايجاز فى موضعه وان ترى شيأ يرد فى القرآن الكريم من هذا القبيل الا وهو لامر اقتضاه وان خفى عنك موضع السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين به (ومما ورد منه شعرا) قول بعضهم فى أبيات الحماسة

نزلت على آل المهلب شاتيا * بعيدا عن الاوطان فى زمن المحل

فما زال بى اكرامهم وافتقادهم * واحسانهم حتى حسبتهم أهلى

فان الاكرام والافتقاد داخلان تحت الاحسان وانما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع والايجاب لحقه وعلى هذا ورد قول الاعشى فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم فقال منها

فآليت لا أرثى لها من كلالة * ولا من وجى حتى تلاقى محمدا

فان الوجى والكلالة معناهما سواء وانما حسن تكريره ههنا للاشعار ببعد المسافة (الضرب الثانى من القسم الثانى) فى تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد فمن ذلك قول أبى تمام

قسم الزمان ربوعها بين الصبا * وقبولها ودبورها أثلاثا

فان الصبا هى القبول وليس ذلك مثل التكرير فى قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فيما يرجع الى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير فى قوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف فيما يرجع الى تكرير المعنى دون اللفظ وقول ابى تمام الصبا والقبول لا يشتمل الا على معنى واحد لا غير وهذا الضرب من التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطا كثيرا والاكثر منهم أجازه وقالوا اذا كانت الالفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحدا فليس استعمال ذلك بمعيب وهذا القول فيه نظر والذى عندى فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقا اذا أتى لغير فائدة وأما الناظم فانه يعاب عليه فى موضع دون موضع أما الموضع الذى يعاب استعماله فيه فهو صدور الابيات الشعرية

وماوالاها وأمّا الموضع الذي لا يعاب استعماله فيه فهو الاعتبار من الابيات لمكان القافية وانما جاز ذلك ولم يكن عيبا لانه قافية والشاعر مضطر اليها والمضطر يحل له ما حرم عليه كقول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي مطلعها ألا انعم صباحا أيها الطلل البالي * فقال

وهل ينعمن الاسعيد مخلد * قليل الهموم لا يبيت بأوجال

واذا كان قليل الهموم فانه لا يبيت بأوجال وهذا تكرير للمعنى الا أنه ليس بعيب لانه قافية وكذلك ورد قول الحطيئة

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها * ان العزاء وان الصبر قد غلبا

هلا التمست لنا ان كنت صادقة * مالا نعيش به في الناس أو نشبا

فالبيت الاول معيب لانه كرر العزاء والصبر ومعناهما واحد ولم يرد القافية لان القافية هي الباء وأمّا البيت الثاني فليس بمعيب لان التكرير جاء في النشب وهو قافية (ومما يجري هذا المجرى) قول المنخل اليشكري

ولقد دخلت على الفتا * ة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء تر * فل في الدمقس وفي الحرير

فان الدمقس والحرير سواء وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك (فان قيل) ان الحرير هو الابريسم المنسوج بدليل قوله تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا فانه لم يرد خيوط ابريسم وانما أراد أثوابا من الابريسم وأمّا الدمقس فانه خيوط الابريسم محلولة بدليل قول امرئ القيس * وشحم كهداب الدمقس المفتل فانه لم يرد ابريسما منسوجا وانما أراد خيوط الابريسم (فالجواب عن ذلك) أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه لان المرأة لا ترفل في خيوط من الابريسم وانما ترفل في الاثواب منه وأمّا قول امرئ القيس كهداب الدمقس فانه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الابريسم لما احتاج أن يقول كهداب فان الهداب جمع هدب ثم قال المفتل فدل ذلك على أن الدمقس يطلق على الابريسم سواء كان منسوجا أو غير منسوج وكذلك الحرير أيضا وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة ألا ترى أنه لما قال المنخل ترفل في الدمقس وفي الحرير فهم من ذلك أنه أراد أثوابا من الدمقس ومن الحرير لان الرفول لا يكون في خيوط من الابريسم وانما يكون في أثوابه (ومما يجري على هذا النهج) قول الآخر

من شعراء الحماسة

انى وان كان ابن عمى غائبا * لمقاذف من خلفه وورائه

فان خلفا ووراء بمعنى واحد وانما جاز تكرارهما لانهما قافية (وعلى هذا) ورد قول أبى تمام

دمن كان البين أصبح طالبا * دمنا لدى آثارها وحقودا

فان الدمنة هى الحقد (وكذلك) قول أبى الطيب المتنبى

نحن تعوّد أريدتم لأهله * من دهره وطوارق الحدثان

فتركته واذا أدم من الورى * راعاك واستثنى بنى حمدان

فان الدهر وطوارق الحدثان سواء وانما جاز استعمال ذلك لانه قافية (وأمّا ماورد فى أثناء الابيات الشعرية) فكقول عنترة

حييت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

فقوله أقوى وأقفر من العيب لانهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة اذ الضرورة لا تكون الا فى القافية كما أريتك (وأمّا ماورد من صدور الابيات) فكقول البحترى فى قصيدته العينية

ألمت وهل المامها لك نافع * وزارت خيالا والعيون هواجع

فان قوله ألمت وقوله زارت خيالا سواء ولا فرق اذا بين صدر البيت وعجزه (فان قيل) انه أراد بالالمام زيارة اليقظة ثم قال وزارت خيالا (فالجواب عن ذلك) أنه لم يرد الا زيارة المنام فى الحالتين لانه قال ألمت وهل المامها لك نافع ولو كان الالمام فى اليقظة لما قال وهل المامها لك نافع فانه لا شئ أنفع من زيارة المحبوب فى اليقظة وهذا غير خاف لا يحتاج الى السؤال عنه (فان قيل) لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر (قلت فى الجواب) أمّا الناثر فانه اذا سجع كلامه فالغالب أن يأتى به مزدوجا أى فقرتين من الفقر ويمكنه ابدال تلك الفقرتين بغيرهما فيسلم منه وأمّا الشاعر فانه يصوغ قصيدة ذات أبيات متعددة على قافية من القوافى فاذا تكرر لديه شئ من الكلام فى آخر بيت من الابيات عسر ابداله من أجل القافية وهذا غير خاف والسؤال عنه غير وارد وهذا الذى ذكرته اذا ورد فى غير القافية سمى اخلالا ويقال ان البحترى كان يخلّ كثيرا فى شعره وهو لعمرى كذلك الا أن حسن سبكه ورونق ديباجه يغفر له ذلك (ويروى عنه) أنه

كان اذا امتثل بين يدي الفتح بن خاقان وزير المتوكل داخله اختيال بين يديه معجبا بنفسه فتقدم خطوات ثم تأخر وقال أى شئ تسمعون فنقم عليه ذلك بعض حسدته وحمل الفتح بن خاقان عليه فقال له الفتح لو رماها بالحجارة لكان ذلك مغفورا له فيما يقوله (النوع الثامن عشر فى الاعتراض) وبعضهم يسميه الحشو وحده كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الاول على حاله مثال ذلك أن تقول زيد قائم فهذا كلام مفيد وهو مبتدأ وخبر فاذا أدخلنا فيه لفظا مفردا قلنا زيد والله قائم ولو أزلنا القسم منه لبقى الاول على حاله واذا أدخلنا فى هذا الكلام لفظا مركبا كقولنا زيد على ما به من المرض قائم فأدخلنا بين المبتدا والخبر لفظا مركبا وهو قولنا على ما به من المرض فهذا هو الاعتراض وهذا حده (واعلم) أن الجائز منه وغير الجائز قلما يوجد من كتب العربية فانه يكون مستقصى فيها كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين الصفة والموصوف وبين المعطوف والمعطوف عليه وأشباه ذلك مما يحسن استعماله وكالاعتراض بين المضاف والمضاف اليه وبين ان واسمها وبين حرف الجر ومجروره وأمثال ذلك مما يقبح استعماله وليس هذا مكانه لان كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيره مما أشرنا اليه فى صدر الكتاب وليس المراد ههنا من الاعتراض الا ما يفرق به بين الجيد والردىء لا ما يعلم به الجائز وغير الجائز لان كتابى هذا موضوع لذكر ما يتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصفى الفصاحة والبلاغة فالذى أذكره فى باب الاعتراض انما هو ما اشتمل على شئ من هذين الوصفين المشار اليهما (واعلم أن الاعتراض ينقسم قسمين أحدهما) لا يأتى فى الكلام الا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد (والآخر) أن يأتى فى الكلام لغير فائدة فاما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه واما أن يؤثر فى تأليفه نقصا وفى معناه فسادا (فالقسم الاول) وهو الذى يأتى فى الكلام لفائدة كقوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ففى هذا الكلام اعتراضان أحدهما قوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك اعتراض بين القسم الذى هو فلا أقسم بمواقع النجوم وبين جوابه الذى هو انه لقرآن كريم وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو قسم وبين صفته التى هى عظيم وهو قوله لو تعلمون فذانك اعتراضان كما ترى وفائدة هذا الاعتراض

الاعتراض

بين

من القسم وجوابه انما هي تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع ألا ترى الى قوله لو تعلمون اعتراضا بين الموصوف والصفة وذلك الامر بحيث لو علم وفى حقه من التعظيم وهذا مثل قولنا ان هذا الامر لعظيم بحيث لو تعلم يا فلان عظمه اقدرته حق قدره فان ذلك يكبر في نفس المخاطب ويظل متطلعا الى معرفة عظمه (وكذلك) ورد قوله تعالى ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وتقديره ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون فاعترض بين المفعولين بسبحانه وهو مصدر يدل على التنزيه فكأنه قال ويجعلون لله البنات وهو منزه عن ذلك ولهم ما يشتهون وفائدة هذا الاعتراض ههنا ظاهرة (وكذلك) ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين فقوله لقد علمتم اعتراض بين القسم وجوابه وفائدته تقرير اثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة أي انكم قد علمتم هذا منا وبحن مع علمكم به نقسم بالله على صدقه وقد ورد الاعتراض في القرآن كثيرا وذلك في كل موضع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة في المعنى المقصود (ومن هذا القسم) قوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون فهذا الاعتراض بين اذا وجوابها لان تقدير الكلام واذا بدلنا آية مكان آية قالوا انما أنت مفتر فاعترض بينهما بقوله تعالى والله أعلم بما ينزل وهو مبتدأ وخبر وفائدته اعلام القائلين انه مفتر أن ذلك من الله وليس منه وأنه أعلم بذلك منهم (ومن هذا الباب) قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك ألا ترى الى هذا الاعتراض الذي قد طبق مفصل البلاغة وفائدته أنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الام من المشاق في حمل الولد وفصاله ايجابا للتوصية بها وتذكيرا بحقها واعا فرحها بالذكر دون الاب لانها تتكلف من أمر الولد ما لا يتكلفه ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر فقال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك (ومما جاء على هذا الاسلوب) قوله عز وجل واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون فقوله والله مخرج ما كنتم تكتمون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وفائدته أن يقرر في نفوس المخاطبين وقلوب السامعين

أن تدارأ بنى اسرائيل فى قتل تلك النفس لم يكن بنافعهم فى اخفائه وكتمانه لان الله تعالى مظهر لذلك ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ولا يخفى على الفطن الفرق بين ذلك وبين كونه معترضا فيه (ومما ورد من ذلك شعرا) قول امرئ القيس

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة * كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

تقديره كفانى قليل من المال فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله ولم أطلب وفائدته تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء وان الذى يحتاج الى الطلب هو المجد المؤثل (وكذلك) قول جرير

ولقد أرانى والجديد الى بلى * فى موكب طرف الحديث كرام

تقديره ولقد أرانى فى موكب طرف الحديث فاعترض بين المفعولين وافادنا هذا الاعتراض تعزيا عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذى فاز به من عشرة أولئك الاصحاب ولقد أعهدنى فى كذا وكذا من اللذة وذلك قد مضى وسلف وبلى جديده وكذلك كل جديد فانه الى بلى والاعتراض اذا كان هكذا كسا الكلام لطفا ان كان غزلا وكساه أبهة وجلالا ان كان مديحا أو ما يجرى مجراه من أساليب الكلام وان كان هجاء كساه تأكيدا واثباتا كقول كثير

لو أن الباخلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

فقوله وأنت منهم من محمود الاعتراض ونادره وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض لو أن الباخلين رأوك فاعترض بين اسم ان وهو الباخلين وبين خبرها وهو رأوك بالمبتدا والخبر الذى هو وأنت منهم (ومن محاسن ما جاء فى هذا الباب) قول المضرب السعدى

فلو سألت سراة الحى سلمى * على أن قد تلون بى زمانى

لخبرها ذوو أحساب قومى * وأعدائى فكل قد بلانى

وهذا اعتراض بين لو وجوابها وهو من فائق الاعتراض ونادره وتقديره فلو سألت سراة الحى سلمى لخبرها ذوو أحساب قومى وأعدائى وفائدة قوله على أن قد تلون بى زمانى أى أنهم يخبرون عنى على تلون الزمان بى بتنقل حالاته من خير وشر وليس من غيره الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يحنه ولا بان عيبه (ومن ذلك)

دول

قول أبي تمام

وان الغنى لي ان لحظت مطالبي * من الشعر الا في مديحك أطوع

وهذا البيت فيه اعتراضان الاول بين اسم ان وخبرها تقديره وان الغنى أطوع لي من الشعر فاعترض بين الاسم والخبر بقوله ان لحظت مطالبي وأما الاعتراض الثاني فقوله الا في مديحك فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة وموضعها التأخير فاعترض بها بين الجملة التي هي خبر ان وتقدير البيت بجملته وان الغنى أطوع لي من الشعر ان لحظت مطالبي الا في مديحك وفائدة قوله الا في مديحك من الاعتراض الذي اكتسب به الكلام رقة فائدة حسنة والمراد به وصف جود الممدوح بالاسراع ووصف خاطر شعره بالاسراع اذا كان في مدحه خاصة دون غيره فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معا وهو من محاسن ما يجيء في هذا الموضع وكذلك ورد قوله

رددت رونق وجهي في صحيفته * ردّ الصقال بهاء الصارم الخذم

وما أبالي وخير القول أصدقه * حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

فقوله وخير القول أصدقه اعتراض بين المفعول والفعل لان موضع حقنت نصب اذ هو مفعول أبالي وفائدته اثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم أي ان هذا القول صدق ليس بكذب (وأما القسم الثاني) وهو الذي يأتي في الكلام لغير فائدة (فهو ضربان الضرب الاول) يكون دخوله في الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسنا ولا قبحا فمن ذلك قول النابغة

يقول رجال يجهلون خليقتي * لعل زيادا لا أبالك غافل

فقوله لا أبالك من الاعتراض الذي لا فائدة فيه وليس مؤثرا في هذا البيت حسنا ولا قبحا ومثله جاء قول زهير

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وقد وردت هذه اللفظة وهي لا أبالك في موضع آخر فكان للاعتراض بها فائدة حسنة كقول أبي تمام * عتابك عني لا أبالك واقصدي * فانه لما كره عتابها اعترض بين الامر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم (الضرب الثاني) وهو الذي يؤثر في الكلام نقصا وفي المعنى فسادا وقد تقدم ذكر أمثاله وأنظاره في باب التقديم والتأخير واعاجي بذكره ههنا مكثرا لاتمام التقسيم الاعتراضي فيما

افاد ومعناه الا بعيد وقد ذكرت من ذلك مثالا واحدا أو مثالين فما ورد منه قول بعضهم

فقد والشك بين لي عناء * بوشك فراقهم صرد يصيح

فان في هذا البيت من ردىء الاعتراض ما أذكره لك وهو الفصل بين قد والفعل الذي هو بين وذلك قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الافعال ألا تراها تعد مع الفعل كالجزء منه ولذلك أدخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك وقوله تعالى ولقد علموا لمن اشتراه وقول الشاعر

ولقد أجمع رجلي بها * حذر الموت واني لفرور

الا ان فصل بين قد والفعل بالقسم فان ذلك لا بأس به نحو قولك قد والله كان ذلك وقد فصل في هذا البيت أيضا بين المبتدا الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله بين لي وفصل بين الفعل الذي هو بين وبين فاعله الذي هو صرد بخبر المبتدا الذي هو عناء فجاء معنى البيت كما تراه كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها الى مكان بعض (ومن هذا الضرب) قول الآخر

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظله * الى الغرب حتى ظله الشمس قد عقل

أراد نظرت مطلع الشمس وشخصي ظله الى الغرب حتى عقل الشمس أي حاذاها وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدا الذي هو شخصي وبين خبره الجملة وهو قوله ظله الى الغرب وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعل وفاعله بالاجنبي وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويورثها اختلالا (واعلم) أن الناثر في استعمال ذلك أكثر ملامة من الناظم وذاك أن الناظم مضطر الى اقامة ميزان الشعر وربما كان مجال الكلام عليه ضيقا فيلجئه طلب الوزن في مثل هذه الورطات وأما الناثر فلا يضطر الى اقامة الميزان الشعري بل يكون مجال الكلام عليه واسعا ولهذا اذا اعترض في كلامه اعتراضا يفسده توجه عليه الانكار وحق عليه الذم (النوع التاسع عشر في الكناية والتعريض) وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا وقد تكلم علماء البيان فيه فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ولا حدوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر وأدخلوا أحدهما في الآخر فذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية فممن فعل ذلك الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري فأما ابن سنان فانه ذكر في كتابه قول

الكناية والتعريض

امرئ

امرئ القيس

فصرنا الى الحسنى ورق كلامها * ورضت فذلت صعبة أى اذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو مثل للتعريض ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادى وكان مشارا اليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما فى الكتابة فوجدت فى كتابه ذلك بابا مقصورا على ذكر الكناية والتعريض وما قيل فيهما نظما ونثرا وهو محشو بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما وقد أورد أيضا فى بعضه أمثلة غثة باردة وسأذكر ما عندى فى الفرق بينهما وأميز أحدهما عن الآخر ليعرف كل منهما على انفراده فأقول أمّا الكناية فقد حدّت بحد فقيل هى اللفظ الدال على الشئ على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه كاللمس والجماع فان الجماع اسم موضوع حقيقى واللمس كناية عنه وبينهما الوصف الجامع اذ الجماع لمس وزيادة فكان دالا عليه بالوضع المجازى وهذا الحد فاسد لانه يجوز أن يكون حدّا للتشبيه فان التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى بجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الاوصاف ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد كان ذلك لفظا دالا على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين زيد والاسد وذلك الوصف هو الشجاعة ومن ههنا وقع الغلط لمن أشرت اليه فى الذى ذكره فى حد الكناية وأمّا علماء أصول الفقه فانهم قالوا فى حد الكناية انها اللفظ المحتمل يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه وهذا فاسد أيضا فانه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية دليل ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم اذا لم تستح فافعل ما شئت فانّ هذا اللفظ يدل على المعنى وعلى خلافه وبيان ذلك أنه يقول فى أحد معنييه انك اذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ما شئت وأمّا معناه الآخر فانه يقول اذا لم تفعل فعلا يستحى منه فافعل ما شئت وهذا ليس من الكناية فى شئ فبطل اذا هذا الحد ومثال الفقيه فى قوله انّ الكناية هى اللفظ المحتمل مثال من أراد أن يحدّ الانسان فأتى بحدّ الحيوان فعبر بالاعمّ عن الأخص فانه يقال كل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال ههنا فانّ كل كناية لفظ محتمل وليس كل لفظ محتمل كناية (والذى عندى فى ذلك) أنّ الكناية اذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز وجاز حملها على الجانبين معا ألا ترى أنّ اللمس فى قوله تعالى أو لامستم النساء

يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل ولهذا ذهب الشافعي رحمه الله الى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد فاوجب الوضوء على الرجل اذا لمس المرأة وذلك من الحقيقة في اللمس وذهب غيره الى أن المراد باللمس هو الجماع وذلك مجاز فيه وهو الكناية وكل موضع ترد فيه الكناية فانه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ويجوز حمله على كليهما معا وأما التشبيه فليس كذلك ولا غيره من أقسام المجاز لانه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد لا يصح الا على جانب المجاز خاصة وذلك أنا شبهنا زيدا بالاسد في شجاعته ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى لان زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الاربع والذنب والوبر والانياب والمخالب واذا كان الامر كذلك فحد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره يقال كنيت بكذا عن كذا فهي تدل على ما تكلمت به وعلى ما أردته من غيره وعلى هذا فلا تخلو اما أن تكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز أو في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز أو في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة وليس لها قسم رابع ولا يصح أن تكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة لان ذلك هو اللفظ المشترك واذا أطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهما غير مفهوم واذا أضيف اليه القرينة صار مختصا بشيء بعينه والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره وذلك مخالف للفظ المشترك اذا أضيف اليه القرينة لانه يختص بشيء واحد فيه لا يتعداه الى غيره وكذلك لا يصح أن تكون الكناية في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز لان المجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها لانه فرع عليها وذلك اللفظ الدال على المجازين اما أن يكون للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة فان كان لها شركة في الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دل على ثلاثة أشياء أحدها الحقيقة وهذا مخالف لأصل الوضع لان أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره وههنا تكون قد تكلمت بشيء وأنت تريد شيئين غيره وان لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة كان ذلك مخالفا للوضع أيضا لان أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره فيكون الذي تكلمت به دالا على ما تكلمت به وعلى غيره واذا أخرجت الحقيقة

عن أن يكون لها شركة في الدلالة لم يكن الذي تكلمت به دالا على ما تكلمت به وهذا محال فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز وهذا الكلام في حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحد فيه قول سابق (واعلم) أن الكناية مشتقة من الستر يقال كنيت الشيء اذا سترته وأجرى هذا الحكم في الالفاظ التي يسترها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ألا ترى الى قوله تعالى أو لامستم النساء فانه ان حمل على الجماع كان كناية لانه ستر الجماع بلفظ اللمس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد وان حمل على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ولم يكن كناية وكلاهما يتم به المعنى وقد تأولت الكناية بغير هذا وهي أنها مأخوذة من الكنية التي يقال فيها أبو فلان فانا اذا ناديت رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد كان ذلك مثل قولنا يا عبد الله فان شئت ناديته بهذا وان شئت ناديته بهذا وكلاهما واقع عليه وكذلك يجري الحكم في الكناية فانا اذا شئنا حملناها على جانب المجاز واذا شئنا حملناها على الحقيقة الا أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها ألا ترى الى قوله تعالى ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فكنى بذلك عن النساء والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ولولا ذلك لما حسن في مثل هذا الموضع ان أخي له تسع وتسعون كبشا ولي كبش واحد وقيل هذه كناية عن النساء ومن أجل ذلك لم يلتفت الى تأويل من تأول قوله تعالى وثيابك فطهر أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية لانه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحا (فان قيل) فما الدليل على اشتقاق الكناية من كنيت الشيء اذا سترته ومن الكنية (قلت) في الجواب أما اشتقاقها من كنيت الشيء اذا سترته فان المستور فيها هو المجاز لان الحقيقة تفهم أولا ويتسارع الفهم اليها قبل المجاز لان دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية وأما المجاز فانه يفهم منه بعد فهم الحقيقة وانما يفهم بالفطر والفكرة ولهذا يحتاج الى دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى وهو مستور بالحقيقة ألا ترى الى قوله تعالى أو لامستم النساء فان الفهم يتسارع فيه الى الحقيقة التي هي مصافحة الجسد الجسد وأما المجاز الذي هو الجماع فانه يفهم بالفطر والفكر ويحتاج الذاهب اليه الى دليل لانه عدول عن

ظاهر اللفظ وأمّا اشتقاقهما من الكناية فلان محمدا في هذه الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل أي الاسم الموضوع بازائه أولا وأمّا أبو عبد الله فانه طار عليه بعد محمد لانه لم يكن له الا بعد أن صار له ولد اسمه عبد الله وكذلك الكناية فان الحقيقة انما هو الاسم الموضوع بازائها أولا في أصل الوضع وأمّا المجاز فانه طار عليها بعد ذلك لانه فرع والفرع انما يكون بعد الاصل وانما يعمد الى ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الاصل على ما تقدّم الكلام فيه وهذا القدر كاف في الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار اليهما (فان قيل) انك قد ذكرت أقسام المجاز في باب الاستعارة التي قدمت ذكرها في كتابك هذا وحصرتها في أقسام ثلاثة وهي التوسع في الكلام والاستعارة والتشبيه وترانك قد ذكرت الكناية في المجاز أيضا فهل هي قسم رابع لتلك الاقسام الثلاثة أم هي من جملتها فان كانت قسما رابعا فذلك نقض للحصر الذي حصرته وان كانت من جملتها فقد أعدت ذكرها ههنا مرّة ثانية وهذا التكرار لا حاجة اليه (فالجواب عن ذلك) انى أقول أمّا الحصر الذي حصرته في باب الاستعارة فهو ذاك ولا زيادة عليه وأمّا الكناية فانها جزء من الاستعارة ولا تأتي الا على حكم الاستعارة خاصة لان الاستعارة لا تكون الا حيث يطوى ذكر المستعار له وكذلك الكناية فانها لا تكون الا حيث يطوى ذكر المكنى عنه ونسبتها الى الاستعارة نسبة خاص الى عام فيقال كل كناية استعارة وليس كل استعارة كناية ويفرق بينهما من وجه آخر وهو أن الاستعارة لفظها صريح والصريح هو ما دلّ عليه ظاهر لفظه والكناية ضدّ الصريح لانها عدول عن ظاهر اللفظ وهذه ثلاثة فروق أحدها الخصوص والعموم والآخر الصريح والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز وقد تقدّم القول في باب الاستعارة أنها جزء من المجاز وعلى ذلك فتكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص وكان ينبغي أن نذكر الكناية عند ذكر الاستعارة في النوع الاول من هذه الانواع المذكورة في المقالة الثانية وانما أوردتها ههنا لذكرهما من أجل التعريض لان من العادة أن يذكرا جميعا في مكان واحد وقد يأتي في الكلام ما يجوز أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة وذلك يختلف باختلاف النظر اليه بمفرده والنظر الى ما بعده كقول نصر بن سيار في أبياته المشهورة التي يحرّض

من ابن أشبه عند خروج أبي مسلم

أرى خلل الرماد وميض جمر * ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالزندين تورى * وان الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام
فان هبوا فذاك بقاء ملك * وان رقدوا فانى لا ألام

فالبيت الاول لو ورد بمفرده كان كناية لانه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز أما الحقيقة فانه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد وأنه سيضطرم وأما المجاز فانه أراد أن هناك ابتداء شر كامن ومثله بوميض جمر من خلل الرماد واذا نظرنا الى الابيات جملتها اختص البيت الاول منها بالاستعارة دون الكناية وكثيرا ما يرد مثل ذلك ويشكل لتجاذبه بين الكناية والاستعارة على أنه لا يشكل الا على غير العارف (وأما التعريض) فهو اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى فانك اذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب والله انى لمحتاج وليس فى يدى شئ وأنا عريان والبرد قد آذانى فان هذا وأشباهه تعريض بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا انما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة اللمس على الجماع وعليه ورد التعريض فى خطبة النكاح كقولك للمرأة انك لجميلة وانى لعزب فان هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازا والتعريض أخفى من الكناية لان دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى وانما سمى التعريض تعريضا لان المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه وعرض كل شئ جانبه (واعلم) أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا فتأتى على هذا تارة وعلى هذا أخرى وأما التعريض فانه يختص باللفظ المركب ولا يأتى فى اللفظ المفرد البتة والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز وانما يفهم من جهة التلويح والاشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه الى اللفظ المركب وعلى هذا فان بيت امرئ القيس الذى ذكره ابن سنان مثالا للكناية هو مثال للتعريض فان غرض امرئ القيس من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لم يذكره بل ذكر كلاما آخر يفهم

الجماع من عرضه لان المصير الى الحسناء ورقة الكلام لا يفهم منهما ما أراده امرؤ القيس من المعنى لا حقيقة ولا مجازا وهذا الاحتجاج به فاعرفه ومن حيث فرقنا بين الكناية والتعريض وميزنا أحدهما عن الآخر فلنفصلهما ونذكر أقسامهما ونبدأ أولا بالكناية (فنقول اعلم أن الكناية تنقسم قسمين أحدهما) ما يحسن استعماله (والآخر) ما لا يحسن استعماله وهو عيب في الكلام فاحش وقد ذهب قوم الى أن الكناية تنقسم أقساما ثلاثة تمثيلا وإردافا ومجاورة (فأما التمثيل) فهو أن تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك مثالا للمعنى الذي أريدت الاشارة اليه كقولهم فلان نقي الثوب أي منزه من العيوب (وأما الارداف) فهو أن تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك اردافا للمعنى الذي أريدت الاشارة اليه ولازما له كقولهم فلان طويل النجاد أي طويل القامة فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له بخلاف نقاء الثوب في الكناية عن النزاهة من العيوب لان نقاء الثوب لا يلزم منه النزاهة من العيوب كما لزم من طول النجاد طول القامة (وأما المجاورة) فهي أن تريد ذكر الشيء فتتركه الى ما جاوره كقول عنترة

بزجاجة صفراء ذات أسرة * قرنت بأزهر في الشمال مفدم

يريد بالزجاجة الخمر فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر لانها مجاورة لها وهذا التقسيم غير صحيح لان من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الاصل كقولنا الحيوان ينقسم أقساما منها الانسان وحقيقته كذا وكذا ومنها الاسد وحقيقته كذا وكذا ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا ومنها غير ذلك وههنا لم يكن التقسيم كذلك فان التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية لان الكناية انما هي أن تراد الاشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذي أريدت الاشارة اليه ألا ترى الى قوله تعالى ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فانه أراد الاشارة الى النساء فوضع لفظا لمعنى آخر وهو النعاج ثم مثل به النساء وهكذا يجري الحكم في جميع ما يأتي من الكنايات لكن منها ما يتضح التمثيل فيه وتكون الشبهة بين الكناية والمكنى عنه شديدة المناسبة ومنه ما يكون دون ذلك في الشبهة وقد تأملت ذلك وحققت النظر فيه فوجدت الكناية اذا وردت على طريق اللفظ

المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهة واذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة ألا ترى الى قولهم فلان نقي الثوب وقولهم اللمس كناية عن الجماع فان نقاء الثوب أشد مناسبة وأوضح شبها لانا اذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة واذا قلنا اللمس كالجماع لم يكن بتلك الدرجة في قوة المشابهة وهذا الذي ذكرته من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائغ ولا وارد في الكناية كما هي ذاك والذي قدمته من القول فيها هو الحاصر لها ولم يأت به أحد غيري كذلك (وأما الارداف) فانه ضرب من اللفظ المركب الا أنه اختص بصفة تخصه وهي أن يكون الكناية دليلا على المكنى عنه ولازمة له بخلاف غيرها من الكنايات ألا ترى أن طول النجاد دليل على طول القامة ولازم له وكذلك يقال فلان عظيم الرماد أي كثير اطعام الطعام وعليه ورد قول الاعرابية في حديث أم زرع في وصف زوجها له ابل قليلات المسارح كثيرات المبارك اذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك وغرض الاعرابية من هذا القول أن تصف زوجها بالجود والكرم الا أنها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح وانما ذكرته من طريق الكناية على وجه الارداف الذي هو لازم له (وكذلك) ورد في الاخبار النبوية أيضا ودذاك أن امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن غسلها من الحيض فأمرها أن تغتسل ثم قال خذي فرصة من مسك فتطهري بها قالت كيف أتطهر بها فقال تطهري بها قالت كيف أتطهر بها قال سبحان الله تطهري بها فاجتذبتها عائشة رضي الله عنها اليها وقالت تتبعي بها أثر الدم فقولها أثر الدم كناية عن الفرج على طريق الارداف لان أثر الدم في الحيض لا يكون الا في الفرج فهو رادف له (ومما ورد) من ذلك شعرا قول عمر بن أبي ربيعة

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل * أبوها واما عبد شمس وهاشم

فان بعد مهوى القرط دليل على طول العنق ومن لطف هذا الموضع وحسنه ما يأتي بلفظة مثل كقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح مثلي لا يفعل هذا أي أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله ويريد نفيه عن نفسه لانه اذا نفاه عمن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لا محالة اذ هو بنفي ذلك عنه أجدر وكذلك يقال

مثلك اذا سئل أعطى أى أنت اذا سئلت أعطيت وسبب ورود هذه اللفظة في هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هذه أوصافهم تثبيتا للامر وتوكيدا ولو كان فيه وحده لدلق منه موضعه ولم يرس فيه قدمه وهذا مثل قول القائل اذا كان في مدح انسان أنت من القوم الكرام أى لك في هذا الفعل سابقة وأنت حقيق به ولست دخيلا فيه وقد ورد هذا في القرآن الكريم كقوله تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والفرق بين قوله ليس كمثله شئ وبين قوله ليس كالله شئ هو ما أشرت اليه وان كان الله سبحانه وتعالى لا مثل له حتى يكون لمثله مثل وانما ذكر ذلك على طريق المجاز قصدا للمبالغة وقد يأتى هذا الموضع بغير لفظة مثل وهى مقصودة كقولك للعربى العرب لا تخفر الذمم أى أنت لا تخفر الذمم وهذا أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم لما أشرت اليه وعلى نحو من هذا جاء قول أبى الطيب المتنبى

ألست من القوم الذى من رماحهم * نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

(واذا فرغت) من ذكر الاصول التى قدمت ذكرها فانى أتبعها بضرب الامثلة نثرا ونظما حتى يزداد ما ذكرته وضوحا (فمن ذلك) ما ورد في القرآن الكريم نحو قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فانه كنى عن الغيبة بأكل الانسان لحم انسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ثم جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله فأما جعل الغيبة كأكل الانسان لحم انسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا لان الغيبة انما هى ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه لان أكل اللحم تمزيق على الحقيقة وأما جعله كلحم الاخ فلما فى الغيبة من الكراهة لان العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الاخ فى كراهته ومن المعلوم أن لحم الانسان مستكره عند انسان آخر الا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة وأما جعل اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها وأما جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها مع

العلم بفقدها فانظر أيها المتأمل الى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها لانك اذا نظرت الى كل واحدة من تلك الدلالات الاربع التي أشرنا اليها وجدتها مناسبة لما قصدت له (وكذلك) ورد قوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها والارض التي لم تطؤها كناية عن مناكح النساء وذلك من حسن الكناية ونادره (وكذلك) ورد قوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا فكنى بالماء عن العلم وبالاودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال (وهذه الآية) قد ذكرها أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الموسوم باحياء علوم الدين وفي كتابه الموسوم بالجواهر والاربعين وأشار بها الى أن في القرآن الكريم اشارات وايماآت لا تنكشف الا بعد الموت وهذا يدل على أن الغزالي رحمه الله لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز (وقد رأيت جماعة) من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية واذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز وليس الامر كذلك وبينهما وصف جامع كهذه الآية وما جرى مجراها فانه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم وكذلك يجوز حمل الاودية على مهابط الارض وعلى القلوب وهكذا يجوز حمل الزبد على الغثاء الرابي الذي تقذفه السيول وعلى الضلال وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حمله على الطرفين معا سوى الكناية (ولقد عن لي المراء النحوي) أنه ذكر في تفسيره آية وزعم أنها كناية وهي قوله تعالى وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال فقال ان الجبال كناية عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات وهذه الآية من باب الاستعارة لا من باب الكناية لان الكناية لا تكون الا فيما جاز حمله على جانبي المجاز والحقيقة والجبال ههنا لا يصح بها المعنى الا اذا حملت على جانب المجاز خاصة لان مكرا ولئك لم يكن لتزول منه جبال الارض فان ذلك محال (واما ما ورد منها في الاخبار النبوية) فقول النبي صلى الله عليه وسلم انه كانت امرأة فيمن كان من قبلنا وكان لها ابن عم يحبها فراودها على نفسها فامتنعت عليه حتى اذا أصابتها شدة فجاءت اليه تسأله فراودها فمكنته من نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له لا يحل لك أن تفض الخاتم الا بحقه فقام عنها وتركها وهذه كناية واقعة في موقعها

(ومن ذلك) أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم رويدك سوقك بالقوارير يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير وذلك أنه كان في بعض أسفاره وغلام أسود اسمه أنجشة يحدو فقال له يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير وهذه كناية لطيفة (وكذلك) ورد حديث الحديبية وذلك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الركية جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من أهل تهامة فقال تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا اعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وهذه كناية عن النساء والصبيان والعوذ جمع عائذ وهي الناقة التي وضعت وقوى ولدها وهذا يجوز حمله على طريق الحقيقة كما جاز حمله على طريق المجاز أي معهم الاموال من الابل وهي كانت جل أموال العرب أي أنهم قد أحضروا أموالهم ليما تلوا دونها ولما جاز حمل العوذ المطافيل على النساء والصبيان وعلى الاموال كان من باب الكناية (ومن ذلك) ما ورد في اقامة الحد على الزاني وهو أن يشهد عليه برؤية الميل في المكحلة وذلك كناية عن رؤية الفرج في الفرج (ومن لطيف الكناية) أن امرأة جاءت الى عائشة رضي الله عنها فقالت لها أقيد جملي فقالت عائشة رضي الله عنها لا أرادت المرأة أنها تصنع لزوجها شيأ يمنعه عن غيرها أي تربطه أن يأتي غيرها فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها (وكذلك) يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلي البارحة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة (ويروى) أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضي الله عنه فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها وانما كان ملتفتا الى صلاته فدخل عليها عمرو بعد ثلاث فقال كيف ترين بعلك فقالت نعم البعل الا أنه لم يفتش لنا كنفا ولا قرب لنا مضجعا فقولها لم يفتش لنا كنفا ولا قرب لنا مضجعا من الكناية العزاء الطاهرة (ومن ألطف ما بلغني في هذا) قول عبد الله بن سلام فانه رأى على رجل ثوبا معصفرا فقال لو أن ثوبك في تنور أهلك أو تحت قدرهم كان خيرا فذهب الرجل فأحرقه نظرا الى حقيقة قول عبد الله وظاهره فهو وهمه وانما أراد المجاز منه وهو انك لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيرا

والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين فالرجل يفهم منه الظاهر الحقيقى فهى وأحرق ثوبه ومراد عبد الله غيره (ومن هذا القسم ما ورد فى أمثال العرب) كقولهم ابالذوعقيله الملح وذلك كناية عن المرأة الحسناء فى منبت السوء فان عقيله الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر فهى حسنة وموضعها ملح وكذلك قولهم لبس له جلد النمر كناية عن العداوة وقد يقاس على هذا أن يقال لبس له جلد الاسد ولبس له جلد الذئب ولبس له جلد الارقم لان هذا كله مثل قولهم لبس له جلد النمر اذ العداوة محتملة فى الجميع وكذلك قولهم قلب له ظهر المجن كناية عن تغيير المودة (ومما ورد فى ذلك شعرا) قول أبى نواس

لا أذود الطير عن شجر * قد بلوت المر من ثمره

وهذه له حكاية وهو أنه كان لابى نواس صديقة تغشاه فقيل له انها تختلف الى آخر من أهل الريب فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوما من الايام فرآها تدخل منزل ذلك الرجل ثم ان ذلك الرجل جاءه وكان صديقا له فكلمه فصرف وجهه عنه ثم نظم قصيدته المشهورة التى مطلعها * أيها المنتاب عن عفره * وهذا البيت من جملة أبياتها (وكذلك) ورد قوله أيضا

وناظرة الىّ من النقاب * تلاحظنى بطرف مستراب
كشفت قناعها فاذا عجوز * مموهة المفارق بالخضاب
فما زالت تجمشنى طويلا * وتأخذ فى أحاديث التصابى
تحاول أن يقوم أبو زياد * ودون قيامه شيب الغراب
أتت بجرابها تكتال فيه * فقامت وهى فارغة الجراب

وقوله أتت بجرابها تكتال فيه من باب الكناية اذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكذلك التكميل أيضا (ومما جاء من هذا الباب) قول أبى تمام فى قصيدته التى يستعطف بها مالك بن طوق على قومه ومطلعها * أرض مصردة وأرض مثجم

مالى رأيت ترابكم يبس الثرى * مالى أرى أطوادكم تتهدم

فيبس الثرى كناية عن تنكر ذات البين تقول يبس الثرى بينى وبين فلان اذا تنكر الود الذى بينك وبينه وكذلك تهدم الاطواد فانه كناية عن خفة الحلوم وطيش العقول ومن الكناية الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التى مطلعها * واحر قلباه ممن قلبه شبم

قوله مالى رأيت الخ فى الديوان مالى رأيت ثراكم يبسا له * مالى رأيت حفافكم تتهدم

وشر ما قنصته راحتي قنص * شهب البزاة سواء فيه والرخم

يشير بذلك الى أن سيف الدولة يستوى فى المال عنده هو وغيره وهو البازى وغيره الرخمة وان حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزا وعلى هذا ورد قول الاقيشر الاسدى وكان عنينا لا يأتى النساء وكان كثيرا ما يصف ذلك من نفسه فجلس اليه يوما رجل من قيس فانشده الاقيشر

ولقد أروح بمشرف ذى ميعة * عسر المكرة ماؤه يتفصد

مرح يطير من المراح لعابه * ويكاد جلد إهابه يتقدد

ثم قال له أتبصر الشعر قال نعم قال فما وصفت قال فرسا قال أفكنت تركبه لو رأيته قال اى والله وأثنى عطفه فكشف له عن أيره وقال هذا وصفت فقم فاركبه فوثب الرجل عن مكانه وقال قبحك الله من جليس سائر اليوم (وكذلك أيضا يحكى) أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك وكان جميل الوجه فاختلف الى عبد الصمد بن عبد الاعلى مؤدب الوليد بن يزيد فراوده عن نفسه فوثب من عنده ودخل على هشام مغضبا وهو يقول

انه والله لولا أنت لم * ينج منى سالما عبد الصمد

فقال هشام ولم ذلك قال

انه قد رام منى خطة * لم يرمها قبله منى أحد

قال ماهى قال

رام جهلا بى وجهلا بأبى * يدخل الافعى على خيس الاسد

قال فضحك هشام وقال لو فعلت به شيأ لم أنكره عليك (ومن ألطف ما سمعته فى هذا الباب) قول أبى نواس فى الهجاء

اذا ما كنت جار أبى حسين * فنم ويداك فى طرف السلاح

فان له نساء سارقات * اذا ما بتن أطراف الرماح

سرقن وقد نزلت عليه ايرى * فلم أظفر به حتى الصباح

فجاء وقد تخدش جانباه * يئن الى من ألم الجراح

فتعبيره عن العضو المشار اليه بأطراف الرماح تعبير فى غاية اللطافة والحسن (وقد أدخل فى باب الكناية) ما ليس منه كقول نصيب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وهذا يروى عن الجاحظ وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة فان الكناية هى ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز وههنا لا يصح ذلك ولا يستقيم لان الثناء للعمائب لا يكون الا مجازا وهذا من باب التشبيه المضمر الاداة الخارج عن الكناية والمراد به أن فى الحقائب من عطايانك ما يعرب عن الثناء لو سكت أصحابها عنه (وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية) فانه لا يحسن استعماله لانه عيب فى الكلام فاحش وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه (فمما جاء منه) قول الشريف الرضى يرثى امرأة * ان لم تكن نصلا فغمد نصال * وفى هذا من سوء الكناية ما لا خفاء به فان الوهم يسبق فى هذا الموضع الى ما يقبح ذكره وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوه صورته فان الفرزدق رثى امرأته فقال

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح * عليه ولم أبعث اليه البواكيا

وفى جوفه من دارم ذو حفيظة * لو أنّ المنايا أمهلته لياليا

وهذا حسن بديع فى معناه وما كنى عن امرأة ماتت بحمع أحسن من هذه الكناية ولا أخرج شأ ما فعله الشريف الرضى فأخذ معناها وفعل به ما ترى وليس كل من تصرف فى المعانى أحسن فى تصريفها وأتى هذه الرموز فى تأليفها وقد عكس هذه القصة مع أبى الطيب المتنبى فأحسن فيما أساء فيه أبو الطيب طريق الكناية فأخطأ حيث قال

انى على شغفى بما فى خمرها * لأعف عما فى سراويلاتها

وهذه كناية عن النزاهة والعفة الا أن الفجور أحسن منها وقد أخذ الشريف الرضى هذا المعنى فأبرزه فى أجمل صورة حيث قال

أحنّ الى ما تضمن الخمر والحلى * وأصدف عما فى ضمان المآزر

وأمثال هذا كثير وفيما ذكرناه من هذين المثالين مقنع (وأما التعريض) فقد سبق الاعلام به وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية (فمما جاء منه) قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون وغرض ابراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم لانه قال فاسئلوهم ان كانوا ينطقون وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام والقول فيه أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة

الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم وقد قال في هذا غير ما أشرت اليه وهو أن كبير الاصنام غضب أن تعبد معه هذه الاصنام الصغار فكسرها وغرض ابراهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه فان من دونه مخلوق من مخلوقاته فجعل احالة القول الى كبير الاصنام مثالا لما أراده (ومن هذا القسم) أيضا قوله تعالى قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فقوله ما نراك الا بشرا مثلنا تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم وقالوا هب أنك واحد من الملا ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ألا ترى الى قولهم وما نرى لكم علينا من فضل وكان مروان ابن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية فعزله فلما قدم عليه قال له عزلتك لثلاث لو لم تكن الا واحدة منهن لاوجبت عزلك احداهن أني أمرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه والثانية كراهتك أمر زياد والثالثة أن ابنتي رملة استعدتك على زوجها عمرو بن عثمان فلم تعدها فقال له مروان أما عبد الله بن عامر فاني لا انتصر منه في سلطاني ولكن اذا تساوت الاقدام علم أين موضعه وأما كراهتي أمر زياد فان سائر بني أمية كرهوه وأما استعداء رملة على عمرو بن عثمان والله انه لتأتي على سنة وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا يريد بذلك أن رملة بنت معاوية انما استعدت لطلب الجماع فقال له معاوية يا ابن الوزغ لست هناك فقال له مروان هو ذاك وهذا من التعريضات اللطيفة (ومثله في اللطافة) ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة فدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال عمر أية ساعة هذه فقال عثمان يا أمير المؤمنين انقلبت من أمر السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت فقال عمر والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل فقوله أية ساعة هذه تعريض بالانكار عليه لتأخره عن المجيء الى الصلاة وترك السبق اليها وهو من التعريض المعرب عن الادب (ووقفت في كتاب العقد) على حكاية تعرضيه

حسنه الموقع وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة فقالت أشكو إليك قلة الفأر في بيتي فقال ما أحسن ما ورّت عن حاجتها املؤوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما (ومن خفي التعريض وغامضه) ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول والله إنكم لتجبّنون وتبخّلون وتجهّلون وإنكم لمن ريحان الله وإن آخر وطأة وطئها الله بوج اعلم أن وجا واد بالطائف والمراد به غزاة حنين وحنين واد قبل وج لأن غزاة حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة أي قتال وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم وإن آخر وطأة وطئها الله بوج على ما قبله من الحديث هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف فكأنه قال وإنكم لمن ريحان الله أي من رزقه وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله وإن آخر وطأة وطئها الله بوج وكان ذلك تعريضا بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم (ومما ورد من هذا الباب شعرا) قول الشميذر الحارثي

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما * دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وليس قصده ههنا الشعر بل قصده ما جرى لهم في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضا بما قصده أي لا تفخروا بعد تلك الوقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان (ومن أحسن التعريضات) ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه وهو أما بعد فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته فوقع المأمون في ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعريضك لنفسك وقد أجبناك إليهما (واعلم) أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا في غير اللغة العربية ووجدتهما كثيرا في اللغة السريانية فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منهما بالكثير (ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس) أنه كان

رجل من أساورة كسرى وخواصه وقيل ان الملك يختلف الى امرأتك ويهجرها لذلك وترك فراشها وأخبرت كسرى فدعاه وقال له قد بلغني أن لك عينا عذبة وأنك لا تشرب منها فما سبب ذلك قال أيها الملك بلغني أن الاسد يردها فخفته فاستحسن كسرى منه هذا الكلام وأسنى عطاءه (النوع العشرون في المغالطات المعنوية) وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية وحقيقته أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض والنقيض أحسن موقعا وألطف مأخذا فالاول الذي يكون له مثل يقع في الالفاظ المشتركة (فمن ذلك) قول أبي الطيب المتنبي

يشلهم بكل أقب نهد * لفارسه على الخيل الخيار

وكل أصم يعسل جانباه * على الكعبين منه دم ممار

يغادر كل ملتفت اليه * ولبته لثعلبه وجار

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف والوجار اسم بيته والثعلب أيضا هو طرف سنان الرمح فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار في طرف السنان وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله (وعليه ورد) قول المتنبي أيضا

برغم شبيب فارق السيف كفه * وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه * رفيقك قيسي وأنت يماني

فان شبيبا الخارجي الذي خرج على كافور الاخشيدي وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها كان من قيس ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب وأخبار ذلك مشهورة والسيف يقال له يماني في نسبته الى اليمن ومراد المتنبي من هذا البيت أن شبيبا المقتول وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يماني وصاحبك قيسي ولهذا جانبه السيف وفارقه وهذه مغالطة حسنة وهي كالاولى الا أنها أدق وأغمض (وكذلك ورد قول بعضهم) من أبيات يهجو بها شاعرا فجعله من حملها قوله

وحلفتم بعض القرآن بعضه * فجعلتم الشعراء في الانعام

ومعنى ذلك أن الشعراء اسم سورة من القرآن الكريم والانعام اسم سورة أيضا والشعراء جمع شاعر والانعام ما كان من الابل والبقر (وكذلك) ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل رضي الله عنه ثم انتقل

الى

الى مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ثم انتقل الى مذهب الشافعي رضي الله عنه

من مبلغ عني الوجيه رسالة * وان كان لا تجدي لديه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وفارقته اذ أعوزتك المآكل

وما اخترت رأي الشافعي تدينا * ولكنما تهوى الذي منه حاصل

وعما قليل أنت لا شك صائر * الى مالك فافطن لما أنا قائل

ومالك هو مالك بن أنس صاحب المذهب رضي الله عنه ومالك هو خازن النار وهذه مغالطة لطيفة (ومن أحسن ما سمعته) في هذا الباب قول أبي العلاء بن سليمان في الابل

طلب العصا بالضرب قد دماها * تود أن الله قد أفناها

اذا أرادت رشدا أغواها * مخافة من رقه اياها

فالضرب لفظ مشترك يطلق على الضرب بالعصا وعلى الضرب في الارض وهو المسير فيها وكذلك دماها فانه لفظ مشترك يطلق على شيئين أحدهما يقال دماه اذا أسال دمه ودماه اذا جعله كالدمية وهي الصورة وهكذا لفظ الفناء فانه يطلق على عنب الثعلب وعلى اذهاب الشيء اذا لم تبق منه بقية يقال أفناه اذا أذهبه وأفناه اذا أطعمه الفناء وهو عنب الثعلب والرشد والغوى نبتان يقال أغواه اذا أضله وأغواه اذا أطعمه الغوى ويقال طلب رشدا اذا طلب ذلك النبت وطلب رشدا اذا طلب الهداية وبعض الناس يظن هذه الابيات من باب اللغز وليس كذلك لانها تشتمل على ألفاظ مشتركة وذلك معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه واللغز هو الذي يستخرج من طريق الحزر والحدس لا من دلالة اللفظ عليه وسأوضح ذلك ايضاحا جليا في النوع الحادي والعشرين وهو الذي يتلو هذا النوع فليؤخذ من هناك (ويروى) في الاخبار الواردة في غزاة بدر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم من ماء فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء لينظر أي بطون العرب يقال لها ماء فسار النبي صلى الله عليه وسلم لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وهذا من المغالطة المليحة لانه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ويجوز أن يكون المراد أنا خلقنا من ماء وقد جاء شيء من ذلك

في الكلام المنثور (فمنه) ما كتبته في فصل من كتاب عند دخولي الى بلاد الروم أصف فيه البرد والثلج فقلت ومن صفات هذا البرد أنه يعقد الدر في حلمه والدمع في طرفه وربما تعدى الى قليب الخاطر فأخمد أن يجري بوصفه فالشمس مأسورة والنار مقرورة والارض شهباء غير أنها حولية لم ترض ومسيلات الحال أنهار غير أنها جامدة لم تخص ومكان المغالطة من هذا الكلام في قولي والارض شهباء غير أنها حولية لم ترض فان الشهباء من الخيل يقال فيها حولية أي انها حول ويقال انها مروضة أي ذللت للركوب وهذه الارض فهي للثلج عليها حول فهي شهباء حولية وقولي لم ترض أي لم تسلك بعد (ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم فقلت) ولقد دربت منه بمهلي الصبح أحسن الاخلاق واقتبته فكأني لم أرع بمن أحب بلوعة الفراق ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول اني قد استبدلت به أهلا ووطنا وعهدي بالايام وهي من الاحسان فاطمة فاستولدتها احواره حسنا وهذه تورية لطيفة فان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن رضي الله عنهما ولدها وفاطمة هي اسم فاعلة من الفطام يقال فطمت فهي فاطمة كما يقال فطم فهو فاطم والحسن هو الشيء الحسن (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وعهده ثقلي وهو يتحلى من البيان بأسمائه وتعرز أنوار المعاني من ظلمائه وقد أصبحت يدي منه وهي حمالة الحطب وأصبح خاطري أبا جهل بعد أن كان أبا لهب وهذا أحسن من الاول وأحلى عبارة فانظر أيها المتأمل الى ما فيه من التورية اللطيفة ألا ترى أن الخاطر يحمد فيوصف بأنه وقاد وملتهب ويذم فيوصف بأنه بليد وجاهل وأبو لهب وأبو جهل هما الرجلان المعروفان وكذلك حمالة الحطب هي المرأة المعروفة واذا ذم القلم قيل انه حطب وان صاحبه حاطب فلما نقلت أنا هذا الى المعنى الذي قصدته جئت به على حكم المغالطة وورّيت فيه تورية والمسلك الى مثل هذه المعاني وتصحيح القصد فيها عسر جدا لا جرم أن الاجادة فيها قليلة (ومما يجري هذا المجرى) ما ذكرته في وصف شخص بمعالي الامور وهو من أظرف ما عيبه أنه جار قبل المكرمات ومفتاحها فاذا استشل مغلقة كان مفتاحها واذا استشل موهبة كان مفاتحها وأحسن أثرا من ذلك أنه أحدث بأعنة الصعاب وألان

جناحها فاذا شهد حومة حرب كان منصورها واذا لقي مهجة خطب كان سفاحها والمغالطة في هذا الكلام في ذكر المنصور والسفاح فانهما لقبا خليفتين من بني العباس والسفاح أول خلفائهم والمنصور أخوه الذي ولي الخلافة من بعده وهما أيضا من النصر في حومة الحرب والسفح الذي هو الاراقة والمهجة دم القلب فكأني قلت هو منصور في حومة الحرب وسفيح لدم الخطوب وقد اجتمع في هذا الكلام المنصور والمنصور والسفاح والسفاح وهذا من المغالطة المليحة لا من الفقهية ولا خفاء بما فيها من الحسن (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان فقلت وقد علمت أن ذلك الانس تعقبه ايحاشا وأن تلك النهلة من لقائه تجعل الاكباد عطاشا فان من شيمة الدهر أن يبدل الصفو كدرا ويوسع أيام عقوقه طولا وأيام بره قصرا وما أقول الا انه شجر تلك المسرة المسروقة وأقام عليها حد القاطع ورأى العيش فيها خفضا فأزاله بعامل الرفع والمغالطة في هذا الكلام هي في ذكر الخفض والرفع فان الخفض هو سعة العيش والخفض هو أحد العوامل النحوية والرفع هو من قولنا رفعت الشيء اذا أزلته والرفع هو أحد العوامل النحوية أيضا وهذا من المغالطات الحسنة (ومن ذلك) ما كتبته في فصل أصف فيه الحمى وكنت اذ ذاك بمصر فسطاط وهو بلد من بلاد الارض فقلت ومما أكره في حال المرض بهذه الارض ان الحمى حمت بها فاستقرت ولم تقنع بأهلها حتى سرت الى تربتها فسرى وقد أخذتها النافض فاقشعرت ولم يشكل أمرها الا انها حمى أرضية مستحيلة البنيان وقد تشبهه الامراض وأهل البلاد في الابدان واذا كانت الحمى كافرة لم تزل للمسلم حربا وشكاتها لا تسمى شكاة وانما تسمى طعنا وضربا ولهذا صارت الادوية في علاجها ليست بأدوية وأصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدأة بأيام تروية وليس موسمها في فصل معلوم بل كل فصول العام من مواسمها ولو كانت نصيبين أو ميافارقين بكتاب لترجمته بعدها وخادمها والمغالطة ههنا في قولي وأصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدأة بأيام تروية والمراد بذلك أنها تقتل بغتة من غير ترو أي من غير تلبث ويوم النحر هو يوم عيد الاضحى وقبله يوم يسمى يوم التروية فالمغالطة حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا لأن يوم النحر مبتدأ بيوم تروية

ولا خفاء بما في هذه المغالطة من الحسن واللطافة (وأمّا القسم الآخر) وهو المقيض فانه أقل استعمالا من القسم الذي قبله لانه لا يتهيأ استعماله كثيرا فمن جملته ما ورد شعر العصهم وهو قوله

وما أشياء تشريها اغال * فان نفقت فأكسد ما تكون

يقال نفقت السلعة اذا راجت وكان لها سوق ونفقت الدابة اذا ماتت وموضع المناقضة ههنا في قوله انها اذا نفقت كسدت خفاء بالشيء ونقضه وجعل هذا سببا لهذا وذلك من المغالطة الحسنة (ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب) الى ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلدمن بلاد الكفار فقلت في آخر الكتاب وقد ارتاد الخادم من يبلغ عنه مساريح هذه الوقائع التي اختصرها ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه من المشاهدة كريبا كمكانها وهي عرائس المساعي وأحسن الناس بيانا من هو أهل لابداع حسانها والسائر بها فلان وهو راوي اخبار نصرها التي صحتها في تجريح الرجال وعوالى اسنادها مأخوذة من طرق العوال والليالي والأيام لها رواة هما أنطق براوية الايام والليال في هذا الفصل مغالطة نقيضية ومغالطة مثلية أمّا المغالطة المثلية فهي في قولي وعوالى اسنادها مأخوذة من طرق العوال وقد تقدم الكلام على هذا وما يجري مجراه في القسم الاول وأمّا المغالطة النقيضية فهي قولي وهو راوي أخبار نصرها التي صحتها في تجريح الرجال وموضع المغالطة منه انه يقال في رواة الاخبار فلان عدل صحيح الرواية وفلان مجروح أى سقيم الرواية غير موثوق به فأتيت بهذا المعنى على وجه المقيض فقلت صحة أخبار هذه الفتوح في تجريح الرجال أى تجريحهم في الحرب وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به وقد أوردت من هذه الامثلة ما فيه كفاية ومقنع (فان قيل) ان الضرب الاول من هذا النوع هو التجنيس الذي لفظه واحد ومعناه مختلف كالمثال الذي مثلته في قول أبي الطيب المتنبي ثعلب وبيان فان الثعلب هو الحيوان المعروف وهو أيضا طرف السنان وكذلك باقي الامثلة (قلت في الجواب) ان الفرق بين هذين النوعين ظاهر وذلك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين فهو يستوي في الصورة ويختلف في المعنى كقول أبي تمام

بكل فتى ضرب يعرّض للقنا * محيا محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب هو الضرب بالسيف في القتال فاللفظ لا بد من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف والمغالطة ليست كذلك بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة ويدل به على مثله وليس عذكور (النوع الحادي والعشرون في الاحاجي) وهي الاغاليط من الكلام وتسمى الالغاز جمع لغز وهو الطريق الذي يلتوي ويشكل على سالكه وقيل جمع لغز بفتح اللام وهو ميلك بالشيء عن وجهه وقد يسمى هذا النوع أيضا المعمى وهو يشتبه بالكناية تارة وبالتعريض أخرى ويشتبه أيضا بالمغالطات المعنوية ووقع في ذلك عامة أرباب هذا الفن (فمن ذلك) أن أبا الفرج الاصفهاني ذكر بيتي الاقيس الاسدي في جملة الالغاز وهما

ولقد أروح بمشرف ذي ميعة * عسر المكرة ماؤه يتفصد

مرح يطير من المراح لعابه * ويكاد جلد إهابه يتقدد

وهذان البيتان من باب الكناية لانهما يحملان على الفرس وعلى العضو المخصوص واذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز كيف يعد من جملة الالغاز وكذلك فعل الحريري في مقاماته فانه ذكر في الاحاجي التي جعلها على حكم الفتاوي كناية ومغالطة معنوية وظن أنهما من الاحاجي الملغزة كقوله أيحل للصائم أن يأكل نهارا والنهار من الاسماء المشتركة بين النهار الذي هو ضد الليل وبين فرخ الحبارى فانه يسمى نهارا واذا كان من الاسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية لا من باب الاحاجي والالغاز شيء منفصل عن ذلك كله ولو كان من جملته لما قيل لغز واحجية واغاليل كناية وتعريض أو مغالطة ولكن وجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية ومنه ما يطلق عليه التعريض ومنه ما يطلق عليه المغالطة ومنه شيء آخر خارج عن ذلك فجعل لغزا واحجية (وكنت قدمت القول) بأن الكناية هي اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز فهو يحمل عليهما معا وأن التعريض هو ما يفهم من عرض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازا وأن المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيئان أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعي والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه (وأما اللغز والاحجية) فانهما شيء واحد وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا ولا يفهم من عرضه لان قول القائل في الضرس

وصاحب لا أمل الدهر صحبته * يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
ما ان رأيت له شخصا فمذ وقعت * عيني عليه افترقنا فرقة الابد

لا يدل على أنه الضرس لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز ولا من طريق المفهوم وانما هو شئ يحدس ويحزر والخواطر تختلف في الاسراع والابطاء وعند عثورها عليه (فان قيل) ان اللغز يعرف من طريق المفهوم وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم (قلت في الجواب) ان الذي يعلم بالمفهوم انما هو التعريض كقول القائل انى لفقير والى محتاج فان هذا القول لا يدل على المسئلة والطلب لا حقيقة ولا مجازا وانما فهم منه أن صاحبه متعرض للطلب وهذان البيتان ليسا كذلك فانهما لا اشتمال على ما يفهم منه شئ الا بالحدس والحزر لا غير وكذلك كل لغز من الالغاز (واذا ثبت هذا فاعلم) أن هذا الباب الذي هو اللغز والاحجية والمعمى يتنوع أنواعا فمنه المصحف ومنه المعكوس ومنه ما ينقل الى لغة من اللغات غير العربية كقول القائل اسمي اذا صحفته بالفارسية آخر وهذا فيه اسم تركي وهو دنكر بالدال المهملة والنون وآخر بالفارسية ديكر بالدال المهملة والياء المعجمة نقطتين من تحت واذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكر بالنون فانقلبت الياء نونا بالتصحيف وهذا غير مفهوم الا لبعض الناس دون بعض وانما وضع واستعمل لانه مما يشحذ القريحة ويحد الخاطر لانه يشتمل على معان دقيقة يحتاج في استخراجها الى توقد الذهن والسلوك في معاريج خفية من الفكر وقد استعملته العرب في أشعارهم قليلا ثم جاء المحدثون فأكثروا منه وربما أتى منه بما يكون حسنا وعليه مسحة من البلاغة وذلك عندي من نمط ولا أعده من الاحاجي ولا أعده من فصيح الكلام فمما جاء منه قول بعضهم

قد سقيت آبالهم بالنار * والنار قد تشفي من الاوار

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الابل ذوو وجاهة وتقدم ولهم وسم معلوم فلما وردت ابلهم الماء عرفت بذلك الوسم فأفرج لها الناس حتى شربت وقد اتفق له أنه أتى في هذا البيت بالشئ وضده وجعل أحدهما سببا للآخر فصار غريبا عجيبا وذلك أنه قال سقيت بالنار وقال ان النار تشفي من الاوار وهو العطش وهذا من محاسن ما يأتي في هذا الباب (ومما يجري على هذا النهج) قول أبي نواس في الخمر الكرم

لنا جمجمة لا يدري الذئب سخلها * ولا راعها غض الجهالة والخطر
إذا امتحنت ألوانها مال صفوها * إلى الحق إلا أن أوبارها خضر

(ومن هذا القبيل) قول بعضهم

سبع رواحل ما ينخن من الوجى * شيم تساق بسبعة زهر
متواصلات لا الدؤوب يملها * باق تعاقبها على الدهر

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه وهي الأسبوع فإن الزمان عبارة عنه وذلك من الألغاز الواقعة في موقعها (وعلى هذا الأسلوب) ورد قول أبي الطيب المتنبي في السفن من جملة قصيدته التي مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات وهي * الرأي قبل شجاعة الشجعان * فقال

وحشاه عادية بغير قوائم * عقم البطون حوالك الألوان
تأتي بما سبت الخيول كأنها * تحت الحسان مرابض الغزلان

وهذا حسن في بابه ومن ذلك قول بعضهم في سر الملك

ومدرع من صنعة الليل برده * يفوق طورا بالصغار ويطلس
إذا سألوه عن عويص أشكلا * أجاب بما أعيا الورى وهو أخرس

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا فأجاب عنه ببيتين على وزنه وقافيته وهما

سؤالك حلو من الصغر أسود * خفيف لطيف ناعم الجسم أطلس
أقيم بسوق الصرف حكما كأنه * من الزنج قاص بالحلوق مطلس

(وقد رأيت هذا الشاعر) وهو حائك يحرر بابن عمرو ليس عنده من أسباب الأدب شيء سوى أنه قد أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير وهو مع ذلك يقول الشعر طبعا وكان يجيد في الكثير منه (ومن الألغاز) ما يرد على حكم المسائل الفقهية كالذي أورده الحريري في مقاماته وكنت سئلت عن مسئلة منه وهي

ولي خالة وأنا خالها * ولي عمة وأنا عمها
فأما التي أنا عم لها * فإن أبي أمه أمها
أبوها أخي وأخوها أبي * ولي خالة هكذا حكمها
فأين الفقيه الذي عنده * فنون الدراية أو علمها
يبين لنا نسبا خالصا * ويكشف للنفس ما همها

ما سامجوسا ولامشركين * شريعة أحمد بأمها

(وهذه المسئلة كتبت الخ) فتأملتها تأمل غير مطمح فى الفكر ولم ألبث أن انكشف لى ماتحتها من اللغز وهو أن الحالة التى الرجل خالها تصور على هذه الصورة وذلك أن رجلا تزوج امرأتين اسم احداهما عائشة واسم الاخرى فاطمة فأولد عائشة بنتا وأولد فاطمة ابنا ثم زوج بنته من أبى امرأته فاطمة فجاءت ببنت فتلك البنت هى خالة ابنه وهو خالها لانه أخو أمها وأما العمة التى هو عمها فصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخ من أمه فزوج أخاه من أمه أم أبيه فجاءت ببنت فتلك البنت هى عمته لانها أخت أبيه وهو عمها لانه أخو أبيها وأما قوله ولى خالة وهكذا حكمها فهو أن تكون أمها أختمه وأختها أمه كما قال أبوها أخى وأخوها أبى وصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخت من أمه فزوجها من أبى أمه فجاءت ببنت فأختها أمه وأمها أخته (وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى) قول بعضهم فى الخال

ومضروب بلاجرم * مليح اللون معشوق

له قد الهلال على * مليح القد ممشوق

وأكثر مايرى أبدا * على الامشاط فى السوق

وبلغنى أن بعض الناس سمع هذه الابيات فقال قد دخلت السوق فما رأيت على الامشاط شيأ وظن أنها الامشاط التى يرجل بها الشعر وأن السوق سوق البيع والشراء (واعلم) أنه قد يأتى من هذا النوع ما هو مضروب وألوان فمنه الحسن الذى أوردت شيأ منه كما تراه ومنه المتوسط الذى هو دونه فى الدرجة ولا يوصف بحسن ولا قبح كقول بعضهم

راحت ركائبهم وفى أكوارها * ألفان من عم الاثيل الواعد

مالى رأيت ولا اركب هكذا * حملت حدائق كالظلام الراكد

وهذا يصف قوما وفدوا على ملك من الملوك فأعطاهم نخلا وكتب لهم بها كتابا والاثيل الموضع الذى كتب لهم اليه والعم العظام الرؤس من النخيل والواعد الاقناء من النخل فلما حملوا الكتب فى أكوارهم فكأنهم حملوا النخل وهذا من متوسط الالغاز وقد جاء من ذلك ما هو سمج بارد ولا يستخرج الا بعد الحذر والمقابلة أو بخطوط الرمل من القص الداخل أو العكس الخارج والقياس

والحرة وغيرها ولئن كان معناه دقيقا يدل على فرط الذكاء فانى لا أعده من اللغة العربية فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة ولا فرق بينه وبين لغة الفرس والروم وغيرهما من اللغات فى عدم الفهم (وأما ما ورد من الالغاز نثرا) فقد ألغز الحريرى فى مقاماته ألغازا ضمنها ذكر الابرة والمرود وذكر الدينار وهى أشهر كما يقال من قفا نبك ولا حاجة الى ايرادها فى كتابى هذا وقد ورد من الالغاز شئ فى كلام العرب المنثور غير انه قليل بالنسبة الى ما ورد فى أشعارها وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيأ منها ولا ينبغى أن يتضمن منها شيأ لانه لا يستنبط بالحدس والحزر كما تستنبط الالغاز (وأما ما ورد للعرب) فيروى عن امرئ القيس وزوجته شئ من الالغاز وذلك أنه سألها قبل أن يتزوجها فقال ما اثنان وأربعة وثمانية فقالت أما الاثنان فثديا المرأة وأما الاربعة فاخلاف الناقة وأما الثمانية فأطباء الكلبة ثم انه تزوجها وأرسل اليها هدية على يد عبد له وهى حلة من عصب اليمن ونحى من عسل ونحى من سمن فنزل العبد ببعض المياه ولبس الحلة فعلق طرفها بسمرة فانشق وفتح النحيين وأطعم أهل الماء ثم قدم على المرأة وأهلها خلوف فسأل عن أبيها وأمها وأخيها ودفع اليها الهدية فقالت له أعلم مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيدا ويبعد قريبا وان أمى ذهبت تشق النفس نفسين وأن أخى يرقب الشمس وأن سماءكم انشقت وأن وعاءيكم نضبا فعاد العبد الى امرئ القيس وأخبره بما قالته له فقال أما أبوها فانه ذهب يحالف قوما على قومه وأما أمها فانها ذهبت تقبل امرأة وأما أخوها فانه فى سرح يرعاه الى أن تغرب الشمس وأما قولها ان سماءكم انشقت فان الحلة انشقت وأما قولها ان وعاءيكم نضبا فان النحيين نقصا ثم قال للعبد أصدقنى فقال له انى نزلت بماء من مياه العرب ففعلت كذا وكذا فهذا وأمثاله قد ورد عنهم الا أنه يسير (وكذلك يروى عن شن بن أفصى) وكان ألزم نفسه أن لا يتزوج الا امرأة تلائمه فصاحبه رجل فى بعض أسفاره فلما أخذ منهما السير قال له شن أتحملنى أم أحملك فقال له الرجل يا جاهل هل يحمل الراكب راكبا فأمسك عنه وسارا حتى أتيا على زرع فقال شن أترى هذا الزرع قد أكل فقال له يا جاهل أما تراه فى سنبله فأمسك عنه ثم سارا فاستقبلتهما جنازة فقال شن أترى صاحبها حيا فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك أتراهم

حملوا الى القبر حيا ثم انهما وصلا الى قرية الرجل فصار به الى بيته وكانت له بنت
فأخذ يطارحها بحديث رفيقه فقالت ما نطق الا بالصواب ولا استفهم الا عما
يستفهم عن مثله أما قوله أتحملني أم أحملك فإنه أراد أتحدثني أم أحدثك حتى
نقطع الطريق بالحديث وأما قوله أترى هذا الزرع قد أكل فإنه أراد هل استلف
ربه ثمنه أم لا وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فإنه أراد هل خلف له عقبا يحيا
بذكره أم لا فلما سمع كلام ابنته خرج الى الشيخ وحدثه بتأويلها فخطبها فزوجه
اياها (وأدق من هذا كله وألطف) ما يحكى عن رجل من المناقدة أصحاب شيزر
وهو أولهم الذي استنقذها من أيدي الروم بالمكر والخديعة ولذلك قصة طريفة
وليس هذا موضع ذكرها وكان قبل ملكه اياها في خدمة محمود بن صالح صاحب
حلب وكان اذ ذاك يلقب بسديد الملك فنابه مكانه وحدثت له حادثة أوجبت له
أن هرب ومضى الى مدينة طرابلس في زمن بني عمار أصحاب البلد فأرسل اليه
ابن صالح واستعطفه ليعود اليه فخافه ولم يعد فأحضر ابن صالح رجلا من أهل
حلب صديقا لابن منقذ وبينهما لحمة مودة أكيدة وأجلسه بين يديه وأمره
أن يكتب اليه كتابا عن نفسه يوثقه من جهة ابن صالح ليعود فما وسعه الا أن
يكتب وهو يعلم أن باطن الأمر في ذلك خلاف ظاهره وأنه متى عاد ابن منقذ الى
حلب هلك فأفكر وهو يكتب في اشارة خفية لا تفهم ليفهمها فيحذر بها
ابن منقذ فأداه فكره أن كتب في آخر الكتاب عند انهائه إن شاء الله تعالى
وشدد النون وكسرها ثم سلم الكتاب الى ابن صالح فوقف عليه وأرسله الى ابن منقذ
فلما صار في يده وعلم ما فيه قال هذا كتاب صديقي وما يغشني ولولا أن يعلم صفاء قلب
ابن صالح لي لما كتب الي ولا غرني ثم عزم على العود وكان عنده ولده
فأخذ الكتاب وكرر نظره فيه ثم قال له يا أبة كتابك فإن صديقك قد حذرك وقال
لا تعد فقال وكيف قال انه قد كتب ان شاء الله تعالى في آخر الكتاب وشدد ان
وكسرها وضبطها ضبطا صحيحا لا يصدر مثله عن سهو ومعنى ذلك أنه يقول ان
الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وان شككت في ذلك فأرسل الى حلب وهذا من
أعجب ما يعطى من حدة الذهن وفطانة الخاطر ولولا أنه صاحب الحادثة المحوجة
لما تفطن الى مثل ذلك أبدا الا انه ضرب من علم الغيب وانما الخوف دله على استنباط
ما استنبطه (ووجد لبعض الادباء لغز في حمام) فمنه ما أجاد فيه كقوله وقد أطلقها

سماء ذات نجوم لا استراق لها ولا رجوم وهي مركبة في فلك محب استدارته وسكت ادارته

أعجب بها من أنجم * عند الصباح ظاهرة
لكنها ابدا ابدا * نجوم الظلام عائرة

وهي على اقتباس حسن ونعيم مقيمة على لظى جحيم لاحد لوديها ولا مقام ولا تزاور بين أهلها ولا سلام أنهارها متدفقة ومياهها مترقرقة والاكواب بها موضوعة والنمارق عنها مرفوعة

يطيع بها المولى أوامر عبده * ويصبح طوعا في يديه مقاتله
ويرفع عنه التاج عند دخوله * ويسلب من قبل الجلوس غلائله

التحمل بها معدوم والخادم فيها مخدوم يشكر بها التستر من البرد ويكره حرها اذا جاور الحد هذا اللغز من فصيح الالغاز ولا يقال ان صاحبه في العمى صانع الهكار واذا نظر غيره بلمعة من الوشي فهذا كله طراز (ومما سمعته) من الالغاز الحسان التي تجري في المحاورات ما يحكى عن عمر بن هبيرة وشريك النميري وذلك أن عمر بن هبيرة كان سائرا على برذون له والى جانبه شريك النميري على بغلة فتقدمه شريك في المسير فصاح به عمر اغضض من لجامها فقال أصلح الله الامير انها مكتوبة فتبسم عمر ثم قال له ويحك لم أرد هذا فقال له شريك ولا أنا أردته وكان عمر أراد قول جرير

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فأجابه شريك بقول الآخر

لا تأمنن فزاريا نزلت به * على قلوصك واكتبها باسيار

وهذا من الالغاز اللطيفة وتفطن كل من هذين الرجلين لمثله ألطف وأحسن (ومما يجري هذا المجرى) أن رجلا من تميم قال لشريك النميري ما في الجوارح أحب الي من البازي فقال له شريك اذا كان يصيد القطا وكان التميمي أراد قول جرير

أنا البازي المطل على نمير * أتيح من السماء لها انصبابا

وأراد شريك قول الطرماح

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا * ولو سلكت طرق المكارم ضلت

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الاشخاص ومن ههنا قيل سبحان خالق أبي موسى وعمرو بن العاص (النوع الثاني والعشرون في المبادي والافتتاحات)

المبادي والافتتاحات

هـذا النوع هو أحـد الاركان الخمسة البلاغية المشار اليها فى الفصـل التاسع من مقدمة الكتاب وحقيقة هـذا النوع أن يجعـل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام ان كان فتحا ففتحا وان كان هناء فهناء أو كان عزاء فعزاء وكذلك يجـرى الحكم فى غـير ذلك من المعانى وفائدته أن يعرف من مبدا الكلام ما المراد به ولم هذا النوع والقاعدة التى بنى عليها أساسه أنه يجب على الشاعر اذا نظم قصيدا أن ينظر فان كانت مديحا صرفا لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها كقول القائل

ان حارت الالباب كيف تقول * فى ذا المقام فعذرها مقبول

سامح بفضلك مادحيك فما لهم * أبدا الى ما تستحق سبيل

ان كان لا يرضيك الا محسن * فالمحسنون اذا لديك قليل

فان هـذا الشاعر ارتجل المديح من أول القصيد وأتى به كما ترى حسنا لائقا وأما اذا كان القصيد فى حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك فانه لا ينبغى أن يبدأ فيها بغزل وان فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية أو على جهـله بوضع الكلام فى مواضعه (فان قيـل) انك قلت يجب على الشاعر كذا وكذا ولم ذلك (قلت فى الجواب) ان الغزل رقة محضة والالفاظ التى تنظم فى الحوادث المشار اليها من جزل الكلام ومتين القول وهى ضد الغزل وأيضا فان الاسماع تكون متطلعـة الى ما يقال فى تلك الحوادث والابتدا بالخوض فى ذكرها لا الابتداء بالغزل اذا المهم واجب التقـديم ومن أدب هذا النوع أن لا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى أدب النفس لا الى أدب الدرس فينبغى أن يحترز منه فى مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء وغير ذلك من تشتت الالاف وذم الزمان لا سيما اذا كان فى التهانى فانه يكون أشد قبحا وانما يستعمل ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ومتى كان الكلام فى المـديح مفتتحا بشئ من ذلك تطير منه سامعه وانما خصت الابتداآت بالاختيار لانها أول ما يطرق السمع من الكلام فاذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على استماعه ويكفيك من هـذا الباب الابتـداآت الواردة فى القرآن كالتحميدات المفتتح

بها أوائل السور وكذلك الابتدا آت بالنداء كقوله تعالى فى مفتتح سورة النساء يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وكقوله تعالى فى أول سورة الحج يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم فان هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للاصغاء اليه وكذلك الابتدا آت بالحروف كقوله تعالى ألم وطس وحم وغير ذلك فان هذا أيضا مما يبعث على الاستماع اليه لانه يقرع السمع شئ غريب ليس له بمثله عادة فيكون ذلك سببا للتطلع نحوه والاصغاء اليه (ومن قبيح الابتدا آت) قول ذى الرمة * ما بال عينك منها الماء ينسكب * لان مقابله الممدوح بهذا الخطاب لا جرم نقحه وكراهته (ولما أنشد الاخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها * خف القطين فراحوا منك أو بكروا قال له عبد الملك لا بل منك وتطير من قوله فغيرها ذو الرمة وقال خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا * ومن شاء أن يذكر الديار والاطلال فى شعره فليتأدب بأدب القطامى على جفاء طبعه وبعده عن فطانة الادب فانه قال انا محيوك فاسلم أيها الطلل * فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة وقد قيل ان امرأ القيس كان يجيد الابتداء كقوله ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى * وكقوله * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل (ومما يكره من الابتدا آت) قول أبى تمام * تجرع أسى قد أقفر الجرع الفرد وانما أتى أبا تمام فى مثل هذا المكروه تتبعه للتجنيس بين تجرع والجرع وهذا دأب الرجل فانه كثيرا ما يقع فى مثل ذلك وكذلك استقبح قول البحترى فؤاد ملاه الحزن حتى تصدعا * فان ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح وما أعلم كيف يخفى هذا على مثل البحترى وهو من مفلق الشعراء (وحكى) أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم فاستأذن اسحق بن ابراهيم الموصلى فى الانشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه الا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها فقال

يا دار غيرك البلى ومحاك * يا ليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس على اسحق بن ابراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ثم أقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد

فهم اشان الى دلك المجلس وخرج المعتصم الى سر من رأى وخرب القصر فاذا
أراد الشاعر أن يذكر دارا في مديحه فلا يذكر كما ذكر أشجع السلمي حيث قال

قصر عليه تحية وسلام * خلعت عليه جمالها الايام

وما أجدر هذا البيت بفتح شعر اسحق بن ابراهيم الذي أنشده للمعتصم فانه
لو ذكر هذا أو ما جرى مجراه لكان حسنا لائقا (وسئل) بعضهم عن أحذق
الشعراء فقال من أجاد الابتداء والمطلع ألا ترى الى قصيدة أبي نواس التي أولها

يا دار ما فعلت بك الايام * لم يبق فيك بشاشة تستام

فانها من أشرف شعره وأعلاه منزلة وهي مع ذلك مستكرهة الابتداء لانها
في مدح الخليفة الامين وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يتطير منه لاسيما
في مشافهة الخلفاء والملوك ولهذا يختار في ذكر الاماكن والمنازل ما رق لفظه
وحسن النطق به كالعذيب والغوير ورامة وبارق والعقيق وأشباه ذلك
و يختار أيضا أسماء النساء في الغزل نحو سعاد وأميمة ونوار وما جرى هذا المجرى
وقد عيب على الاخطل في تغزله بقذور وهو اسم امرأة فانه مستقبح في الذكر وقد
عيب على غيره الغزل باسم تماضر فانه وان لم يكن مستقبحا في معناه فانه ثقيل
على اللسان كما قال البحتري

ان للبين منة لا تؤدّى * ويدا في تماضر بيضاء

فتغزله بهذا الاسم مما يذهب برقة الغزل وينقل من خفته وأمثال هذه الاشياء يجب
مراعاتها والتحرز منها (وقد استثني من ذلك) ما كان اسم موضع تضمن وقعة
من الوقائع فان ذكره لا يكره وان كان في اسمه كراهة كما ذكر أبو تمام في شعره
مواضع مكروهة الاسماء لضرورة ذكر الوقائع التي كانت بها كذكر الحسان
وعقرقس وأمثالهما وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبي هريط وشمشاط وما جرى
مجراهما وهذا لا عيب في ذكره لمكان الضرورة التي تدعو اليه وهكذا اسامح
الشاعر والكاتب أيضا في ذكر ما لا بد من ذكره وان قبح ومهما أمكنه من
التورية في هذا المقام فليسلكها وما لا يمكنه فانه معذور فيه (واعلم) أنه ليس
من شرط الابتداء أن لا يكون مما يتطير منه فقط فان من الابتداآت
ما يستقبح وان لم يتطير منه كقول أبي تمام * قدك اتئب أربيت في الغلواء
وكقوله * تقي جماتي لست طوع مؤنبي * وكقول أبي الطيب المتنبي

أقل وعالى لها أكثره مجد * وكقوله * كي أراني وإن لومك ألوما * والمحب أن هذين الشاعرين المفلقين يتدنان بمثل ذلك ولهما من الابتداآت الحسنة ما أذكره (أما أبو تمام) فانه افتتح قصيدته التي مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عمورية فقال

السيف أصدق إنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب

وهذه الابيات لها قصة وذلك أنه لما حاصر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل البلد أن المنجمين يقولون انها لا تفتح في ذلك الوقت وأفاضوا في هذا حتى شاع وصار أحدوثة بين الناس فلما فتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى وجعل السيف أصدق من الكتب التي جرت بامتناع البلد واعتصامها ولذلك قال فيها

والعلم في شهب الأرماح لامعة * بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب وكذلك قوله في أول قصيدة يمدحه بها أيضا ويذكر فيها خروج بابك الخرمي عليه وظفره به وهي من أمهات شعره فقال

الحق أبلج والسيوف عوار * فحذار من أسد العرين حذار

وكذلك قوله مغزلا

عسى وطن يدنو بهم ولعلما * وأن تعتب الايام فيهم فربما

وهذا من الاغزال الحلوة الرائقة وهو من محاسن أبي تمام المعروفة وكذلك قوله في أول مرثية

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا * وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

(وأما أبو الطيب) فانه أكثر من الابتداآت الحسنة في شعره كقوله في قصيدة يمدح بها كافورا وكان قد جرت بينه وبين ابن سيده نزعة فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود فقال

حسم الصلح ما اشتهته الاعادي * وأذاعته ألسن الحساد

وهذا من بديع الابتداء ونادره وكذلك ورد قوله في سيف الدولة وكان ابن الشمشقيق حلف للقيصر كما حلفا التقيا لم يطق ذلك وولى هاربا فافتتح أبو

الطيب قصيدته بفحوى الامر فقال

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم * ماذا يزيدك فى اقدامك القسم

وفى اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك فى الميعاد متهم

(وكذلك) قوله وقد فارق سيف الدولة وسار الى مصر يجمع بين ذكر فراقه اياه ولقائه كافورا فى أول بيت من القصيدة فقال

فراق ومن فارقت غير مذمم * وأم ومن يممت خير ميمم

(ومن البديع النادر فى هذا الباب) قوله متغزلا فى مطلع قصيدته القافية وهى

أتراها لكثرة العشاق * تحسب الدمع خلقة فى المآقى

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة الى ذكرها (ومن محاسن الابتداآت) التى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة ما قرأته فى كتاب الروضة لأبى العباس المبرد وهو ذكر غزوة غزاها الرشيد هرون رحمه الله فى بلاد الروم وأن نقفور ملك الروم خضع له وبذل الجزية فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقض نقفور العهد فلم يجسر أحد على اعلام الرشيد لمكان هيبته فى صدور الناس وبذل يحيى بن خالد للشعراء الاموال على أن يقولوا أشعارا فى اعلامه فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك الا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد وكان شاعرا مفلقا فنظم قصيدا وأنشدها الرشيد أولها

نقض الذى أعطيته نقفور * فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فانه * فتح أتاك به الاله كبير

نقفور انك حين تغدر ان نأى * عنك الامام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت * هبلتك أمك ما ظننت غرور

فلما أنهى الابيات قال الرشيد أوقد فعل ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة (وقرأت فى كتاب الاغانى لأبى الفرج الاصبهانى) ما رواه من شعر سديف فى تحريض الخليفة السفاح رحمه الله على بنى أمية فقال قدم سديف من مكة الى الحيرة والسفاح بها ووافق قدومه جلوس السفاح للناس وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسى تكرمة لهم فلما دخل عليه سديف حسر لثامه وأنشده أبياتا من الشعر فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك وقال لآخر الى جانبه قتلنا والله العبد فلما أنهى الابيات أمر بهم السفاح وأخرجوا

من

من بني أمية وقتلوا عن آخرهم وكتب الى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وجدوه منهم ومن الابيات

أصبح الدين ثابت في الاساس * بالبهاليل من بني العباس
أنت مهدي هاشم وهداها * كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا * واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله * بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم * وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم * عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيد * وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى * ثاويا بين غربة وتناسي

وهذه الابيات من فاخر الشعر ونادره امتناعا واشتداء وتحريضا وتأليبا ولو وصفتها من الاوصاف بما شاء الله وشاء الاسهاب والاطناب لما بلغت مقدار ما لها من الحسن (ومن لطيف الاستدراكات) ما ذكره مهيار وهو

أما وهواها عذرة وتنصلا * لقد نقل الواشي اليها فأمحلا
سعى جهده لكن تجاوز حده * وكثر فارتابت ولو شاء قللا

فانه أبرز الاعتذار في هيئة العزل وأخرجه في معرض النسيب وكان وشى به الى الممدوح فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن (ومما جاء على نحو من ذلك) قول بعض المتأخرين من العراقيين

وراءك أقوال الوشاة العواجر * ودونك أحوال الغرام المخامر
ولولا ولوع منك بالصد ما سعوا * ولولا الهوى لم أنتدب للمعاذر

وسلك في هذا القول مسلك مهيار الا أنه زاد عليه زيادة حسنة وهي المعاتبة على الاصغاء الى أقوال الوشاة والاستماع منهم وذلك من أغرب ما قيل في هذا المعنى (ومن الحذاقة في هذا الباب) أن تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب وانما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها لان التحاميد لا تصدر في غيرها فانها تكون قد تضمنت أمور الائمة بالحمد كفتح مقفل أو هزيمة جيش أو ما جرى هذا المجرى (ووجدت أبا اسحق الصابي) على تقدمه في فن الكتابة قد أخل بهذا الركن الذي هو من أوكد أركان الكتابة فاذا أتى

تحميدة فى كتاب من هذه الكتب لا تكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب وإنما
تكون فى واد والكتاب فى واد الا ما قل من كتبه (فمما خالف فيه مطلع معناه) انه
كتب كتابا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الاتراك عنها وكان ذلك فتحا عظيما فابتدأ
بالتحميد فقال الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين الوحيد الفريد العلى
المجيد الذى لا يوصف الا بسلب الصفات ولا ينعت الا برفع النعوت الازلى
بلا ابتداء الابدى بلا انتهاء القديم لا بأمد محدود الدائم لا الى أجل
معدود الفاعل لا من مادة استمدها ولا بآلة استعملها الذى لا تدركه الاعين
بألحاظها ولا تحده الالسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه
الدهور بكرورها ولا تضارعه الاجسام بأقطارها ولا تجانسه الصور بأعراضها
ولا تضاربه أنداد النظراء والاشكال ولا تزاحمه مناكب القرناء والامثال بل
هو الصمد الذى لا كفؤ له والفرد الذى لا توأم معه والحى الذى لا تخترمه المنون
والقيوم الذى لا تشغله الشؤون والقدير الذى لا تؤوده المعضلات والخبير
الذى لا تعييه المشكلات وهذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذى افتتح بها
ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مصنف من مصنفات أصول الدين ككتاب
الشامل للجوينى أو كتاب الاقتصاد أو ما جرى مجراهما وأما أن توضع
فى صدر كتاب فتح فلا وهو وإن أساء فى هذا الموضع فقد أحسن فى مواضع أخر
وذلك أنه كتب كتابا عن الخليفة الطائع رحمه الله تعالى الى الاطراف عند عوده
الى كرسى ملكه وزوال ما نزل به وبأبيه المطيع رحمه الله من حادثة الاتراك فقال
الحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته وواصل الحبل بعد بتاته وجابر الوهى اذا ألم
وكاشف الخطب اذا أظلم والقاضى للمسلمين بعاقبة نشرهم ويشد أزرهم
ويصلح ذات بينهم ويحفظ الالفة عليهم وإن شابت ذلك فى الاحيان شوائب من
الحدثان فلن تتجاوز بهم الحد الذى يوقظ غافلهم وينبه ذاهلهم ثم انهم عائدون
الى فضل ما أولاهم الله وعودهم ووثق لهم ووعدهم من اعزاز نصرهم واعداء
شرهم واعزاز جانبهم وادلال مجانبهم واظهار دينهم على الدين كله ولو كره
المشركون وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب وإن كانت المعانى فيها مكررة
كالذى أنكرته عليه وعلى غيره من الكتاب وقدمت القول فيه فى باب السجع
فليؤخذ من هناك (ومن المبادى التى قد أخلقت وصارت مرذولة) أن يقال

في أوائل التقليدات ان أحق الخدم بأن ترعى خدمة كذا وكذا وان أحق من قلد الأعمال من اجتمع فيه كذا وكذا فان هذا ليس من المبادي المستحسنة ومن استعمله أولا فقد صغت فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادي والذي تبعه في ذلك اما مقلد ليس عنده قوة على أن يختار لنفسه واما جاهل لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والرديء وأهل زماننا هذا من الكتاب قد قصروا مبادي تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها وان أتوا بتحميدة من التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذي وضعت في صدره وكذلك قد كان الكتاب يستعملون في التقليدات مبدأ واحدا لا يتجاوزونه الى غيره وهو هذا ما عهد فلان الى فلان والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب الفتوح وما جرى مجراهما وقد أنكرت ذلك على مستعمله في مفتتح تقليد أنشأته بولاية وال فقلت كانت التقليدات تفتتح بكلام ليس بذي شان ولا يوضع في ميزان ولا يجتنى من أفنان وغاية ما يقال هذا ما عهد فلان الى فلان وتلك فاتحة لم تكن جديدة فتخلق بتطاول الأيام ولا حسنة النظم فيضاهى بمثلها من ذوات النظام وهذا التقليد مفتتح بحمد الله الذي تكفل لحامده بالزيادة وبدأ النعمة ثم قرنها من فضله بالاعادة وهو الذي بلغنا من مآرب الدنيا منتهى الارادة وسلم الينا مقاده فذلل لنا بها كل مقادة ووسد الأمر منا الى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وسادة ونرجو أن يجمع لنا بين سعادة الأولى والأخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة ثم نصلي على نبيه محمد الذي ميزه الله على الأنبياء بشرف السيادة وجعل انشقاق القمر له من آيات النبوة وانشقاق الايوان من آيات الولادة وعلى آله وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا الاشادة وبسطت عليهم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يحولوا عن خلق الزهادة أما بعد كذا وكذا ثم أنهيت التقليد الى آخره (ومن الحذاقة في هذا الباب) أن يجعل الدعاء في أول الكتاب من السلطانيات والاخوانيات وغيرهما مفهما من المعنى ما بني عليه ذلك الكتاب وهذا شيء انفردت بابتداعه وتراه كثيرا فيما أنشأته من المكاتبات فاني توخيته فيها وقصدته (فمن ذلك) ما كتبته في الهناء بفتح وهو هذا الكتاب مشافهة بخدمة الهناء للمجلس السامي الفلاني جدد الله له في كل يوم فتحا ونال عرش كل ذي سلطان لديه صرحا وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه

يوم فطر ويوم أضحى وكتب له على لسان الاسلام ولسان الايام ثناء خالدا ومدحا وأسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظمأ فيها ولا يضحى ثم أحدث بعد ذلك فى انشاء الكتاب المتضمن ما يقتضيه معانى ذلك الفتح (ومن ذلك) ما ذكرته فى الهناء بمولود وهو جدد الله مسرات المجلس السامى الفلانى ووصل صبوح هبائه بغبوقه وأمتعه بسليله المبشر بطروقه وأبقاه حتى يستنضى سوره ويرمى عن فوقه ويتربه أبكار المعانى حتى تحلق أعطافها بحلوقه وجعله كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ثم أحدث فى اتمام الكتاب بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى فأقل ما أوردته فيها من هذين المثالين واسع على م والهما فيما قصده من المعانى التى تبنى عليها كتبك فان ذلك من دقائق هذه الصناعة (وأما فواتح الكتب التى أنشأتها) فمنها ما اخترعته اختراعا ولم أسبق اليه وهى عدة كثيرة وقد أوردت منها بعضها (ومن ذلك) مفتتح كتاب الى ديوان الخلافة وهو نشأت سحابة من سماء الديوان العزيز النبوى جعل الله الخلود لدولته أوطانا والجدود لها أركانا ونصب أيامها فى أيام الدهر أحيانا وصورها فى وجهه عيانا وفى عينه انسانا ومدّ ظلها على الناس عدلا واحسانا وجمع الامم على دين طاعتها وان تفرقوا أديانا وأتاها من معجزات سلطانه ما لم ينزل به لغيرها سلطانا فارتاح الخادم لاقائمها وبسط يده لاستسقائها وقال رحمة مرسلة لا تخشى رعودها ولا تخلف وعودها ومن شأنها ان تروى بعض الصنائع التى يبقى آثارها لا الخمائل التى تذوى أزهارها وقد يعبر عن الكتاب ونائله بالسحاب ووابله فان صدر عن يد كيد الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع الصواب وصدق حينئذ قول القائل ان البحر عنصر السحاب لكن فرق بين ما يجود بمائه وما يجود بنعمائه وبين ما يسم الارض الماحلة وبين ما يسمى الاقدار الخاملة وما زالت كتب الديوان العزيز تضرب لها الامثال وتصرف نحوها الآمال ويرى الحسد فيها حسنا وان عدّ فى غيرها من سيئ الاعمال وهذا فصل من أول الكتاب (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وأرسلته اليه من الموصل الى أرض الشمال من بلاد الروم وهو طلع كوكب من أفق المجلس السامى لا خلت سماء به من عدو وحاسد ولا شيبت نوأم بحر جودها عن حكم الواحد ولا عدمت صحة الحدود المتبعة فى

الزمن الراقد ولا أوحشت الديامن ذكره الخالد الذي هو عمر خالد ولا زال مرفوعا الى المحل الذي يعلم به أن الدهر لا اس ناقد والكواكب تختلف مطالعها في الشمال والجنوب فمنها ما يطلع دائما في أحدهما وهو في الآخر دائم الغروب وكتاب المجلس كوكب لم يرمسده الارض مطلعه وان علم من السماء أين موضعه ولما ظهر الآن للخادم سجد له جامدا وخرله ساجدا وقال قد عبد الكواكب من قبلي فلا عجب أن أكون لهذا الكوكب عابدا وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن أبي كبشة الشعرى وهذا مطلع غريب والسابقة التالية لمطلعه أغرب ومن أغرب ما فيها قولي وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن أبي كبشة الشعرى والمراد بذلك أن ابن كبشة كان رجلا في الجاهلية يعبد الشعرى فخالف بذلك دين قومه ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قالت قريش هذا قد خالف دينا وسموه ابن أبي كبشة أي انه قد خالفنا كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعرى فأحدث أنا هذا المعنى وأودعته كتابي هذا فجاء كما تراه مستدعا غريبا (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان بالشام وهو طلعت من الغرب شمس فقيل قد آذنت أشراط الساعة بالاقتراب ولم يعلم أن تلك الانوار انما هي أنوار الكتاب لم تألف الابصار من قبله أن تطلع الشمس من الغرب وليس ذلك الا كتاب المجلس لا سلبه الله مزية هذا الوصف الكريم وانا من الفضل ما يقال معه وفوق كل ذي علم عليم وأحيا النفوس من كلمها روح كلمه كما شفى عليلها من ألفاظه نسيم الكليم ولما ورد على الخادم صار ليله نهارا وأصبح الناس في الحديث به أطوارا والمنصف منهم يقول قد جرت الشمس الى مستقرها والشمس لا تجد قرارا وهذا الكتاب في الحسن والغرابة كالذي قبله (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو تأوب زور من جانب المجلس السامي أدنى الله داره وجعل كلائه الامنة جاره وأشهد أفعال التقوى ليله وأفعال المكارم نهاره ووهبه من أعوام العمر طواله ومن أعوام العيش قصاره ولا أقدر السابقين الى المعالي أن يجروا معه ولا أن يشقوا غباره وليس ذلك الزور الا سطورا في قرطاس ولا فرق بين الكتاب وبين مرسله في

ملاطفة الايناس والله لا يصغر عندي هذا الزائر وتقرّ عيني برؤيته حتى لا أزال به قرير الناظر ومع هذا فاني عاتب لتأخره وههنا ملاطفة العتاب ومن تأخر عنه كتاب صديقه فلا بد أن يخطر له خاطر الارتياب والظنين بالمودّة لا يرى الا ظنينا وقد قيل انها وديعة وقليلا ما تجد على الودائع أمينا وهذا فصل من أول الكتاب (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو سحت روضة من جانب المجلس السامي جعل الله المعالي له رداء ونهايات المساعي له ابتداء وجعل من يقصر عن درجته حتى تكون الاكارم له فداء وهدى المحامد لافعاله وأهدى البقاء لايامه حتى يجتمع له الامران هدى واهداء وآتاه من السيادة ما يجعل أعداءه أصادق ومن السعادة ما يجعل أصدقاءه أعداءه فاستنشق الخادم رياها وتلقى بالتحية محياها واستمتع بأزهارها الى أن سقاها الاقلام لا سقى الغمام وقال هذا ربيع الارواح لا ربيع الاجسام ولو رام الاحاطة بوصفها لكانت الاقوال المطوّلة فيها مختصرة ولكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يتمثل أن الجنة في شجرة ومن أوصافها أنها جاءت رائدة ومن شأن الروض أن يرتاد وحلت محاسنها التي هي في غيرها من حظ البصر وفيها من حظ السمع والبصر والفؤاد ولما سرّح فيها ناظره وجد شوقه حمامة تغرّد في أكمامها وتردد الشجى لعدم أليفها اذا رددته الحمائم لقرب الافها وهذا قول له عند اخوان الصفاء علامة واذا تمثل كتاب الحبيب روضة فهل يتمثل شوق محبه الا حمامة وأي فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الاطواق لولا أنها تعلى شدوها على صفحات القلوب وتلك تعليه على عذبات الاوراق وهذا فصل من الكتاب وهو غريب عجيب وفيه معنيان مبتدعان وأعجبهما وأغربهما قولي حتى يتمثل أن الجنة في شجرة وهذا مستخرج من الحديث النبوي (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو تضوّعت نفحة من تلقاء المجلس السامي رعى الله عهده وسماه وصان ودّه ووفاه ويسر لي القاء العصا علقاه فعطرت الطريق التي سايرتها والريح التي جاورتها وأنت فأفرشتها خدّي وصممت عليها وِدّي وجعلتها ردعا لجيبي ولطيمة لردني وسحابا لعقدي وعلمت أنها ليست نفحة طيب ولكنها كتاب حبيب فانّ منانشق الارواح غير منانشق الاجسام ولا يستوي عرف

الطيب وعرف الاقلام ثم مددت يدى الى الكتاب بعد أن صافحت يد موصله كما صافحت عنقه مدله وقلت أهلا عن أدنى من الحبيب مزارا وأهدى لعينى قرة ولعلبى قرارا وهذا فى الغرابة كأخوانه التى تقدمت ولم أستقص ما اخترعته من هذا الباب فى مطالع الكتب (وأما ما أتيت فيه بالحسن) من المعانى ولكنه غير مخترع (فمن ذلك) مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين ارسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الملك الافضل على بن يوسف يتضمن تعزية وتهنئة أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وأما التهنئة فبوراثته الملك من بعده وهو لا يعلم القلم أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنية لكنه جمعهما جمعا دافى هماعلى حكم التثنية وفى مثل هذا الخطب يظل القلم حائرا وقد وقف موقف السخط والرضا ساخطا أولا ثم راضيا آخرا وهذا البيت الناصرى يتداول درجات العلى فما تقضى الا وائبه ترجع وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب الا وآخر يطلع والناس ان فجعوا بماجد ردوه من بعده ماجد وان قيل ان الماضى كان واحدا قيل بل الآتى هو الواحد وهذا فصل من أول الكتاب ثم كتبت فى هذا المعنى كتابين آخرين وفى الذى أوردته من هذا الفصل مقنع (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه وكانت الكتب قد انقطعت بينى وبينه زمانا وهو لقاء كتب الاحباب كلقاء الاحباب وقد تأتى بعد يأس منهما فيشتبه لها دمع السرور بدمع الاكتئاب ومن أحسنها كتاب المجلس السامى الفلانى جعل الله الليالى له صحبا والمعالى له عقبا ورفع مجده فوق كل ماجد حتى تكون حسناته لدى حسنا ته ذنبا ولا زال اسمه فى الافواه عذبا وذكره فى الالسنة رطبا وودّه لكل انسان انسانا ولكل قلب قلبا ثم انتهيت الى آخر الكتاب على هذا النسق وانما ذكرت ههنا مبدأه لانه الغرض المقصود فى هذا الموضع (ومن ذلك) ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه وهو البشرى تعطى للكتاب كما تعطى لمرسله وكل منهما يوفى حق قدره ويبذل فى منزله وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامى الفلانى لا زال محله أنيسا وذكره للفرقدين جليسا وسعيه على المكارم حبيسا ومجده جديدا المللابس اذا كان المجد لبيسا وههنا ذكرت فى هذا الكتاب كما ذكرته من الذى قبله فانى لم أذكر الا

مبدأه الذى هو العرض (ومما ينتظم فى هذا السلك) ما كتبته فى صدر كتاب يتضمن تعزية وهو لولم يلبس قلبى ثوب الحداد لهجر مداده ونصى عنه سواده وبعد عن قريحته وعاد الى طبيعته وحرم على نفسه أن يمتطى يدا أو يجرى الى مدى لكنه أحد فبدت وبكى فسكب وسطر هذا الكتاب من دموعه وضمنه ما حمله أحناء ضلوعه وانما استعار ذلك من صاحبه الذى أعداه وأبدى اليه من حزنه ما أبداه وهو نائب عنه فى تعزية سيدنا أحسن الله صبره ويسر أمره وأرضى عنه دهره ثم انهيت الكتاب الى آخره (ومن محاسن هذا الباب) أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم أو بخبر من الاخبار النبوية أو بيت من الشعر ثم يبنى الكتاب عليه (فمن ذلك) ما كتبته فى ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح وهو

ومن طلب الفتح الجليل فانما * مفاتيحه البيض الحفاف الصوارم

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم وجعلنا السيف وسيلة الى استفتاح الملك العقيم ورأينا المجد لا ينصب الا على النصب والراحة الكبرى لا تنال الا على جسر من التعب وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة وهى المملكة التى تعى الآمال دونها حسرى وانقيس اليها غيرها من الممالك كانت أصلا وكان غيرها فرعا وهذا فصل من أول الكتاب (ومن ذلك) ما كتبته فى مفتتح تقليد بالحسبة وهو ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ولا يختص به الا ذوو الاوامر المطاعة وذوو العلوم وقد جمع الله لنا هذين الوصفين كليهما وجعلنا من المستخلفين عليهما ولنبدأ أولا بحمده الذى هو سبب للمزيد ثم لنأخذ فى القيام بأمره الذى هو على كل نفس منه رقيب عتيد ولا ريب أن اصلاح العباد يسرى الى الارض حتى تزكو بطونها وتنام عيونها ويشترك فى بركات السماء ساكنها ومسكونها والامر بذلك جل ان لم توزعه الاكف تثقل على الرقاب واذا انتشرت أطراف البلاد فانما يفتقر الى مساعدة من مستنيب ومستناب وقد اخترنا لمدينة فلانية رجلا لم نأل فى اختياره جهدا وقدمنا فيه خيرة الله التى اذا صدقت نيتها صادفت رشدا وهو أنت أيها الشيخ فلان فابسط يدك بقوة الى أخذ هذا الكتاب وكن بحسنة من حسناتنا التى يرجح بها ميزان الثواب وحقق نظرنا فيك فانه من نور

الله الذي ليس دونه حجاب فتأمل كيف وقفت في هذه الآية التي بنيت التعليل عليها وهو من محاسن المبادي والافتتاحات (وكذلك وقفت في موضع آخر) وهو مفتتح كتاب كتبته الى شخص كانت له السفارة الى مخدومه في حاجة عرضت وهو ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا وهذا القول تتبع آثاره وتحمل عليه أنظاره وأولى الناس بسيدنا من شاركه في لحمة أدبه وان لم يشاركه في لحمة نسبه فان المناقب أقارب والمآثر أواصر

وليس يعرف لي فضلي ولا أدبي * الا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

ونتيجة هذه المقدمة بعث خلقه الكريم على عوارف افضاله واستهداء صنيعة جاهه التي هي أكرم من صنيعة ماله ولا تجارة أربح من هذه التجارة والساعي فيها شريك في الكسب بري من الخسارة (وأما الاخبار النبوية) فيسلك بها هذا المسلك بان يذكر الخبر في صدر الكتاب ثم يبنى عليه ولنذكر منها ولو مثالا واحدا وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان توفي والده ونقل ما كان باسمه اليه ووقفت قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وترك مالا فلورثته ومن ترك دينا أو كلا أو ضياعا فالي وعلي وهذا خلق من الاخلاق النبوية لا مزيد على حسنه وأساليب المكارم باسرها موضوعة في ضمنه ونحن نرجو أن نمشي على اثره ونتنزل منزلة رديفه أو ان نتشبه به فنبلغ مبلغ مده أو نصيفه وقد أرانا الله ذلك في قوم صحبونا فاسعفناهم بسابغ الانعام وأخذنا بهم صحبة الليالي والايام وتكفلنا أيتامهم من بعدهم حتى ودوا أن يكونوا هم الايتام وهذا فلان بن فلان رحمه الله ممن كان له في خدمة الدولة قدم صدق وأولية سبق وحفظ كتاب المحافظة عليها فقيل له في تلاوته اقرأ وارق ثم أنهيت التوقيع الى آخره فتأمل مفتتح هذا التوقيع فانه تضمن نص الخبر من غير تغيير وقد ضمنته بعض خبر آخر من الاخبار النبوية وهو قوله اقرأ وارق قال النبي صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرأها (وقد مثلت لك ههنا أمثالا يقتدى بها فاحذ حذوها وامض على نهجها والله الموفق للصواب

(النوع الثالث والعشرون في التخلص والاقتضاب) وهذا النوع أيضا كالذي قبله في أنه أحد الاركان الخمسة التي تقدمت الاشارة اليها في الفصل التاسع

التخلص والاقتضاب

من مقدمة الكتاب وينبغي لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جل همتك فإنه مهم عظيم من مهمات البلاغة (أما التخلص) وهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر (وأما الاقتضاب) فإنه ضد التخلص وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين وأما المحدثون فإنهم تصرفوا في التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة (فمن ذلك) قول أبي تمام

يقول في قومس صحبي وقد أخذت * منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا * فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وهذان البيتان من بديع ما يأتي في هذا الباب ونادره وكذلك قوله أيضا في وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الأوصاف فقال

خلق أطل من الربيع كأنه * خلق الإمام وهديه المتيسر
في الأرض من عدل الإمام وجوده * ومن النبات الغض سرج تزهر
تنسى الرياض وما يروض جوده * أبدا على مر الزمان يذكر

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها وكذلك قوله في قصيدته الفائية التي أولها * أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا * فقال فيها

غيد أجاد ولي الحسن سنتها * فصاغها بيديه روضة أنفا
يضحى العذول على تأنيبه كلفا * بعذر من كان مشغوفا بها كلفا
ودع فؤادك توديع الفراق فما * أراه من سفر التوديع منصرفا
يجاهد الشوق طورا ثم تجذبه * جهاده للقوافي في أبي دلفا

هذا أحسن من الذي قبله وأدخل في باب الصنعة وكذلك جاء قوله

رعت هواك عفا العداة كما عفت * منها طلول باللوى ورسوم

قوله يمضي في الديوان يمشي وقوله تنسى الرياض في الديوان تنسى الرياض وما يروض فعله * أبدا على طول البلاد يذكر

لا والذي

لا والذى هو عالم أن النوى * أجل وأن أبا الحسين كريم
ما حلت عن سنن الوداد ولا غدت * نفسى على الف سواه تحوم

وهذا خروج من غزل الى مديح أغزل منه (ومن البديع فى هذا الباب) قول أبى نواس من جملة قصيدته المشهورة التى أولها * أجارة بيتينا أبوك غيور * فقال عند الخروج الى ذكر الممدوح

تقول التى من بيتها خف مركبى * عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب * بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر * جرت فجرى فى جريهن عبير
ذرينى أكثر حاسديك برحلة * الى بلد فيها الخصيب أمير

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الدالية التى أولها * عواذل ذات الخال فى حواسد *

وأورد نفسى والمهند فى يدى * موارد لا يصدرن من لا يجالد
ولكن اذا لم يحمل القلب كفه * فكيف اذا لم يحمل الكف ساعد
خليلى انى لا أرى غير شاعر * فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
ولا تعجبا ان السيوف كثيرة * ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح فى هذه الابيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ثم ان أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة فى بيت واحد وهو من بدائعه المشهورة (وكذلك) قوله أيضا وهو من أحسن ما أتى به من التخلصات وهو فى قصيدته التائية التى أولها * سرب محاسنه حرمت ذواتها * فقال فى أثنائها

ومطالب فيها الهلاك أتيتها * ثبت الجنان كأننى لم آتها
ومقانب بمقانب غادرتها * أقوات وحش كن من أقواتها
أقبلتها غرر الجياد كأنما * أيدى بنى عمران فى جبهاتها
الثابتين فروسة كجلودها * فى ظهرها والطعن فى لباتها
فكأنها نتجت قياما تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها
تلك النفوس الغالبات على العلا * والمجد يغلبها على شهواتها
سقيت منابتها التى سقت الورى * بيدى أبى أيوب خير نباتها

قوله أجل فى الديوان أمضى وقوله ما حلت فى الديوان ما زلت وقوله فكيف اذا لم يحمل القلب فى الديوان على حالة لم يحمل الكف ساعد

فانظر الى هذين التخلصين البديعين فالاول خرج به الى مدح قوم الممدوح والثاني خرج به الى نفس الممدوح وكلاهما قد أغرب فيه كل الاغراب وعلى هذا جاء قوله

اذا صلت لم أترك مصالا لصائل * وان قلت لم أترك مقالا لعالم
والا فخانتني القوافي وعاقني * عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

والشعراء متفاوتون في هذا الباب وقد يقصر عنه الشاعر الحاذق المشهور بالاجادة في ايراد الالفاظ واختيار المعاني كالبحتري فان مكانه من الشعر لا يجهل وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة لينا مسها خشنا سنانها وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الاطراب وعنقاؤهم في الاغراب ومع هذا فانه لم يوفق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا وانما حظت شعره ولم أجد له من ذلك شيأ مرضيا الا اليسير كقوله في قافية الباء من قصيدة

وكأنني اذا الحوادث أطلعت * شهبا بعزة ابن شهاب

وكقوله في قافية الدال من قصيدة

قصدت لنجران العراق ركابنا * فطال ارتحيها لمحلة ماجد
آليت لا تلقين حد الصاعدا * في مطلب حتى تناخ بصاعد

وكقوله في قصيدته التي أولها * حلفت لها بالله يوم التفرق * فانه تشوق فيها الى العراق من الشام ووصف العراق ومنازله ورياضه فأحسن في ذلك كله ثم خرج الى مدح الفتح بن خاقان بسياقه آخذة بعضها برقاب بعض فقال

ربائع من الفتح بن خاقان لم تزل * غنى لعديم او فكاكا لموثق

ثم أخذ في مدحه بعد ذلك بضروب من المعاني وكذلك ورد قوله في قصيدته التي أولها * ميلوا الى الدار من ليلى نحييها * فانه وصف البركة فأبدع في أوصافها ثم خرج منها الى مدح الخليفة المتوكل فقال

كأنها حين لجت في تدفقها * يد الخليفة لما سال واديها

وأحسن ما وجدته له وهو مما لطف فيه كل اللطف قوله في قصيدته التي يمدح بها ابن بسطام ومطلعها * نصيب عينك من سح وتسجام * فقال عند تخلصه الى

المديح هل الشباب ملم بي وراجعة * أيامه لي في أعقاب أيام
لو أنه نائل عمرو يجاد به * اذا انطلقته عمدا بن بسطام

وهذا من الملائح في هذا الباب وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة الى كثرة شعره وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي ان كتاب الله خال من التخلص وهذا القول فاسد لان حقيقة التخلص انما هي الخروج من كلام الى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج اليه وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالانذار والبشارة بالجنة الى أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم الى متشابه ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل الى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان أخذ بعضها برقاب بعض (فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم) قوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي انه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين هذا كلام يسكر العقول ويسحر الالباب وفيه كفاية لطالب البلاغة فانه متى أنعم فيه نظره وتدبر أثناءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن ألا ترى ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ثم أنحى على آلهتهم وأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليد آبائهم

الاقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم أراد الخروج من ذلك الى ذكر الاله الذى لا تجب العبادة الا له ولا ينبغى الرجوع والانابة الا اليه فصور المسئلة فى نفسه دونهم بقوله فانهم عدو لى على معنى انى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله فى يده وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى لهم الى القبول لقوله وأبعث على الاستماع منه ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة فتخلص عند تصويره المسئلة فى نفسه الى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات العظام من تعظيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وأنشأه الى حين وفاته مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ليعلم من ذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة واجب على الخلق الخضوع له والاستكانة لعظمته ثم خرج من ذلك الى ما يلائمه ويناسبه فدعا الله بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الاوابين لان الطالب من مولاه اذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للاجابة وأنجح لحصول الطلبة ثم أدرج فى ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة الله تعالى من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار فجمع بين الترغيب فى طاعته والترهيب من معصيته ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند معاينة الجزاء وهو سؤال موبخ لهم مستهزئ بهم وذكر ما يدعون اليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى العودة ليؤمنوا فانظر أيها المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعانى فيخلص من كل واحد منها الى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد فخرج من ذكر الاصنام وتبرى أبيه وقومه عن عبادتهم اياها مع ما هى فيه من التعرى عن صفات الالهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع الى ذكر الله تعالى ووصفه بصفات الالهية فعظم شأنه وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح الا له ثم خرج من هذا الى دعائه اياه وخضوعه له ثم خرج منه الى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه فقد وردت هذه التخلصات اللطيفة المودعة فى أثناء هذا الكلام وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات كالذى ورد فى سورة الاعراف فانه ذكر فيها قصص الانبياء والامم الخالية من آدم الى نوح

عليهما السلام وكذلك الى قصة موسى عليه السلام حتى انتهى الى آخرها الذى هو واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون هذا تخلص من التخلصات الحسان فان الله تعالى ذكر الانبياء والقرون الماضية الى عهد موسى عليه السلام فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة فأجيب بقوله تعالى قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين من حالهم كذا وكذا ومن صفتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبى الامى ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته الى آخر الكلام وياالله العجب كيف يزعم العانى أن القرآن خال من التخلص ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فانها قصة برأسها وهى مقصصة شرح حاله مع اخوته من أول أمره الى آخره وفيها عدة تخلصات فى الخروج من معنى الى معنى وكذلك الى آخرها ولو أخذت فى ذكر ما فى القرآن الكريم من هذا النوع لاطلت ومن أنعم نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة (وقد جاءنى من التخلصات فى الكلام المنثور أشياء كثيرة) وسأذكرها هنا بذة يسيرة منها (فمن ذلك) ما أوردته فى كتاب الى بعض الاخوان أصف فيه الربيع ثم خرجت من ذلك الى ذكر الاشواق فقلت وكما أن هذه الاوصاف فى شأنها بديعة فكذلك شوقى فى شأنه بديع غير أنه لحزنه فصل مصيف وهذا فصل ربيع فأما أملى أحاديثه العجيبة على الورى وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستمع حديث من قتله الهوى (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته فى كتاب الى بعض الاخوان أيضا وأرسلته

اليه من بلاد الروم وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه ثم خرجت من ذلك الى ذكر الشوق فقلت ومما أشكوه من بردها أن الفرو لا يلبس الا في شهر ناجر وهو قائم مقام الظل الذي يتبرد به من لفح الهواجر ولفرط شدته لم أجد ما يخففه فضلا عما يذهبه فان النار المعدة له تطلب من الدفء أيضا ما أطلبه لكن وجدت نار أشواقي أشد حرا فاصطليت بجمرها التي لا تذكى برماد ولا تؤول الى رماد ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشد من حر الفؤاد غير أني كنت في ذلك كمن استدفع علة بعلة واستشفى من علة بعلة وأقتل ما أعلك ما شفاك فما طلبك عن يصطلي نار الاشواق وقد قنع ممن أحبه بالاوراق فضن عليه بالاوراق (ومما ينتظم في هذا العقد) ما ذكرته في مفتتح كتاب يتضمن عناية بعض المتطلبين فاستطردت فيه بالمعنى الى ذكر المكتوب اليه وهو هدايا المكارم أنفس من هدايا الاموال وأبقى على تعاقب الايام والليالي وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تورث حمدا وتكسب مجدا وهي خير ثوابا وخير مردا ولا يسير بها الا سجية طبعت على الكرم وحلت من عنصر الديم كسجية مولانا أعلاه الله علوا تفخر به الارض على السماء وتحسده شمس النهار ونجوم الظلماء ولا زالت أياديه مخجلة صوب الغمام معدية على نوب الايام مغنية بشرف فضلها عن شرف الاخوال والاعمام وتلك الهدية هي تجريد الشفاعة في أمر فلان ومن ايمان المرء سعيه في حاجة أخيه وان لم يمسه شيء من أسباب أواخيه فان المؤمنين اخوة وان تباينت مناسبهم وتفاوتت مراتبهم ومن صفتهم أن يسعى بذمتهم أدناهم ويجيرهم من عناه من الامر ما عناهم ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب (ومن ذلك) ما كتبته من كتاب الى صديق استحدثت مودته وهو من أهل العراق وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سار عني فكتبت اليه أستهديه رطبا فقلت هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي ترف كلمه رفيف الاوراق وتسجع سجع ذوات الاطواق وتهتف وهي مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق وأبرح الشوق ما كان عن فراق غير بعيد وود استحدثت حلته واللذة مقترنة بكل شيء جديد وأرجو أن لا يبلي قدم الايام لهذه الجدة لباسا وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى حسدا ولا باسا وقد قيل ان للمودات طعما كما أن لها وسما وان ذا اللب يصادق بمساءل أن يصادق جسما واني لاجد لودك

شديد الحلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها وقد أذكرني الآن بحلاوة الرطب الذي هو من أرضها وغير عجيب لما بين الأشياء أن يذكر بعضها ببعضها إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالأسرار وفرق بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار فلا يبطر سيدنا علي في هذا التمثيل وربما كان ذلك تعريضا ينوب مناب التطفيل وهذا من التخلصات البديعة فانظر أيها المتأمل كيف ساقت الكلام إلى استهداء الرطب وجعلت بعضه آخذا برقاب بعض حتى كأنه أفرغ في قالب واحد وكذلك فليكن التخلص من معنى إلى معنى وهذا القدر من الأمثلة كاف للمتعلم (ومما استطرف من هذا النوع في الشعر) قول ابن الزمكدم الموصلي وهو

وليل كوجه البرقعيدي مظلم * وبرد أغانيه وطول قرونه
سريت ونومي فيه نوم مشرد * كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق فيه التفات كأنه * أبو جابر في خبطه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه * سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وهذه الأبيات لها حكاية وذاك أن هذا الممدوح وهو شرف الدولة قرواش ملك العرب وكان صاحب الموصل فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر وكان البرقعيدي مغنيا وسليمان ابن فهد وزيرا وأبو جابر حاجبا فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه فأنشد هذه الأبيات ارتجالا وهي غريبة في بابها لم يسمع مثلها ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها حتى رقي في معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة فابتدأ البيت الأول بهجو البرقعيدي فجاء في ضمن مراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها وهي الظلمة والبرد والطول ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له وكذلك البيت الثاني والثالث ثم خرج إلى المدح بألطف وجه وأدق صنعة وهذا يسمى الاستطراد وما سمعت في هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات (ومما يجري على هذا الأسلوب) ما ورد لابن الحجاج البغدادي وهي أبيات لطيفة جدا

ألا يا ماء دجلة لست تدري * بأني حاسد لك طول عمري
ولو أني استطعت سكرت سكرا * عليك فلم تكن يا ماء تجري

فقال الماء ما هذا عجيب * بما استوحشته ياليت شعري

فقلت له لانك كل يوم * تمر على أبى الفضل بن بشر

تراه ولا أراه وذاك شئ * يضيق عن احتمالك فيه صدري

وما علمت معنى فى هذا المقصد ألطف ولا أرق ولا أعذب ولا أحلى من هذا اللفظ ويكفى ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الابيات ولا تظن أن هذا شئ انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة وفات من تقدمهم لما عندهم من قشف العيش وغلظ الطبع بل قد تقدم أوائل الى هذا الاسلوب وان أقلوا منه وأكثر منه المحدثون وأى حسن من محاسن البلاغة والفصاحة لم يسبقوا اليه وكيف لا وهم أهله ومنهم علم وعنهم أخذ (فمن ذلك) ماجاء للفرزدق وهو

وركب كان الريح تطلب عندها * لها ترة من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الليل وهى تلفهم * الى شعب الاكوار من كل جانب

اذا آنسوا نارا يقولون ليتها * وقد خصرت أيديهم نار غالب

فانظر الى هذا الاستطراد ما أحلاه وأحسنه (واعلم) أنه قد يقصد الشاعر التخلص ويأتى به قبيحا كما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته التى أولها

ملث القطر أعطشها ربوعا * فقال عند الخروج من الغزل الى المديح

غدا لك كل خلو مستهاما * وأصبح كل مستور خليعا

أحبك أو يقولوا جر نمل * ثبيرا وابن ابراهيم ريعا

وهذا التخلص كما تراه بارد ليس عليه من مسحة الجمال شئ وههنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص فينبغى لسالك هذه الطريق أن ينظر الى ما يضعه فان واتاه التخلص حسنا كما ينبغى والا فليدعه ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا كما فعل أبو الطيب ولهذا نظائر وأشباه وقد استعمل ذلك فى موضع آخر فى قصيدته التى أولها * أحيا وأيسر ما قاسيت ماقتلا * فقال

على الامير يرى ذلى فيشفع لى * الى التى تركتنى فى الهوى مثلا

والاضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره وما ألقاه فى هذه الهوة الا أبو نواس فانه قال

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد * هواك لعل الفضل يجمع بيننا

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذريح لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به

قيس وذلك حكاية وهو أنه لما هام بلبنى فى كل واد وحتى تهارق له الناس ورحموه سعى له ابن ابى عتيق الى أن طلقها من زوجها وأعادها الى قيس فزوجها اياه فقال عند ذلك

جزى الرحمن أفضل ما يجازى * على الاحسان خيرا من صديق
وقد جربت اخوانى جميعا * فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع * ورأى حرت فيه عن طريق
وأطفى لوعة كانت بقلبى * أغصتنى حرارتها بريق

وبين هذا الكلام وبين كلام أبى نواس بون بعيد وقد حكى عن ابن أبى عتيق أنه قال يا حبيبى أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد الا ظنني قوادا (وأما الاقتضاب) فهو الذى أشرنا اليه فى صدر هذا النوع وهو قطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة تكون بينه وبينه (فمن ذلك) ما يقرب من التخلص وهو فصل الخطاب والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أمابعد لان المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده فاذا أراد أن يخرج الى الغرض المسوق اليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد (ومن الفصل الذى هو أحسن من الوصل لفظة هذا) وهى علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى كلام آخر غيره كقوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب ألا ترى الى ما ذكر قبل هذا ذكر من ذكر من الانبياء عليهم السلام وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها فقال هذا ذكر ثم قال وان للمتقين لحسن مآب ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال هذا وان للطاغين لشر مآب وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف موقعا من التخلص وقد وردت لفظة هذا فى الشعر الا أن ورودها فيه قليل بالنسبة الى الكلام المنثور (فمن ذلك) قول الشاعر المعروف بالحمار المدنى فى قصيدة أولها * العيش غض والزمان غرير

انى ليعجبنى الزمان سحرة * ويروق لى بالحاشرية دير
وأكاد من فرح السرور اذا بدا * ضوء الصباح من السرور أطير

وإذا رأيت الجوق في نصيبة * للعيس في سماتها تكسير
منقوشة صدر البراة كأنه * فيروزج قد زانه بلور
نادت بي اللذات ويحك فانتهز * فرص المنى يا أيها المغرور
مل بي الى حور السقاة فانني * أهوى سقاة الكاس حين تحور
هذا وكم لي بالجنينة سكرة * أنا من بقايا شربها مخمور
باكرتها وغصونها مغرورة * والماء بين مروجها مسجور
في فتية أناوا النديم وقينة * والكاس والمزمار والطنبور

هذه الابيات حسنة وخروجها من شدق هذا الرجل الحمار عجيب ولو جاءت في شعر أبي نواس لزانت ديوانه * والاقتضاب الوارد في الشعر كثير لا يحصى والتخلص بالنسبة اليه قطرة من بحر ولا يكاد يوجد التخلص في شعر الشاعر المجيد الا قليلا بالنسبة الى المقتضب من شعره (فمن الاقتضاب) قول أبي نواس في قصيدته الموسومة التي أولها * يا كثير النوح في الدمن * وهذه القصيدة هي عين شعره والملاحة للعيون وهي تنزل منزلة الالف لا منزلة الواو الا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا فبينما هو يصف الخمر ويقول فاسقني كأسا على عذل * كرهت مسموعه أذني

من كميت اللون صافية * خير ما سلسلت في بدني
ما استقرت في فؤادفتى * فدرى ما لوعة الحزن

حتى قال تضحك الدنيا الى ملك * قام بالآثار والسنن
سن للناس الندى فندوا * فكأن البخل لم يكن

وما أكثر مدائح أبي نواس مقتضبة هكذا والتخلص غير ممكن في كل الاحوال وهو من مستصعبات علم البيان (ومن هذا الباب) الذي نحن بصدد ذكره قول البحتري في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الأسد وقتله اياه وأولها * أجدك ما ينفك يسري لزينبا * وهي من أمهات شعره ومع ذلك لم يوفق فيها للتخلص من الغزل الى المديح فانه بينما هو في تغزله وهو يقول

عهدتك ان منيت منيت موعدا * جهاما وان أبرقت أبرقت خلبا
وكنت أرى أن الصدود الذي مضى * دلال فما ان كان الا تجنبا
فوا أسفا حتام أسأل مانعا * وآمن خوانا وأعتب مذنبا

حتى قال فى اثر ذلك

أقول لركب معتفين تدرعوا * على عجل قطعا من الليل غيهبا
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه * أعم ندى فيكم وأيسر مطلبا

خرج الى المديح بغير وصلة ولا سبب وكذلك قوله فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان أيضا وذكر محاربته عند انخساف الجسر به وقد أغرب فيها كل الاغراب وأحسن كل الاحسان وأولها * متى لاح برق أو بدا طلل قفر * فبدأ بها هو فى غزلها حتى قال

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدى * اذا بقى الفتح بن خاقان والقطر

خرج الى المديح مقتضبا له لا متعلقا به وأمثال هذا فى شعره كثير * (النوع الرابع والعشرون فى التناسب بين المعانى) * وينقسم الى ثلاثة أقسام (القسم الاول فى المطابقة) وهذا النوع يسمى البديع أيضا وهو فى المعانى ضد التجنيس فى الالفاظ لان التجنيس هو أن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشئ وضده كالسواد والبياض والليل والنهار وخالفهم فى ذلك قدامة بن جعفر الكاتب فقال المطابقة ايراد لفظتين متساويين فى البناء والصيغة مختلفين فى المعنى وهذا الذى ذكره هو التجنيس بعينه غير أن الاسماء لا مشاحة فيها الا اذا كانت مشتقة ولننظر نحن فى ذلك وهو أن نكشف عن أصل المطابقة فى وضع اللغة وقد وجدنا الطباق فى اللغة من طابق البعير فى سيره اذا وضع رجله موضع يده وهذا يؤيد ما ذكره قدامة لان اليد غير الرجل لا ضدها والموضع الذى يقعان فيه واحد وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذى يجمعهما واحد فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا حيث كان الاسم مشتقا مما سمى به وذلك مناسب وواقع فى موقعه الا أنه جعل للتجنيس اسما آخر وهو المطابقة ولا بأس به الا ان كان مثله بالضدين كالسواد والبياض فانه يكون قد خالف الاصل الذى أصله بالمثال الذى مثله وأما غيره من أرباب هذه الصناعة فانهم سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه هذا الظاهر لنا من هذا القول الا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن ولنرجع الى ذكر هذا القسم من التأليف وايضاح

حقيقته فقول الاليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة لانه لا يخلو الحال فيه من وجهين اما أن يقابل الشيء بضده أو يقابل بما ليس بضده وليس لنا وجه ثالث (فأما الاول) وهو مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض وما جرى مجراهما فانه ينقسم قسمين أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ (أما المقابلة في اللفظ والمعنى) فكقوله تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا فقابل بين الضحك والبكا والقليل والكثير وكذلك قوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير المال عين ساهرة لعين نائمة (ومن الحسن المطبوع الذي ليس بمتكلف) قول علي رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه ان الحق ثقيل مرى والباطل خفيف وبى وأنت رجل ان صدقت سخطت وان كذبت رضيت فقابل الحق بالباطل والثقيل المرى بالخفيف الوبى والصدق بالكذب والسخط بالرضا وهذه خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار وكذلك ورد قوله رضي الله عنه لما قال الخوارج لا حكم الا الله تعالى هذه كلمة حق أريد بها باطل (وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضي الله عنه) وقد أحضره بين يديه ليقتله فقال له ما اسمك قال سعيد بن جبير فقال بل أنت شقي بن كسير وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين وفي كلامه هذا مطابقة حسنة فانه نقل الاسمين الى ضدهما فقال في سعيد شقي وفي جبير كسير وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات (ومما وجدته في لغة الفرس) انه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره حركنا بسكونه وأول كتاب الفصول لابقراط في الطب قوله العمر قصير والصناعة طويلة وهذا الكتاب على لغة اليونان (ومن كلامي في هذا الباب) ما كتبته في صدر مكتوب الى بعض الاخوان وهو صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر وصبر مليم وجزع عاذر وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر (وكذلك) كتبت الى بعض الاخوان أيضا فقلت صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه وطرف مستوحش لفراقه فهذا من قوع الكآبة بظلامه وهذا ممتع ببهجة اشراقه غير أن لقاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الافكار وتتناجى به من وراء الاستار وذلك أخو الطيف الملم في المنام الذي يعوّه بلقاء الارواح على لقاء الاجسام (ومن هذا النوع)

ما ذكرته في كتاب أصف المسير من دمشق الى الموصل على طريق المناظر فقلت من جملته ثم نزلت أرض المناظر فعرفت الارواح وشرقت الجسوم وحصل الاعدام من المسار والانزال من الهموم وطالبتني النفس بالعود والقدرة معاسرة واويت الى ظل الآمال والآمال مشمسة (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب الى بعض الاخوان وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الادب فقلت وهم مسؤلون أن لا ينسوني في نادي فضلهم الذي هو مجمع الآمال وملتقط اللآل ووجوه ألفاظه مشرقة بأيدي الاقلام المتسودة وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة والواغل اليه يسكر من خمرته التي تدعه العقول من اعنائها ولا تشربها أحد غيرا كفائها وهذه الفصول المذكورة لا خفاء بما تضمنته من محاسن المقابلة (ومما ورد) من هذا النوع شعرا قول جرير

وأعور من نبهان أما نهاره * فاعمى وأما ليله فبصير

وهكذا ورد قول الفرزدق

قبح الاله بني كليب انهم * لا يغدرون ولا يفون بجار
يستيقظون الى نهيق حمارهم * وتنام أعينهم عن الاوتار

فقابل بين الغدر والوفاء وبين التيقظ والنوم وفي البيت الاول معنى يسأل عنه وكذلك ورد قول بعضهم

ولا الجود يفني المال والجد مقبل * ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

وقد أكثر أبو تمام من هذا في شعره فأحسن في موضع وأساء في موضع فمن احسانه قوله

ما ان ترى الاحساب بيضا وضحا * الا بحيث ترى المنايا سودا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا

سوف على أولى الزمان وانما * خلق المناسب ما يكون جديدا

وعلى هذا النهج ورد قوله

اذا كانت النعمى سلوبا من امرئ * غدت من خليجي كفه وهو مترع
وان عثرت بيض الليالي وسودها * توحدته أيامها وهي مجمع
ويوم يطيل العمر يحفظ وسطه * سمر العوالي والنفوس تضيع
مصيف من الهيجاء ومن حاجم الوغى * ولكنه من وابل الدم مربع

(ومن هذا الاسلوب) قوله أيضا

تقرب الشقة القصوى اذا أحدثت * سلاحها وهو الارقال والرمل
اذا تظلمت من أرض فصلت بها * كانت هي العز الا أشباه الذلل
لم رضيانك ما أرغمت آنفها * والهاديات وهي الشرد الضلل

وعلى هذا الاسلوب ورد قوله

وناضرة الصباحين استكثرت * طلاع المرط والدرع الندى
تشكى الاين من نصف سريع * اذا قامت ومن نصف بطى

وقد جاء لابي نواس ذلك فقال

أقلني قد ندمت على الذنوب * وبالاقرار عذت من الجحود
أنا استهديت عفوك من قريب * كما استعفيت سخطك من بعيد

فقابل بين الاضداد من الجحود والاقرار والعفو والسخط والقرب والبعد وعلى نحو من ذلك ورد قول على بن جبلة فى أبى دلف العجلى وهو

أيم المهير ونكاح الايم * يومان يوم أبؤس وأنعم * وجمع مجد وندى مقسم

وكذلك قوله أيضا

هو الامل المبسوط والاجل الذى * يمر على ايامه الدهر أو يحلو
ولا تحسب الايام تفعل فعله * وان كان فى تصريفها النقض والفتل
فعش واحدا أمّا الثراء فعاجل * مباح وأمّا الجار فهو محى بسل

ومما جاء من هذا القسم قول البحترى

أحسن الله فى ثوابك عن ثغـ * ـر مضاع أحسنت فيه البلاء
كان مستضعفا فعز وبحرو * ما فأجدى ومظلما فأضاء

ومن أحسن ما ورد له فى هذا الباب قوله

أشكو اليك أناملا ما تنطوى * بخلا وأملاكا تقصر بها اليد
أرضيهم قولا ولا يرضونى * فعلا وتلك قضية لا تقصد
فأذمهم بهم مايذم وربما * سامحتهم فحمدت ما لا يحمد

وعلى هذا النهج ورد قوله

وتوقعى منك الاساءة جاهدا * والعدل أن أتوقع الاحسانا
وكأنما سر لك ليس معنى راضيا * وكذاك فاحش جشوبى غضبانا

(وأمّا أبو الطيب المتنبى) فانه استعمل هذا النوع قليلا فى شعره فمن ذلك قوله

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا * كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا

وكذلك قوله الى رب مال كلما شت شمله * تجمع فى تشتيته للعلا شمل

(ومما) استعد ته من قوله فى هذا الباب

كأن سهاد الليل يعشق مقلتى * فبينهما فى كل هجر لنا وصل

(ومما) جاء من هذا الباب

لما اغتدت قما للوداع وأعرت * عبراتها عسا ندمع ناطق

فرقن بين معاجر ومحاجر * وجمعن بين بنفسج وشقائق

وهذا تحته معنى يستدل عليه غير المقابلة وذهب بعض أهل العلم الى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة لان من العادة ان يشبه العارض بالبنفسج وهذا قول غير سائغ لان العارض انما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره فاذا طر وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شبه بالبنفسج لانه يكون بين الاخضر والاسود وليس فى الشعر ما يدل على أن المودع كان شابا قد طر عارضه والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فرقت جارها ولطمت خدها فجمعت بين أثر اللطم وهو شبيه بالبنفسج وبين لون الخد وهو شبيه الشقائق وفرقت بين جارها وبين وجهها بالفريق ولها وجدة على الوداع هذا هو معنى البيت لا ما ذهب اليه هذا الرجل (واما المقابلة فى المعنى دون اللفظ فى الاضداد فما جاء به قول المقنع الكندى) من شعراء الحماسة

لهم جل مالى ان تتابع لى غنى * وان قل مالى لم أكلفهم رفدا

فقوله تتابع لى غنى فى قوله كثر مالى فهو اذا مقابله من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لان حقيقة الاضداد اللفظية انما هى فى المفردات من الالفاظ نحو قام وقعد وحل وعقد وقل وكثر فان القيام ضد القعود والحل ضد العقد والقليل ضد الكثير فاذا ترك المفرد من الالفاظ وتوصل الى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابله من جهة المعنى لا من جهة اللفظ كقول هذا الشاعر تتابع لى غنى فى معنى كثر مالى وهذه مقابلة معنوية لا لفظية فاعرف ذلك (وأما مقابلة الشئ بما ليس بضده فهى ضربان) أحدهما أن لا يكون مثلا والآخر أن يكون مثلا (فالضرب الاول) يتفرع الى فرعين (الاول) ما كان بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقارب كقول قريط بن أنيف

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن اساءة أهل السوء احسانا

فقابل الظلم بالمغفرة وليس ضد الظلم وانما هو ضد العدل الا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينها وبين الظلم وعلى هذا جاء قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم فان الرحمة ليست ضد الشدة وانما ضد الشدة اللين الا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة وكذلك ورد قوله تعالى ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل فان المصيبة سيئة لأن كل مصيبة سيئة وليس كل سيئة مصيبة فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص (الفرع الثانى) ما كان بين المقابل والمقابل به بعد والذى لا يحسن استعماله كقول أم النحيف وهو سعد بن قرط وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها فقالت من أبيات تذمها بها

تربص بها الايام علّ صروفها * سترمى بها فى جاحم متسعر

وكم من كريم قد مناه الهوى * بمذمومة الاخلاق واسعة الحر

فقولها مذمومة الاخلاق واسعة الحر من المقابلة البعيدة بل الاولى أن كانت قالت بضيقة الاخلاق واسعة الحر حتى تصح المقابلة وهذا مما يدل على ان العربى غير مهتد الى استعمال ذلك بصنعته وانما يجىء له منه ما يجىء بطبعه لا بتكلفه واذا أخطأ فانه لا يعلم الخطأ ولا يشعر به والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن وحصلت المقابلة وانما يعذر من يعذر فى ترك المقابلة فى مثل هذا المقام اذا كان الوزن لا يواتيه (وأما المحدثون من الشعراء) فانهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه لا جرم أنهم أشد ملامة من العرب (فمن ذلك) قول أبى الطيب المتنبى

لمن يطلب الدنيا اذا لم يردبها * سرور محب أو مساءة مجرم

فان المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم وليست متوسطة أيضا حتى يقرب الحال فيها وانما هى بعيدة فانه ليس كل من أجرم اليك كان مبغضا لك (ومما يتصل بهذا الضرب) ضرب من الكلام يسمى المؤاخاة بين المعانى والمؤاخاة بين المبانى وكان ينبغى أن نعقد له بابا مفردا لكنا رأيناه ينظر الى التقابل من وجه وصلناه به (أما المؤاخاة بين المعانى) فهو أن يذكر المعنى مع أخيه لا مع الاجنبى مثاله أن تذكر وصفا من الاوصاف وتقرنه بما

يقرب منه ويلتئم به فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا فى الصناعة وان كان جائزا (فى ذلك) قول الكميت

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة * وان تكامل فيها الدلّ والشنب

فان الدلّ يذكر مع الغنج وما أشبهه والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مظنة الغلط لانه يحتاج الى ثاقب فكرة وحذق بحيث توضع المعانى مع أخواتها لا مع الاجنبى منها (وقرأت فى كتاب الاغانى لابى الفرج) انه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت أم هل ظعائن البيت فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصى قال خطأك فانك تباعدت فى القول أين الدلّ من الشنب ألا قلت كما قال ذو الرمة

لمياء فى شفتيها حوّة لعس * وفى اللثات وفى أنيابها شنب

ورأيت أبا نواس يقع فى ذلك كثيرا كقوله فى وصف الديك

له اعتدال وانتصاب قدّ * وجلده يشبه وشى البرد

كأنها الهداب فى الفريد * محدودب الظهر كريم الجدّ

فانه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجدّ وهذا لا يناسب هذا لان الظهر من جملة الخلق والجدّ من النسب وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويناسبه أيضا وكذلك أخطأ أبو نواس فى قوله

وقد حلفت يمينا * مبرورة لا تكذب * برب زمزم والحوض والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب وانما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما يجرى مجراهما وأما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وما يجرى مجراهما (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله أيضا

أحسن من منزل بذى قار * منزل جارة وجار

وشمّ ريحانة ونرجسة * أحسن من أينق وأكوار

فالبيت الثانى لا مقاربة بين صدره وعجزه وأين شمّ الريحان من الاينق بالاكوار وكان ينبغى له أن يقول شمّ الريحان أحسن من شمّ الشيح والقيصوم وركوب القينات الرود أحسن من ركوب الاينق بالاكوار وكل هذا الاينطق لوضعه فى مواضعه فى كل الاوقات وقد كان يعاب علىّ السهو فى بعض الاحوال حتى أسلك هذه الطريق فى وضع المعانى مع غير أنسابها وأقاربها ثم انى كنت

أتأمّل ما صنعته بعد حين وأصلح ما سهوت عنه (وأمّا المؤاخاة بين المباني) فانه يتعلق بمعاني الالفاظ (فمن ذلك) قول أبي تمام في وصف الرماح

مثقفات سلبن العرب سمرتها * والروم زرقتها والعاشق القصفا

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الافراد غير أن فيه نظرا وهو قوله العرب والروم ثم قال العاشق ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن اذ كانت الاوصاف تجري على واحد وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ثم قال القصفا وكان ينبغي أن يقول قصفها أو دقتها (وعلى هذا) ورد قول مسلم بن الوليد

فذهبت بك الاجلاس بعض اقامة * واسترجعت نزاعها الامصار

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة * يثني عليها السهل والاوعار

والاحسن أن يقال السهل والوعر أو السهول والاوعار ليكون البناء اللفظي واحدا أي أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الافراد ولا يكون أحدهما مجموعا والآخر مفردا وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر

صفراء مجدها مرازبها * جلت عن النظراء والمثل

جمع وأفرد في معنى واحد وهو أنه قال النظراء مجموعا ثم قال المثل مفردا وكان الاحسن أن يقول النظير والمثل أو النظراء والامثال وعلى ذلك ورد قوله أيضا والانكار يتوجه فيه أكثر من الاول وهو

ألا يا ابن الذين فنوا فماتوا * أما والله ما ماتوا لتبقى

وما لك فاعلمن فيها مقام * اذا استكملت آجالا ورزقا

وموضع الانكار ههنا أنه قال آجالا ورزقا وكان ينبغي أن يقول أرزاقا وأن يقول أجلا ورزقا وقد زاده انكارا أنه جمع الاجل فقال آجالا والانسان ليس له الا أجل واحد ولو قال أجلا وأرزاقا لكان أصوب لان الأجل واحد والارزاق كثيرة لاختلاف ضروبها وأجناسها واذا أنصفنا في هذا الموضع وجدنا الناثر مطالبا به دون الناظم لمكان امكانه من التصرف (وقد كنت) أرى هذا الضرب من الكلام وأجنبه في الاستعمال وأنه لا يحسن الحيد عنه حتى نزل في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله تعالى في سورة النحل أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ولو كان الاحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمائل أو أفرد الشمال كما أفرد

اليمين

المين وكذلك ورد قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم
وأبصارهم وأولئك هم الغافلون فجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع
وكذلك ورد قوله تعالى حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم
فذكر السمع بلفظ الإفراد وذكر الأبصار والجلود بلفظ الجمع وفي القرآن الكريم
مواضع كثيرة هكذا ولو كان هذا معتبرا في الاستعمال لورد في كلام الله تعالى
الذي هو أفصح من كل كلام والآخذ في مقام الفصاحة والبلاغة إنما يكون
منه والمعول عليه ومما ينبغي أن يقاس على هذا قوله تعالى وأوحينا إلى موسى
وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة
وبشر المؤمنين وربما قيل إن هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وإفراد
وظن أنها من هذا الباب وليس كذلك لأنها مشتملة على خطاب موسى
وهرون عليهما السلام أولا في اتخاذ المساجد لقومهما ثم ثنى الخطاب لهما
ولقومهما جميعا ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين لأنه صاحب
الرسالة (الضرب الثاني في مقابلة الشيء بمثله وهو يتفرع إلى فرعين أحدهما)
مقابلة المفرد بالمفرد (والآخر) مقابلة الجملة بالجملة (الفرع الأول) كقوله تعالى
نسوا الله فنسيهم وكقوله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وقد روعي هذا
الموضع في القرآن الكريم كثيرا فإذا ورد في صدر آية من الآيات ما يحتاج
إلى جواب كان جوابه مماثلا كقوله تعالى من كفر فعليه كفره وكقوله تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها وهذا هو الأحسن وإلا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه
كان ذلك جائزا لكن الأحسن هو ما ورد في كتاب الله تعالى وعليه مدار
الاستعمال وهذا الحكم يجري في النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية
وأما إن كان ذلك غير جواب فإنه لا يلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية ألا ترى أنه
قد قوبلت الكلمة بكلمة هي في معناها وإن لم تكن مساوية لها في اللفظ وهذا يقع
في الألفاظ المترادفة ولذا يستعمل ذلك في الموضع الذي ترد فيه الكلمة غير
جواب (فمما جاء منه) قوله تعالى ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون
ولو كان لا تورد الكلمة إلا مثلا لقيل وهو أعلم بما عملوا وكذلك قوله تعالى
وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا
لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فقال لا تخف بعد قوله ففزع ولما كان هذا

في معنى هذا قول أحدهما بالآخر ولم يقابل اللفظ بنفسه وكذلك جاء قوله تعالى ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون فذكر الاستهزاء الذي هو في معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض واللعب ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال أبالله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون (فإن قيل) إنك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته ونرى قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه كقوله تعالى والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ولم يقل جزاء سيئة سيئة مثلها (الجواب عن ذلك) أني أقول أردت أن تنقض علي ما ذكرته فلم تنقضه ولكنك شيدته والذي ذكرته هو دليل لي لا لك ألا ترى أنه لا فرق بين قوله تعالى جزاء سيئة بمثلها وبين قوله جزاء سيئة سيئة مثلها إذ المعنى واحد لا يختلف ولو جاء عوضا عن السيئة لفظة أخرى في معناها كالأذى والسوء أو ما جرى مجراهما لصح لك ما ذهبت إليه وقد ذهب بعض المتصدرين في علم البيان أنه إذا ذكرت اللفظة في أول كلام يحتاج إلى تمام وإن لم يكن جوابا كالذي تقدم وينبغي أن تعاد بعينها في آخره ومتى عدل عن ذلك كان معيبا ثم مثل ذلك بقول أبي تمام وقول أبي الطيب المتنبي وقال إن أبا تمام أخطأ في قوله

بسط الرجاء لنا برغم نوائب * كثرت بهن مصارع الآمال

حيث ذكر الرجاء في صدر البيت وكان ينبغي أن يعيد ذكره أيضا في عجزه أو كان ذكر الآمال في صدر البيت وعجزه وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبي في قوله

إني لأعلم واللبيب خبير * أن الحياة وإن حرصت غرور

فإنه قال إني لأعلم واللبيب خبير وكان ينبغي أن يقول إني لأعلم واللبيب عليم ليكون ذلك تقابلا صحيحا وهذا الذي ذكره هذا الرجل ليس بشيء بل المعتمد عليه في هذا الباب أنه إذا كانت اللفظة في معنى أختها جاز استعمالها في المقابلة بينهما والدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم وكفى به دليلا وهذه الرموز التي هي أسرار الكلام لا يتفطن لاستعمالها إلا أحد رجلين إما فقيه في علم البيان قد مارسه وإما مشتق من اللسان في الفصاحة قد جلى عارفا بلطائفها مستغنيا عن مطالعة صحائفها وهذا لا يكون إلا عربي الفطرة يقول ما يقوله طبعا على أنه لا يستمد في جميع أقواله ما لم تكن معرفته الفطرية ممزوجة بمعرفة العربية

(النوع)

(الفرع الثاني في مقابلة الجملة بالجملة) اعلم أنه اذا كانت الجملة من الكلام مثبتة له قوبلت بمستقبلة وان كانت ماضية قوبلت بماضية وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة والمستقبلة بالماضية اذا كانت احداهما في معنى الاخرى (فمن ذلك) قوله تعالى قل ان ضللت فانما أضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي فان هذا تقابل من جهة المعنى ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وان اهتديت فانما اهتدي لها وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها أعني أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها الامارة بالسوء وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند ذلك الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به (ومن هذا الضرب) قوله تعالى ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا فانه لم يراع التقابل في قوله ليسكنوا فيه ومبصرا لان القياس يقتضي أن يكون والنهار لتبصروا فيه وانما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ وهذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى قوله مبصرا لتبصروا فيه طرق التقلب في الحاجات (واعلم) أن في تقابل المعاني بابا عجيب الامر يحتاج الى فضل تأمل وزيادة نظر وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالاعجاز من الابيات الشعرية (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى في ذم المنافقين واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وقوله تعالى واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ألا ترى كيف فصل الآية الاخرى بيعلمون والآية التي قبلها بيشعرون وانما فعل ذلك لان أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي الى الفتنة والفساد في الارض فأمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصا عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال فيه يشعرون وأيضا فانه لما ذكر السفه في الآية الاخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقا فقال لا يعلمون وآيات

القرآن جميعها فصلت هكذا كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح
الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وكقوله له ما في السموات وما في الارض
وان الله لهو الغني الحميد وكقوله ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري
في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف
رحيم فانه انما فصلت الآية الاولى بلطيف خبير لان ذلك في موضع الرحمة لخلقه
بانزال الغيث وغيره وأما الآية الثانية فانما فصلت بغني حميد لانه قال له
ما في السموات وما في الارض لا لحاجة بل هو غني عنها جواد بها لانه ليس
كل غني نافعا بغناه الا اذا كان جوادا منعما واذا جاد وأنعم حمده المنعم عليه
واستحق عليه الحمد فذكر الحميد ليدل على أنه الغني النافع بغناه خلقه وأما
الآية الثالثة فانها فصلت برؤف رحيم لانه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من
تسخير ما في الارض لهم واجراء الفلك في البحر بهم وتسييرهم في ذلك الهول
العظيم وخلقه السماء فوقهم وامساكها عن الوقوع حسن أن يفصل ذلك
بقوله رؤف رحيم أي ان هذا الفعل فعل رؤف بكم رحيم لكم (واعلم)
أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قلما توجد هذه الملاءمة والمناسبة في كلام ناظم
أو ناثر ومن الآيات ما يشكل فاصلته ويحتاج الى فكرة وتأمل كقوله تعالى
والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم
أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من
الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين
والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم
ورحمته وأن الله تواب حكيم فانه قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع
بتواب رحيم ويظن الظان أن هذا كذلك ويقول ان التوبة مع الرحمة
لا مع الحكمة وليس كما يظن بل الفاصلة بتواب حكيم أولى من تواب رحيم لان
الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التي أمر بها وأراد بذلك ستر هذه
الفاحشة على عباده وذلك حكمة منه ففصلت الآية الواردة في آخر الآيات
بتواب حكيم فجمع فيها بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية وبين
الحكمة في سترها على تلك الصورة وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر منه
نفعا ولا أعظم فائدة (ومما جاء من هذا الباب) قول أبي الطيب المتنبي

وقفت وما في الموت شك لواقف * كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة * ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقد أوخذ على ذلك وقيل لو جعل آخر البيت الاول آخر البيت الثاني وآخر البيت الثاني آخر البيت الاول لكان أولى ولذلك حكاية وهي أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها * على قدر أهل العزم تأتي العزائم * فلما بلغ الى هذين البيتين قال قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله

كأني لم أركب جوادا للذة * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل * لخيلي كري كرة بعد اجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس وكان ينبغي لك أن تقول

وقفت وما في الموت شك لواقف * ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة * كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي ان صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله وانما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة بسباء الخمر للاضياف بالشجاعة في منازلة الاعداء وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الاول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤما ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لاجمع بين الاضداد

(القسم الثاني في صحة التقسيم وفساده) ولسنا نريد بذلك ههنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكلمون فان ذلك يقتضي أشياء مستحيلة كقولهم الجواهر لا تخلو اما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معا أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الاقسام جميعها وان كان من جملتها ما يستحيل وجوده وانما نريد بالتقسيم ههنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره فتارة يكون التقسيم بلفظة اما وتارة بلفظة بين كقولنا بين كذا وكذا وتارة بمنهم كقولنا منهم كذا ومنهم كذا وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم كقولنا

فانشعب القوم شعبا أربعة فشعبة ذهبت يمينا وشعبة ذهبت شمالا وشعبة وقفت مكانها وشعبة رجعت الى ورائها (فمما جاء من هذا القسم) قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وهذه قسمة صحيحة فانه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة فاما عاص ظالم لنفسه واما مطيع مبادر الى الخيرات واما مقتصد بينهما (ومن ذلك) أيضا قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التي قبلها فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم وأصحاب الميمنة هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات (وعلى نحو من ذلك) جاء قوله تعالى هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا فان الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع وليس لهما قسم ثالث (فان قيل) ان استيفاء الاقسام ليس شرطا وترك بعض الاقسام لا يقدح في الكلام وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار (والجواب عن ذلك) أني أقول هذه الآية تنص على ما ذكرته فان استيفاء الاقسام يلزم فيما استبهم الاجمال فيه ألا ترى الى قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم فانه حيث قال فمنهم لزم استيفاء الاقسام الثلاثة ولو اقتصر على قسمين منها لم يجز وأما هذه الآية التي هي لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فانه انما خص أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا مال أصحاب الجنة وكذلك كل ما يجري هذا المجرى فانه انما يطرفيه الى المتبهم وغير المتبهم فاعرفه وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول بعض الاعراب ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات وهو قولهم النعم ثلاثة نعمة في حال كونها ونعمة ترجى مستقبلة ونعمة تأتي غير محتسبة فأبقى الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترتجيه وتفضل عليك بما لم تحتسبه وهذا القول فاسد فان في أقسام النعم التي قسمها نقصا لا بد منه وزيادة لا حاجة اليها وأما النقص فاغفال النعمة الماضية وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة ونعمة تأتي غير محتسبة لان النعمة التي تأتي غير محتسبة داخل في قسم النعمة

المستقبلة وذلك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين أحدهما يرجى حصوله والآخر لا يحتسب فقوله ونعمة تأتي غير محتسبة يوهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل فيه وعلى هذا فكان ينبغي له أن يقول النعم ثلاث نعمة ماضية ونعمة في حال كونها ونعمة تأتي مستقبلة فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبق عليك النعمة التي أنت فيها ووفر حظك من النعمة التي تستقبلها ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مفصل الصواب وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى في قوله

جمعت لنا فرق الأماني منكم * بأبر من روح الحياة وأوصل

فصنيعة في يومها وصنيعة * قد أحولت وصنيعة لم تحول

كالمزن من ماضي الرباب ومقبل * متنظر ومخيم متهلل

(ووقف أعرابي) على مجلس الحسن البصري رضي الله عنه فقال رحم الله عبدا أعطى من سعة أو آسى من كفاف أو آثر من قلة فقال الحسن البصري ما ترك لأحد عذرا (وقد عاب) أبو هلال العسكري على جميل قوله

لو كان في قلبي كقدر قلامة * حبا وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال أبو هلال ان اتيان الرسائل داخل في جملة الوصل وليس الأمر كما وقع له فان جميلا انما أراد بقوله وصلتك أي أتيتك زائرا وقاصدا أو كنت راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين الوصفين اما زيارة واما رسالة (ومن أعجب ما وجدته في هذا الباب) ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الأحنف

وصالكم هجر وحبكم قلى * وعطفكم صد وسلمكم حرب

ثم قال الغانمي هذا والله أصح من تقسيمات اقليدس ويا لله العجب أين التقسيم من هذا البيت هذا والله في واد والتقسيم في واد ألا ترى أنه لم يذكر شيأ تحصره القسمة وانما ذم أحبابه في سوء صنيعهم به فذكر بعض أحوالهم معه ولو قال أيضا

ولينكم عنف وقربكم نوى * واعطاؤكم منع وصدقكم كذب

لكان هذا جائزا وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة والأولى أن يضاف هذا البيت الذي ذكره الغانمي الى باب المقابلة فانه أولى به لأنه قابل الوصل بالهجر والعطف بالصد والسلم بالحرب (ومن فساد التقسيم)

قول البحترى فى قصيدته الى مطلعها * دانٍ على الاراك فاحبس قليلا * وقال

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا * أو معينا أو عاذرا أو عذولا

فان المشوق يكون حزينا والمسعد يكون معينا وكذلك يكون المسعد عاذرا وكثيرا ما يقع البحترى فى مثل ذلك وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى وهو فاخر فان الناس فيك ثلاثة * مستعظم أو حاسد أو جاهل

فان المستعظم يكون حاسدا والحاسد يكون مستعظما (ومن شرط التقسيم) أن لا تتداخل أقسامه بعضها فى بعض (ومن هذا الاسلوب) ما ورد فى أبيات الحماسة وهو

وكنت امرأ اما ائتمنتك خاليا * فخنت واما قلت قولا بلا علم

فأنت من الامر الذى قد أتيته * بمنزلة بين الخيانة والاثم

فان الخيانة من الاثم وهذا تقسيم فاسد (ومما جاء من ذلك نثرا) قول بعضهم فى ذكر منهزمين فمن جريح متضرج بدمائه وهارب لا يلتفت الى ورائه فان الجريح قد يكون هاربا والهارب قد يكون جريحا ولو قال فمن بين قتيل ومأسور وناج لصح له التقسيم أو لو قال فمن بين قتيل ومأسور لصح له التقسيم أيضا لعدم الناجى بينهما وقد أحسن البحترى فى هذا المعنى حيث قال

غادرتهم أيدى المنية صبحا * بالقنا بين ركع وسجود

فهم فرقتان بين قتيل * قنصت نفسه بحد الحديد

أو أسير غدا له السجن لحدا * فهو حى فى حالة الملحود

فرقة للسيوف ينفذ فيها * حكم قصدا وفرقة للقيود

(ومن فساد التقسيم) قول أبى تمام

وموقف بين حكم الذل منقطع * صاليه أو بحبال الموت متصل

فانه جعل صالى هذا الموقف اما ذليلا أو هالكا وهنا قسم ثالث وهو أن لا يكون ذليلا ولا هالكا بل يكون مقدما فيه ناجيا وفى هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه فان أبا تمام قصد التعلوى فى وصف هذا الموقف فقال ان الناس فيه أحد رجلين اما ذليل عن مورده واما هالك فيه أى أنه لا ينجو منه أحد يرده وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه (القسم الثالث فى ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد) اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يذكر فى الكلام معان مختلفة

فاذا عبد اليها بالذكر لتفسير قدم المقدم وأخر المؤخر وهو الاحسن الا أنه قد ورد في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يراع فيه تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر كقوله تعالى أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب ولو قدم تفسير المقدم في هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل ان نشأ نسقط عليهم كسفا من السماء أو نخسف بهم الارض وكذلك ورد قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم فقدم المؤخر وأخر المقدم والقسمان قد وردا جميعا في القرآن الكريم (فمما روعي فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخر) قوله تعالى وما نؤخره الا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ (ومن ذلك) قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة (وكذلك) قوله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ولتبتغوا من فضله فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون على سبب النهار وهو التعيش (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب تعزية وهو فصل منه فقلت ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل وآمت المكارم كما آمت الحلائل وعثرت لوعة خطبه فما تشتكي ثكلى الا الى ثاكل وما أقول فمن عدمت الارض منه حياها والمحامد محياها فلو نطق الجماد بلسان أو تصور المعنى لعيان لاعربت تلك عن طول صعيدها ووزنت هذه خاسرة حول فقيدها (ومن ذلك) ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وما زالت أيادي سيدنا متنوعة في زيادة جودها وكمالها فهذه منطولة بترقبة وردها وهذه آخذة بسنة اعمالها وأحسن ما في الاولى أنها تأتي مخلفة فواصل الاكثار وفي الثانية أنها تأتي متحلية بفضائل الاختصار فاختصار هذه في فوائد أقلامها كتطويل تلك في عوائد انعامها وقد أصبح

خواطري مستغرقة بانشاء القول المشكر في شكر الفضل المطول وجواب الايمان المختصر وما جعل الله الهام سلطان البلاغة ما يستقل باداء حقوق تثقل على الرقاب ومقالة البلاغات تثقل على الالباب (ومما جاء من ذلك) شعرا قول ابراهيم بن العباس

أما إبل كوم يضيق بها الفضا * ويفترعنها أرضها وسماؤها

فمن دونها أن تستباح دماؤنا * ومن دوننا أن تستباح دماؤها

حمى وقرى فالموت دون مرامها * وأيسر خطب يوم حق فناؤها

وهذه الابيات من نادر ما يجيء في هذا الباب معنى وترتيب تفسير ومما جاء منه أيضا قول أبي تمام

وما هو الا الوحي أو حد مرهف * تميل ظباه أخدعى كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عالم * وهذا دواء الداء من كل جاهل

وكذلك قوله أيضا

وكان لهم غيثا وعلما ومدم * فيسأله أو باحث فيه ثله

وهذا من بديع ما يأتي في هذا الباب ومما ورد منه قول علي بن جبلة

فتى وقف الايام بالسخط والرضا * على بذل عرف أو على حد منصل

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نواس

يرجو ويخشى حالتيك الورى * كأنك الجنة والنار

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين وهو القاضي الارجاني

يوم المتيم فيك حول كامل * يتعاقب الفصلان فيه اذا أتى

ما بين ترجوى وماء مدامع * ان جن صاف وان بكى وجد اشتا

ومما أخذ على الفرزدق في هذا الباب قوله

لقد جئت قوما لو لجأت اليهم * طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت فيهم معطيا أو مطاعنا * وراءك شزرا بالوشيج المقوم

لانه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب وذلك أنه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الاول ثانيا في البيت الثاني والاولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا فيفسر ما هو أول في البيت الاول بما هو ثان في البيت الثاني واعلم أن الناظم لا ينكر عليه مثل هذا ما ينكر على الناثر لان الناظم تضطره الوزن والقافية

الاقتصاد والتفريط والافراط

الى ترك الاولى (وأما فساد التفسير) فانه أقبح من فساد ترتيبه وذلك أن تؤتى بكلام ثم يفسر تفسيرا لا يناسبه وهو عيب لا تسامح فيه بحال وذلك كقول بعضهم

فيا أيها الحيران فى ظلمة الدجى * ومن خاف أن يلقاه بغى من العدا
تعال اليه تلق من نور وجهه * ضياء ومن كفيه بحرا من الندى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بازاء بغى العدا ما يناسبه من النصرة والاعانة أو ما جرى مجراهما ليكون ذلك تفسيرا له كما جعل بازاء الظلمة الضياء وفسرها به فأما أن جعل بازاء ما يخوف منه بحرا من الندى فان ذلك غير لائق (النوع الخامس والعشرون فى الاقتصاد والتفريط والافراط) اعلم أن هذه المعانى الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والافراط توجد فى كل شئ من علم وصناعة وخلق فلا بد من ذكر حقيقتها فى أصل اللغة حتى يتبين نقلها الى هذا النوع من الكلام فأما الاقتصاد فى الشئ فهو من القصد الذى هو الوقوف على الوسط الذى لا يميل الى أحد الطرفين قال الله تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان والاقتصاد وسط بينهما وقال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فالاسراف والاقتار طرفان والقوام وسط بينهما وقال الشاعر

عليك بالقصد فيما أنت فاعله * ان التخلق يأتى دونه الخلق

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ولهذا قال الله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شئ أى ما أهملنا ولا ضيعنا وأما الافراط فهو الاسراف وتجاوز الحد يقال أفرط فى الشئ اذا أسرف وتجاوز الحد والتفريط والافراط هما الطرفان البعيدان والاقتصاد هو الوسط المعتدل وقد نقلت هذه المعانى الثلاثة الى هذا النوع من علم البيان وأما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمر فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته وأما التفريط والافراط فهما ضدان أحدهما أن يكون المعنى المضمر فى العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته والتفريط فى ايراد المعانى الخطابية قبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه والافراط يجوز استعماله فمنه الحسن ومنه دون ذلك (فمما جاء من التفريط) قول الاعشى

وما مزبد من خليج الفرا * ت جون غواربه تلتطم

بأجود منه بماعونه * إذا ما سماؤهم لم تغم

فإنه مدح ملكا بالجود بماعونه والماعون كل ما يستعار من قدوم أو قصعة أو قدر أو ما أشبه ذلك وليس للملوك في بذله مدح ولا لأوساط الناس أيضا وفي مدح السوقة به قولان ومدح الملوك به عيب وذم فاحش وهذا من أقبح التعريض ومما يجري هذا المجرى قول الفرزدق

ألا ليتنا كنا بعيرين لا نرد * على حاضر إلا نشل ونقذف

كلانا به عر يخاف قرافه * على الناس مطلي المشاعر أخشف

هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين فإن مراده منهما التغزل بمحبوبه وقد قصر به على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجربين لا يقربهما أحد ولا يقربان أحدا إلا طردهما وهذا من الأماني السخيفة وله في غير هذه الأمنية مندوحات كثيرة وما أشبه هذا بقول القائل

يا رب إن قدرته لمقبل * غيري فللأقداح أو للأكؤس

وإذا حكمت لنا بعين مراقب * في الدهر فليك من عيون النرجس

فانظر كم بين هاتين الأمنيتين (ومما أخذ على أبي نواس) في قصيدته الميمية الموصوفة التي مدح بها الأمين محمد بن الرشيد وهو قوله

أصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفر * أملا لعقد حباله استحكام

فإن ذكر أم الخليفة في مثل هذا الموضع قبيح وكذلك قوله في موضع آخر

وليس كجدتيه أم موسى * إذا نسبت ولا كالخيزران

وهذا النحو من الحديث لا فائدة فيه فإن شرف الإنسان إنما هو إلى الرجال لا إلى النساء ويا ليت شعري أما سمع أبو نواس قول قتيلة بنت النضر في النبي صلى الله عليه وسلم

أمحمد ولأنت نجل كريمة * من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما * من الفتى وهو المغيظ المحنق

فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم وأبرزت هذا الكلام في هذا اللباس الأنيق وكذلك فليكن المادح إذا مدح وأبو نواس مع لطافة طبعه وذكائه وما كان يوصف به من الفطنة قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هرون عليهما

السلام قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فإن الفرق بين الموضعين ظاهر لأن المنكر على أبي نواس إنما هو التلفظ باسم الأم وهي بعيدة وكذلك اسم الجدة وهي الخيزران وليس كذلك ما ورد في الآية (فإن قيل) قد ورد في القرآن الكريم ما يشبه ما وقع لأبي نواس بمقالته وهو قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فناداه باسم أمه قلت الجواب عن ذلك من وجهين أحدهما أن عيسى عليه السلام لم يكن له أب فنودي باسم أمه ضرورة إذ لو كان له أب لنودي باسم أبيه الوجه الآخر أن هذا النداء إنما هو من الأعلى إلى الأدنى إذ الله سبحانه وتعالى هو الرب وعيسى عليه السلام عبده وهذا لا يكون تفريطا لأنه لم يصغر عنه عما هو دون منزلته على أن أبا نواس لم يوقعه في هذه العثرة إلا ما سمعه عن جرير في مدح عمر بن عبد العزيز كقوله

وتبني المجد يا عمر بن ليلى * وتكفي الممحل السنة الجمادا

وكذلك قال فيه كثير عزة أيضا وليس المعيب من هذا بخاف فإن العرب قد كان يعير بعضها بعضا بنسبته إلى أمه دون أبيه ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقال له ابن حنتمة وإنما كان يقول ذلك من يغض منه وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم للزبير بن صفية بشر قاتل ابن صفية بالنار فإن صفية كانت عمة النبي صلى الله عليه وسلم وإنما نسبه إليها رفعا لقدره في قرب نسبه منه وأنه ابن عمته وليس هذا كالأول في الغض من عمر رضي الله عنه في نسبه إلى أمه (وقد عاب بعض من يتهم نفسه بالمعرفة) قول أبي نواس في قصيدته السينية التي أولها * بح صوت المال مما * ... * قد نعس * فقال من جملتها

ورث الخلافة خامسا * وبخير سادسهم سدس

قال وفي ذكر السادس نظر ويا عجباه مع معرفته بالشعر كيف ذهب عليه هذا الموضع أما قرأ سورة الكهف يريد قوله تعالى ويقولون خمسة سادسهم كلبهم وهذا ليس بشيء لأنه قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه وهو قوله تعالى ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم (ومما يعاب به على البحتري) قوله في مدح الفتح بن خاقان في قصيدته المشهورة عند لقائه الأسد إلى مطلعها

أجلك ما يملك يسرى لربنا * فقال

شهدت لقد أنصفته حين تنبرى * له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما * عراكا اذا الهيابة النكس كذبا

قوله اذا الهيابة النكس تفريط فى المدح بل كان الأولى أن يقول اذا البطل كذب والا فأى مدح فى اقدام المقدم فى الموضع الذى يحجم فيه الجبان والا كما قال أبو تمام

فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى * مفرّا غداة المأزق ارتاد مصرعا

وعلى أسلوب البحترى ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة

وانى لقوّال لعافىّ مرحبا * وللطالب المعروف انك واجده
وانى لممن أبسط الكف بالندى * اذا شنجت كفّ البخيل وساعده

وهذا معيب من جهة أنه لا فضل فى بسط يده عند قبض يد البخيل وانما الفضل فى بسطها عند قبض الكرام أيديهم ومن هذا الباب قول أبى تمام

يقظ وهو أكثر الناس اغضا * ء على نائل له مسروق

فانه أراد أن يمدح فذم ومما هو أقبح من ذلك قوله أيضا

يتقى الحرب منه حين تغلى * مراجلها بشيطان رجيم

وقد استعمل هذا فى شعره حتى أخس كقوله

أنت دلو وذو السماح أبو مو * سى قليب وأنت دلو القليب

ومراده من ذلك أنه جعله سببا للعطاء المشار اليه كما أن الدلو سبب فى استخراج الماء من القليب ولم يقع هذا المعنى من الاغراب الى حد يدفن أبو تمام حوله هذه الدفنة ويلقيه فى هذا المثال السخيف على أنه لم يقنع بهذه القطعة القبيحة فى شعره بل أوردها فى مواضع أخرى منه فمن ذلك قوله

مازال يهذى بالمكارم والعلا * حتى ظننا أنه محموم

فانه أراد أن يبالغ فى ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا فقال مازال يهذى وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين

ويلحقه عند المكارم هزة * كما انتفض المحموم من أم ملدم

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله وان كان المعنى المقصود به حسنا وكم من متأول معنى كريما فاساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله ومن أحسن ما قيل فى مثل هذا الموضع قول ابن الرومى

ذهب الذين تهزهم مداحهم * هز الكماة عوالي المران
كانوا اذا امتدحوا رأوا ما فيهم * فالاريحية منهم بمكان

ومن شاء أن يمدح فليمدح هكذا والا فليسكت (ووجدت) أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي قد عاب على حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقال انه جمع الجفنات والاسياف جمع قلة وهو في مقام فخر وهذا مما يحط من المعنى ويضع منه وقد ذهب الى هذا غيره أيضا وليس بشئ لان الغرض انما هو الجمع فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة ويدل على ذلك قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم أفترى نعم الله أكانت قليلة على ابراهيم صلوات الله عليه وكذلك ورد قوله عز وجل في سورة النمل وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين فقال واستيقنتها أنفسهم فجمع النفس جمع قلة وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة بل كانوا عدة ألوف وهذا أيضا مما يبطل قول الصولي وغيره في مثل هذا الموضع وكذلك ورد قوله عز وجل الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها والنفوس المتوفاة والنائمة لا ينتهي الى كثرتها كثرة لانها نفوس كل من في العالم (واعلم) أن للمدح ألفاظا تخصه وللذم ألفاظا تخصه وقد تعمق قوم في ذلك حتى قالوا من الأدب أن لا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب وهذا غلط بارد فان الله الذي هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف في أول كتابه العزيز فقيل اياك نعبد واياك نستعين وقد ورد أمثال هذا في مواضع من القرآن غير محصورة الا أني قد راجعت نظري في ذلك فرأيت الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم والعوائد لا حكم لها ولا شك أن العادة أوجبت للناس مثل هذا التعمق في ترك الخطاب بالكاف لكني تأملت أدب الشعراء والكتاب في هذا الموضع فوجدت الخطاب لا يعاب في الشعر ويعاب في الكتابة اذا كان المخاطب دون المخاطب درجة وأما ان كان فوقه فلا عيب في خطابه اياه بالكاف لانه ليس

من التفريط في شيء في خطاب الكاف قول النابغة

فإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(وكذلك قوله أيضا)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضا فقال أبو نواس

إليك أبا المنصور عدت ناقتي * زيارة خل وامتحان كريم

لأعلم ما يأتي وإن كنت عالما * بأنك مهما تأت غير ملوم

وكذلك ورد قول السلامي

إليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصار المطايا أن يلوح لها القصر

وبشرت آمالي بملك هو الورى * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وعليه ورد قول البحتري

ولقد أتيتك طالبا وبسطت من * أملي وأطلب جود كفك مطلبي

وجل خطاب الشعراء للممدوحين إنما هو بالكاف وذلك محظور على الكتاب فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب لا مخاطبة الحاضر على أن هذا الباب محملته يوكل النظر فيه إلى فطانة الخطيب والشاعر وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة (ومن ألطف ما وجدته) أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر بأن تقول افعل كذا وكذا وتخرجه مخرج الاستفهام وهذا الأسلوب حسن جدا وعليه مسحة من جلال أن عليه الجمال كله (فمما جاء منه) قول البحتري في قصيدة أولها * بودي لو يهوى العذول ويعشق * فقال منها

فهل أنت يا ابن الراشدين مخلقي * بياقوتة تبهى علي وتشرق

وهذا من الأدب الحسن في خطاب الخليفة فإنه لم يخاطبه بأن قال خلقني بياقوتة على سبيل الأمر بل خاطبه على سبيل الاستفهام وقد أعجبني هذا المذهب وحسن عندي وقد حذا حذو البحتري شاعر من شعراء عصرنا فقال في مدح الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد من قصيدة له على قافية الدال فقال من أبيات يصف بها قصيدة

أمة وليها بن الخلائف من بني * لديك بوصفي عادة المعرورة

فقوله أمقتوله من الادب الحسن الذي سبح فيه على منوال البحتري وهذا باب مفرد وهو باب الاستفهام في الخطاب واذا كان الشاعر فطنا عالما بما يضعه من الالفاظ والمعاني تصرف في هذا الباب بضروب التصرفات واستخرج من ذات نفسه شيأ لم يسبقه اليه أحد (واعلم) أن من المعاني ما يعبر عنه بالفاظ متعددة ويكون المعنى المندرج تحتها واحدا ففي تلك الالفاظ ما يليق استعماله بالمدح ومنها ما يليق استعماله بالذم ولو كان هذا الامر يرجع الى المعنى فقط لكانت جميع الالفاظ الدالة عليه سواء في الاستعمال وانما يرجع في ذلك الى العرف دون الاصل ولنضرب لهذا مثالا فنقول هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له وحق دماغك قياسا على وحق رأسك وهذا يرجع الى أدب النفس دون أدب الدرس فاذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس والهامة والكاهل وما جرى هذا المجرى فاذا أراد أن يهجو ذكر الدماغ والقفا والقذال وما جرى هذا المجرى وان كانت معاني الجميع متقاربة ومن أجل ذلك حسنت الكناية في الموضع الذي يقبح فيه التصريح (ومن أحسن ما اتفق) من أدب النفس في الخطاب أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل قباث بن أشيم فقال له أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد فانظر الى أدب هذا العربي الذي من شأنه وشأن أمثاله جفاء الاخلاق والبعد عن فطانة الآداب (وأما الافراط) فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة وحمده آخرون والمذهب عندي استعماله فان أحسن الشعر أكذبه بل أصدقه أكذبه لكنه تتفاوت درجاته فيه المستحسن الذي عليه مدار الاستعمال ولا نطلق على الله سبحانه وتعالى لانه مهما ذكر به من المعاملات في ضمانه فانه دون ما يستحقه ومما ورد من ذلك في الشعر قول عنترة

وأما المنية في المواطن كلها * والطعن مني سابق الآجال

وقد يروى بالباء وكلا المعنيين حسن الا أن الباء أكثر غلوا ومما جاء على نحو من ذلك قول بشار

اذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

ومنه ما يستهجن كقول النابغة الذبياني

اذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها * ومن يتعلق حيث علق يفرق

وهذا يصف طول قامتها لكنه من الأوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة عن حد الاستحسان وعلى نحو من ذلك ورد قول أبي نواس

وأخفت أهل الشرك حتى إنه * لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا أشد إفراطا من قول النابغة ويروى أن العتابي لقي أبا نواس فقال له أما استحييت الله حيث تقول وأنشده البيت فقال له وأنت ما راقبت الله حيث قلت

ما زلت في غمرات الموت مطرحا * يضيق عني وسيع الرأي من حيلي

فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي * حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

فقال له العتابي قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ولكنك قد أعددت لكل ناصح جوابا وقد أراد أبو نواس هذا المعنى في قالب آخر فقال

كفت مبادمة الدماء سيوفه * فلقلما تحتازها الأجفان

حتى الذي في الرحم لم يك صورة * لفؤاده من خوفه خفقان

وما يجري في هذا الباب ما يجري هذا المجرى وقد استعمل أبو الطيب المتنبي هذا القسم في شعره كثيرا فأحسن في مواضع منه فمن ذلك قوله

عجاج تعثر العقبان فيه * كأن الجو وعث أو خبار

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر فقال

عقدت سنابكها عليها عثيرا * لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

وهذا أكثر مغالاة من الأول ومن ذلك قوله أيضا

كأنما يتلقاهم لتسلكهم * فالطعن يفتح في الأجواف ما يسع

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها

لكن أبو الطيب أخرج هذا المعنى وقيس بن الخطيم أحسن لأنه قرب من الممكن فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء وأما أن يجعل المطعون مسلكا يسلك كما قال أبو الطيب فإن ذلك مستحيل ولا يقبل فيه تعسف (وأما الاقتصاد) فهو وسط بين المرتبتين والأمثلة به كثيرة لا تحصى إذ كل ما خرج عن الطرفين من الإفراط والتفريط فهو اقتصاد ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلا ثم يستثنى فيه بلو أو يكاد وما جرى مجراهما فمن ذلك قوله تعالى يكاد البرق يخطف أبصارهم وكذلك قوله عز وجل وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وقد

ورد هذا في القرآن الكريم كثيرا ومما ورد منه شعرا قول الفرزدق

يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وكذلك ورد قول البحتري

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما * في وسعه لسعى اليك المنبر

وهذا هو المذهب المتوسط (النوع السادس والعشرون في الاشتقاق) اعلم أن جماعة علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس وليس الامر كذلك بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام وذلك أن التجنيس في أصل الوضع من قولهم جانس الشيء الشيء اذا ماثله وشابهه ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الالفاظ ما يتماثل ويتشابه في صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس وكذلك لما وجدنا من المعاني ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضا فالتجنيس اذن ينقسم قسمين أحدهما تجنيس في اللفظ والآخر تجنيس في المعنى فأما الذي يتعلق باللفظ فانه لم ينقل عن بابه ولا غير اسمه وقد تقدم ذكره في باب الصناعة اللفظية وأما الذي يتعلق بالمعنى فانه نقل عن بابه في التجنيس وسمي الاشتقاق اي أحد المعنيين مشتق من الآخر (وهو على ضربين) صغير وكبير فالصغير أن تأخذ أصلا من الاصول فتجمع بين معانيه وان اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فانك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة والاصل في ذلك أن يضع واضع اللغة اسما أولا لمسمى أول ثم يجد مسمى آخر ومسميات شبيهة بالمسمى الاول فيضع لها اسما كالاسم الاول كقولهم ضرير اسم للأعمى والضر ضد النفع والضراء الشدة من الامر والضر بالضم الهزال وسوء الحال والضرر الضيق والضرة احدى الزوجتين فان هذه المسميات كلها تدل على الأذى والشر وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء الا أنا الآن لا نعلم ما هو الاول منها حتى نحكم على الثاني أنه مشتق منه لكن نعلم في السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة لانه ضدها فقيل من أجل التفاؤل بالسلامة وعلى هذا جاء غيره من الاصول كقولنا هشمت هاشم وحارك محارب وسالك سالم وأصاب الارض صيب فهذه الالفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد أما هاشم فانه لم يسم بهذا الاسم الا لأنه هشم الثريد في عام محل فسمي

بذلك وأمّا محارب فانه اسم فاعل من حارب فهو محارب وأمّا سالم فمن السلامة وهو اسم فاعل من سلم وأمّا الصيب فهو المطر الذي يشتد صوبه أي وقعه على الارض ولا يقاس على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله فان أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل ولم تسم أسلم من المسالمة ولا غفار من المغفرة ولا عصية من تصغير عصا وهذا هو التجنيس وليس بالاشتقاق والنظر في مثل ذلك يحتاج الى فكرة وتدبر كي لا يختلط التجنيس بالاشتقاق ومما جاء من ذلك شعرا قول البحتري * أمحاسن سلمي نكاظمة اسلما وكذلك قول الآخر

وما زال معقولا عقال عن الندى * وما زال محبوسا عن الخير حابس

فربما ظن أن هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس حيث قيل فيه معقول وعقال ومحبوس وحابس وليس الامر كذلك وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يتقن معرفته وقد تقدم القول أن حقيقة التجنيس هي اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللفظ فيهما واحد والمعنى أيضا واحد فهذا مشتق من هذا أي قد شق منه وكذلك ورد قول عنترة

لقد علم القبائل أن قومي * لهم حدّ اذا لبس الحديد

فان حدّا وحديدا لفظهما واحد ومعناهما واحد (وأمّا الاشتقاق الكبير) فهو أن تأخذ أصلا من الاصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرّف منها وان تباعد شيء من ذلك عنها رد بلطف الصنعة والتأويل اليها ولنضرب لذلك مثالا فنقول ان لفظة قمر من الثلاثي لها ست تراكيب وهي قرم قمر رقم رمق مقر مرق فهذه التراكيب الست يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة فالقرم شدة شهوة اللحم وقمر الرجل اذا غلب من يقامره والرقم الداهية وهي الشدة التي تلحق الانسان من دهره وعيش مرمق أي ضيق وذلك نوع من الشدة أيضا والمقر شبه الصبر يقال امقر الشيء اذا أمرّ وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة ومرق السهم اذا نفذ من الرمية وذلك لشدة مضائه وقوته (واعلم) أنه اذا سقط من تراكيب الكلمة شيء جاز ذلك في الاشتقاق لان الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها

أدت الى معنى واحد يجمعها فمال ما سقط من تركيب اللاثى لفظة و س ق فانها جمس تراكيب وهى وس ق وق س س وق ق س و ق و س وسقط من جملة التراكيب قسم واحد وهو سقو وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة أيضا فالوسق من قولهم استوسق الامر أى اجتمع وقوى والوقس ابتداء الجرب وفى ذلك شدة على من يصيبه وبلاء والسوق متابعة السير وفى هذا عناء وشدة على السائق والمسوق والقسوة شدة القلب وغلظه والقوس معروفة وفيها نوع من الشدة والقوة لنزعها السهم واخراجه الى ذلك المرمى المتباعد (واعلم) أنا لاندعى أن هذا يطرد فى جميع اللغة بل قد جاء شئ منها كذلك وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها لان الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب وهى مع ذلك دالة على معنى واحد وهذا من أعجب الاسرار التى توجد فى لغة العرب وأعزها افادة الا أن الاستعمال فى النظم والنثر انما يقع فى الاشتقاق الصغير دون الكبير وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تكثر الالفاظ الواردة عليه والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد فى اللغة الا قليلا وأيضا فان الحسن اللفظى الذى هو الفصاحة انما يقع فى الاشتقاق الصغير ولا يقع فى الاشتقاق الكبير ألا ترى الى هذين الاصلين الواردين ههنا وهما ق ر م وو س ق اذا نظرنا الى تراكيبهما وأردنا أن نسبكهما فى الاستعمال لم يأت منهما مثل ما يأتى فى الاشتقاق الصغير حسنا ورونقا لان ذلك لفظه لفظ تجنيس ومعناه معنى اشتقاق والاشتقاق الكبير ليس كذلك (النوع السابع والعشرون فى التضمين) وهذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ولكل من هذين القسمين مقام (وأما الحسن) الذى يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يضمن الآيات والاخبار النبوية وذلك يرد على وجهين أحدهما تضمين كلى والآخر تضمين جزئى فأما التضمين الكلى فهو أن تذكر الآية والخبر بجملتهما وأما التضمين الجزئى فهو أن تدرج بعض الآية والخبر فى ضمن كلام فيكون جزأ منه كالذى أوردته فى حل الآيات والاخبار فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وقد قيل انه لا يجوز درج آيات القرآن الكريم فى عضون الكلام من غير تبيين كى لا يشتبه وهذا القول لا أقول به فان القرآن الكريم أبين من

التضمين

أن يحتاج الى بيان وكيف يخفى وهو المعجز الذى لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله فان كانت المفاوضة فى التفرقة بينه وبين غيره من الكلام اذا أدرج فيه مع جاهل لا يعرف الفرق فذلك لا كلام معه وان كان الكلام مع عالم بذلك فذلك لا يخفى عنه القرآن الكريم من غيره ومذهبى فى هذا هو ما تقدم ذكره فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وهو أحسن الوجهين عندى وذلك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها بل تؤخذ جزء منها ويجعل أولا لكلام أو آخرا هذا اذا لم يقصد به التضمين فأما اذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجا وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة ولا رأى ما رأيته (وأما المعيب عند قوم) فهو تضمين الاسناد وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الاول منهما مسندا الى الثانى فلا يقوم الاول بنفسه ولا يتم معناه الا بالثانى وهذا هو المعدود من عيوب الشعر وهو عندى غير معيب لانه ان كان سبب عيبه أن يعلق البيت الاول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيبا اذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق احداهما بالاخرى لان الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى فالفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون فهذه الفقر الثلاث الاخيرة مرتبط بعضها ببعض فلا تفهم كل واحدة منهن الا بالتى تليها وهذا كالابيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ولو كان عيبا لما ورد فى كتاب الله عز وجل وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضا فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم فالآيتان الاوليان لا تفهم احداهما الا بالاخرى وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فهذه ثلاث آيات لا تفهم الاولى ولا الثانية الا بالثالثة ألا ترى أن الاولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر الى جواب والجواب هو

فى الثالثة

في المبالغة ومما ورد من ذلك شعرا قول بعضهم

ومن البلوى التي ليـ * ـس لها في الناس كنه

أن من يعرف شيأ * يدعي أكثر منه

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولا تم معناه إلا بالبيت الثاني وقد استعملته العرب كثيرا وورد في شعر فحول شعرائهم فمن ذلك قول امرئ القيس

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وكذلك ورد قول الفرزدق

وما أحد من الأقوام عدوا * عروق الأكرمين إلى التراب

بمحتفظين إن فضلتمونا * عليهم في القديم ولا غضاب

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة

لعمري لرهط المرء خير بقية * عليه وإن عالوا به كل مركب

من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى * جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

(الضرب الثاني من التضمين) وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاما وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه كما قال بعضهم

قم فاسقها يا علام وغنى * ذهب الذين يعاش في أكنافهم

ألا ترى أنه لو لم يقل في هذا البيت ذهب الذين يعاش في أكنافهم لكان المعنى تاما لا يحتاج إلى شيء آخر فإن قوله قم فاسقنيها يا غلام وغنى فيه كفاية إذ لا حاجة له إلى تعيين الغناء لأن في ذلك زيادة على المعنى المفهوم لا على الغرض المقصود وقد ورد هذا في عدة مواضع من شعر أبي نواس في الخمريات كقوله في مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب

فقلت هل لك في الصهباء تأخذها * من كف ذات حر والعيش مقتبل

خمرية كشعاع الشمس صافية * تطير بالكأس من لألائها شعل

فقال هات وعيدا على طرب * ودع هريرة إن الركب مرتحل

وكذلك قوله أيضا

وظبي حلو الألفاظ حلو كلامه * مقبل الوجه وحاسد وغمر

تجلت له سهلا لتنظر وجهه * وأمكن منه ما يحيط به الازر

فقمت اليه والكرى بكل عينه * فقبلته والصب ليس له صبر

الى أن تخلى نومه عن جفونه * وقال كشفت الذنب قلت لى العذر

فأعرض مزورا كأن بوجهه * تفقأ رمان وقد برد الصدر

فبات أرقيه والثم خده * الى أن تغنى راضيا وبه سكر

ألا فاسلمي يا دارمي على البلى * ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقد استعمل هذا الضرب كثيرا الخطيب عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله فمن ذلك قوله في بعض خطبه وهو فيا أيها الغفلة المطرقون أما أنتم بهذا الحديث مصدقون فما لكم منه لا تشفقون فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون وكذلك قوله في ذكر يوم القيامة وهو فيومئذ تعدو الخلائق على الله بما فيحاسبهم على ما أحاط به علما ويعدل في كل عامل بعمله حكما وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ألا ترى الى براعة هذا التصميم الذي كأنه قد وضع في هذا الموضع وضعا وعلى نحو من ذلك جاء قوله في ذكر يوم القيامة وهو فهنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا وتكون الاعمال المشوبة بالنفاق سرابا يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومما ينتظم بهذا السلك قوله في خطبة أخرى وهو أسكتهم الله الذي أنطقهم وأبادهم الذي خلقهم وسيجددهم كما أخلقهم ويجمعهم كما فرقهم يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا (ومن هذا الباب) قوله أيضا فيا أيها الناس يروع الخطاب ويوضع الكتاب ويجمع من وجب له الثواب ومن حق عليه العقاب فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وأمثال هذه التصميمات في خطبه كثيرة وهي من محاسن ما يجيء في هذا النوع

(النوع الخامس والعشرون في الارصاد) وحقيقته أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أي أعدها في نفسه فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته وذلك من محمود الصنعة فان خير الكلام ما دل بعضه على بعض وفي الاخبار بذلك يقول ابن نباتة السعدي

حذاها إذا أنشدت في القوم من طرب * صدورها عرفت منها قوافيها

ينسى لها الراكب العجلان حاجته * ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

في هذا الباب قول النابغة

فداء لامرئ سارت إليه * بعذرة ربها عمي وخالي

ولو كفي اليمين بغتك خونا * لأفردت اليمين عن الشمال

ألا ترى أنه يعلم إذا عرفت القافية في البيت الأول أن في البيت الثاني ذكر الشمال وكذلك جاء قول البحتري

أحلت دمي من غير جرم وحرمت * بلا سبب يوم اللقاء كلامي

فليس الذي حللته بمحلل * وليس الذي حرمته بحرام

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثاني أن عجزه هو ما قاله البحتري (وقد جاء الإرصاد في الكلام المنثور كما جاء في الشعر) فمن ذلك قوله تعالى وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون فإذا وقف السامع على قوله تعالى لقضي بينهم فيما فيه عرف أن بعده يختلفون لما تقدم من الدلالة عليه (ومن ذلك أيضا) قوله عز وجل فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وعلى نحو منه جاء قوله تعالى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت فإذا وقف السامع على قوله عز وجل وإن أوهن البيوت يعلم أن بعده بيت العنكبوت (ورأيت أبا هلال العسكري) قد سمى هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالإرصاد أولى وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان وسيأتي ذكره بعد هذا النوع إن شاء الله تعالى (واعلم) أنه قد اختلط على جماعة من أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان حتى إن أحدهم يضع للنوع الواحد منه اسمين اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الأمر كذلك بل هما نوع واحد ممن غلط في ذلك الغانمي فإنه ذكر بابا من أبواب علم البيان وسماه التبليغ وقال هو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ثم يأتي بها لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى

في الجودة كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

فانه أتى بالتشبيه تاماً قبل القافية ثم لما جاء بها بلغ الامد الاقصى في المبالغة ثم ان العامى ذكر بعد هذا الباب باباً آخر وسماه الاشباع وقال هو أن يأتي الشاعر بالبيت معلق القافية على آخر اجزائه ولا يكاد يفعل ذلك الا حذاق الشعراء وذاك أن الشاعر اذا كان بارعاً جاذباً بقدر به وذكائه وفطنته الى البيت وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لا عارية وزنه فجعلها نعتاً للمذكور كقول ذي الرمة

قف العيس في أطلال مية فاسأل * رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

هذا كلام العامى بعينه والبابان المذكوران سواء لا فرق بينهما بحال والدليل على ذلك أن بيت امرئ القيس يتم معناه قبل أن يؤتى بقافيته وكذلك بيت ذي الرمة ألا ترى أن امرأ القيس لما قال كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع أتى بالتشبيه قبل القافية ولما احتاج اليها جاء بزيادة حسنة وهو قوله لم تثقب وهكذا ذو الرمة فانه لما قال قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوماً كأخلاق الرداء أتى بالتشبيه أيضاً قبل أن يأتي بالقافية ولما احتاج اليها جاء بزيادة حسنة وهي قوله المسلسل واعلم أن أبا هلال العسكري قد سمى هذين القسمين بعينهما الايغال وقال هو أن يستوفى الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه ثم يأتي بالمقطع فيزيد فيه معنى آخر وأصل الايغال من أوغل في الامر اذا أبعد الذهاب فيه ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذي الرمة قف العيس في أطلال مية فاسأل البيت وهذا أقرب أمراً من العامى لانه ذكره في باب واحد وسماه باسم واحد ولم يذكره في باب آخر كما فعل العامى وليس الانحاد على العامى في ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة على أن يتصدى لايراد علم البيان وتفصيل أبوابه ويكون أحد الابواب التي ذكرها داخلا في الآخر فيذهب عليه ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصباح (وههنا ما هو أغرب من ذلك) وذلك أنه قد سلك قوم في منثور الكلام ونظومه طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان وهي بمعزل عنه لانها في واد وعلم البيان في واد فمن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات فانه ذكر الرسالة التي هي كلمة معجمة وكلمة مهملة والرسالة التي حرف من حروف

ألفاظها معجم والآخر غير معجم ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول لفظة الذى يليه وكل هذا وان تضمن مشقة من الصناعة فانه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة لان الفصاحة هى ظهور الالفاظ مع حسنها على ما أشرت اليه فى مقدمة كتابى هذا وكذلك البلاغة فانها الانتهاء فى محاسن الالفاظ والمعانى من قولنا بلغت المكان اذا انتهيت اليه وهذا الكلام الموضوع عما أتى به الحريرى فى رسالته وأورده ذلك الشاعر فى شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة وانما ألفاظه ومعانيه عنه باردة وسبب ذلك أنها مستكرهة استكراها وتوضع فى غير مواضعها وكذلك ألفاظه فانها تجئ متكرهة أيضا غير ملائمة لاخواتها وعلم البيان انما هو الفصاحة والبلاغة فى الالفاظ والمعانى فاذا خرج عنه شئ من هذه الاوضاع المشار اليها لا يكون معدودا منه ولا داخلا فى بابه ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه لورد فى كتاب الله عز وجل الذى هو معدن الفصاحة والبلاغة أو ورد فى كلام العرب الفصحاء ولم نره فى شئ من أشعارهم ولا خطبهم ولقد رأيت رجلا أديبا من أهل المغرب وقد تغلغل فى نوع عجيب وذلك أنه شجر شجرة ونظمها شعرا وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الاساليب اتباعا لشعب تلك الشجرة وأغصانها فتارة تقرأ كذا وتارة تقرأ كذا وتارة يكون حرف منه هجاء وتارة هجاء وتارة يقرأ مقلوبا وكل ذلك الشعر وان كان له معنى يفهم الا أنه ضرب من الهذيان والاولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة (ورأيت أبا محمد) بن عبد الله ابن سنان الخفاجى قد ذكر بابا من الابواب فى كتابه فقال ينبغى أن لا تستعمل فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ولا الالفاظ التى تختص بها بعض المهن والعلوم لان الانسان اذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة ثم مثل ذلك بقول أبى تمام

مودة ذهب أثمارها شبه * وهمة جوهر معروفها عرض

وبقوله أيضا خرقاء يلعب بالعقول حبابها * كتلاعب الافعال بالاسماء

وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة

ان الذى تنكرون منه * هو الذى يشتهيه قلبى

وسأبين فساد ما ذهب اليه فأقول أما قوله انه يجب على الانسان اذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة فهذا مسلم اليه ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لانها موضوعة على الخوض فى كل معنى وهذا لا ضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره فاذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور فى صوغ معنى من المعانى وأداه ذلك الى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه لانه من مقتضيات ذلك المعنى الذى قصده ألا ترى الى قول أبى تمام فى الاعتذار

فان يك جرم عن أو تك هفوة * على خطا منى فعذرى على عمدى

فان هذا من أحسن ما يجىء فى باب الاعتذار عن الذنب وكان ينبغى له على ما ذكره ابن سنان أن يترك ذلك ولا يستعمله حيث فيه لفظتا الخطا والعمد اللتان هما من خصائص ألفاظ الفقهاء وكذلك قول أبى الطيب المتنبى

ولقيت كل الفاضلين كأنما * رد الاله نفوسهم والاعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما * وأتى فذلك اذ أتيت مؤخرا

وهذا من المعانى البديعة وما كان ينبغى لابى الطيب أن يأتى فى مثل هذا الموضع بلفظة فذلك التى هى من ألفاظ الحساب بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذى لا يتم الا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب اليه وهذا محض الخطا وعين الغلط وانما ما أنكره على أبى تمام فى قوله

مودة ذهب أثمارها شبه * وهمة جوهر معروفها عرض

فان هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظتى الجوهر والعرض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين بل لانه فى نفسه ركيك لتضمنه لفظة الشبه فانها لفظة عامية ركيكة وهى التى أضعفت بالبيت جملته ورب قليل أفسد كثيرا وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ولا ركاكة عليهما وأما البيت الآخر وهو

جرفاء يلعب بالعقول حبابها * كتلعب الافعال بالاسماء

فليس بمنكر وهل يشك فى أن التشبيه الذى تضمنه واقع فى موقعه ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال الى حال وكذلك يفعل الخمر بالعقول فى تنقل حالاتها فما الذى أنكره ابن سنان من ذلك وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الاسلوب

مالا يدانيه فى حسنه وهو قوله

عوامل رزق أعربت لغة الردى * بحسم له خفض ورأس له نصب

فانه لما حصل له المشابهة فى الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره من الخفض والنصب وعلى ما ذكره ابن سنان فان ذلك غير سائر وهو من مستحسنات المعانى هذا من أعجب الاشياء وعلى هذا الاسلوب ورد قول بعضهم

وفتى من مازن * ساق أهل البصره

أمّه معروفة * وأبوه نكره

وهل يشك فى حسن هذا المعنى واطافته وكذلك ورد من هذا النوع فى شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا فقال

قال حمار الطبيب توما * لو أنصفونى لكنت أركب

لاننى جاهل بسيط * وراكبى جاهل مركب

وهذا من المعنى الذى أغرب فى الملاحة وجمع بين خفة السخرية ووفارة الفصاحة وقد تقدم القول فى صدر كتابى هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض فى كل فن من الفنون لانه مكلف بأن يخوض فى كل معنى من المعانى فاصمم بذلك على ما ذكرته ونص عليه واترك ما سواه فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بعامه وتقليده وهذا النوع اذا استعمل على الوجه المرضى كان حسنا واذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحا كما جاء فى كلام أبى العلاء بن سليمان المعرى وهو قوله فى رسالة كتبها الى بعض اخوانه حرس الله سعادته ما أدغمت الماء فى الطاء وتلك سعادة تغير انتهاء وهذا من الغث البارد لكن قد جاء فى الشعر ما هو حسن فائق كقوله

ودونكم خفض الحياة فانا * نصبنا المطايا فى الفلاة على القطع

والخفض والنصب من الاعراب النحوى والخفض رفاهة العيش والقطع من منصوبات النحو والقطع قطع الشئ يقال قطعته اذا بترته (النوع التاسع والعشرون فى التوشيح) وهو ان يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين فاذا وقف من البيت على القافية الاولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض واذا أضاف الى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الاخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض وصار ما يضاف الى القافية الاولى للبيت

التوشيح

كالوشاح وكذلك يجرى الامر فى الفقرتين من الكلام المنثور فان كل فقرة منهما اذا صاغ من ضعفين وهذا لايكاد يستعمل الاقليلا وليس من الحسن فى شئ واستعماله فى الشعر أحسن منه فى الكلام المنثور فمن ذلك قول بعضهم

اسلم ودمت على الحوادث مارسا * ركنا ثبير أوهضاب حراء
ونل المراد ممكنا منه على * رغم الدهور وفز بطول بقاء

وهذا من الجيد الذى يأتى فى هذا النوع الا أن أثر التكلف عليه باد ظاهر واذا نظر الى هذين البيتين وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر وذلك أن يقال

اسلم ودمت على الحوا * دث مارسا ركنا ثبير
ونل المراد ممكنا * منه على رغم الدهور

وقد استعمل ذلك الحريرى فى مقاماته فقوله

ياخاطب الدنيا الدنية انها * شرك الردى وقرارة الاكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها * أبكت غدا بعدا لها من دار
واذا أظل سحابها لم ينتقع * منه صدى لجهامه الغرار

(واعلم) أن هذا النوع لايستعمل الا متكلفا عند تعاطى التمكن من صناعة النظم وحسبه منوط غايته من الصناعة لاغايته من البراعة ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيد من أوله الى آخره يتضمن غزلا ومديحا على ماجرت به عادة القصائد أليس أنه كان يجيء باردا غثا لا يسلم منه على محك النظر عشره والعشر كثير وما كان على هذه الصورة من الكلام فانما يستعمل أحيانا على الطامع لاعلى المتكلف وهو وأمثاله لايحسن الا اذا كان يسيرا كالرقم فى الثوب أو الشية فى الجلد (النوع الثلاثون فى السرقات الشعرية) ولربما اعترض معترض فى هذا الموضع فقال قد تقدم نثر الشعر فى أول الكتاب وهو أخذ الناثر من الناظم ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم ولم يكن الى ذكر السرقات الشعرية اذن حاجة ولو أنعم هذا المعترض نظره لظهر له الفرق وعلم أن نثر الشعر لم يتعرض فيه الى وجوه المأخذ وكيفية الوصل الى مداخل السرقات وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلا (واعلم) أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى اذ لايستغنى الآخر عن الاستعارة من الاول لكن لا ينبغى لك أن تتجمل فى سلك اللفظ على المعنى المسروق متمادى على نهلك بالسرقة وكثيرا مارأيت الناس يخل فى ذلك فعثر

وتعاطى فيه البديهة فعقر والاصل المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاحتماء بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأطرف من عنقاء مغرب فى الاعراب وقد ذهب طائفة من العلماء الى أنه ليس لقائل أن يقول ان لاحد من المتأخرين معنى مبتدعا فان قول الشعر قديم ممد اطبق باللغة العربية وأنه لم يبق معنى من المعانى الا وقد طرق مرارا وهذا القول وان دخل فى حيز الامكان الا أنه لا يلتفت اليه لان الشعر من الامور المتماثلة والذى نقلته الاخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الابيات فيما يعن لها من الحاجات ولم يزل الحال على هذه الصورة الى عهد امرئ القيس وهو قبل الاسلام بمائة سنة واذا فماذا قصد القصائد وهو أول من قصد ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ولم يزل الامر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة واستمر ذلك الى عهد الدولة العباسية وما بعدها الى الدولة الجدابية فعظم الشعر وكثرت أساليبه وتشعبت طرقه وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد ابن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبى فاذا قيل ان المعانى المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح الى يوم القيامة ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له الا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لاول قبل آخر لان الخواطر تأتى به من غير حاجة الى اتباع الآخر الاول كقولهم فى الغزل عفت الديار وما عفت * آثارهن من القلوب

وكقولهم ان الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وان الواشى لو علم بزار الطيف لساءه وكقولهم فى المديح ان عطاءه كالبحر وكالسحاب وانه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد وانه يجود ابتداء من غير مسئلة وأشباه ذلك وكقولهم فى المراثى ان هذا الرزء أول حادث وانه استوى فيه الاباعد والاقارب وان الذاهب لم يكن واحدا وانما كان قبيلة وان بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب وأشباه ذلك وكذلك يجرى الامر فى غير ما أشرت اليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر

عليها من غير كلفة وتستوي في ايرادها ومثل ذلك لا يطلق على الآخذ فيه اسم السرقة من الاول وانما يطلق اسم السرقة في معنى مخصوص كقول أبي تمام

لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام وكان لابتداعه سبب والحكاية فيه مشهورة وهي أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها ما في وقوفك ساعة من باس * انتهى الى قوله

اقدام عمرو في سماحة حاتم * في حلم أحنف في ذكاء اياس

فقال الحكيم الكندي وأي فخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب وأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه اياه بعمرو وحاتم واياس وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فانه يكون سارقا له وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي في عضد الدولة وولديه

وأنت الشمس تبهر كل عين * فكيف وقد بدت معها اثنتان

فعاشا عيشة القمرين يحيي * بضوئهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الاعادي * ولا ورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدو كاثراه * له ياءي حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبي الطيب وهو الذي ابتدعه أي أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير فانها زيادة نقص وما ينبغي أن يقال ان ابن الرومي ابتدع هذا المعنى الذي هو

يشكى المحب ويلقى الدهر شاكيه * كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

فان علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومي وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم يلدغ ويصي ويضرب ذلك لمن يبتدئ بالاذى ثم يشكو وأما ابن الرومي فقد ابتدع معاني أخر غير ما ذكرته وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعاني المبتدعة بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره والذي عندي في السرقات أنه متى أورد الآخذ شيئا من ألفاظ الاول في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة فان ذلك من أدل الدليل على سرقته (واعلم) أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا

وكنت ألفت فيه كتابا وقسمته ثلاثة أقسام نسخا وسلخا ومسخا أمّا النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمّته من غير زيادة عليه مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب وأمّا السلخ فهو أخذ بعض المعنى مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ وأمّا المسخ فهو احالة المعنى الى مادونه مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة (وههنا قسمان آخران) أغفلت ذكرهما في الكتاب الذي ألفته (فأحدهما) أخذ المعنى مع الزيادة عليه (والآخر) عكس المعنى الى ضدّه وهذان القسمان ليسا بنسخ ولاسلخ ولامسخ وكل قسم من هذه الاقسام يتنوّع ويتفرّع وتخرج به القسمة الى مسالك دقيقة وقد استوعبت مافاتني من ذلك في هذا الكتاب والله الموفق للصواب ومن المعلوم أنّ السرقات الشعرية لايمكن الوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التي لايحصرها عدد فمن رام الاخذ بنواصيها والاشتمال على قواصيها بأن يتصفح الاشعار تصفحا ويقتنع بتأملها فانه لايظفر منها الا بالحواشي والاطراف وكنت سافرت الى الشام في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ودخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له أوّلها * خذا من صبا نجد أمانا لقلبه * ويزعمون أنه من المعاني الغريبة وهو

أغار اذا آنست في الحيّ أنّة * حذارا عليه أن تكون لحبه

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله

لو قلت للدنف المشوق فديته * ممابه لأغرته بفدائه

وقول أبي الطيب أدقّ معنى وان كان قول ابن الخياط أرق لفظا ثم اني وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي وسافرت الى الديار المصرية في سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يلهجون ببيت من الشعر يعزونه الى شاعر من أهل اليمن يقال له عمارة وكان حديث عهد بزماننا هذا في آخر الدولة العلوية بمصر وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن وهو

فهل درى البيت أني بعد فرقته * ماسرت من حرم الا الى حرم

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبي تمام في قوله يمدح بالعض الخلفاء في حجة حجها وذلك بيت من جملة أبيات حسنة

يا من رأى حرما يسرى الى حرم * طوبى لمستلم يأتى وملتزم

ثم قلت فى نفسى يا لله العجب ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين درست أشعارهم ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره بل هما كما يقال أشهر من الشمس والقمر وشعرهما دائر فى أيدى الناس بخلاف غيرهما فكيف خفى على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدم الحفظ للأشعار والاقتناع بالنظر فى دواوينهما ولما نصبت نفسى للخوض فى علم البيان ورمت أن أكون معدودا من علمائه علمت أن هذه الدرجة لا تنال الا بنقل ما فى الكتب الى الصدور والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور

ليس بعلم ما حوى القمطر * ما العلم الا ما حواه الصدر

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وأنفدت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله وكيف ينتهى الى احصاء قول لم تحص أسماء قائله فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم اذ المراد من الشعر انما هو ايداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد وأبى الطيب المتنبى وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء أما أبو تمام فانه رب معان وصيقل ألباب وأذهان وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذى برز فيه على الاضراب ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ولم أقل ما أقول فيه الا عن تنقيب وتنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام فخذ منى فى ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذى علم عليم وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق فبينما يكون فى شظف نجد اذ تشبث بريف العراق وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه

فقال أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ولعمري انه أنصف في حكمه وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه فان أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه الى الافهام وما أقول الا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ورقي في ديباجة لفظه الى الدرجة العالية وأما أبو الطيب المتنبي فانه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه لكنه حظي في شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما وذلك أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى اليه عيانه ومع هذا فاني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط فاما مفرط في وصفه واما مفرّط وهو وان انفرد بطريق صار أبا عذره فان سعادة الرجل كانت أكثر من شعره وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة

لا تطلبن كريما بعد رؤيته * ان الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره * قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى وجدته أقساما خمسة خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر وخمس دون ذلك وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها فانها هي التي ألبسته لباس الملام وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام ولسائل هنا أن يسأل ويقول لم عدلت الى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فأقول اني لم أعدل اليهم اتفاقا وانما عدلت اليهم نظرا واجتهادا وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا وعرضته على نظري فلم أجد

أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبي عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقي على خاطري من غيرها (وقد أوردت) في هذا الموضع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيري ونبهت على غوامض منها وكنت قدمت القول أني قسمتها إلى خمسة أقسام منها الثلاثة الأول وهي النسخ والسلخ والمسخ ومنها القسمان الآخران وها أنا أبين ما ينقسم إليه هذه الأقسام من تشعبها وتفريعها فأقول (أما النسخ) فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعا أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب وعلى ذلك فإنه ضربان (الأول) يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس

وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وكقول طرفة وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا في شعرهما (ومنه) ما أورده مورد امرئ القيس وطرفة في تخالفهما في لفظة واحدة كقول الفرزدق

أتعدل أحسابا لئاما حماتها * بأحسابنا إني إلى الله راجع

وكقول جرير

أتعدل أحسابا كراما حماتها * بأحسابكم إني إلى الله راجع

(ومنه) ما تساويا فيه لفظا كقول الفرزدق

وغر قد وسقت مشمرات * طوالع لا تطيق لها جوابا

بكل ثنية وبكل ثغر * غرائبهن تنتسب انتسابا

بلغن الشمس حين تكون شرقا * ومسقط رأسها من حيث غابا

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد وقد حكي أن امرأة من عقيل يقال لها ليلى كان يتحدث إليها الشباب فدخل الفرزدق إليها وجعل يحادثها وأقبل فتى من قومها كانت تألفه فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفرزدق فغاظه ذلك فقال للفتى أتصارعني فقال ذاك إليك فقام إليه فلم يلبث أن أخذه الفرزدق فصرعه وجلس على صدره فضرط فوثب الفتى عنه وقال يا أبا فراس هذا مقام

العائذ بك والله ما أردت ما جرى فقال ويحك والله ما بي أنك صرعتني ولكن كأني بابن الأتان يعني جريرا وقد بلغه خبري فقال يهجوني

جلست إلى ليلى لتحظى بقربها * فخانك دبر لا يزال يخون

ولو كنت ذا حزم شددت وكاءه * كما شد جربان الدلاص قيون

قال فوالله ما مضت الأيام حتى بلغ جريرا الخبر فقال فيه هذين البيتين وهذا من أغرب ما يكون في مثل هذا الموضع وأعجبه ويقال إن الفرزدق وجريرا كانا ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد وهذا عندي مستبعد فإن ظاهر الأمر يدل على خلافه والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى وإذا فاد أن شاعرا متقدم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة فكيف تتفق الألسنة أيضا في صوغ الألفاظ (ومما كنت أستحسنه) من شعر أبي نواس قوله من قصيدته التي أولها * دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

دارت على فتية ذل الزمان لهم * فما يصيبهم إلا بما شاؤوا

وهذا من عالي الشعر ثم وقفت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على هذا البيت في أصوات معبد وهو

لهفي على فتية ذل الزمان لهم * فما أصابهم إلا بما شاؤوا

وما أعلم كيف هذا (الضرب الثاني من النسخ) وهو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ كقول بعض المتقدمين يمدح معبدا صاحب الغناء

أجاد طويس والسريجي بعده * وما قصبات السبق إلا لمعبد

ثم قال أبو تمام

محاسن أصناف المغنين جمة * وما قصبات السبق إلا لمعبد

وهذه قصيدة أولها * غدت تستجير الدمع خوف نوى غد * وقال

وقائع أصل النصر فيها وفرعه * إذا عدد الإحسان أو لم يعدد

فمهما تكن من وقعة بعد لا تكن * سوى حسن مما فعلت مردد

محاسن أصناف المغنين جمة * البيت (وأما السلخ) فإنه ينقسم إلى اثني عشر ضربا وهذا تقسيم أوجبته القسمة وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شيء خارج عنه (فالأول) أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إياه وهذا

من أدق السرقات مذهبا وأحسنها صورة ولا يأتي الا قليلا (فمن ذلك) قول بعض شعراء الحماسة

لقد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره الا أنه شبيه به فقال

واذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني فاضل

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذلك المعنى عسر غامض وهو غير متبين الا لمن أعرق في ممارسة الاشعار وغاص في استخراج المعاني وبيانه أن الاول يقول ان بغض الذي هو غير طائل اياي مما زاد نفسي حبا الي أي جملها في عيني وحسنها عندي كون الذي هو غير طائل مبغضي والمتنبي يقول ان ذم الناقص اياي شاهد بفضلي فذم الناقص اياه كبغض الذي هو غير طائل ذلك الرجل وشهادة ذم الناقص اياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده (ومن هذا الضرب) ما هو أظهر مما ذكرته وأبين كقول أبي تمام

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة * رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

أخذ البحتري هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه كقوله في قصيدة يفخر فيها بقومه

شيخان قد ثقل السلاح عليهما * وعداهما رأي السميع المبصر

ركبا القنا من بعد ما حملا القنا * في عسكر متحامل في عسكر

وأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الارض ثم سار فيها فرعته أي أهزلته فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها والبحتري نقل هذا الى وصف الرجل بعلو السن والهرم فقال انه كان يحمل الرمح في القتال ثم صار يركب عليه أي يتوكأ منه على عصا كما يفعل الشيخ الكبير وكذلك ورد قول الرجلين أيضا فقال أبو تمام

لا أظلم النأي قد كانت خلائقها * من قبل وشك النوى عندي نوى قذفا

أخذه البحتري فقال

أعاتك ما كان الشباب مقربي * اليك فألحي الشيب اذ هو مبعدي

وهذا أوضح من الذي تقدمه وأكثر بيانا (الضرب الثاني من السلخ) أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتي الا قليلا (فمنه) قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا * من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ

ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة * ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة * تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف وهذا الضرب فى سرقات المعانى من أشكلها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهبا ولا يتفطن له ويستخرجه من الاشعار الا بعض الخواطر دون بعض وقد يجىء منه ما هو ظاهر لا يبلغ فى الدقة مبلغ هذه الابيات المشار اليها كقول ابن المقفع فى باب الرثاء من كتاب الحماسة

وقد جرّ نفعا فقدنا لك أننا * أمنا على كل الرزايا من الجزع

وجاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال

وقد عزى ربيعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود

وهذا من البديع النادر وههنا ما هو أشد ظهورا من هذين البيتين فى هذا الضرب من السرقات الشعرية وذلك يأتى فى الالفاظ المترادفة التى يقوم بعضها مقام بعض وذلك لا اعتداد به لمكان وضوحه لكن قد يجىء منه ما هو صفة من صفات الترادف لا الاسم نفسه فيكون حسنا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحاهم * سواء ذو العمامة والخمار

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى فقال

ومن فى كفه منهم قناة * كمن فى كفه منهم خضاب

(الضرب الثالث من السلخ) وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق فمن ذلك قول البحترى فى غلام

فوق ضعف الصغير ان وكل الأمـ * ـر اليه ودون كيد الكبار

سرقه أبو نواس فقال

لم يخف من كبر عما يراد به * من الامور ولا أزرى من الصغر

وكذلك قوله أيضا

كل عيد له انقضاء وكل * كل يوم من جوده فى عيد

أخذه من على بن جبلة

للعيد يوم من الايام منتظر * والناس فى كل يوم منك فى عيد

وكذلك قوله جاد حتى أفنى السؤال فلما * باد منا السؤال جاد ابتداء

أخذه من على بن جبلة

أعطيت حتى لم تدع لك سائلا * وبدأت اذ قطع العفاة سؤالها

وقد افتضح البحترى فى هذه المآخذ غاية الافتضاح هذا على بسطة باعه فى الشعر وغناه عن مثلها (وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء) ولم يستنكفوا من سلوكها ممن فعل ذلك أبو تمام فانه قال

قد قلصت شفتاه من حفيظته * فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فقال

واذا اشتد أن ترى الموت فى صو * رة ليث فى لبدتى رئبال

فالقه غير أعاديه تاه * أبيض صارم وأسمر عال

تلق ليثا قد قلصت شفتاه * فيرى ضاحكا لعبس الصيال

وكذلك قال أبو تمام

فلم أمدحك تفخيما بشعرى * ولكنى مدحت بك المديحا

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم حيث قال

ما ان مدحت محمدا بمقالتى * لكن مدحت مقالتى بمحمد

ولا شك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضى الله عنه فقال له عمر استخلف غيرى فقال أبو بكر رضى الله عنه ما حبوناك بها وانما حبوناها بك وهكذا فعل ابن الرومى فيما جاء له قوله

جرحته العيون فاقتص منها * بجوى فى القلوب دامى الندوب

سبقه أبو تمام فقال

ادميت باللحظات وجنته * فاقتص ناظره من القلب

وكذلك قول ابن الرومى

وكانت بخلق فى اقتضائك حاجتى * وكفى به متقاضيا ووكيلا

سبقه أبو تمام فقال

واذا المجد كان عونى على المر * ء تقاضيته بترك التقاضى

وكذلك قال ابن الرومى

ومالى

ومالى عزاء عن شبابى علمته * سوى أنى من بعده لا أخلد

سبقه منصور النمرى فقال

قد كدت أقضى على فوت الشباب أسا * لولا تعزى ان العيش منقطع

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى فماحا منه قوله

فدى نفسه بضمان النضار * وأعطى صدور القنا الذابل

أخذه من قول الفرزدق

كان الفداء له صدور رماحنا * والخيل اذ رهج الغبار مثار

وكذلك قوله أيضا

أين ازمعت أيهذا الهمام * نحن نبت الربا وأنت الغمام

أخذه من بشار حيث قال

كأن الناس حين تغيب عنهم * نبات الارض أخطأه القطار

وكذلك قوله   فلا رأت ديارك مشرقات * ولا دانيت ياشمس الغروبا

لاصبح آمنا فيك الرزايا * كما أنا آمن فيك العيوبا

أخذه من ابن الرومى حيث قال

أسالم قد سلمت من العيوب * الا فاسلم كذاك من الخطوب

والذى عندى فى الضرب المشار اليه أنه لا بد من مخالفة المتأخر المتقدم اما بان يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر أو يوجز فى لفظه أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته (ومن هذا الضرب) ما يستعمل على وجه يزداد قبحه وتكثر الشناعة به وهو أن يأخذ أحد الشاعرين معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافية ومثاله فى ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها فى مثل ما سرقها منه والاولى به أن كان نظم تلك الجوهرة فى عقد أو صاغها فى سوار أو خلخال ليكون أكتم لامرها ومن فعل ذلك من الشعراء فافتضح أبو الطيب المتنبى حيث قال فى قصيدته التى أولها غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع

لم يسلم الكر فى الاعقاب مهجته * ان كان أسلمها الاصحاب والشيع

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لابى تمام فى وزنها وقافيتها أولها

أى القلوب عليكم ليس ينصدع * وهذا المعنى الذى أورده أبو الطيب

مأخوذ من بيت منها وهو

ماغاب عنكم من الاقدام أكرمه * فى الروع اذ غابت الانصار والشيع

وليس فى السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة فانه لم يكتف الشاعر فيها بأن يسرق المعنى حتى ينادى على نفسه أنه قد سرقه (الضرب الرابع من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حدّ السرقة فمن ذلك قول أبى نواس

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم * أشهى المطىّ الىّ مالم يركب

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة * لبست وحبة لؤلؤ لم تثقب

فقال مسلم بن الوليد فى عكس ذلك

انّ المطية لا يلذ ركوبها * حتى تذلل بالزمام وتركبا

والحب ليس بنافع أربابه * حتى يفصل فى النظام ويثقبا

ومن هذا الباب قول ابن جعفر

ولما بدالى أنها لا تريدنى * وأنّ هواها ليس عنى بمنجلى

تمنيت أن تهوى سواى لعلها * تذوق صبابات الهوى فترق لى

وقال غيره ولقد سرّنى صدودك عنى * فى طلابيك وامتناعك منى

حذرا أن أكون مفتاح غيرى * واذا ما خلوت كنت التمنى

أمّا ابن جعفر فانه تناهب وألقى عن منكبه رداء الغيرة وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتعالى به غاية العلو وكذلك ورد قول أبى الشيص

أجد الملامة فى هواك لذيذة * شغفا بذكرك فليلمنى اللوّم

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى وعكسه فقال

أأحبه وأحب فيه ملامة * انّ الملامة فيه من أعدائه

وهذا من السرقات الخفية جدّا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة وقد نوجته فى شئ من شعرى فجاء حسنا فمن ذلك قولى

لولا الكرام وما سنوه من كرم * لم يدر قائل شعر كيف يمتدح

أخذته من قول أبى تمام

ولولا خلال سنها الشعر مادرى * بناة العلى من أين تؤتى المكارم

(الضرب الخامس من السلخ) وهو أن يؤخذ بعض المعنى فمن ذلك قول أمية

ابن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان

عطاؤك زين لامرئ ان حبوته * ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه * اليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال

تدعى عطاياه وفرا وهي ان شهرت * كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا
ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا * حتى رأيت سؤالا يجتني شرفا

فأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاءه غير شين وأما أبو تمام فانه أتى بالمعنى الأول لا غير (ومن هذا الضرب) قول علي بن جبلة وآثل مالم يحوه متقدم * وان نال منه آخر فهو تابع

فقال أبو الطيب المتنبي

ترفع عن عون المكارم قدره * فما يفعل الفعلات الا عذاريا

فعلي بن جبلة اشتمل ما قاله على معنيين أحدهما أنه فعل مالم يفعله أحد ممن تقدمه وان نال منه الآخر شيأ فانما هو مقتد به وتابع له وأما أبو الطيب المتنبي فانه لم يأت الا بالمعنى الواحد وهو أنه يفعل مالا يفعله غيره غير أنه أبرزه في صورة حسنة ومن ذلك قول أبي تمام

كالغيث ان جئته وافاك ريقه * وان ترحلت عنه لج في الطلب

فقال البحتري

ومثلك ان أبدى الفعال أعاده * وان صنع المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال ان الممدوح رب صنيعه أي يستديمه ويعلم أنه اذا لم يستدمه فما ابتدأه والبحتري قال انه يستديم صنيعه لا غير وذلك بعض ما ذكره أبو تمام وكذلك قال البحتري

اذا مع بأمثال أبي غالب * عادية العدم أو استعفف

أخذه ممن تقدمه حيث قال

انتج الفضل أو تخل عن الدنـ * ـيا فهاتان غاية الهمم

فالبحتري أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه وكذلك ورد قول ابن الرومي

رأيتم على هام المعالي اذا ارتقى * اليها أناس غيركم بالسلالم

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

فوق السماء وفوق ما طلبوا * فاذا أرادوا غاية نزلوا

وهذا بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومى لانه قال انكم نزلتم على هام المعالى وان غيركم يرقى اليها رقيا وأما المتنبى فانه قال انكم اذا أردتم غاية نزلتم وأما قوله فوق السماء فانه يعنى عنه قول ابن الرومى نزلتم على هام المعالى اذ المعالى فوق كل شئ لانها مختصة بالعلو مطلقا (الضرب السادس من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر فمما جاء منه قول الاخنس ابن شهاب

اذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا الى أعدائنا فنضارب

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه وهو قوله

ان قصر الرمح لم يمش الخطا عددا * أو عرّد السيف لم يهمم بتعريد

وكذلك ورد قول جرير فى وصف أبيات من شعره

غرائب آلاف اذا حان وردها * أخذن طريقا للقصائد معلما

أخذه أبو تمام فزاد عليه اذ قال فى وصف قصيدة له وقرن ذلك بالممدوح

غرائب لاقت فى فنائك أنسها * من المجد فهى الآن غير غرائب

وكذلك ورد قول ولد مسلمة بن عبد الملك

أذل الحياة وكره الممات * وكلا أراه طعاما وبيلا
فان لم يكن غير احداهما * فسيرا الى الموت سيرا جميلا

أخذه أبو تمام فقال

مثل الموت بين عينيه والذل وكلا رآه خطبا عظيما
ثم سارت به الحمية قدما * فأمات العدا ومات كريما

فزاد عليه بقوله * فأمات العدا ومات كريما * ويروى أنه نظر عبد الله بن على رضى الله عنه عند قتال المروانية الى فتى عليه أبهة الشرف وهو يبلى فى القتال بلاء حسنا فناداه يا فتى لك الامان ولو كنت مروان بن محمد فقال الا أكنه فلست بدونه قال فلك الامان ولو كنت من كنت فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين وكذلك ورد قول أبى تمام

يصد عن الدنيا اذا عن سودد * ولو برزت فى زى عذراء ناهد

أخذه من قول المعذل بن غيلان

ولست بنظار الى جانب العلا * اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

الا أنه زاده زيادة حسنة بقوله * ولو برزت فى زى عذراء ناهد * ومما يجرى هذا المجرى قول البحترى خلق عما فاعنا أن فيما * واو عمرو أو كالحديث المعاد أخذه من قول أبى نواس

قل لمن يدعى سليما سفاها * لست منها ولا قلامة ظفر

انما أنت ملصق مثل واو * ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

الا أن البحترى زاد على أبى نواس فى قوله أو كالحديث المعاد وهكذا ورد قول البحترى أيضا

ركبوا الفرات الى الفرات وأملوا * جذلان يبدع فى السماح ويغرب

أخذه من مسلم بن الوليد فى قوله

ركبت اليه البحر فى موج رائه * فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

الا أن البحترى زاد عليه بقوله جذلان يبدع فى السماح ويغرب وكذلك ورد قول أبى نواس وليس لله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيرا ومنهم من ظنه مبتدعا لأبى نواس ويحكى عن أبى تمام أنه دخل على ابن أبى دواد فقال له أحسبك عاتبا يا أبا تمام فقال انما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا قال من أين هذه يا أبا تمام قال من قول الحاذق أبى نواس وأنشده البيت وهذه الحكاية عندى موضوعة لأن أبا تمام كان عارفا بالشعر حتى انه قال لم أنظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال وما كان يخفى عنه أن هذا المعنى ليس لأبى نواس وانما هو مأخوذ من قول جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم * حسبت الناس كلهم غضابا

الا أن أبا نواس زاده زيادة حسنة وذلك أن جريرا جعل الناس كلهم بنى تميم وأبا نواس جعل العالم كله فى واحد وذلك أبلغ * ومما ينظم فى هذا السلك قول الفرزدق علام تلفتين وأنت تحتى * وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى * من الانساع والدبر الدوامى

أخذه أبو نواس فصار أملك به وأحسن فيه غاية الاحسان فقال

واذا المطى بنا بلغن محمدا * فظهورهن على الرجال حرام

فالفرزدق قال تسريحي من الانساع والدر الدواعي وليست استراحتها عائدة
من معاودة انعامها مرة أخرى وأما أبو نواس فانه حرم ظهورهن على الرجال
أي أنها تعفى من السفر اعفاء مستمرا ولا شك أن أبا نواس لم يتممه الهذه الزيادة
الا من فعل العرب في السائبة والبحيرة وعلى هذا الاسلوب ورد قول المتنبي

وملومة زرد ثوبها * ولكنه بالقنا مخمل

أخذه من أبي نواس في قوله

امام خميس أرجوان كأنه * قميص محوك من قنا وجياد

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبي نواس بهذا المعنى وكذلك قال
أبو الطيب المتنبي

وان جاد قبلك قوم مضوا * فانك في الكرم الاول

وأخذته أنا وزردت عليه فقلت

أنت في الجود أول وقضى الله بأن لا يرى لك الدهر ثاني

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة الى غيره (الضرب السابع من
السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى وهذا هو
المحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة فمن ذلك قول أبي تمام

جذلان من ظفر حران ان رجعت * مخضوبة منكم أظفاره بدم

أخذه البحتري فقال

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها * تذكرت القربى ففاضت دموعها

ومن هذا الاسلوب قولهما أيضا فقال أبو تمام

ان الكرام كثير في البلاد وان * قلوا كما غيرهم قلوا وان كثروا

وقال البحتري قل الكرام فصار يكثر فذهم * ولقد يقل الشيء حتى يكثر

وعلى هذا النحو ورد قول أبي نواس

يدل على ما في الضمير من الفتى * تقلب عينيه الى شخص من يهوى

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

واذا خامر الهوى قلب صب * فعليه لكل عين دليل

ومما ينتظم في هذا السلك قول أبي الطيب المتنبي

اذا ما ازددت من بعد التناهي * فقد وقع انتقاصي في ازدياد

أخذه ابن نباتة السعدي فقال

اذا كان نقصان الفتى من تمامه * فكل صحيح في الانام عليل

وكذلك ورد قول أبي العلاء بن سليمان في مرثية

وما كلفة البدر المنير قديمة * ولكنه في وجهه أثر اللطم

أخذه الشاعر المعروف بالقيسراني فقال

وأهوى التي أهوى لها البدر ساجدا * ألست ترى في وجهه أثر الترب

وكذلك قول ابن الرومي

اذا شنئت عين امرئ شيب نفسه * فعين سواه بالشناءة أجدر

أخذه من تأخر زمانه عنه فقال

اذا كان شيبي بغيضا الي * فكيف يكون اليها حبيبا

ومما ينخرط في هذا السلك قول بعضهم

مقصرة الاوساط زانت عقودها * بأحسن مما زينتها عقودها

أخذه أبو تمام فقال

كأن عليها كل عقد ملاحة * وحسنا وان أضحت وأمست بلا عقد

ثم أخذه البحتري فقال

اذا أطفأ الياقوت اشراق وجهها * فإن غناء ما توخت عقودها

وأمثال هذا كثيرة وفيما أوردناه مقنع (الضرب الثامن من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة باعه في البلاغة فمن ذلك قول بشار

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه سلم الخاسر وكان تلميذه فقال

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

وبين البيتين تفاوت في التأليف ومن هذا الاسلوب قول أبي تمام

برزت في طلب المعالي واحدا * فيها تسير مغورا ومنجدا

عجبا بأنك سالم في وحشة * في غاية ما زلت فيها مفردا

أخذه ابن الرومي فقال

عزته الخلائق الزهر في النا * س وما أوحشته بالتغريب

وكذلك ورد قول أبي نواس

وكأن بالدهر عنيا غير غافله * من جود كفك تأسو كل ما جرحا

أخذه ابن الرومي فقال

الدهر يفسد ما استطاع وأحمد * يتتبع الافساد بالاصلاح

وعلى هذا ورد قول ابن الرومي

كأني أستدني بك ابن حنية * اذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

أخذه بعض شعراء الشأم وهو ابن قسيم الحموي فقال

فهو كالسهم كلما زدته منـ * ـك دنوا بالنزع زادك بعدا

ولقيت جماعة من الادباء بالشام ووجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذي ابتدع هذا المعنى وليس كذلك وانما هو لابن الرومي ومما يجري هذا المجرى قول أبي العتاهية

وانى لمعذور على فرط حبها * لأن لها وجها يدل على عذري

أخذه أبو تمام فقال

له وجه اذا أبصر * ته ناجاك عن عذري

فأوجز في هذا المعنى غاية الايجاز ومما يجري على هذا النهج قول أبي تمام

كانت مساءلة الركبان تخبرني * عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت * أذني بأحسن مما قد رأى بصري

أخذه أبو الطيب المتنبي فأوجز حيث قال

وأستكبر الاخبار قبل لقائه * فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وكذلك قولهما في موضع آخر فقال أبو تمام

كم صارما عضبا أناف على قفا * منهم لأعباء الوغى حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه * وطن النهى من مفرق وقذال

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن حيث قال

يسابق القتل فيهم كل حادثة * فما يصيبهم موت ولا هرم

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء

أمن خوف فقر تعجلته * وأخرت انفاق ما تجمع

فصرت الفقير وأنت الغني * وما كنت تعدو الذي تصنع

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

قوله كم صارم عضب أناف على قفا منهم لأعباء الوغى حمال

ومن

ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

(الضرب التاسع من السلخ) وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا أو خاصا فيجعل عاما وهو من السرقات التي يسامح صاحبها فمن ذلك قول الاخطل

لا تنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال

أألوم من بخلت يداه وأغتدي * للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذي جعل خاصا ألا ترى أن الاول نهى عن الاتيان بما ينهى عنه مطلقا وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا في بابه وأما أبو تمام فانه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الاخلاق وأما جعل الخاص عاما فكقول أبي تمام ولو حاردت شول عذرت لقاحها * ولكن منعن الدر والضرع حافل

أخذه أبو الطيب المتنبي فجعله عاما اذ يقول

وما يؤلم الحرمان من كف حارم * كما يؤلم الحرمان من كف رازق

(الضرب العاشر من السلخ) وهو زيادة البيان مع المساواة في المعنى وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه فمما جاء منه قول أبي تمام

هو الصنع ان يعجل فخير وان يرث * فللريث في بعض المواطن أسرع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له وذلك قوله

ومن الخير بطء سيبك عني * أسرع السحب في المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق وما أحسن ما أتى بهذا المعنى في المثال المناسب له وكذلك قولهما في موضع آخر فقال أبو تمام

قد قلصت شفتاه من حفيظته * فخيل من شدة التعبيس مبتسما

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

وجاهل مده في جهله ضحكي * حتى أتته يد فراسة وفم

اذا رأيت نيوب الليث بارزة * فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط في هذا السلك قول أبي تمام

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل * حتى يجاورها الزمان بحال

أخذه أبو عبادة البحتري فقال

وقد زادها افراط حسن جوارها * لاخلاق أصفار من المجد خيب

قوله وما يؤلم مع قوله كما يؤلم في الديوان يوجع بدلهما اه

وحسن دراري الكواكب أن ترى * طوالع في داج من الليل غيهب

فانه أتى بالمعنى مصرو باله هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنا (الضرب الحادى عشر من السلخ) وهو ابعاد الطريق واختلاف المقصد ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما الى موردين أو روضتين وهما متباينين وصل أحدهما على الآخر فما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثية لولدين صغيرين

مجد تأوب طارقا حتى اذا * قلنا أقام الدهر أصبح راحلا

نجمان شاء الله أن لا يطلعا * الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

ان الفجيعة بالرياض نواضرا * لأجل منها بالرياض ذوابلا

لهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أخرت حتى تكون شمائلا

ان الهلال اذا رأيت نموه * أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

قل للأمير وان لقيت موقرا * منه بريب الحادثات حلاحلا

ان ترز فى طرفى نهار واحد * رزأين هاجا لوعة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفا لمطية * الا اذا ما كان وهما بازلا

لا غرو ان فننان من عيدانه * لقيا حماما للبرية آكلا

ان الأشاء اذا أصاب مشذب * منه اتمهل ذرا وأث أسافلا

شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ * أو أن تذكر ناسيا أو غافلا

الا مواعظ قادها لك سمحة * اسجاح لبك سامعا أو قائلا

هل تكلف الأيدى بهز مهند * الا اذا كان الحسام القاصلا

(وقال) أبو الطيب فى مرثية لطفل صغير

فان تك فى قبر فانك فى الحشا * وان تك طفلا فالأسى ليس بالطفل

ومثلك لا يبكى على قدر سنه * ولكن على قدر المخيلة والأصل

ألست من القوم الذى من رماحهم * نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

بمولودهم صمت اللسان كغيره * ولكن فى أعطافه منطق الفضل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم * ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

عزاءك سيف الدولة المقتدى به * فانك نصل والشدائد للنصل

تخون المنايا عهده فى سليله * وتنصره بين الفوارس والرجل

بنفسى وليد عاد من بعد حمله * الى بطن أم لا تطرق بالحمل

قوله مجد تأوب الخ نزلتا أبياتا كثيرة فى هلال الأبيات المذكورة حتى أهمل أن ليس فيهما حوالى لو أخرت وهما لعد اسكوهما حتى وصفاهما * حتى وتلك الا رتعية فاتلا * ولا صح الحكم الردعية * واصار دائنا الطل حور دا دلا * وكذلك الأبيات بعده اه

بداوله وعد السحابة بالروى * وصد وفيها علة البلد المحل
وقد مدت الخيل العتاق عيونها * الى وقت تبديل الركاب من النعل
وريع له جيش العدو وما مشى * وجاشت له الحرب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر الى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهما فى وادمنه مع اتفاقهما فى بعض معانيه وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا وأذكر الفاضل من المفضول وأقول أما الذى اتفقا فيه فان أبا تمام قال لهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أخرت حتى تكون شمائلا وأما أبو الطيب فانه قال

فولودهم صمت اللسان كغيره * ولكن فى أعطافه منطق الفضل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ومنطق الفضل وقال أبو تمام

عجبا ان شاء الله أن لا يطلعا * الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب

بداوله وعد السحابة بالروى * وصد وفيها علة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله * وصد وفيها علة البلد المحل * لانه بين قدر حاجتهم الى وجوده وانتفاعهم بحياته (وأما ما اختلفا فيه) فان أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضا وذلك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه ورب عائب كره هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لامع فضيلة القول وتقدمه وأبو تمام وان كان أشعر عندى من أبى الطيب فان أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه من المعنى وأما الذى اختلفا فيه فان أبا الطيب قال

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به * فانك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما

ان ترزفى طرفى نهار واحد * رزأين هاجا لوعة وبلابلا
فالنصل ليس مضاعفا لمطية * الا اذا ما كان وهما بازلا

فان قول أبى الطيب والشدائد للنصل أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام ان النقل انما يضاعف للبازل من المطايا وقوله أيضا

تحوي المنايا عهده في سلبه * وتنصر بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتي أبي تمام اللذين هما

لا تنكروا أن ينال من عيدانه * إقبالها ما للسرية آكلا

إن الأشاءة إذا أصاب مشذب * منه اثمأل ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب

ألست من القوم الذي من رماحهم * نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم * ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتي أبي تمام اللذين هما

شمخت خلالك أن يؤاسيك امرؤ * أو أن تذكر ناسيا أو غافلا

إلا مواهب قادها لك نجعة * استحاح لبد سامعا أو قائلا

(واعلم) أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطبا من التفضيل بين المعنيين المختلفين وقد ذهب قوم إلى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين واحتجوا على ذلك بأن قالوا المفاضلة بين الكلامين لا تكون إلا باشتراكهما في المعنى فإن اعتبار التأليف في نظم الألفاظ لا يكون إلا باعتبار المعاني المندرجة تحتها فإذا لم يكن بين الكلامين اشتراك في المعنى حتى يعلم مواقع النظم في قوة ذلك المعنى أو ضعفه واتساق ذلك اللفظ أو اضطرابه وإلا فكل كلام له تأليف يخصه بحسب المعنى المندرج تحته وهذا مثل قولنا العسل أحلى من الخل فإنه ليس في الخل حلاوة حتى يقاس حلاوة العسل عليها وهذا القول فاسد فإنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة حقا لوجب أن يسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه وهذا محال وإنما خفي عليهم ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الأصل الذي تقع المفاضلة فيه سواء اتفقت المعاني أو اختلفت ومن ههنا وقع لهم الغلط وبيان ذلك فأقول من المعلوم أن الكلام لا يختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة فثبت بهذا أن النظر إنما هو في هذين الوصفين اللذين هما الأصل في المفاضلة بين الألفاظ والمعاني على اتفاقهما واختلافهما فإذا وجدا في أحد الكلامين دون الآخر أو كانا أخص به من الآخر حكم له بالفضل (وقرأت في كتاب الأغاني) لأبي الفرج في تفضيل الشعر أشياء تتضمن خبطا كثيرا وهو مروي عن علماء العربية لكن عذرتهم

في ذلك

فى ذلك فانّ معرفة الفصاحة والبلاغة شيء خلف معرفة النحو والاعراب (ومما وقفت عليه) أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الاخطل فقال لو أدرك يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا وهذا تفضيل بالاعصار لا بالاشعار وفيه ما فيه ولو أنّ أبا عمرو عندى بالمكان العلى ّ لبسطت لسانى فى هذا الموضع (وسئل جرير) عن نفسه وعن الفرزدق والاخطل فقال أمّا الفرزدق ففى يده نبعة من الشعر وهو قابض عليها وأمّا الاخطل فأشدّنا اجتراء وأرمانا للقرائص وأمّا أنا فمدينة الشعر وهذا القول فى التفضيل قول اقناعى ّ لا يحصل منه على تحقيق لكنه أقرب حالا مما روى عن أبى عمرو بن العلاء (وسئل الاخطل) عن أشعر الناس فقال الذى اذا مدح رفع واذا هجا وضع فقيل فى ذلك قال الاعشى قيل ثم من قال طرفة وهذا قول فيه بعض التحقيق اذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لانّ المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها (وسئل الشريف الرضى) عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب فقال أمّا أبو تمام فخطيب منبر وأمّا البحترى فواصف جؤذر وأمّا المتنبى فقاتل عسكر وهذا كلام حسن واقع فى موقعه فانه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل (ويروى عن بشار) أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره فقيل له ولم ذلك فقال لانى نظمت اثنى عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد فيكون لى حينئذ اثنا عشر ألف بيت وقد تاملت هذا القول فوجدته على بشار لا له لانّ باقلا الذى يضرب به المثل فى العى ّ لو نظم قصيدا لما خلا من بيت واحد جيد ومن الذى ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد لكن كان الاولى ببشار أن قال لى اثنا عشر ألف قصيدة ليس واحدة منهن الا وجيدها أكثر من رديئها وليس فى واحدة منهن ما يسقط فانه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء ومع هذا فقد وصل الى ّ ما فى أيدى الناس من شعره مقصدا ومقطعا فما وجدته تلك الغاية التى ادعاها لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة الى رديئه وتندر له الابيات اليسيرة (ونقل) عن الاصمعى ّ وأبى عبيد وغيرهما أنهم قالوا هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة وهم عندى معذورون لانهم ما وقفوا على معانى أبى تمام ولا على معانى أبى الطيب ولا وقفوا على ديباجة أبى عبادة البحترى وهذا الموضع لا يستفتى فيه علماء العربية وانما يستفتى فيه كاتب بليغ أو شاعر مفلق فانّ أهل

كل علم أعلم به وكما لا يسأل الفقيه عن مسئلة حسابية وكذلك لا يسأل الحاسب
عن مسئلة فقهية وكما لا يسأل أيضا النحوي عن مسئلة طبية فكذلك لا يسأل
الطبيب عن مسئلة نحوية ولا يعلم كل علم الا صاحبه الذي قلب ظهره لبطنه
وبطنه لظهره على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب الى الناس قاطبة
وما من أحد الا ويحب أن يتكلم فيه حتى انى رأيت أجلاف العامة ممن لم يخط
بيده ورأيت أغتام الاجناس ممن لا ينطق بالكلمة صحيحة كلهم يخوض في فن
الكتابة والشعر ويأتون فيه بكل مضحكة وهم يظنون أنهم عالمون به ولا لوم عليهم
فانه بلغني عن ابن الاعرابي وكان من مشاهير العلماء أنه عرض عليه أرجوزة أبي
تمام اللامية التي مطلعها * وعاذل عذلته في عذله * وقيل له هذه لفلان من شعراء
العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخسرواني ثم استكتبها
فلما أتمها قيل له هذه لابي تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقى
الورقة من يده وقال يا غلام خرق خرق فاذا كان ابن الاعرابي مع علمه وفضله
لا يدري أي طرفيه أطول في هذا الفن ولا يعلم أين يضع يده فيه ويبلغ به الجهل الى
أن يقف مع التقليد السمج الذي هذا غايته فالذي يقول غيره وما الذي يتكلم
فيه سواء (والمذهب عندي في تفضيل الشعراء) أن الفرزدق وجريرا والاخطل
أشعر العرب أولا وآخرا ومن وقف على الاشعار ووقف على دواوين هؤلاء
الثلاثة علم ما أشرت اليه ولا ينبغي أن يوقف مع شعر امرئ القيس وزهير
والنابغة والاعشى فان كلا من أولئك أجاد في معنى اختص به حتى قيل في
وصفهم امرؤ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والاعشى اذا
شرب وأما الفرزدق وجرير والاخطل فانهم أجادوا في كل ما أتوا به من المعاني
المختلفة وأشعر منهم عندي الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام وأبو عبادة البحتري
وأبو الطيب المتنبي فان هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء أما أبو
تمام وأبو الطيب فربا المعاني وأما أبو عبادة فرب الالفاظ في ديباجتها وسبكها
(ويحكى) أن أبا عبادة البحتري سأل ولده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما
أشعر فقال جرير أشعر قال وبم ذلك قال لان حوكه شبيه بحوكك قال ثكلتك أمك
أوفي الحكم عصبية قال يا أبت فمن أشعر قال الفرزدق قال وبم ذاك قال لان
أهاجي جرير كلها تدور على أربعة أشياء هي القين والزنا وضرب الرومي بالسيف

والبقي

والنفي من المسجد ولا يهجو الفرزدق سوى ذلك وأما الفرزدق فانه يهجو جريرا بأهجاء مختلفة وفي كل قصيدة يرميه بسهام غير السهام التي يرميه بها في القصيد الآخر وأنا أستكذب راوي هذه الحكاية ولا أصدقه فان البحتري عندي أليب من ذلك وهو عارف بأسرار الكلام خبير بأوساطه وأطرافه وجيده ورديئه وكيف يدعي على جرير أنه لم يهج الفرزدق الا بتلك المعاني الاربعة التي ذكرها وهو القائل

لما وضعت على الفرزدق ميسمي * وعلى البعيث جدعت أنف الاخطل

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد (ولقد تأملت كتاب النقائص) فوجدت جريرا ارب تغزل ومديح وهجاء وافتخار وقد كسا كل معنى من هذه المعاني ألفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله

وعاوعوى من غير شئ رميته * بقافية انفادها يقطر الدما

وانى لقوال لكل غريبة * ورود اذا الساري بليل ترنما

خروج بأفواه الرواة كأنها * شبا هندواني اذا هز صمما

غرائب آلاف اذا حان وردها * أخذن طريقا للقصائد معلما

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الابيات لتقدم بها الشعراء وسأذكر من هجائه الفرزدق ماليس فيه شئ من تلك المعاني الاربعة التي أشار البحتري اليها من ذلك قوله

وقد زعموا أن الفرزدق حية * وما قتل الحيات من أحد قبلي

ألم تر أني لا أنيل رميتي * فمن أرم لا تخطى مقاتله نبلي

رأيتك لا تحمي عقالا ولم ترد * قتالا فما لاقيت شر من القتل

وقوله أبلغ هديتي الفرزدق انها * عبء تزاد على حسير مثقل

اني انصببت من السماء عليكم * حتى اختطفتك يا فرزدق من عل

وقوله

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا * فابشر بطول سلامة يا مربع

ورأيت نبلك يا فرزدق قصرت * ورأيت قوسك ليس فيها منزع

ان الفرزدق قد تبين لؤمه * حيث التقت حششاؤه والاخدع

وقوله أحارث خذ من شئت منا ومنهم * ودعنا نقس مجدا تعد فضائله

لبست ملاحي والفرزدق لعمة * عليه وشاحا كرج وحلاحله
فلست بذي عز ولا ذي أرومة * وما أنعط من صيم فانك قائله

وقوله
لا يحسبن عليك ان مجاشعا * لو يسعون من الخؤورة طاروا
قد يؤسرون فلا يملك أسيرهم * ويقتلون فتسلم الآثار

وقوله
بني مالك ان الفرزدق لم يزل * يلقي المخازي من لدن أن يفعا
مددت له الغايات حتى تركته * قعود القوافي ذا علوب موقعا

وقوله
الا انما كان الفرزدق ثعلبا * ضغا وهي في أشداق ليث ضبارم

وقوله
مهلا فرزدق ان قومك فيهم * خور القلوب وخفة الاحلام
الظاعنون على العمى بجميعهم * والنازلون بشر دار مقام

وقوله
اذا سمرت يوما نساء مجاشع * بدت سوأة مما تجن البراقع
مناشيص من عب الهرير كأنما * تصوت في أعفاجهن الضفادع
رأت ملا لامثل الفرزدق قصرت * عن العلو لا يأبى عن العلو بارع
تعدل احسابا كراما حماتها * بأحسابكم اني الى الله راجع
اذا قيل أي الناس شر قبيلة * وأعظم عارا قيل تلك مجاشع

وقوله
علق الاخيطل في حبالي بعد ما * عثر الفرزدق لا لعا للعاثر
لقي الفرزدق ما لقيت وقبله * طاح التعيس بغير عرض وافر
واذا رجوا أن ينقضوا لي مرة * مرست قواي عليهم ومرائري

ولجرير مواضع كثيرة في هجاء الفرزدق غير هذه ولولا خوف الاطالة لاستقصيتها جميعها ولو سلمت الى البحترى ما زعم من أن جريرا ليس له في هجاء الفرزدق الا تلك المعاني الاربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقر لجرير بالفضيلة وذلك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذي اذا أخذ معنى واحدا تصرف فيه بوجوه التصرفات وأخرجه في ضروب الاساليب وكذلك فعل جرير فانه أبرز من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة وتصرف فيه تصرفا مختلف الانحاء فمن ذلك قوله

ألهى أباك عن المكارم والعلا * لي الكتائف وارتفاع المرجل

وقوله
وجد الكتيف ذخيرة في قبره * والكلبتين جعثن والمنشار
يبكي صداه اذا تصدع مرجل * أو أن تعلق برمة أعشار

قال الفرزدق رقعي أكيارنا * قالت وكيف ترقع الأكيار

وقوله اذا آباؤنا وأبوك عدوا * تأن المفرقات من العراب

فأورثك العلاة وأورثوني * رباط الخيل أفنية القباب

وسيف أبي الفرزدق فاعلموه * قدوم غير ثابتة النصاب

(فانظر) أيها الواقف على كتابي هذا الى هذه الاساليب التي تصرف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقين فقال أولا ان أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ثم قال ثانيا انه يبكي عليه ويندبه بعد الموت المرجل والبرمة الاعشار التي يصلحها ثم قال ثالثا ان أباك أورثك آلة القيون وأورثني أبي رباط الخيل وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الاساليب التي ذكرتها ولا حاجة الى التطويل بذلك ههنا وهذا القدر فيه كفاية وحيث انتهى بنا القول الى ههنا فلنرجع الى النوع الذي نحن بصدد ذكره وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد فما جاء منه قول النابغة

اذا ما غزا بالجيش حلق فوقه * عصائب طير تهتدي بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله * اذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا وأوردوه بضروب من العبارات فقال أبو نواس

تتمنى الطير غزوته * ثقة باللحم من جزره

وقال أبو مسلم بن الوليد

قد عود الطير عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال أبو تمام

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها * من الجيش الا أنها لم تقاتل

(وقد ذكر) في هذا المعنى غير هؤلاء الا أنهم جاؤا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه الا من جهة حسن السبك أو من جهة الايجاز في اللفظ ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها الا مسلم ابن الوليد فقال

أشربت أرواح العدا وقلوبها * خوفا فأنفسها اليك تطير

لو حاكمتك فطالبتك بذحلها * شهدت عليك ثعالب ونسور

(وهذا) من المليح البديع الذى وصل به مسلم غيره فى هذا المعنى * وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى فانه لما انتهى الامر اليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدمه الا انه خرج فيها الى غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الاحسان بجملته وصار كانه مبتدع لهذا المعنى دون غيره (فما جاء منه) قوله

تفدّى أتم الطير عمرا سلاحه * نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرّها خلق بغير مخالب * وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال

سحاب من العقبان ترحف تحتها * سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفى الاعراب والاعجاب وقال فى موضع آخر

وذى لجب لاذو الجناح أمامه * بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة * تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة * تدوّر فوق البيض مثل الدراهم

(وهذا) من اعجاز أبى الطيب المشهور ولو لم يكن له من الاحسان فى شعره الا هذه الابيات لاستحق بها فضيلة التقدم (ومما ينتظم بهذا النوع) ماتواردعليه أبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى فى وصف الاسد وقصيدتاهما مشهورتان فأول احداهما * أجدك ما ينفك يسرى لزينبا * وأول الاخرى

فى الخدان عزم الخليط رحيلا * أما البحترى فانه ألمّ بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها

أفاطم لوشهدت ببطن خبت * وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

وهذه الابيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثلها وكل الشعراء لم تسم وراءهم الى استخراج معنى ليس مذكور فيها ولولا خوف الاطالة لاوردتها بجملتها لكن الغرض انما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار اليه فما جاء للبحترى من قصيدته

وما تنقم الحساد الا اصالة * لديك وعزما أريحيا مهذبا
وقد جربوا بالامس منك عزيمة * فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر * يحدد نابا للقاء ومخلبا
اذا شاء غادى عانة أو غدا على * عقائل سرب أو تقنص ربربا

شهدت لقد أنصفته حين تنبرى * له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما * عراكا اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغى هزبرا وأغلب * من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة * رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا * وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا * ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى * ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

ومما جاء لابى الطيب المتنبى فى قصيدته

أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادخرت الصارم المصقولا
وردا اذا ورد البحيرة شاربا * ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس * فى غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا * تحت الدجى نار الفريق حلولا
فى وحدة الرهبان الا أنه * لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه * فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته الى يافوخه * حتى تصير لرأسه اكليلا
قصرت مخافته الخطا فكأنما * ركب الكمى جواده مشكولا
ألقى فريسته وبربر دونها * وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه الخلقان فى اقدامه * وتخالفا فى بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما * متنا أزل وساعدا مفتولا
ما زال يجمع نفسه فى زوره * حتى حسبت العرض منه الطولا
وكأنما غرته عين فادنى * لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك * فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف * من حتفه من خاف مما قيلا
خذلته قوته وقد كافحته * فاستنصر التسليم والتجديلا
سمع ابن عمته به وبحاله * فنجا يهرول أمس منك مهولا
وأمر مما فر منه فراره * وكقتله أن لا يموت قتيلا
تلف الذى اتخذ الجراءة خلة * وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

قوله أمعفر الليث الخ ترك فى خلال الابيات المذكورة أبياتا أخر كثيرة اه

(وسأحكم) بين هاتين القصيدتين والذى يشهد به الحق وتنقيه المعدلة أذكره وهو ان معانى أبى الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالاسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشئ سوى ذلك وأما أبو الطيب فانه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادخرت الصارم المصقولا ثم انه تفنن فى ذكر الاسد فوصف صورته وهيئته ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ووصف خلق بدر مع شجاعته وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ثم انه عطف بعد ذلك على ذكر الانفة والحمية التى بعثت الاسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى واذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف بديهة النظر ما أشرت اليه والبحترى وان كان أفضل من المتنبى فى صوغ الالفاظ وطلاوة السبك فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ومما يدلك على ذلك أنه لم يعترض لما ذكره فى أبياته الرائية اعلاما أن شعرا قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيأ يقوله فيها وابطاله أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الاسهاب على ذيل شعر لانه قصر عنه تقصيرا كثيرا ولما كان الامر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزا (واعلم) أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتواردا شأن مهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى ههنا على وصف الاسد وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر وفى بيتين ويصوغه الآخر فى مثل ذلك فان بعد المدى يظهر ما فى السوابق من الجواهر وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر فاذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر الى قصيدتيهما فى مراثى النساء التى مفتتح احدهما يا أخت خير أخ يا بنت خير أب * كناية بهما عن أكرم العرب وهى لأبى الطيب ومفتتح الاخرى.

غروب دمع من الاجفان يهمل * وحرقة لغليل الحزن تشتعل

وهى للبحترى فان أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به فى معانى قصيدته والبحترى أتى بما أكثره غث بارد والمتوسط منه لافرق بينه بين رثاء امرأة أو رجل (ومن

(الواجب) أنه اذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا في غرض من الاغراض أن لا يخرج عنه كالذي سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة فان من حذاقة الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك الا أبو الطيب وحده وأما غيره من مفلقي الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا عنه وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها

نعد المشرفية والعوالي * وتقتلنا المنون بلا قتال

وكفى بهما شاهدا على ما ذكرته من انفراده بالابداع فيما أتى به والفتيا عندي بينه وبين البحتري أن أبا الطيب أغوص في المعنى وأعرف باستخراج المعنى الدقيق وأما البحتري فانه أعرف بصوغ الالفاظ وحوك ديباجتها وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه لانهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما ويظهر ان ظهورا يعلم ببديهة النظر ويتسارع اليه فهم من ليس بثاقب الفهم وأما اختلافهما في المعنى فانه يحتاج في الحكم بينهما فيه الى كلام طويل يعرفه منه ولا يتفطن له الا بعض الناس دون بعض بل لا يتفطن له الا الفذ الواحد من الناس ولي في هذا مقالة مفردة صنفتها الحكم بين المعنيين المختلفين وتكلمت عليه كلاما طويلا عريضا وأقمت الدليل على ما نصصت عليه وما منعني من ايرادها في كتابي هذا الا أنها سبقت لي بعد تصنيفه وشياعه في أيدي الناس وتناقل النسخ به وعلى هذا الاسلوب توارد البحتري والشريف الرضي على ذكر الذئب في قصيدة للبحتري دالية أولها * سلام عليكم لا وفاء ولا عهد * ومقطوعة للشريف الرضي أولها

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى * أتيح له بالليل عاري الاشاجع

وقد أجاد البحتري في وصف حاله مع الذئب والشريف أجاد في وصف الذئب نفسه (وأما المسخ) فهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة والقسمة تقتضي أن يقرن اليه ضده وهو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة (فالاول) كقول أبي تمام

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل * ولكن يرى أن العيوب مقاتل

وقول أبي الطيب المتنبي

يرى أن ما ما بان منك لضارب * بأقتل مما بان منك لعائب

فهو وان لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا وأعطى الورد جعلا وهذا من أرذل السرقات وعلى نحو منه بناء قول عبد السلام بن رغبان

نحن نعزيك ومنك الهدى * مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذى * نأوى اليه وبه نعقل
اذا عفا عنك وأودى بنا الدهر فذاك المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب اعلاه أسفله فقال

ان يكن صبر ذى الرزية فضلا * تكن الافضل الاعز الاجلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الاحباب فوق الذى يعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فاذا عزاك قال الذى له قلت قبلا

والبيت الاخير من هذه الابيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ (وأما قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة فهذا لا يسمى سرقة بل يسمى اصلاحا وتهذيبا (فمن ذلك) قول أبى الطيب المتنبى

لو كان ما تعطيهم من قبل أن * تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

وقول ابن نباتة السعدى

لم يبق جودك لى شيأ أؤمله * تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها

جن على جن وان كانوا بشر * كأنما خيطوا عليها بالابر

ثم جاء المتنبى فقال

فكأنها نتجت قياما تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والارض فانه يقال ليس للارض الى السماء نسبة محسوسة وكذلك يقال ههنا أيضا فان ذلك قدرما فى قول أبى نواس من النزول والضعف وكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة وزعم بعض الجهال أن قول الشماخ

اذا بلغتنى وحملت رحلى * عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقول أبى نواس

وادا المطى بنا بلغن محمدا * فظهورهن على الرجال حرام

من هذا القبيل الذى هو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة وليس كذلك
فان قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى
عبارتين احداهما قبيحة والاخرى حسنة فالحسن والقبح انما يرجع الى التعبير
لا الى المعنى نفسه وقول أبى نواس هو عكس قول الشماخ وقد تقدم مثل ذلك فيما
مضى من ضروب السرقات ألا ترى الى قول أبى الطيب المتنبى وقول الشريف
الرضى فقال أبو الطيب

انى على شغفى بما فى خمرها * لأعف عما فى سراويلاتها

وقول الشريف الرضى

أحن الى ما تضمن الخمر والحلى * وأصدف عما فى ضمان المآزر

فالمعنى واحد والعبارة مختلفة فى الحسن والقبح وهذه السرقات وهى ستة عشر
نوعا لا يكاد يخرج عنها شئ واذا أنصف الناظر فى الذى أتيت به فيها علم انى قد
ذكرت ما لم يذكره غيرى وأنا أسأل الله التوفيق لان أكون لفضله شكورا وأن
لا أكون مختالا فخورا (واذا فرغت من تصنيف هذا الكتاب) وحررت القول
فى تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما
فينبغى أن أختمه بذكر فضيلتهما فأقول (اعلم) أن هذا الفن هو أشرف الفضائل
وأعلاها درجة ولولا ذلك لما فخر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة مواقف
فقال تارة أنا أفصح من نطق بالضاد وقال تارة أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى
كان كل نبى يبعث فى قومه وبعثت الى كل أحمر وأسود وأحلت لى الغنائم وجعلت
لى الارض طيبة وطهورا ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأوتيت جوامع
الكلم وما سمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشئ من العلوم سوى علم
الفصاحة والبلاغة فلم يقل انه أفقه الناس ولا أعلم الناس بالحساب ولا بالطب
ولا بغير ذلك كما قال أنا أفصح من نطق بالضاد وأيضا فلو لم تكن هذه الفضيلة من
أعلى الفضائل درجة لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها فان كتاب الله تعالى نزل
عليها ولم ينزل بشئ من مسائل الفقه ولا من مسائل الحساب ولا من مسائل
الطب ولا غير ذلك من العلوم ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت
فى الدرجة العالية والمشهور منها أنها نزلت من المنظوم لاسباب من جملتها أن الاعجاز

لم يتصل بالمنظوم وإنما اتصل بالمنثور الآخر أن أسباب النظم أكثر ولهذا نجد
المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الكتاب بل لا نسبة لهؤلاء إلى هؤلاء ولو شئت
أن تحصي أرباب الكتابة من أول الدولة الإسلامية إلى الآن لما وجدت منهم
من يستحق اسم الكاتب عشرة وإذا أحصيت الشعراء في تلك المدة وجدتهم
عددا كثيرا حتى لقد كان يجتمع منهم في العصر الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر
مفلق وهذا لا تجده في الكتاب بل ربما ندر الفرد الواحد في الزمن الطويل وليس
ذلك إلا لوعورة المسلك من الأمر وبعد مناله والكاتب هو أحد دعامتي الدولة
فإن كل دولة لا تقوم إلا على دعامتين من السيف والقلم وربما لا يفتقر الملك في
ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام وكثيرا
ما يستغني به عن السيف وإذا سئل عن الملوك الذين غبرت أيامهم لا يوجد منهم من
حسن اسمه من بعده إلا من حظي بكاتب خطب عنه وفخم أمر دولته وجعل
ذكرها خالدا يتداولها الناس رغبة في فضل خطابه واستحسانا للبلاغة كلامه فيكون
خلود ذكرها في خطابه ما دونه قلمه ورقمته أساطيره وليس الكاتب بكاتب حتى
يضطر عدو الدولة أن يروي أخبارا رماه بها في حفله ويصبح وإنه حامد لمعايبها
ونقله ما به من غله ولقد أحسن أبو تمام في هذا المعنى حيث قال

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه * وإن كان طوعا لي ولست بجاهد
فإن أنا لم يحمدك عني صاغرا * عدوك فاعلم أنني غير حامد

وهذا الذي ذكرته حق وصدق لا ينكره إلا جاهل به وأنا أسأل الله الزيادة من فضله
وإن لم أكن أهلا له فإنه هو من أهله (ووقفت على كلام لأبي إسحق الصابي)
في الفرق بين الكتابة والشعر وهو جواب لسائل سأله فقال إن طريق الإحسان
في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه لأن الترسل هو
ما وضح معناه وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض
فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه ثم قال بعد ذلك وللسائل أن يسأل فيقول من
أية جهة صار الإحسان في معنى الشعر الغموض وفي معاني الترسل الوضوح
فالجواب أن الشعر بني على حدود مقررة وأوزان مقدرة وفصلت أبياته فكان كل
بيت منها قائما بذاته وغير محتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب
فلما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما

قليل

قليل احتيج الى أن يكون الفصل فى المعنى فاعتقد أن يلطف ويدق والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريق اذ كان كلاما واحدا لا يتجزى ولا ينفصل الا فصولا طوالا وهو موضوع وضع ما يهذ هذا ويمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية وذوى أفهام ذكية وأفهام غبية فاذا كان متسلسلا ساغ فيها وقرب فجميع ما يستحب فى الاول يكره فى الثانى حتى ان التضمين عيب فى الشعر وهو فضيلة فى الترسل ثم قال بعد ذلك والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء انما أغراضهم التى يرمون اليها وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء وأما المترسلون فانما يترسلون فى أمر سداد ثغر واصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لملة أو دعاء الى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكل ذلك هذا ما انتهى اليه كلام أبى اسحق فى الفرق بين الترسل والشعر ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة البيان كيف يصدر عنه مثل هذا القول الساقط من الصواب الذى هو فى باب ونص المطرفى باب اللهم غفرا وسأذكر ما عندى فى ذلك لا ارادة للطعن عليه بل تحقيقا لمحل النزاع فأقول أما قوله ان الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه فان هذه دعوى لا مستند لها بل الاحسن فى الامرين معا انما هو الوضوح والبيان على ان اطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لا يدل على الغرض الصحيح بل صواب القول فى هذا أن يقال كل كلام من منثور ومنظوم فينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة لانها ان لم تكن مفهومة ولا تكون فصيحة لكن اذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال فى فهم معانيها فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة ومنه ما لا يفهمه الا الخاصة وتتفاوت درجات فهمه ويكفى من ذلك كتاب الله تعالى فانه أفصح الكلام وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم الى معانيه ومنه ما يغمض ويعز فهمه والالفاظ المفردة ينبغى أن تكون مفهومة سواء كان الكلام نظما أو نثرا واذا تركبت فلا يلزم فيها ذلك وقد تقدم فى كتابى هذا أدلة كثيرة على هذا فتؤخذ من مواضعها وأما الجواب الذى أجاب به فى الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك بجواب وهو أن الشعر كان كل بيت منه قائما بنفسه

كان مع ذلك غامضا وهب أن الكلام المنثور كان واحدا لا يتحرى فلم كان مع ذلك واضحا ثم لو سلمت اليه هذا فماذا يقول فى الكلام المسجوع الذى كل فقرة منه بمنزلة بيت من شعر وأما قوله فى الفرق بين الشاعر والكاتب ان الشاعر من شأنه وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء وأن الكاتب من شأنه الافاضة فى سداد ثغر أو اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لملة أو دعاء الى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية فان هذا تحكم محض لا يستند الى شبهة فضلا عن بينة وأى فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام فكما يصف الشاعر الديار والآثار ويحن الى الاهواء والاوطار فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق الى الاوطان ومنازل الاحباب والاخوان ويحن الى الاهواء والاوطار ولهذا كانت الكتب الاخوانيات بمنزلة الغزل والنسيب من الشعر وكما يكتب الكاتب فى اصلاح فساد أو سداد ثغر أو دعاء الى الفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة أو تعزية فكذلك الشاعر فان شذ عن الصابى قصائد الشعراء فى أمثال هذه المعانى فكيف خفى عنه قصيدة أبى تمام فى استعطاف مالك بن طوق على قومه التى مطلعها * لو أن دهرا رد رجع جواب * أم كيف أخل بالنظر فى ديوان أبى الطيب المتنبى وهما فى زمن واحد فتأمل قصيدته فى الاصلاح بين كافور الاخشيدى وبين مولاه الذى مطلعها * حسم الصلح ما اشتهته الاعادى وكذلك لاشك أنه لم يقف على قصيدة أبى عبادة البحترى فى عرو البحر التى مطلعها ألم تر تغليس الربيع المبكر * ولو أخذت فى تعداد قصائد الشعراء فى الاغراض التى أشار اليها وخص بها الكاتب لاطلت وذكرت الكثير الذى يحتاج الى أوراق كثيرة وكل هذه الفروق التى نص عليها وعددها فليست بشئ ولا فرق بين الكتابة والشعر فيها (والذى عندى فى الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه الاول) من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر وهذا فرق ظاهر (الثانى) أن من الالفاظ ما يعاب استعماله نثرا ولا يعاب نظما وذلك شئ استخرجته ونبهت عليه فى القسم الاول الخاص باللفظة المفردة فى المقالة الاولى من هذا الكتاب وسأعيد هنا منه شيأ فأقول قد ورد فى شعر أبى تمام قوله

هى العرمس الوجناء وابن ملمة * وجأش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك ورد فى شعر أبى الطيب المتنبى كقوله

ومهمه جبته على قدمى * تعجز عنه العرامس الذلل

فلفظة المهمه والعرامس لا يعاب استعمالهما فى الشعر ولو استعملا فى كتاب أو خطبة كان استعمالهما معيبا وكذلك ما يشاكلهما ويناسبهما من الالفاظ وكل ذلك قد ضبطته بضوابط وحددته بحدود تفصله من غيره من الالفاظ فليؤخذ من المقالة الاولى ولولا خوف التكرار لاعدته ههنا (الثالث) أن الشاعر اذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج الى الاطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فانه لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير منه بل يجيد فى جزء قليل والكثير من ذلك رديء غير مرضى والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل فى الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة وهو مجيد فى ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لاننا رأيناه وسمعناه وقلناه (وعلى هذا) فانى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله الى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر اللهم صل على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

*(قال مصحح دار الطباعه * حلى الله بالكمال طباعه)*

لله المثل الاعلى ولنبيه من التحية الاغلى وآله الذين انتهى اليهم الكمال وصحابته الذين بلغوا غاية الجلال وبعد فقد تم طبع هذا الكتاب الباهر الذى هو فى حسنه المثل السائر محلى بحلية البيان والمعانى منشدا بجواهر التركيب والمبانى

اذا امتحنت محاسنه أتتنه * غرائب جمة من كل باب

بالمطبعة العامرة التى ببولاق مصر القاهرة ذات الشهرة العالية والمناقب الزاهية البالغة كمال الشرف بنسبتها للدائرة السنية لازالت محاسنها منسـ

في ظل صاحب السعادة الاكرم الخديو الاعظم حامي حمى الامصار مفيض العدل في الاقطار محيي رفات المكارم ناشر لواء العلوم فوق المعالم عزيز مصر ووحيد العصر سعادة أفندينا المحروس بعناية ربه العلي اسمعيل بن ابراهيم ابن محمد علي حفظ الله سبحانه دولته كما حفظ رعيته وأدام مجده وخلد جده وحرس أشباله الكرام وجعلهم غرة في جبين الايام ملحوظة دار الطباعة المذكورة بنظر ناظرها المشمر عن ساعد الجد والاجتهاد في تدبير ادارتها من لا تزال عليه اخلاقه باللطف تثني حضرة حسين بك حسني والملتزم لهذا الطبع الظريف والوضع اللطيف من بطبعه أحيا الدارس من كتب الأوائل وكساها حلل اتقان مالها مماثل فصارت سهلة التكثير حتى وصلت الى ايدي الغني والفقير المتحلي بالعلوم والمعارف حضرة محمد باشا عارف أفاض الله عليه سجال الهبات ومنحه غيوث الاماني ثمرات التصحيح بعد التنقيح كان بمعرفة الفقير الى الله سبحانه محمد الصباغ أسبغت عليه النعم أتم اسباغ فجاء بحمد الله على أتم نظام يفوق حسنه بدور التمام وادلع بدره الكمال أنشأ مؤرخا له لسان الحال

راق المراب ورقت نغمة الاسل * وطاب أنسي وعن لاحي لم أسل
ونت أجفن طلا بدر يميس به * غصن على كثب يهتز عن كسل
في روضة رقصت فيها الغصون وقد * غنى الهزار وطابت نشوة الثمل
غناء قد وردت فيها الظماء على * نهر اللجين وضاعت معدن العسل
ورصعت من عقيق حائما وحت * بالنرجس الورد عن جان من الحول
ان شمتها همت من عقد على رقة * من سحرها أو جيد صيغ من حصل
كأنما شاهدت عيناي أسطر دي * كمرد حاز من صائب الحل
سفر به رائد السحر الحلال على * لب المشوق أتى بالمنتخب والحصل
حوى من القول ما ساغت مناهله * وحل معنى وعن عيب الملال حلى
وحاز من رقة الطبع البهي سنا * منه ترى أنجم الزهراء في خجل
وادتاهي جميل الطبع أرخ لي * بدر الكمال زها في دارة المثل

٤٠ ٦ ٢ ١٢٢ ١٣ ٩ ٢١٠ ٦٠١

سنة ١٢٨٢